نقولا زيادة

الأعمال الكاملة

دمشق في عصر المماليك
عواصم عربية

نقولا زيادة
دمشق في عصر المماليك عواصم عربية

دمشق

في عصر المماليك

نقولا زيادة

الأعمال الكاملة

دمشق

في عصر المماليك

الأهلية للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

© رائد وباسم زيادة
إصدار: **الأهلية للنشر والتوزيع**
بيروت ٢٠٠٢
بيروت، لبنان ـ الحمراء ـ بناية الدورادو
ص. ب.: ٥٤٣٣ ١١٣ ـ هاتف: ٣٥٤١٥٧

المحتويات

تمهيد ٩
مقدمة ١١
١ ـ المماليك ١٥
٢ ـ دمشق صلاح الدين وابن جبير ٣٧
٣ ـ الرحالون الأوروبيون في دمشق ٤٥
٤ ـ دمشق وضواحيها ٥٤
٥ ـ السكان ومشكلاتهم ٦١
٦ ـ إدارة المدينة ٧٠
٧ ـ الحياة الفكرية ٧٩
المصادر ١٠١

تمهيد

عرفت دمشق، في العهد المملوكي، احداثاً هامة ومرت بتجارب كثيرة. والكتاب الذي نقدمه إلى القارىء اليوم إنما هو عرض لذلك كله.

ومن حسن حظ الذين يتصدون للكتابة عن دمشق في ايام المماليك أن ما كتب عنها كثير. فقد عني بها المؤرخون، وزارها رحالة كثر، ودوّن عدد كبير منهم انطباعاتهم ومشاهداتهم، سواء في ذلك العرب أو الأوروبيون.

والكتاب الذي بين ايدينا وضع اصلاً بالانكليزية ونشرته مطبعة جامعة اوكلاهوما (بالولايات المتحدة) في «سلسلة مراكز الحضارة». فلما ارتأينا ان ينقل إلى العربية فضلنا أن نتوسع بعض الشيء في المختارات المنتقاة من المصادر العربية ـ كابن كثير وابن تغري بردي وابن جبير وابن بطوطة وغيرهم ـ كي نضع بين ايدي القارىء العربي نماذج أوفى خاصة وان الكثير منها فيه من جمال الاسلوب ودقة الوصف ورقة العبارة ما يشرح الصدر ويملأ النفس حبوراً. وهذا هو الفرق الوحيد بين الطبعة الانكليزية والطبعة العربية من هذا الكتاب.

ربيع ١٩٦٦

مقدمة

تضافر الموقع الجغرافي والتاريخ والاسطورة فجعلت من دمشق مدينة عظيمة، ذلك انها تقع على طرف السهل، ويقع إلى شمالها وغربها جبل منيع يعصمها، وتنحدر نحوها من الغرب المياه الآتية من الينابيع الغزيرة. ومن ثم فما اكثر ما طمع فيها الناس. فقد جذب هذا المكان الانسان إليه لأنه يسر له أرضاً للاستثمار، وماء غزيراً للري والاغتسال وجبلاً يحميه إذا دهمه الخطر. ونمت المجتمعات وتوطدت العلاقات بينها، فأصبحت دمشق نقطة يلتقي عندها الجيران. فالشعوب التي كانت تقطن شمالي دمشق أو شرقها أو جنوبها وجدت نفسها منذ فجر التاريخ، تسير على هذه الدروب المؤدية إلى دمشق لتبيع منتوجها ولتبتاع حاجاتها. وقد تنوعت الحاجات وازدادت بتطور الحضارة وبسبب توسع الرقعة التي كانت دمشق تمونها، ومع ذلك ظلت دمشق تزود الراغبين بما يريدون. فالغوطة كانت تنتج انواعاً مختلفة من الخضار والفواكه، والمناطق التي تبعد قليلاً كانت تنتج الحبوب، وكانت الجلود والعظام والقطن فيما بعد، تصلها من اماكن قريبة نسبياً. ولما توسعت العلاقات التجارية صارت بضائع الشرق والغرب ومتاجرهما يتبادلها التجار في اسواق دمشق.

كان ثمة طريق يصل دمشق بحلب ومن ثم بالعراق وآسيا الصغرى، وآخر يربطها بتدمر وبعدها ببغداد وبلاد الشرق النائية، وثالث يتبعه المسافرون إلى درعا جنوباً ومنها يواصلون سيرهم إلى الحجاز، ورابع كان يمر ببحيرة طبرية إلى فلسطين ثم مصر، وأخيراً الطريق الذي كان يصل دمشق ببيروت وصيدا على الشاطىء اللبناني ــ منفذيها إلى العالم الغربي.

إذا اقتربت دمشق من الشرق أو الشمال أو الجنوب، سواء أكان سفرك على فرس أو بالقطار أو بالسيارة أو بالطائرة فانك تلاحظ، إذ تراها وترى غوطتها، الانتقال المدهش من الأرض الجافة إلى الأرض المروية، ومن الصحراء إلى المُزدرع، ومن أرض البدو الرحل إلى بلاد المجتمعات المستقرة المطمئنة. وأنا أحسّ بالسرور الذي تبعثه دمشق في نفسي اكثر ما أحسّ، حين اقصدها آتياً بالسيارة من الأردن أو تدمر، أو بالطائرة من بغداد أو الكويت، وخاصة في فصل الجفاف. عبثاً تحاول العين أن تتقرى بقعة من العشب أو شجرة أو شجيرة أو نبتة: فإذا وصلت إلى دمشق رأيت بساطاً سندسياً من البساتين ممتداً أمامك.

تدّعي دمشق أنها اقدم مدينة في العالم. وقد تمكنت اريحا من اثبات حقها في هذه الدعوى، على أن هذه واحة صغيرة إذا قورنت بدمشق، ونحن نتكلم عن المدن. هذا التاريخ الطويل المعرق في القدم لا يمكن عرضه الآن، ولكن لا يمكن اهماله اهمالاً تاماً أيضاً.

لفت هذا الموقع الخطير نظر الآراميين إليه فاستقروا هناك في الألف الثالث ق.م. وإذ اصبح هؤلاء سادة التجارة الشرقية نمت دمشق بذلك، واصبحت تقارن بصور وصيدا، سوقي ابناء عمومتهم الفينيقيين. كان قلب المدينة الآرامية هو التل الذي يتوسط دمشق القديمة حيث كان يقوم الهيكل والقصر، تحيط بهما الأسواق واماكن السكن. وقد بلغت دمشق درجة من القوة يسرت لها ان تترأس حلفاً من امراء سوريا وفلسطين استطاع ان يقاوم الهجمات الاشورية بين القرنين الحادي عشر والثامن ق.م. لكن الاشوريين تمكنوا اخيراً من الانقضاض على اعدائهم كالوحوش الكاسرة، فوقعوا جميعاً فريسة لهم. ومع ان دمشق لم تفقد اهميتها باعتبارها نقطة لالتقاء الطرق التجارية، فان مكانتها لم تعد كونها عاصمة لولاية، وهي المكانة التي ظلت لها في ايام الاشوريين والكلدانيين والفرس والاغارقة والرومان والبزنطيين. وقد عرف الرومان لدمشق اهميتها اكثر من الأمم التي خلفتهم، فوسعوا رقعتها، وجعلوها جزءاً من خط الدفاع الشرقي. وكان شكل المدينة، وهو الشكل الذي حافظت عليه مدة طويلة من الزمن، مستطيلاً.

كان فتح العرب لدمشق سنة ١٥ هـ ــ ٦٣٦ بدءاً لعهد جديد في تاريخ المدينة، إذ أن الأمر لم يقتصر على تبديل في ثقافة السكان ودينهم ولغتهم، بل ان المدينة كانت بين سنتي ٤١ ــ ٦٦١ و١٣٢ ــ ٧٥٠ عاصمة الامبراطورية الأموية التي امتدت من نهر السند الى البرانيس. وقد أقام الأمويون الابنية الكثيرة فيها، كما يشهد بذلك القصر الأخضر الذي شاده معاوية مؤسس الدولة. ولكن الأثر المعماري الذي يقوم شاهداً على ما حققه الأمويون في البناء هو الجامع الأموي الكبير، الذي تمركزت حوله حياة دمشق.

لم يكن التغير الذي اصاب البلاد من حيث الدين تاماً. فقد ظل ثمة مسيحيون يعيشون هناك محافظين على شعائرهم الدينية. ومع ان انطاكية كانت اولاً قاعدة الرئاسة الدينية، فان دمشق انتزعت ذلك منها فانتقل إليها البطاركة مثل بطاركة الكنيسة الارثوذكسية. وقد كان للمسيحيين في العصور المتوسطة، كما كان لليهود، احياؤهم الخاصة في المدينة.

كان القضاء على الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ ــ ٧٥٠، ايذاناً بتقلص دور دمشق في الحياة السياسية العامة، واقتصارها على دور ثانوي. الا ان ما في المدينة من الصلابة وما عرف عنها من الحيوية، مكنا لها، في هذه الفترة، حياة

مستمرة محترمة وان لم يتح لها ان تتسنم مكان الرياسة. ثم تلا ذلك عهود آل زنكي والايوبيين والمماليك ــ وسنتحدث عنها فيما بعد.

ما اسهل ان يكتب تاريخ مدينة! لكن الأمر يختلف مع الاسطورة. فالاخبار الاسطورية يتداخل بعضها في البعض الآخر تداخلاً بعيداً عن المنطق، بحيث لا يمكن تحريرها. ولكن أهو من الضروري ان تحلل الاسطورة وتفكك اجزاؤها؟ الا تفقد كل ما فيها من سحر إذا هي تعرضت للتحليل والتشريح؟

لقد اجتذبت دمشق الاسطورة فاستقرت فيها ناعمة البال، وحملت إليها اسماء كثيرة بعضها جاء من عالم القداسة، والآخر من عالم الوثنية. كان آدم وحواء يقيمان في الجنة حيث الحياة هينة ناعمة هانئة. ولكنهما بسبب عصيانهما أمر الله طردا من الفردوس وحرم عليهما دخوله. هذه القصة اعجب بها العرب (وهم الذين لم يكونوا يعرفون سوى الأراضي القفراء على الغالب) اعجاباً كبيراً، ولم يجدوا سوى دمشق مكاناً يصلح لهذه القصة، ومن ثم فقد صارت هذه البلدة موطن آدم الأول. ومن حق القارىء ان يذكر ان دمشق لم تكن المكان الوحيد الذي منح هذا الشرف، الا ان ما يعنينا هنا هو صلة الموضوع بدمشق.

كانت الغيرة تملأ قلوب ذرية ابي البشر على نحو ما تعمل في نفوسنا اليوم. وكان احد ابنيه راعياً بينما انصرف الآخر إلى الزراعة. وتقول الاسطورة ان الاخوين قدما القربان لله، فقبل ثمار الأرض التي قدمها هابيل، لكنه لم يمسّ قربان قابيل الراعي. فامتلأ قلب قابيل حقداً، فقتل اخاه. وكانت الغيرة هي الباعث على القتل ــ فقد امتلأ قلب الراعي المحتاج الفقير غيرة من أخيه الثري. كانت الاسطورة بحاجة إلى مكان يمكن ان يعيش فيه الراعي والفلاح متقاربين، على ان يختلف نتاج الواحد عن نتاج الآخر اختلافاً بيناً بحيث يثير الغيرة. وكانت دمشق المكان المناسب. فالغوطة يوحي منظرها بالخصب والثراء، بينما تمتد إلى الشمال والشرق والجنوب منها مراعٍ فقيرة نسبياً. وكان ثمة مكان مرتفع حيث يمكن أن تقدم القرابين، وحيث تهبط النار المقدسة من السماء لتحرق من القربان ما تقبله القوى العلوية. ومن ثم فقد اصبحت دمشق بيت كل من قابيل وهابيل.

صعق جبل قاسيون، وهو الجبل الذي تقتعد دمشق سفحه، بسبب قتل الأخ اخاه، وندت عنه صرخة انطلقت من غار لا يزال قائماً هناك. وكان دم هابيل البريء لا يزال ظاهراً للعيان في القرن السادس (الثاني عشر)، على الصخرة حيث اراق أخوه دمه. ومن ثمة فقد كان هناك شاهدان يذكّران الناس دوماً بقسوة الفعلة الشنعاء. وامتلأت نفس آدم بالألم حزناً على ابنه، وإذ لم يكن ثمة اناس يقومون بتعزيته، فقد هبط الملائكة، وعلى رأسهم جبريل، للقيام بدور المعزين. وكان الموضع الذي تلقى فيه آدم التعزية هو كهف جبريل.

كان تارح، ابو إبراهيم، يصنع التماثيل للعبادة، ولكن ابنه إبراهيم، الذي كان قد عرف الحق، كان لا يقبل بذلك، فحطم التماثيل التي كان أبوه يصنعها. ويبدو انه خطر للبعض في وقت ما ان يقيم أهل البر وأهل الجهل في الرقعة المذكورة فكان تارح يمثل هؤلاء، بينما كان إبراهيم يمثل اولئك. وجيء بهما إلى دمشق التي اصبحت مسكنهما، وقر قرارهما في بيت لهية.

وقد نقل السيد المسيح وأمه السيدة العذراء إلى دمشق ـــ إلى الربوة. فالقرآن الكريم يشير إليهما على انهما استقرا في ربوة ذات قرار معين. وكانت هذه التلة الجميلة في الضاحية الدمشقية، المكان الملائم الذي اختاره بعض المفسرين لذلك. إلا ان الاسطورة، التي ارادت توضيح الأمر تماماً، رأت ان تنقل موطن القديسة حنة، والدة السيدة العذراء، من الناصرة إلى النيرب على مقربة من دمشق. وكان من الطبيعي أن يذهب يسوع وأمه إلى هناك، إذ ان الأمر لم يكن اكثر من زيارة إلى بيت الأسرة.

ويذهب اكثر المؤرخين إلى ان النبي لم تطأ قدماه دمشق، لكن الاسطورة جعلت زيارته إلى تلك الجهات امراً واقعاً، الا انها كانت حذرة، فقد اوصلته «القدم» الشريف، جنوبي دمشق، حيث كان من الممكن ان يرى الناس آثار قدمه المباركة. وقد اراني بعضهم في صغري ما اصر على انه آثار قدم النبي.

تضخمت هذه الاساطير مع الزمن، وجاءت بعض الاحاديث المنحولة تؤيدها وتزيد مجد دمشق. ومع مر القرون تأصلت هذه الأحاديث والأساطير وتوثقت صلتها بدمشق وقبلها الناس. وعامة الناس يقبلونها كلها بقطع النظر عن ولائهم الديني أو الطائفي.

هذه هي دمشق التي نعتزم أن نروي قصتها في أيام المماليك. انها المدينة التي تركت اثرها في نفوس سكانها وزائريها إلى اليوم. لقد تطورت وتبدلت، وقد خبرت سادة ونفضت عنها سادة ـــ لكن ظل ثمة امران قائمان فيها: روح لا تغلب وسحر لا يبطل.

١ ـ المماليك

في سنة ٥٦٧ هـ/ ١١٧١ قضى صلاح الدين الأيوبي، وزير الخليفة الفاطمي، على الخلافة الفاطمية وانصرف إلى توطيد سلطانه في مصر. وقد كان حذراً في خطوه، لأنه لم يكن في صالحه ان ينفر منه سيده نور الدين في دمشق. الا ان وفاة هذا سنة ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ اتاحت لصلاح الدين فرصة العمل الحر. فزار سوريا في وقت لاحق من السنة نفسها، ثم انتصر في معركة في السنة التالية، وبذلك خضعت سوريا المسلمة لسلطانه. واخذ صلاح الدين يعد العدة لمقارعة الدول اللاتينية، ثم جاء انتصاره على الصليبيين في معركة حطين ٥٨٣ /١١٨٧ فتم له توسيع ممتلكاته. الا ان وفاته في دمشق سنة ٥٩٠/ ١١٩٣ ادت إلى توقف القتال ولو موقتاً.

انشأ صلاح الدين امبراطورية امتدت من الموصل إلى جنوب مصر واقام أسرة امتد حكمها إلى سنة ٦٤٨ هـ/١٢٥٠ (وقد استمرت في بعض انحاء سوريا إلى العقد السابع أو حتى بعد ذلك بقليل). الا ان خلفاءه وقعوا، في بعض الفترات، فريسة للحروب الأهلية والخصومات الاقطاعية، مما اضعف المملكة حتى اضطر الكامل ان يعقد سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م. معاهدة مع فردريك الثاني منحه بموجبها القدس وبيت لحم والناصرة.

انتهى الأمر بالدولة الصلاحية ان ورثها المماليك الذين حكموا مصر وفلسطين ولبنان وسوريا من ٦٤٨ هـ ١٢٥٠م. إلى سنة ٩٢٣ هـ ١٥١٧م، حين انتصر عليهم الأتراك العثمانيون واستولوا على المنطقة.

كان المماليك رقيقاً من اجناس متعددة حمله تجار الرقيق من اماكن متباعدة. وكان المالك لهم يدربهم على فنون الحرب لكي يقوموا على حراسته. وكان الحكم الذي اقاموه حكماً عسكرياً استمر نحو ثلاثة قرون، كانت السلطة فيه من نصيب الرجل المتصف بالاقدام والشجاعة والجرأة على ان يجمع إلى ذلك المقدرة على الدس والخديعة. وكان المماليك يعتبرون السلطان الحاكم على انه الأول بين الاقران، وكان عليه ان يشدد الرقابة على انصاره، إذ لم يكن في سلوك المماليك السياسي شيء اسهل عليهم من تبديل الولاء والتبعية.

لم يقتصر اقتناء الحرس الخاص على السلطان، بل ان كل أمير من المماليك كان له حرسه الخاص، أو جيشه الخاص من الرقيق، الذي كان ينفق هو عليه. ولما كان

للسلطان موارد مالية اكبر، كان اتباعه وانصاره اكبر عدداً. فإذا عجز عن ارضائهم كان نصيبه العزل أو النفي أو حتى القتل.

وكان الايوبيون، اتباعاً لما سار عليه العرف السياسي في الاسلام، قد ضمنوا لأنفسهم موافقة الخليفة العباسي في بغداد ودعواته الصالحات. وقد اتيح للسلطان المملوكي الأول ان يتمتع بهذا الامتياز، لكن القضاء على الخلافة العباسية على ايدي التتار سنة ٦٥٦/ ١٢٥٨ جرد المماليك من هذا الشرف. وكان بيبرس (٦٥٨ /١٢٦٠ ــ ٦٧٥/ ١٢٧٦) يشعر بالحاجة إلى خليفة، فجاء بعباسي ممن نجوا من القتل في بغداد، وبايعه خليفة في سنة ٦٥٨ /١٢٦٠. وعندها فوض الخليفة، بوصفه أمير المؤمنين، إلى السلطان القيام بمهام الدولة وأمورها، بحيث كان منصب الخليفة، في العهد المملوكي منصباً اسمياً. وكان السلطان يسمى صاحب المملكة وكانت كلمته نافذة نفوذ القانون في طول البلاد وعرضها. وقد ظل المماليك ارستقراطية عسكرية، فاحتكروا الوظائف العسكرية تاركين لأهل البلاد، الذين كانوا يختارونهم هم طبعاً، الوظائف الدينية ووظائف الكتّاب.

كان على المماليك، وهم يقومون بتثبيت سلطانهم، ان يواجهوا خصمين عنيدين: فالصليبيون كانوا لا يزالون يحتلون الاقسام الساحلية من فلسطين ولبنان وسوريا، والتتار كانوا، بعد ان نجحوا في احتلال بغداد والقضاء على سادتها، يتجهون غرباً بقضهم وقضيضهم.

وقد قاد المماليك حملات مركزة عنيفة ضد التحصينات الصليبية المتداعية، بحيث سقط آخر حصن متين في ايدي المماليك سنة ٦٩٠/ ١٢٩١. ووقع العبء الأكبر في احراز هذا النصر على كاهل ثلاثة من السلاطين هم: بيبرس والناصر قلاون (٦٧٨ /١٢٧٩ ــ ٦٨٩ /١٢٩٠) والملك الاشرف خليل (٦٨٩ /١٢٩٠ ــ ٦٩٢ /١٢٩٣). ولا يتسع المجال هنا لبحث تفاصيل هذه الحملات، على اننا نود ان نذكر القارىء بان الحملات كانت عنيفة، وقد تركت في اعقابها الكثير من الدمار، وخاصة في المدن الساحلية، مما أدى إلى شل المنطقة اجيالاً طويلة.

كان الخطر المغولي اشد لأن جموعهم كانت اكبر عدداً وحبهم للقتال واراقة الدماء لا حد له. وما اكثر ما عاثوا في الأرض يهدمون المدن والدساكر ويزهقون الألوف من الأرواح ويحملون مهرة الصناع إلى اواسط آسيا. على ان المماليك وقفوا في وجه الخطر أول الأمر، وفي القرن التاسع (الخامس عشر) بلغت موجة الانسياح المغولي حدها، بالنسبة لسوريا على الاقل، فزال خطرها لأنها ارتدت بعد ذلك على اعقابها.

كان أول انكسار مني به المغول على ايدي المماليك في معركة عين جالوت في شمال فلسطين سنة ٦٥٨/ ١٢٦٠. على أن عدداً من الحملات المخربة تمت على ايدي

المغول فيما بعد اهمها اثنتان: الأولى غزوة قازان (٦٩٨/ ١٢٩٩) التي احتل فيها المدن الشمالية وانتصر على جيش الناصر محمد قرب حمص واحتل دمشق، واستباح جنده المدينة حتى قيل ان القتلى فيها بلغوا مائة الف. لكن قازان ترك المدينة سنة ٦٩٩ / ١٣٠٠ مخلفاً فيها نائباً عنه. وقد خلف لنا ابن كثير، مؤرخ القرن الثامن (الرابع عشر)، وصفاً حياً لحملة قازان على دمشق، قال:

«ثم دخلت سنة تسع وتسعين وستمائة وفيها كانت وقعة قازان... وقد تواترت الاخبار بقصد التتار بلاد الشام، وقد خاف الناس من ذلك خوفاً شديداً، وجفل الناس من بلاد حلب وحماة، وبلغ كرى الخيل من حماة إلى دمشق نحو المائتي درهم، فلما كان يوم الثلاثاء ثاني المحرم ضربت البشائر بسبب خروج السلطان من مصر قاصداً الشام، فلما كان يوم الجمعة ثامن ربيع الأول دخل السلطان إلى دمشق في مطر شديد ووحل كثير، ومع هذا خرج الناس لتلقيه، وكان قد اقام بغزة قريباً من شهرين، وذلك لما بلغه قدوم التتار إلى الشام، فتهيأ لذلك وجاء فدخل دمشق فنزل بالطارمة، وزينت له البلد، وكثرت له الأدعية وكان وقتاً شديداً، وحالاً صعباً، وامتلأ البلد، من الجافلين النازحين عن بلادهم، وجلس الاعسر وزير الدولة وطالب العمال واقترضوا اموال الايتام واموال الاسرى لأجل تقوية الجيش، وخرج السلطان بالجيش من دمشق يوم الأحد سابع عشر ربيع الأول، ولم يتخلف احد من الجيوش، وخرج معهم خلق كثير من المتطوعة، واخذ الناس في الدعاء والقنوت في الصلوات بالجامع وغيره، وتضرعوا واستغاثوا وابتهلوا إلى الله بالادعية.

«لما وصل السلطان إلى وادي الخزندار عند وادي سلمية، فالتقى التتر هناك يوم الاربعاء السابع والعشرين من ربيع الأول فالتقوا معهم فكسروا المسلمين وولى السلطان هارباً فانا لله وانا إليه راجعون، وقتل جماعة من الأمراء وغيرهم ومن العوام خلق كثير، وفقد في المعركة قاضي قضاة الحنفية، وقد صبروا وأبلوا بلاء حسناً، ولكن كان أمر الله قدراً مقدوراً، فولى المسلمون لا يلوي أحد على أحد، ثم كانت العاقبة بعد ذلك للمتقين، غير انه رجعت العساكر على اعقابها للديار المصرية واجتاز كثير منهم على دمشق، وأهل دمشق في خوف شديد على انفسهم واهليهم وأموالهم، ثم انهم استكانوا واستسلموا للقضاء وللقدر...

«وفي ليلة الأحد ثاني ربيع الأول كسر المحبوسون بحبس باب الصغير الحبس وخرجوا منه على حمية، وتفرقوا في البلد، وكانوا قريباً من مائتي رجل، فنهبوا ما قدروا عليه، وجاءوا إلى باب الجابية فكسروا اقفال الباب البراني وخرجوا منه إلى بر البلد، فتفرقوا حيث شاؤوا لا يقدر احد على ردهم، وعاثت الحرافشة في ظاهر البلد فكسروا ابواب البساتين وقلعوا من الأبواب والشبابيك شيئاً كثيراً، وباعوا ذلك بأرخص الأثمان، هذا وسلطان التتار قد قصد دمشق بعد الوقعة، فاجتمع اعيان البلد والشيخ

تقي الدين ابن تيمية في مشهد عليّ واتفقوا على المسير إلى قازان لتلقيه، واخذ الامان منه لأهل دمشق، فتوجهوا يوم الاثنين ثالث ربيع الآخر فاجتمعوا به عند النبك، وكلمه الشيخ تقي الدين كلاماً قوياً شديداً فيه مصلحة عظيمة عاد نفعها على المسلمين ولله الحمد. ودخل المسلمون ليلتئذ من جهة قازان فنزلوا بالبدرانية وغلقت ابواب البلد سوى باب توما، وخطب الخطيب بالجامع يوم الجمعة، ولم يذكر سلطاناً في خطبته، وبعد الصلاة قدم الأمير اسماعيل ومعه جماعة من الرسل فنزلوا ببستان الظاهر عند الطرن. وحضر الفرمان بالامان وطيف به في البلد، وقرىء يوم السبت ثامن الشهر بمقصورة الخطابة، ونثر شيء من الذهب والفضة. وفي ثاني يوم من المناداة بالامان طلبت الخيول والسلاح والأموال المخبأة عند الناس من جهة الدولة، وجلس ديوان الاستخلاص اذ ذاك بالمدرسة القيمرية، وفي يوم الاثنين عاشر الشهر قدم سيف الدين قبجق المنصوري فنزل في الميدان واقترب جيش التتر وكثر العيث في ظاهر البلد، وقتل جماعة وغلت الاسعار بالبلد جداً، وارسل قبجق إلى نائب القلعة ليسلمها إلى التتار فامتنع ارجواش من ذلك اشد الامتناع، فجمع له قبجق اعيان البلد فكلموه أيضاً فلم يجبهم إلى ذلك، وصمم على ترك تسليمها اليهم وبها عين تطرف، فان الشيخ تقي الدين ابن تيمية ارسل إلى نائب القلعة يقول له ذلك: لو لم يبق فيها الا حجر واحد فلا تسلمهم ذلك ان استطعت، وكان في ذلك مصلحة عظيمة لأهل الشام فان الله حفظ لهم هذا الحصن والمعقل الذي جعله الله حرزاً لأهل الشام...

«وفي يوم الجمعة رابع عشر ربيع الآخر خُطب لقازان على منبر دمشق بحضور المغول بالمقصورة، ودعي له على السدة بعد الصلاة وقرىء عليها مرسوم بنيابة قبجق على الشام، وذهب إليه الأعيان فهنأوه بذلك، فأظهر الكرامة وانه في تعب عظيم مع التتار، ونزل شيخ المشايخ محمود بن علي الشيباني بالمدرسة العادلية الكبيرة. وفي يوم السبت النصف من ربيع الآخر شرعت التتار وصاحب سيس في نهب الصالحية ومسجد الاسدية ومسجد خاتون ودار الحديث الاشرفية بها واحترق جامع التوبة بالعقيبية...

«ولما نكب دير الحنابلة في ثاني جمادى الأولى قتلوا خلقاً من الرجال واسروا من النساء كثيراً، ونال قاضي القضاة تقي الدين اذى كثير، ويقال انهم قتلوا من اهل الصالحية قريباً من اربعمائة، واسروا نحواً من اربعة آلاف اسير، ونهبت كتب كثيرة من الرباط الناصري والضيائية، وخزانة ابن البزوري، وكانت تباع وهي مكتوب عليها الوقفية، وفعلوا بالمزة مثل ما فعلوا بالصالحية، وكذلك بداريا وبغيرها، وتحصن الناس منهم في الجامع بداريا ففتحوه قسراً وقتلوا منهم خلقاً وسبوا نساءهم واولادهم، فانا لله وانا اليه راجعون.

«وخرج الشيخ ابن تيمية في جماعة من اصحابه يوم الخميس العشرين من ربيع الآخر إلى ملك التتار وعاد بعد يومين ولم يتفق اجتماعه به...

«واشتهر بالبلد ان التتار يريدون دخول دمشق فانزعج الناس لذلك وخافوا خوفاً شديداً، وارادوا الخروج منها والهرب على وجوههم، وأين الفرار ولات حين مناص، وقد اخذ من البلد فوق العشرة آلاف فرس، ثم فرضت اموال كثيرة على البلد موزعة على اهل الأسواق كل سوق بحسبه من المال، فلا قوة الا بالله. وشرع التتار في عمل مجانيق بالجامع ليرموا بها القلعة من صحن الجامع، وغلّقت ابوابه ونزل التتار في مشاهده يحرسون اخشاب المجانيق، وينهبون ما حوله من الأسواق، واحرق ارجواش ما حول القلعة من الابنية، كدار الحديث الاشرفية وغير ذلك، إلى حد العادلية الكبيرة، واحرق دار السعادة لئلا يتمكنوا من محاصرة القلعة من اعاليها، ولزم الناس منازلهم لئلا يخسروا في طمّ الخندق، وكانت الطرقات لا يرى بها احد الا القليل، والجامع لا يصلي فيه احد الا اليسير، ويوم الجمعة لا يتكامل فيه الصف الأول وما بعده الا بجهد جهيد، ومن خرج من منزله في ضرورة يخرج بثياب زيهم ثم يعود سريعاً، ويظن انه لا يعود إلى اهله، واهل البلد قد اذاقهم الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون، فانا لله وانا اليه راجعون.

«والمصادرات والتراسيم والعقوبات عمالة في اكابر أهل البلد ليلاً ونهاراً، حتى أخذ منهم شيء كثير من الأموال والأوقاف، كالجامع وغيره، ثم جاء مرسوم بصيانة الجامع وتوفير اوقافه وصرف ما كان يؤخذ بخزائن السلاح والى الحجاز، وقرىء ذلك المرسوم بعد صلاة الجمعة بالجامع في تاسع عشر جمادى الأولى، وفي ذلك اليوم توجه السلطان قازان وترك نوابه بالشام في ستين الف مقاتل نحو بلاد العراق، وجاء كتابه: انا قد تركنا نوابنا بالشام في ستين الف مقاتل، وفي عزمنا العود إليها في زمن الخريف، والدخول إلى الديار المصرية وفتحها. وقد اعجزتهم القلعة ان يصلوا إلى حجر منها، وخرج سيف الدين قبجق لتوديع قطلو شاه نائب قازان، وسار وراءه وضربت البشائر بالقلعة فرحاً لرحيلهم، ولم تفتح القلعة، وأرسل ارجواش ثاني يوم من خروج قبجق القلعية إلى الجامع فكسروا اخشاب المنجنيقات المنصوبة به، وعادوا إلى القلعة سريعاً سالمين...

«قال الشيخ علم الدين البرزالي: ذكر لي الشيخ وجيه الدين ابن المنجا انه حمل الى خزانة قازان ثلاثة آلاف الف وستمائة الف درهم، سوى ما تمحق من التراسيم والبراطيل وما أخذ غيره من الأمراء والوزراء، وان شيخ المشايخ حصل له نحو من ستمائة الف درهم، والأصيل ابن النصير الطوسي مائة الف، والصفيّ السخاوي ثمانين الفاً. وعاد سيف الدين قبجق إلى دمشق يوم الخميس بعد الظهر خامس عشرين جمادى الأولى ومعه الاليكي وجماعة، وبين يديه السيوف مسللة وعلى رأسه عصابة. فنزل بالقصر ونودي بالبلد نائبكم قبجق قد جاء فافتحوا دكاكينكم واعملوا معاشكم ولا يغرر احد بنفسه هذا الزمان، والاسعار في غاية الغلاء والقلة، قد بلغت الغرارة إلى

اربعمائة، واللحم الرطل بنحو العشرة، والخبز كل رطل بدرهمين ونصف، والعشرة الدقيق بنحو الاربعين، والجبن الاوقية بدرهم، والبيض كل خمسة بدرهم. ثم فرج عنهم في أواخر الشهر، ولما كان في أواخر الشهر نادى قبجق بالبلد ان يخرج الناس إلى قراهم وأمر جماعة وانضاف إليه خلق من الاجناد، وكثرت الاراجيف على بابه، وعظم شأنه ودقت البشائر بالقلعة وعلى باب قبجق يوم الجمعة رابع جمادى الآخرة، وركب قبجق بالعصائب في البلد والشاويشية بين يديه، وجهز نحواً من الف فارس نحو خربة اللصوص، ومشى مشي الملوك في الولايات وتأمير الأمراء والمراسيم العالية النافذة...

«ثم انه ضمن الخمارات ومواضع الزنا من الحانات وغيرها، وجعلت دار ابن جرادة خارج من باب توما خمارة وحانة ايضاً، وصار له على ذلك في كل يوم الف درهم، وهي التي دمرته ومحقت آثاره. واخذ اموالاً اخر من اوقاف المدارس وغيرها.

«وفي ثامن رجب طلب قبجق القضاة والاعيان فحلفهم على المناصحة للدولة المحمودية ــ يعني قازان ــ فحلفوا له، وفي هذا اليوم خرج الشيخ تقي الدين بن تيمية إلى مخيم بولاي فاجتمع به في فكاك من كان معه من اسارى المسلمين، فاستنقذ كثيراً منهم من ايديهم، وأقام عنده ثلاثة ايام ثم عاد، ثم راح إليه جماعة من اعيان دمشق ثم عادوا من عنده فشُلِّحوا عند باب شرقي وأخذ ثيابهم وعمائمهم ورجعوا في شرّ حالة، ثم بعث في طلبهم فاختفى اكثرهم وتغيبوا عنه، ونودي بالجامع بعد الصلاة ثالث رجب من جهة نائب القلعة بان العساكر المصرية قادمة إلى الشام. وفي عشية يوم السبت رحل بولاي واصحابه من التتار وانشمروا عن دمشق وقد اراح الله منهم وساروا من على عقبة دمر فعاثوا في تلك النواحي فساداً، ولم يأت سابع الشهر وفي حواشي البلد منهم أحد، وقد ازاح الله عز وجل شرهم عن العباد والبلاد...

«وتقلق قبجق من البلد. ثم انه خرج منها في جماعة من رؤسائها واعيانها منهم عز الدين ابن القلانسي ليتلقوا الجيش المصري، وذلك ان جيش مصر خرج إلى الشام في تاسع رجب وجاءت البريدية بذلك، وبقي البلد ليس به احد، ونادى ارجواش في البلد احفظوا الاسوار واخرجوا ما كان عندكم من الاسلحة ولا تهملوا الاسوار والأبواب، ولا يبيتن احد الا على السور، ومن بات في داره شنق، فاجتمع الناس على الاسوار لحفظ البلاد، وكان الشيخ تقي الدين بن تيمية يدور كل ليلة على الاسوار يحرض الناس على الصبر والقتال ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط.

«وفي يوم الجمعة سابع عشر رجب اعيدت الخطبة بدمشق لصاحب مصر ففرح الناس بذلك، وكان يخطب لقازان بدمشق وغيرها من بلاد الشام مائة يوم سواء. وفي بكرة يوم الجمعة المذكور دار الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله واصحابه على الخمارات والحانات فكسروا آنية الخمور وشققوا الظروف واراقوا الخمور، وعزّروا

جماعة من أهل الحانات المتخذة لهذه الفواحش، ففرح الناس بذلك. ونودي يوم السبت ثامن عشر رجب بأن تزيّن البلد لقدوم العساكر المصرية، وفتح باب الفرج مضافاً إلى باب النصر يوم الأحد تاسع عشر رجب، ففرح الناس بذلك وانفرجوا لانهم لم يكونوا يدخلون إلا من باب النصر، وقدم الجيش الشامي صحبة نائب دمشق جمال الدين آقوش الافرم يوم السبت عاشر شعبان، وثاني يوم دخل بقية العساكر...

«وفي الحادي والعشرين من ذي القعدة استعرض نائب السلطنة أهل الأسواق بين يديه، وجعل على كل سوق مقدّماً وحوله أهل سوقه، وفي الخميس رابع عشرينه عرضت الاشراف مع نقيبهم نظام الملك الحسيني بالعدد والتجمل الحسن، وكان يوماً مشهوداً...

«ثم دخلت سنة سبعمائة من الهجرة النبوية... وفي مستهل صفر وردت الاخبار بقصد التتار بلاد الشام، وانهم عازمون على دخول مصر، فانزعج الناس لذلك وازدادوا ضعفاً على ضعفهم، وطاشت عقولهم والبابهم، وشرع الناس في الهرب إلى بلاد مصر والكرك والشوبك والحصون المنيعة، فبلغت الحمارة إلى مصر خمسمائة وبيع الجمل بألف والحمار بخمسمائة، وبيعت الامتعة والثياب والغلات بأرخص الاثمان، وجلس الشيخ تقي الدين بن تيمية في ثاني صفر بمجلسه في الجامع وحرض الناس على القتال، وساق لهم الآيات والاحاديث الواردة في ذلك، ونهى عن الاسراع في الفرار، ورغب في انفاق الأموال في الذب عن المسلمين وبلادهم وأموالهم، وان ما ينفق في اجرة الهرب إذا انفق في سبيل الله كان خيراً، وأوجب جهاد التتار حتماً في هذه الكرة، وتابع المجالس في ذلك. ونودي في البلاد لا يسافر احد إلا بمرسوم وورقة، فتوقف الناس عن السير وسكن جأشهم، وتحدث الناس بخروج السلطان من القاهرة بالعساكر ودقت البشائر لخروجه...

«وفي أول ربيع الآخر قوي الارجاف بأمر التتار، وجاء الخبر بأنهم قد وصلوا إلى البيرة، ونودي في البلد ان تخرج العامة مع العسكر، وجاء مرسوم النائب من المرج بذلك، فاستعرضوا في اثناء الشهر فعرض نحو خمسة آلاف من العامة بالعدة والاسلحة على قدر طاقتهم، وقنت الخطيب ابن جماعة في الصلوات كلها، واتبعه أئمة المساجد، وأشاع المرجفون بأن التتار قد وصلوا إلى حلب وان نائب حلب تقهقر إلى حماة، ونودي في البلد بتطييب قلوب الناس واقبالهم على معايشهم...

«ثم جاءت الاخبار بأن سلطان مصر رجع عائداً إلى مصر بعد ان خرج منها قاصداً الشام، فكثر الخوف واشتد الحال، وكثرت الامطار جداً، وصار بالطرقات من الاوحال والسيول ما يحول بين المرء وبين ما يريده من الانتشار في الارض والذهاب فيها، فانا لله وانا اليه راجعون.

«وخرج كثير من الناس خفافاً وثقالاً يتحملون بأهليهم وأولادهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وجعلوا يحملون الصغار في الوحل الشديد والمشقة، على الدواب

والرقاب، وقد ضعفت الدواب من قلة العلف مع كثرة الامطار والزلق والبرد الشديد والجوع وقلة الشيء فلا حول ولا قوة الا بالله.

«واستهل جمادى الأولى والناس على خطة صعبة من الخوف، وتأخر السلطان واقترب العدو، وخرج الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله تعالى في مستهل هذا الشهر، وكان يوم السبت، إلى نائب الشام في المرج فثبتهم وقوّى جأشهم وطيّب قلوبهم ووعدهم النصر والظفر على الاعداء، وتلا قوله تعالى: ﴿ذلك ومن عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ به ثم بُغِيَ عليه لَيَنصرنه اللهُ ان الله لَعَفوٌ غَفورٌ﴾. وبات عند العسكر ليلة الأحد ثم عاد إلى دمشق وقد سأله النائب والأمراء ان يركب على البريد إلى مصر يستحث السلطان على المجيء، فساق وراء السلطان، وكان السلطان قد وصل إلى الساحل فلم يدركه الا وقد دخل القاهرة وتفارط الحال، ولكنه استحثهم على تجهيز العساكر إلى الشام ان كان لهم به حاجة، وقال لهم فيما قال: ان كنتم اعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه ويستغله في زمن الأمن، ولم يزل بهم حتى جرّدت العساكر إلى الشام، ثم قال لهم: لو قدر انكم لستم حكام الشام ولا ملوكه واستنصركم اهله وجب عليكم النصر، فكيف وانتم حكامه وسلاطينه وهم رعايكم وانتم مسؤلون عنهم، وقوّى جأشهم وضمن لهم النصر هذه الكرة، فخرجوا إلى الشام، فلما تواصلت العساكر إلى الشام فرح الناس فرحاً شديداً بعد أن كانوا قد يئسوا من انفسهم واهليهم واموالهم، ثم قويت الاراجيف بوصول التتار، وتحقق عود السلطان إلى مصر، ونادى ابن النحاس متولي البلد في الناس: من قدر على السفر فلا يقعد بدمشق، فتصايح النساء والولدان، ورهق الناس ذلة عظيمة وخمدة، وزُلزلوا زلزالاً شديداً، وغُلِّقت الأسواق وتيقنوا ان لا ناصر لهم الا الله عز وجل، وان نائب الشام لما كان فيه قوة مع السلطان عام أول، لم يقو على التقاء جيش التتار فكيف به الآن وقد عزم على الهرب؟ ويقولون: ما بقي اهل دمشق الا طعمة العدو، ودخل كثير من الناس إلى البراري والقفار والمغر بأهاليهم من الكبار والصغار، ونودي في الناس من كانت نيته الجهاد فليلحق فقد اقترب وصول التتار، ولم يبق بدمشق من اكابرها الا القليل...

«ورجع الشيخ تقي الدين بن تيمية من الديار المصرية في السابع والعشرين من جمادى الأولى على البريد، وأقام بقلعة مصر ثمانية ايام يحثهم على الجهاد والخروج إلى العدو، وقد اجتمع بالسلطان والوزير وأعيان الدولة فأجابوه إلى الخروج، وقد غلت الاسعار بدمشق جداً، حتى بيع خاروفان بخمسمائة درهم. واشتد الحال، ثم جاءت الاخبار بأن ملك التتار قد خاض الفرات راجعاً عامه ذلك لضعف جيشه وقلة عددهم، فطابت النفوس لذلك وسكن الناس، وعادوا إلى منازلهم منشرحين آمنين مستبشرين. ولما جاءت الاخبار بعدم وصول التتار إلى الشام في جمادى الآخرة تراجعت انفس الناس إليهم وعاد نائب السلطنة إلى دمشق...

«ثم دخلت سنة اثنتين وسبعمائة من الهجرة... وفي ثامن عشر رجب قدمت طائفة كبيرة من جيش المصريين... فقويت القلوب واطمأن كثير من الناس، ولكن الناس في جفل عظيم من بلاد حلب وحماة وحمص وتلك النواحي وتقهقر الجيش الحلبي والحموي إلى حمص، ثم خافوا ان يدهمهم التتار فجاؤوا فنزلوا المرج يوم الأحد خامس شعبان، ووصل التتار إلى حمص وبعلبك وعاثوا في تلك الأراضي فساداً، وقلق الناس قلقاً عظيماً، وخافوا خوفاً شديداً، واختبط البلد لتأخر قدوم السلطان ببقية الجيش، وقال الناس لا طاقة لجيش الشام مع هؤلاء المصريين بلقاء التتار لكثرتهم، وإنما سبيلهم ان يتأخروا عنهم مرحلة مرحلة. وتحدث الناس بالاراجيف فاجتمع الامراء يوم الاحد المذكور بالميدان وتحالفوا على لقاء العدو، وشجعوا انفسهم، ونودي بالبلد ان لا يرحل احد منه، فسكن الناس وجلس القضاة بالجامع وحلَّفوا جماعة من الفقهاء والعامة على القتال. وتوجه الشيخ تقي الدين بن تيمية إلى العسكر الواصل من حماة فاجتمع بهم في القطيعة فأعلمهم بما تحالف عليه الأمراء والناس من لقاء العدو، فأجابوا إلى ذلك وحلفوا معهم، وكان الشيخ تقي الدين بن تيمية يحلف للامراء والناس انكم في هذه الكرة منصورون، فيقول له الأمراء: قل ان شاء الله، فيقول ان شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً...

«ولما كان يوم الرابع والعشرين من شعبان خرجت العساكر الشامية فخيمت على الجسورة من ناحية الكسوة، ومعهم القضاة، فصار الناس فيهم فريقين: فريق يقولون إنما ساروا ليختاروا موضعاً للقتال فان المرج فيه مياه كثيرة فلا يستطيعون معها القتال، وقال فريق: انما ساروا لتلك الجهة ليهربوا وليلحقوا بالسلطان. فلما كانت ليلة الخميس ساروا إلى ناحية الكسوة فقويت ظنون الناس في هربهم، وقد وصلت التتار إلى قارة، وقيل انهم وصلوا إلى القطيفة، فانزعج الناس لذلك شديداً ولم يبق حول القرى والحواضر احد. وامتلأت القلعة والبلد وازدحمت المنازل والطرقات، واضطرب الناس وخرج الشيخ تقي الدين بن تيمية صبيحة يوم الخميس من الشهر المذكور من باب النصر بمشقة كبيرة، وصحبته جماعة ليشهد القتال بنفسه ومن معه، فظنوا انه انما خرج هارباً، فحصل اللوم من بعض الناس وقالوا: انت منعتنا من الجفل وها انت هارب من البلد. فلم يرد عليهم وبقي البلد ليس فيه حاكم، وجاس اللصوص والحرافيش فيه وفي بساتين الناس يخربون وينتهبون ما قدروا عليه، ويقطعون المشمش قبل اوانه والباقلاء والقمح وسائر الخضراوات، وحيل بين الناس وبين خبر الجيش، وانقطعت الطرق إلى الكسوة وظهرت الوحشة على البلد والحواضر، وليس للناس شغل غير الصعود إلى المآذن ينظرون يميناً وشمالاً، وإلى ناحية الكسوة فتارة يقولون: رأينا غبرة فيخافون ان تكون من التتار، ويتعجبون من الجيش مع كثرتهم وجودة عدتهم وعددهم، أين ذهبوا؟ فلا يدرون ما فعل الله بهم، فانقطعت الآمال وألحّ

الناس في الدعاء والابتهال وفي الصلوات وفي كل حال، وذلك يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان، وكان الناس في خوف ورعب لا يعبر عنه، لكن كان الفرج من ذلك قريباً، ولكن اكثرهم لا يفلحون...

«فلما كان آخر هذا اليوم وصل الأمير فخر الدين اياس المرقبي احد امراء دمشق، فبشر الناس بخير، هو ان السلطان قد وصل وقت اجتمعت العساكر المصرية والشامية، وقد أرسلني اكشف هل طَرَق البلد أحدٌ من التتار، فوجد الأمر كما يحب لم يطرقها أحد منهم، وذلك ان التتار عرجوا من دمشق إلى ناحية العساكر المصرية، ولم يشتغلوا بالبلد، وقد قالوا ان غَلَبْنا فان البلد لنا، وان غُلبنا فلا حاجة لنا به. ونودي بالبلد في تطييب الخواطر، وان السلطان قد وصل، فاطمأن الناس وسكنت قلوبهم...

«أصبح الناس يوم السبت على ما كانوا عليه من الخوف وضيق الأمر، فرأوا من المآذن سواداً وغبرة من ناحية العسكر والعدو، فغلب على الظنون ان الوقعة في هذا اليوم، فابتهلوا إلى الله عز وجل بالدعاء في المساجد والبلد، وطلع النساء والصغار على الاسطحة وكشفوا رؤوسهم وضجّ البلد ضجة عظيمة، ووقع ذلك الوقت مطر عظيم غزير، ثم سكن الناس. فلما كان بعد الظهر قرئت بطاقة بالجامع تتضمن ان في الساعة الثانية من نهار السبت هذا اجتمعت الجيوش الشامية والمصرية مع السلطان في مرج الصفر، وفيها طلب الدعاء من الناس والأمر بحفظ القلعة والتحرز على الاسوار. فدعا الناس في المآذن والبلد، وانقضى النهار وكان يوماً مزعجاً هائلاً، وأصبح الناس يوم الاحد يتحدثون بكسر التتار، وخرج الناس إلى ناحية الكسوة فرجعوا ومعهم شيء من المكاسب، ومعهم رؤوس من رؤوس التتار، وصارت كسرة التتار تقوى وتتزايد قليلاً قليلاً حتى اتضحت جملة، ولكن الناس لما عندهم من شدة الخوف وكثرة التتار لا يصدقون. فلما كان بعد الظهر قرىء كتاب السلطان إلى متولي القلعة يخبر فيه باجتماع الجيش ظهر يوم السبت بشقحب وبالكسوة، ثم جاءت بطاقة بعد العصر من نائب السلطان جمال الدين آقوش الأفرم إلى نائب القلعة مضمونها ان الوقعة كانت من العصر يوم السبت إلى الساعة الثانية من يوم الأحد، وان السيف كان يعمل في رقاب التتار ليلاً ونهاراً، وانهم هربوا وفروا واعتصموا بالجبال والتلال، وانه لم يسلم منهم الا القليل. فأمسى الناس وقد استقرت خواطرهم وتباشروا لهذا الفتح العظيم والنصر المبارك، ودقت البشائر بالقلعة من أول النهار المذكور، ونودي بعد الظهر باخراج الجفال من القلعة لأجل نزول السلطان بها، وشرعوا في الخروج [1]».

كانت الحملة المغولية الثانية على سوريا حملة تيمور (تيمورلنك) الذي احتل البلاد سنة ٨٠٥ ــ ١٤٠٢، وكان يترك في اثره من الخراب والتلف والدمار، والقتل كل ما في وسع البشر ان يفعلوه. وقد حل بدمشق، كما حل بالبلاد الواقعة إلى الشمال منها. ثم انسحب بسبب الخطر العثماني الماثل في الشمال. ولم ينقذ البلاد من شره

إلا وفاته سنة ٨٠٨ ــ ١٤٠٥. وقد حمل تيمور معه إلى سمرقند خيرة علماء دمشق واهل الصناعة فيها، الذين عملوا على تجميل عاصمته ونشر العلوم الاسلامية في قلب آسيا. وكما خلَّف لنا ابن كثير وصف حملة قازان، فقد ترك لنا ابن تغري بردي وصفاً لحملة تيمور، قال:

«ثم رحل السلطان ببقية الأمراء والعساكر من الرّيدانية يريد جهة الشام لقتال تيمورلنك، وسار حتى نزل بغزة في يوم عشرين من الشهر...

«وأما الوالد فانه قال للسلطان وللأمراء: عندي رأي اقوله، وفيه مصلحة للمسلمين وللسلطان، فقيل له: وما هو؟ فقال: الرأي ان السلطان لا يتحرك هو ولا عساكره من مدينة غزة، وأنا اتوجه إلى دمشق وأحرض اهلها على القتال، واحصنها ــ وهي بلدة عظيمة لم تنكب من قديم الزمان، وبها ما يكفي اهلها من الميرة سنين، وقد داخل اهلها أيضاً من الخوف ما لا مزيد عليه، فهم يقاتلون قتال الموت ــ وتيمور لا يقدر على اخذها مني بسرعة، وهو في عسكر كبير إلى الغاية لا يطيق المكث بهم بمكان واحد مدة طويلة...

«فاستصوب ذلك جميع الناس، حتى تيمور عندما بلغه ذلك بعد اخذه دمشق، وما بقي الا ان يُرسَم بذلك، تكلم بعض جهال الأمراء مع بعض في السر ممن عنده كمين من الوالد من واقعة أيْتَمش وتَنَم، وقال: تقتلوا رفقته وتسلموه الشام، والله ما قصده الا ان يتوجه إلى دمشق، ويتفق مع تيمور ويعود يقاتلنا، حتى يأخذ منا ثأر رفقته...

«ثم رحل جاليش السلطان من غزة في رابع عشرين شهر ربيع الآخر، ثم رحل السلطان ببقية عسكره من غزة في سادس عشرينه، وسار الجميع حتى وافوا دمشق.

«وكان دخول السلطان دمشق في يوم الخميس سادس جمادى الأولى، وكان لدخوله يوم مهول من كثرة صراخ الناس وبكائهم والابتهال إلى الله بنصرته، وطلع السلطان إلى قلعة دمشق وأقام بها إلى يوم السبت ثامنه، فنزل من قلعة دمشق وخرج بعساكره إلى مخيمه عند قبة يَلبُغا ظاهر دمشق، وتهيأ للقاء تيمور هو بعساكره...

فلما كان وقت الظهر من اليوم المذكور وصل جاليش تيمور من جهة جبل الثلج في نحو الألف فارس، فبرز إليهم مائة فارس من عسكر السلطان وصدموهم صدمة واحدة، بددوا شملهم وكسروهم اقبح كسرة، وقتلوا منهم جماعة كبيرة وعادوا...

«ثم في يوم السبت نزل تيمور بعساكره على قَطنا، فملأت عساكره الأرض كثرة، وركب طائفة منهم لكشف الخبر، فوجدوا السلطان والأمراء قد تهيئوا للقتال وصفت العساكر السلطانية، فبرز اليهم التمريّة وصدموهم صدمة هائلة، وثبت كل من العسكرين ساعة، فكانت بينهم وقعة انكسر فيها ميسرة السلطان، وانهزم العسكر الغزاوي وغيرهم إلى ناحية حوران، وجرح جماعة، وحمل تيمور بنفسه حملة شديدة ليأخذ فيها دمشق، فدفعته ميمنة السلطان بأسنان الرماح حتى اعادوه إلى موقفه.

«ونزل كل من العسكرين بمعسكره، وبعث تيمور إلى السلطان في طلب الصلح وارسال أطلمَش احد اصحابه إليه، وانه هو أيضاً يبعث من عنده من الأمراء المقبوض عليهم في وقعة حلب، فاشار الوالد ودمرداش وقطلوبُغا الكركي في قبول ذلك، لما يعرفوا من اختلاف كلمتهم، لا لضعف عسكرهم، فلم يقبلوا وأبوا الا القتال.

«ثم ارسل تيمور رسولاً آخر في طلب الصلح، وكرر القول ثانياً، وظهر للأمراء ولجميع العساكر صدق مقالته، وان ذلك على حقيقته، فأبى الأمراء ذلك، هذا والقتال مستمر بين الفريقين في كل يوم.

فلما كان ثاني عشر جمادى الآخرة اختفى من أمراء مصر والمماليك السلطانية جماعة...

«ثم اشيع بدمشق ان الأمراء الذين اختفوا توجهوا جميعاً إلى مصر ليسلطنوا الشيخ لاجين الجركسي احد الاجناد البرانية، فعظم ذلك على مدبري المملكة لعدم رأيهم، وكان ذلك عندهم اهم من أمر تيمور، واتفقوا فيما بينهم على اخذ السلطان الملك الناصر جريدة، وعوده إلى الديار المصرية في الليل، ولم يعلموا بذلك الا جماعة يسيرة، ولم يكن أمر لاجين يستحق ذلك، بل كان تمراز نائب الغيبة بمصر يكفي السلطان أمرهم «ولكِنْ لِيَقْضِيَ اللهُ أمْراً كان مَفْعُولاً».

«فلما كان آخر ليلة الجمعة حادي عشرين جمادى الأولى ركب الأمراء وأخذوا السلطان الملك الناصر فرج على حين غفلة، وساروا به من غير ان يعلم العسكر به من على عقبة دُمر يريدون الديار المصرية، وتركوا العساكر والرعية من المسلمين غنماً بلا راع، وجدّوا في السير ليلاً ونهاراً حتى وصلوا إلى مدينة صفد، فاستدعوا نائبها الأمير تَمُربُغا المَنجكي واخذوه معهم، وتلاحق بهم كثير من ارباب الدولة وامرائها، وسار الجميع حتى ادركوا الأمراء الذين ساروا إلى مصر ــ عليهم من الله ما يستحقوه ــ بمدينة غزة، فكلموهم فيما فعلوه، فاعتذروا بعذر غير مقبول في الدنيا والآخرة، فندم عند ذلك الأمراء على الخروج من دمشق حيث لا ينفع الندم، وقد تركوا دمشق أكلة لتيمور، وكانت يوم ذاك احسن مدن الدنيا وأعمرها.

«وأما بقية امراء مصر واعيانها من القضاة وغيرهم لما علموا بخروج السلطان من دمشق خرجوا في الحال في أثره طوائف طوائف يريدون اللحاق بالسلطان، فأخذ غالبهم العشير، وسلبوهم، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً.

«اخبرني غير واحد من اعيان المماليك الظاهرية قالوا: لما بلغنا خروج السلطان ركبنا في الحال، غير انه لم يعقنا عن اللحاق به الا كثرة السلاح الملقى على الأرض بالطريق مما رمتها المماليك السلطانية ليخف ذلك عن خيولهم، فمن كان فرسه ناهضاً خرج، والا لحقه اصحاب تيمور وأسروه، فممن اسروه قاضي القضاة صدر الدين المناوي ومات في الاسر حسبما يأتي ذكره في الوفيات. وتتابع دخول

المنقطعين من المماليك السلطانية وغيرهم إلى القاهرة في اسوأ حال من المشي والعري والجوع، فرسم السلطان لكل من المماليك السلطانية المذكورين بألف درهم وجامكيّة شهرين.

«وأما الأمراء فانهم دخلوا إلى مصر وليس مع كل أمير سوى مملوك أو مملوكين، وقد تركوا اموالهم وخيولهم وأطلابهم وسائر ما معهم بدمشق، فانهم خرجوا من دمشق بغتة بغير مواعدة لما بلغهم توجه السلطان من دمشق، واخذ كل واحد ينجو بنفسه.

«وأما العساكر الذين خلّفوا بدمشق من أهل دمشق وغيرها، فانه كان اجتمع بها خلائق كثيرة من الحلبيين والحمويين والحمصيين واهل القرى ممن خرج جافلاً من تيمور.

«ولما اصبحوا يوم الجمعة وقد فقدوا السلطان والأمراء والنائب غلّقوا ابواب دمشق، وركبوا أسوار البلد، ونادوا بالجهاد، فتهيّأ أهل دمشق للقتال، وزحف عليهم تيمور بعساكره، فقاتله الدمشقيون من أعلى السور اشدّ قتال، وردوهم عن السور والخندق، وأسروا منهم جماعة ممن كان اقتحم باب دمشق، واخذوا من خيولهم عدة كبيرة، وقتلوا منهم نحو الألف، وأدخلوا رؤوسهم إلى المدينة. وصار أمرهم في زيادة فأعيا تيمور أمرهم، وعلم أن الأمر يطول عليه، فأخذ في مخادعتهم، وعمل الحيلة في اخذ دمشق منهم.

«وبينما أهل دمشق في اشد ما يكون من القتال والاجتهاد في تحصين بلدهم، قدم عليهم رجلان من اصحاب تيمور من تحت السور وصاحا من بعد: «الأمير يريد الصلح، فابعثوا رجلاً عاقلاً حتى يحدثه الأمير في ذلك»...

«ولما سمع اهل دمشق كلام اصحاب تيمور في الصلح وقع اختيارهم في ارسال قاضي القضاة تقي الدين إبراهيم بن محمد بن مفلح الحنبلي، فأرخي من سور دمشق إلى الأرض، وتوجه إلى تيمور واجتمع به وعاد إلى دمشق، وقد خدعه تيمور بتمويق كلامه، وتلطف معه في القول، وترفق له في الكلام، وقال له: هذه بلدة الانبياء والصحابة، وقد أعتقتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة عني وعن أولادي، ولولا حنقي من سودون نائب دمشق عند قتله لرسولي ما أتيتها، وقد صار سودون المذكور في قبضتي وفي أسري، وقد كان الغرض في مجيئي إلى هنا، ولم يبق لي الآن غرض إلا العود، ولكن لا بدّ من اخذ عادتي من التقدمة من الطُّقُزات.

«وكانت هذه عادته إذا أخذ مدينة صلحاً يخرج إليه اهلها من كل نوع من أنواع المأكول والمشروب والدواب والملابس والتحف تسعة، يسمون ذلك طقزات، والطقز باللغة التركية: تسعة، وهذه عادة ملوك التتار إلى يومنا هذا.

«فلما صار ابن مفلح بدمشق شرع يخذّل الناس عن القتال ويثني على تيمور ودينه وحسن اعتقاده ثناء عظيماً، ويكف أهل دمشق عن قتاله، فمال معه طائفة من الناس،

وخالفه طائفة أخرى وأبوا الا قتاله، وباتوا ليلة السبت على ذلك واصبحوا نهار السبت وقد غلب رأي ابن مفلح على من خالفه، وعزم على اتمام الصلح، ونادى في الناس: انه من خالف ذلك قُتل وهُدر دمه، فكفّ الناس عن القتال.

«وفي الحال قدم رسول تيمور إلى مدينة دمشق في طلب الطقزات المذكورة، فبادر ابن مفلح، واستدعى من القضاة والفقهاء والاعيان والتجار، حَمّل ذلك كل احد بحسب حاله، فشرعوا في ذلك حتى كمل، وساروا به إلى باب النصر ليخرجوا به إلى تيمور، فمنعهم نائب قلعة دمشق من ذلك، وهدّدهم بحريق المدينة عليهم ان فعلوا ذلك، فلم يلتفتوا إلى قوله، وقالوا له: انت احكم على قلعتك، ونحن نحكم على بلدنا، وتركوا باب النصر وتوجهوا، واخرجوا الطقزات المذكورة من السور، وتدلى ابن مفلح من السور أيضاً ومعه كثير من اعيان دمشق وغيرهم وساروا إلى مخيّم تيمور، وباتوا به ليلة الأحد، وعادوا بكرة الأحد، وقد استقر تيمور بجماعة منهم في عدة وظائف: ما بين قضاة القضاة، والوزير، ومستخرج الأموال، ونحو ذلك، معهم فرمان من تيمور لهم، وهو ورقة فيها تسعة اسطر يتضمن أمان أهل دمشق على انفسهم واهليهم خاصة. فقرىء الفرمان المذكور على منبر جامع بني امية بدمشق، وفتح من ابواب دمشق باب الصغير فقط، وقدم أمير من امراء تيمور، جلس فيه ليحفظ البلد ممن يعبر إليها من عساكر تيمور. فمشى ذلك على الشاميين وفرحوا به، وأكثر ابن مفلح ومن كان توجه معه من اعيان دمشق الثناء على تيمور وبث محاسنه وفضائله، ودعا العامة لطاعته وموالاته، وحثهم بأسرهم على جمع المال الذي تقرر لتيمور عليهم، وهو ألف ألف دينار. وفرض ذلك على الناس كلهم، فقاموا به من غير مشقة لكثرة أموالهم. فلما كمل المال حمله ابن مفلح إلى تيمور ووضعه بين يديه، فلما عاينه غضب غضباً شديداً، ولم يرض به، وأمر ابن مفلح ومن معه ان يخرجوا عنه، فأخرجوا من وجهه. ووكل بهم جماعة حتى التزموا بحمل الف تومان، والتومان عبارة عن عشرة آلاف دينار من الذهب، الا ان سعر الذهب عندهم يختلف، وعلى كل حال فيكون جملة ذلك عشرة آلاف ألف دينار، فالتزموا بها، وعادوا إلى البلد، وفرضوها ثانياً على الناس كلها عن أجرة املاكهم ثلاثة اشهر، وألزموا كل انسان من ذكر وأنثى حر وعبد بعشرة دراهم، وألزم مباشر كل وقف بحمل مال له جِرم، فنزل بالناس باستخراج هذا منهم ثانياً بلاء عظيم، وعوقب كثير منهم بالضرب، فغلت الاسعار، وعز وجود الأقوات، وبلغ المُدُّ القمح ــ وهو أربعة أقداح ــ إلى اربعين درهماً فضة، وتعطلت صلاة الجمعة من دمشق فلم تقم بها جمعة الا مرتين، حتى دعي بها على منابر دمشق للسلطان محمود ولوليّ عهده ابن الأمير تيمورلنك، وكان السلطان محمود مع تيمور آلة، كون عادتهم لا يتسلطن عليهم الا من يكون من ذرية الملوك. انتهى

«ثم قدم شاه ملك احد امراء تيمور إلى مدينة دمشق على انه نائبها من قبل تيمور.

«ثم بعد جمعتين منعوا من اقامة الجمعة بدمشق لكثرة غلبة اصحاب تيمور بدمشق، كل ذلك ونائب القلعة ممتنع بقلعة دمشق، وأعوان تيمور تحاصره أشد حصار، حتى سلمها بعد تسعة وعشرين يوماً، وقد رمي عليها بمدافع ومكاحل لا تدخل تحت حصر، يكفيك ان التمريّة من عظم ما أعياهم أمر قلعة دمشق بنوا تجاه القلعة قلعة من خشب، فعند فراغهم من بنائها وأرادوا طلوعها ليقاتلوا من أعلاها من هو بالقلعة، رمى أهل قلعة دمشق نفطاً فأحرقوها عن آخرها، فأنشأوا قلعة ثانية أعظم من الأولى وطلعوا عليها وقاتلوا أهل القلعة.

«هذا وليس بالقلعة المذكورة من المقاتلة الا نفر يسير دون الاربعين نفراً، وطال عليهم الأمر، ويئسوا من النجدة، وطلبوا الأمان، وسلموها بالأمان...

«ولما تكامل حصول المال الذي هو ألف تومان، أخذه ابن مفلح وحمله إلى تيمور، فقال تيمور لابن مفلح واصحابه: هذا المال بحسابنا إنما هو يسوي ثلاثة آلاف ألف دينار، وقد بقي عليكم سبعة آلاف ألف دينار، وظهر لي أنكم عجزتم.

«وكان تيمور لما اتفق اولاً مع ابن مفلح على ألف ألف دينار يكون ذلك على أهل دمشق خاصة، والذي تركته العساكر المصرية من السلاح والأموال يكون لتيمور، فخرج إليه ابن مفلح بأموال أهل مصر جميعها، فلما صارت كلها إليه وعلم انه استولى على اموال المصريين ألزمهم باخراج اموال الذين فروا من دمشق، فسارعوا أيضاً إلى حمل ذلك كله، وتدافعوا عنده حتى خلص المال جميعه، فلما كمل ذلك ألزمهم ان يخرجوا إليه جميع ما في البلد من السلاح جليلها وحقيرها، فتتبعوا ذلك واخرجوه له حتى لم يبق بها من السلاح شيء. فلما فرغ ذلك كله قبض على ابن مفلح ورفقته، وألزمهم ان يكتبوا له جميع خطط دمشق وحاراتها وسكها. فكتبوا ذلك ودفعوه إليه، ففرقه على امرائه، وقسم البلد بينهم، فساروا إليها بمماليكهم وحواشيهم، ونزل كل أمير في قسمه وطلب من فيه، وطالبهم بالأموال، فحينئذ حل بأهل دمشق من البلاء ما لا يوصف، وأجري عليهم أنواع العذاب من الضرب والعصر والاحراق بالنار، والتعليق منكوساً، وغم الأنف بخرقة فيها تراب ناعم كلما تنفس دخل في انفه حتى تكاد نفسه تزهق، فكان الرجل إذا أشرف على الهلاك يخلّى عنه حتى يستريح، ثم تعاد عليه العقوبة انواعاً، فكان المعاقب يحسد رفيقه الذي هلك تحت العقوبة على الموت، ويقول: ليتني أموت واستريح مما انا فيه. ومع هذا كله تؤخذ نساؤه وبناته واولاده الذكور، وتقسم جميعهم على أصحاب ذلك الأمير، فيشاهد الرجل المعذب امرأته أو بنته وهي توطأ، وولده وهو يلاط به، يصرخ هو من ألم العذاب، والبنت والولد يصرخان من ازالة البكارة واللواط، وكل ذلك من غير تستر في النهار بحضرة الملأ من الناس. ورأى أهل دمشق انواعاً من العذاب لم يسمع بمثلها، منها انهم كانوا يأخذون الرجل فتشد رأسه بحبل ويلويه حتى يغوص في رأسه، ومنهم من كان يضع الحبل بكتفي الرجل ويلويه

بعصاه حتى تنخلع الكتفان، ومنهم من كان يربط إبهام يدي المعذَّب من وراء ظهره ثم يلقيه على ظهره ويذرّ في منخريه الرماد مسحوقاً، فيقر على ما عنده شيئاً بعد شيء، حتى إذا فرغ ما عنده لا يصدقه صاحبه على ذلك، فلا يزال يكرر عليه العذاب حتى يموت، ويعاقب ميتاً مخافة ان يتماوت. ومنهم من كان يعلق المعذب بابهام يديه في سقف الدار يشعل النار تحته، ويطول تعليقه، فربما يسقط فيها، فيسحب من النار ويلقوه على الأرض حتى يفيق، ثم يعلقه ثانياً.

«واستمر هذا البلاء والعذاب بأهل دمشق تسعة عشر يوماً، آخرها يوم الثلاثاء ثامن عشرين شهر رجب من سنة ثلاث وثمانمائة، فهلك في هذه المدة بدمشق بالعقوبة والجوع خلق لا يعلم عددهم إلا الله تعالى.

«فلما علمت امراء تيمور انه لم يبق بالمدينة شيء خرجوا إلى تيمور، فسألهم: هل بقي لكم تعلق في دمشق؟ فقالوا: لا، فأنعم عند ذلك بمدينة دمشق على اتباع الأمراء فدخلوها يوم الاربعاء آخر رجب، ومعهم سيوف مسلولة مشهورة وهم مشاة، فنهبوا ما قدروا عليه من آلات الدور وغيرها، وسبوا نساء دمشق بأجمعهن، وساقوا الأولاد والرجال، وتركوا من الصغار من عمره خمس سنين فما دونها، وساقوا الجميع مربوطين في الحبال.

«ثم طرحوا النار في المنازل والدور والمساجد، وكان يوم عاصف الريح، فعم الحريق جميع البلد حتى صار لهيب النار يكاد ان يرتفع إلى السحاب، وعملت النار في البلد ثلاثة ايام بلياليها آخرها يوم الجمعة.

«وكان تيمور ــ لعنه الله ــ سار من دمشق في يوم السبت ثالث شهر شعبان بعد ما أقام على دمشق ثمانين يوماً، وقد احترقت كلها وسقطت سقوف جامع بني أمية من الحريق، وزالت ابوابه وتفطر رخامه، ولم يبق غير جدره قائمة. وذهبت مساجد دمشق ودورها وقياسرها وحماماتها وصارت أطلالاً بالية ورسوماً خالية، ولم يبق بها [دابة تدب] الا اطفال يتجاوز عددهم [آلاف] فيهم من مات، وفيهم من سيموت من الجوع»[٢].

قاد المماليك حملات على معاقل الشيعة في سوريا ومعاقل الموارنة في لبنان، كما انهم قاموا بحملات ضد ارمينية.

كانت منطقة الشرق الأدنى (الاوسط) في أواخر القرن التاسع (الخامس عشر) والعاشر (السادس عشر) يتوزعها ثلاث قوى ــ الفرس والاتراك والمماليك. وكان المماليك قد بلغت دولتهم من الكبر عتياً، وكان الفرس بعيدين عن الجناح الغربي للهلال الخصيب، لكن الاتراك كان فيهم نشاط وقدرة وكانت لهم رغبة في القتال، فلم يلبث سليم الأول ان قاد جيوشه ضد السلطان الغوري، الذي انهزم وقتل في معركة مرج دابق قرب حلب سنة ٩٢٢ هـ ـ ١٥١٦م، واستولى الاتراك بذلك على سوريا ولبنان

وفلسطين. وكان من سوء حظ طومان باي، خليفة الغوري، ان انهزم هو الآخر قرب القاهرة سنة ٩٢٣ هـ ـ ١٥١٧م، فسقطت مصر أيضاً في ايدي العثمانيين. وبذلك زالت دولة المماليك.

كان المماليك قد تعرفوا إلى استعمال البارود في العقد السابع من القرن الثامن (الرابع عشر)، وفي القرن التاسع (الخامس عشر) كانوا يصنعون الاسلحة النارية على رواية ابن تغري بردي. لكن سلاطين المماليك قصروا استعمال المدافع على الحصون، ولم يدخلوا بها المعارك. ويبدو ان استعمال المدافع لاغراض الحصار والدفاع لم يقتض تبديلاً جذرياً في تنظيم الجند والجيش، الذي كان قوامه اصلاً الرقيق المدرب على استعمال السيف ثم الغدارة. ومثل هذا الجيش ما كان يتسع للمدافع واعمالها، كما ان المماليك لم يكونوا مهيئين، لا نفسياً ولا اجتماعياً، لتبديل نظامهم العسكري تبعاً لحاجات الاسلحة الجديدة.

وقد ادرك سلاطين المماليك المتأخرون الخطر العثماني الرابض في الشمال، واخذوا يشجعون صنع المدافع. وقد خلّف لنا ابن تغري بردي وصفاً للمدافع ولتجربتها يرجع إلى ايام خشقدم، جاء فيه قوله:

«وفي يوم الثلاثاء رابع عشرة رسم السلطان بتصريخ المدفع السلطاني الذي سبكه للسلطان الاستاذ إبراهيم الحلبي بقلعة الجبل، وصُرِّخ بين يدي السلطان في أواخر رمضان من تحت القلعة إلى جهة الجبل الأحمر غير مرة ثم نقل إلى ذيل الجبل الأحمر بالقرب من قبة النصر تجاه ظهر زاوية الشيخ عليّ كهنبوش خارج القاهرة، ووضع على صورة عالية ووضع رجل المدفع نحو الجبل المذكور وفمه إلى جهة خانقاة سرياقوس. وصُرِّخ هناك في يوم الخميس تاسع هذا الشهر مرتين في الملأ من الناس بحضرة جماعة من امراء الألوف واعيان الدولة وقيس مسافة سقوط حجر المدفع المذكور فجاء اربعة آلاف ذراع وستمائة ذراع وعشرين ذراعاً بالذراع الجديد، وكان في المرة التي صرخ فيها بين يدي السلطان لم يقدر احد على قياسه لأنه كان صرخ نحو الجبل ولم تعلم مسافة سقوطه. ولم احضر انا هذا القياس الثاني ولا نقل إليّ من ثقة بل سمعته من افواه الناس وفيه اختلاف من زيادة ونقص. وقد سألني السلطان عن أمره ومسافة سقوط حجر المدفع فعرّفته انني لم احرره فسألني ان احرره في المرة الثالثة فقلت له لا اعلم زنة المدفع ولا زنة حجره ولا زنة باروده. فأملى علي جميع ذلك وغيره من لفظه حسبما تقف عليه ان شاء الله في هذا المحل فتأهبت لذلك. فلما كان يوم الثلاثاء هذا وصرِّخ المدفع ثالث مرة من مكانه المذكور فكان سقوط حجره الثاني تجاه مسجد التبن من المطرية وهو ابعد مسافة من الحجر الأول. وتوليت انا ومن اثق به قياس هذه المسافة بالضبط والتحرير الزائد فكان طول ذلك ٥٦٤٨ ذراعاً وكسراً بالذراع الجديد... وهذا شيء من النوادر الغريبة التي لم نعهدها

ولا سمعنا بمثلها في سالف الأعصار. فتعجبت الناس من أمر هذا المدفع غاية العجب وكان لتصريخه يوم مشهود من كثرة الخلائق وبالله لولا انني شاهدت ذلك ما اثبته في تاريخي لغرابة ما شاهدته من عظيم أمره وكل ذلك بسعادة السلطان خلد الله ملكه. والذي اعتبرته من أمر هذا المدفع المذكور من املاء السلطان ومباشرتي بنفسي ان طوله ١٥ شبراً وبالذراع خمسة وثلاث ارباع ووسع فوهته ثلاث وثلاث ارباع ذراع دوراً وسمكه نحو من ثلث ذراع. وهو قطعة واحدة مضلع مشرّف حلو الشكل. واما زنته فمائة وسبعون قنطاراً بالمصري، وزنة حجره المرمى به اربعة قناطير بالمصري وزنة باروده سبعة وثلاثون رطلاً بالمصري أيضاً».[٣]

واجه الغوري الخطر العثماني بنفسه، وأمر بزيادة المصنوع من المدافع، لكنه قصرها على حاجات الدفاع والحصار. ورغبة منه في ان يساوي بين جنوده والجنود العثمانيين احيى الفروسية، بحيث يتاح لجنوده التدرب الجيد. وادرك ان الجند العثماني كان يعتمد الاسلحة النارية، فشد ازر جنوده بادخال البنادق في تسليحهم. وقد كان هؤلاء جنوداً من مستوى اجتماعي دون مستوى الجندي العادي، وكثيرون منهم كانوا عبيداً. لكن الذي لم يدركه الغوري، أو لم يكن بإمكانه ان يدركه، هو ان الجندي العثماني كانت تحرسه المدافع في الميدان والمعركة وتحمي تقدمه. لذلك لما أطبقت جيوش سليم الأول في مرج دابق (قرب حلب) على جنود الغوري، لم يكن هؤلاء كفؤاً لآلات النار، مع انهم قاتلوا بشجاعة وبأس شديدين. وقد كان انكسار المماليك هناك، كما كان انكسارهم قرب القاهرة، يرجع، إلى درجة كبيرة، إلى انهم لم يتنبهوا إلى معنى التغيير الكبير الذي نشأ عن استعمال المدفع في المعركة بالنسبة إلى الجند. وقد كان الانتصار العثماني، بالاضافة الى العوامل الأخرى، انتصاراً للاساليب والاسلحة الجديدة.

كان المماليك شديدي العناية بالعمارة، كما تشهد بذلك آثار عمارتهم التي تزين القاهرة وغيرها من المدن. وكانوا يعنون بالمدارس وقد شجعوا التعليم اكثر مما كان منتظراً من جماعة لها مثل تجربتهم ومهنتهم. وقد كانت المنطقة التي وقعت تحت نفوذهم، كما كانت لقرون خلت، ملتقى التجارة، وبذلك وفرت لاطماع المماليك حصة كبيرة من الفوائد التجارية. الا ان المماليك لم يتيحوا لفلاحي سوريا وفلسطين الوقت ولا التشجيع اللازمين لتطوير نشاطهم الزراعي إلى غايته. ومن ثم فانه لما تحولت الطرق التجارية الى جنوب افريقيا في القرن التاسع (الخامس عشر)، لم يكن للمماليك ما يمكن ان يعتمدوا عليه لسد حاجاتهم، وبذلك نال السكان الكثير من المظالم.

يضاف إلى ذلك ان المنطقة اصابها وبأ في سلطنة برسباي (٨٢٥ ـ ١٤٢٢ هـ/ ٨٤٢ ـ ١٤٣٨م). ومع انه لم يبلغ في الشدة ما بلغه الوبأ الأسود الذي عرفته اوروبا،

فقد بلغ من السوء حداً انه اثر في التكوين الاجتماعي والاقتصادي في البلاد المعنية. وقد خلف لنا ابن تغري بردي، وهو في مقدمة اخباريي الفترة، وصفاً حياً للوبأ اذ قال انه بدأ في حلب ثم انتشر جنوباً عبر بلاد الشام كلها. وقد كانت نكبة بلاد صفد والقدس والكرك ونابلس كبيرة جداً، وحتى العربان في الصحراء اصيبوا به. ولم تنج منه سوى امرأة واحدة عجوز في جنين، وذلك لأنها هربت. ومثل ذلك وقع في الرملة وغيرها من الأماكن.... وقد توفي خمسمائة شخص في يوم واحد في حلب، وخسرت دمشق ١٢٠٠ نسمة في رجب من عام ٨٤٩/ تشرين الأول عام ١٤٤٥.

كانت المنطقة التي تشمل اليوم سوريا ولبنان وفلسطين والأردن في ايام المماليك، مقسمة إلى ست ولايات تسمى واحدتها مملكة. وكانت مملكة دمشق اوسعها إذ شملت اواسط سوريا والجزء الأكبر من فلسطين والمنطقة الممتدة شرقي الأردن. وحتى بعض المناطق اللبنانية كانت تتبع نائب السلطنة فيها. وكانت الإدارة مركزية حتى أن الأمور الطفيفة كان لا بد من الرجوع بشأنها إلى دمشق.

ونحن إذا نظرنا إلى المسألة من الناحية العامة وجدنا انه كان ثمة ثلاثة انواع من اصحاب الوظائف المسؤولين عن شؤون الولاية باشراف نائب السلطنة. وكان لكل من هذه الفئات واجبات تقوم بها ومنها اشتقت تسميتها. وقد كان اصحاب السيوف يحتلون أعلى الرتب، ومنهم امراء الجند واصحاب الشرطة ونظار الاعشار واصحاب البريد، وجميعهم، دون استثناء، كانوا من الارستقراطية العسكرية المملوكية. وكان يليهم اصحاب الوظائف الديوانية وكانت وظائفهم مدنية، اذ كان عليهم ان يقوموا بحفظ القيود والسجلات لاصحاب السيوف المتقدم ذكرهم. وقد كان بعض هؤلاء من المماليك، لكن أهل البلاد كان يسمح لهم بتولي بعض هذه الوظائف. اما الفئة الثالثة، ولم تكن اقل الفئات أهمية، فهي اصحاب الوظائف الدينية، وكان يوكل إليهم اقامة العدل حسب الشريعة الغراء والنظر في الأسواق والاشراف على التداريس والزوايا والمساجد والبيمارستانات. وقد كان هؤلاء يرجعون إلى نائب السلطنة، باستثناء ناظر القلعة وقاضي القضاة. ذلك ان السلطان لم يكن يثق بنوابه، فكان لقلعة دمشق (وحلب أيضاً) حامية خاصة يعين السلطان اميرها من القاهرة ويكون مسؤولاً تجاهه.

ان النظر في القضاء كان دوماً موضع رعاية خاصة في الاسلام، وكان يغلب على اصحابه ابتعادهم عن الاهواء التي تعتور الإدارة المحلية، بحيث ان رئيس الدولة كان يحتفظ لنفسه بحق تعيين كبار رجال القضاء. وقد اتبع المماليك هذه السنّة. وليس يعني هذا ان القضاة جميعهم كانوا في ايام المماليك بمنأى عن المؤثرات المحلية، لكن هذا التعيين كان عوناً ادبياً لهم. وما اكثر ما وقع الخلاف بين القضاة والولاة، وكم نجح الولاة في حمل السلطان على عزل القاضي، الا ان القضاء كان على الاقل يتمتع بهذه الحصانة نظرياً.

وكان الجيش يتألف من نوعين: اهل الحلقة، وهم الجند النظامي، وحرس الوالي الخاص. يضاف إلى هذين النوعين المتطوعة والرديف الذين يدعون في ايام الحاجة والشدة. وقد قدر عدد الجند الذي كان باستطاعة المماليك جمعه بين ٤٥,٠٠٠ و٦٠,٠٠٠، وكان يتألف من جميع العناصر التي تزخر بها المنطقة.

كانت موارد المملكة، شأنها في ذلك شأن الامبراطورية المملوكية، يدخل في عدادها الخراج والزكاة والجزية والعشور واجور املاك الدولة. وكان السلطان كثيراً ما يلزم الناس بضرائب شاذة تبعاً لرغبته مثل المصادرة التي كان حتى نواب السلطنة يمكنهم القيام بها وبالمطاليب التي قد تهبط على الناس فجأة. اما المصاريف فكانت تشمل نفقات الإدارة والجيش والبريد والاهتمام بتنظيف الانهار والترع وبناء الجسور والاسوار.

ويعود سبب استمرار الحياة في دمشق إلى وفرة المياه فيها، لكن الاحداث السياسية هي التي حددت شكل المدينة وحالها. فقد ساد سوريا في القرن الخامس (الحادي عشر) اضطراب اشرفت فيه البلاد على الفوضى. فانتشرت الحروب الأهلية والنزاعات الاقطاعية وغزوات البدو بحيث لجأ السكان الى داخل المدن بحثاً عن الامان والطمأنينة. وترتب على ذلك ان الضواحي التي كانت معروفة قبلاً اهملها الدمشقيون. وكان الحاكم السلجوقي يعنى بالاسوار وكان الجامع ملتقى الناس المفضل، وكانت الأسواق تفي بحاجة الناس غذاء ومنتدى، وما عدا هذا «فقد بدت المدينة وكأنها مجموعة حارات مستقلة، لكل حياتها الخاصة بها، منفصلة عن جارتها. وكانت كل من هذه الحارات كأنها بلدة مصغرة بمسجدها وسقاية الماء فيها وحماماتها وسوقها التي كانت تباع فيها حاجاتها... وكانت بيوت الحارة الواحدة يوصل إليها بطريق واحد له باب يقفل ليلاً».

وما اكثر ما اضطر اهل دمشق إلى ان ينظموا انفسهم للدفاع عن مدينتهم. وكان مثل هذا الأمر يتخذ شكل تجمعات حرفية (مهنية). فقد كان لكل حارة احداثها وعلى رأسهم شيخ يشرف على تنظيمهم. فإذا تعرضت مصلحة المدينة للخطر تقدم الاحداث إلى العمل مجتمعين. ومن ثم فقد كانت هذه التجمعات الحرفية تؤدي غرضين: فمن الجهة الواحدة كانت تحمي اعضاءها من المنافسة مهنياً وتحول دون ظلم الحكام لهم. ومن الجهة الأخرى كانت الجماعات هذه تنظم الاحداث حرساً للدفاع عن المدينة. وقد حدث في القرن الخامس (الحادي عشر) ان تم لبني السيوفي رئاسة متوارثة بالاضافة إلى مشيخة الاحداث. وفي هذه الحالة كان هذا الشخص «يمثل مصالح المدينة ويدفع عنها الخطر الخارجي ويتوسط بين الناس والوالي، الذي كثيراً ما كان يلجأ إلى القلعة، وكان في وساطته تدعمه قوة الاحداث». ولم تعد دمشق في هذه الفترة ذات شخصية متماسكة أو عضواً حياً نشيطاً. لقد اصبحت مجموعة

من الأفراد ذوي المصالح المتعارضة، بحيث يعنى كل بما ينفعه في دائرته الخاصة به، مسخراً الظروف جميعها لاغراضه الذاتية، بقطع النظر عن حاجات جيرانه. لكن دمشق التي كانت ممزقة اجتماعياً وسياسياً كانت نشيطة في اقتصادها وتنعم بشيء من الازدهار.

كان ظهور الزنكيين والايوبيين في القرن السادس (الثاني عشر) مؤذناً بعودة القانون والنظام إلى البلاد، كما ان حكام سوريا، بسبب ضغط الصليبيين عليهم، اخذوا الأمور بعين الجد. ونالت دمشق، وهي العاصمة، عناية كبيرة. فحصنت اسوارها وقلعتها جيداً، ووسعت قلعتها بحيث انها لم تعد المعقل الأخير للحامية المحاصرة فحسب، بل اصبحت تتسع لسكن السلطان ومخازن الأرزاق والذخيرة ودار الضرب والسجن. وكان لها جامعها وحماماتها واسواقها. وقد قال ابن جبير، الرحالة المغربي الذي زارها في ايام صلاح الدين، في وصف القلعة: «ولهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان، منحازة في الجهة الغربية من البلد، وهي بازاء باب الفرج، من ابواب البلد. وبها جامع السلطان يجمّع فيه». [1].

وقد ادت اعادة القانون والنظام في القرن السادس (الثاني عشر) إلى تحسين الحالة الاقتصادية. وافادت دمشق من ذلك تجارة وصناعة. على ان المدينة لم تتبدل احوالها الداخلية كثيراً، فقد ظلت طرقها ضيقة مزدحمة، وظلت الحارات اساس الحياة المهنية والحياة الاجتماعية الدينية. الا ان اصحاب المهن وضعوا تحت مراقبة دقيقة. فقد كان هؤلاء ينظر اليهم على انهم سبيل يلجأ إليها الشعب المغلوب على أمره للتعبير عن ظلاماته عن طريق التشيع، الأمر الذي كان يعتبر خطراً على الدولة السنية. ولعل أولي الأمر كانوا مصيبين في نظرتهم هذه إلى اصحاب المهن.

لم يعد السكان يشعرون بالحاجة إلى ضرورة البقاء داخل اسوار دمشق. ومن ثم فقد طرأ على الضواحي تطور جذري، وهو تطور لم يكن يجارية الا التطور الاقتصادي في المدينة. وقد استمرت هاتان الظاهرتان في حياة دمشق طوال القرون السابع (الثالث عشر) والثامن (الرابع عشر) والتاسع (الخامس عشر).

وكان المماليك ادق رقابة على الولايات واشد في فرض القانون والنظام. وقد استمرت دمشق تنمو وتتطور في ظل النظام الجديد في الاتجاه الذي اوجزنا وصفه. وكان المماليك يعتبرونها المدينة الأولى بعد القاهرة، ومركزاً حربياً هاماً. وقد زادت الضواحي، وخاصة لارتباطها باسباب الجيش. فمن ذلك ميدان تحت القلعة الذي كان فيه سوق الخيل والسروج وما إلى ذلك من اشغال الجلود. وكان للدباغين ثمة مكان أيضاً. وعلى مقربة من هذا الميدان، وإلى الشمال منه، قام سوق ساروجا الذي نما نمواً عجيباً. اما من حيث مناطق السكن فقد كان اتساع الصالحية في القرنين السابع (الثالث عشر) والثامن (الرابع عشر) خير مثل على التطور والتقدم. لقد كانت بلدة

خارج الاسوار. وللدمشقيين غرام قديم بالتنزه في ارباض مدينتهم. وقد اقيمت، في الفترة التي نعرض لها، اماكن ثابتة للتنزه والسرور مثل الغوطة والربوة ووادي البنفسج وبين النهرين والليلكي، وهي اوسعها ذكراً.

ومن اهم صفات المدينة في الفترة المذكورة كثرة المدارس. ولا يعني هذا ان دمشق لم تكن من قبل دار علم، بل ان المدرسة كانت موضع اهتمام خاص ايام آل زنكي والأيوبيين والمماليك. فقد رافق ظهور هذه الدول احياء للسنة ونفوذها، واختفاء للشيعة، التي كانت قد انتشرت انتشاراً لا بأس به في سوريا. وكانت المدرسة، على نحو ما نظمها السلاجقة، على العموم تحت اشراف الدولة. ثم اصبحت في ايام الايوبيين، اداة لمكافحة الشيعة ودعم الرأي السني الرسمي. وقد بنى الولاة المدارس وشجعوا غيرهم على بنائها. وكانت المدارس دوماً غنية في ما يحبس عليها من اوقاف.

الهوامش

(١) ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ، ج١٤ ص ٦ ـــ ٢٥.
(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١٢ ص ٢٣٠ ـــ ٢٤٨.
(٣) ابن تغري بردي: حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور (كاليفورنيا ١٩٣٢)، ج٣ ص ٤٧٤ ـــ ٤٧٦.
(٤) رحلة ابن جبير، (تحقيق الدكتور حسين نصار) ص ٢٧٧.

٢ ـ دمشق صلاح الدين وابن جبير

وصل ابن جبير، الرّحالة المغربي المشهور، إلى دمشق ضحى الرابع والعشرين لربيع الأول سنة ٥٨٠ هـ/ الخامس من تموز (يوليو) سنة ١١٨٤م، فلما اقترب منها من جهة الشمال وقع نظره على منظر خلاب للمدينة البديعة تدور بها الحدائق الواسعة ذات اللون الأخضر الداكن وسواقيها تلمع في أشعة الشمس. فلما استقرت به الحال وصف الانطباع الحي الذي تركه المنظر في نفسه، فقال في ذلك، باسلوبه البليغ:

«جنة المشرق، ومطلع حسنه المؤنق المشرق، وهي خاتمة بلاد الاسلام التي استقريناها، وعروس المدن التي اجتلیناها، قد تحلّت بأزاهير الرياحين، وتجلّت في حلل سندسية من البساتين، وحلّت من موضوع الحسن بالمكان المكين، وتزينت في مَنَصّتها اجمل تزيين، وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه صلى الله عليهما منها إلى ربوة ذات قرار ومعين، ظلّ ظليل، وماء سلسبيل، تنساب مذانبه انسياب الاراقم بكل سبيل، ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل، تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل، وتناديهم: هلموا إلى معرَّس للحسن ومقيل، قد سئمت ارضها كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الظمأ، فتكاد تناديك بها الصم الصلاب: «اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب»، قد احدقت البساتين بها احداق الهالة بالقمر، واكتنفتها اكتناف الكِمامة للزهر، وامتدت بشرقيّها غوطتها الخضراء امتداد البصر، فكل موضع لحظته بجهاتها الأربع نضرته اليانعة قيد النظر، ولله صدق القائلين عنها: «ان كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها، وان كانت في السماء فهي بحيث تُسامتها وتحاذيها»[1].

لم يكن ابن جبير رحالة فحسب، بل كان عالماً مسلماً وكان قبل هبوطه دمشق، قد زار مصر والعراق وكان قد ادى فريضة الحج. كان يتنقل مفتح العينين والاذنين، ويحرص على تلقف اخبار العلم والمدارس والمساجد والزوايا وغير ذلك من نواحي الحياة في الاماكن التي زارها. ونحن إذا رافقنا ابن جبير في زيارته لدمشق، التي قضى فيها شهرين وبعض الشهر، فاننا نحصل على صورة للمدينة على ما كانت عليه ايام صلاح الدين الايوبي، قبل ان يتولى المماليك الأمور ويطبقوا القانون والنظام بدقة، فيشجعوا السكان على السكنى خارج الاسوار. فهو يقول لنا ان المدينة لم تكن واسعة الرقعة:

«والبلد ليس بمفرط الكبر، وهو مائل للطول، وسككه ضيقة مظلمة، وبناؤه طين

وقصب، طبقات بعضها فوق بعض، ولذلك ما يسرع الحريق إليه، وهو كله ثلاث طبقات، فيحتوي من الخلق على ما تحتوي ثلاث مدن، لأنه اكثر بلاد الدنيا خلقاً، وحسنه كله خارج لا داخل»[٢].

«واسواق هذه البلدة من احفل اسواق البلد، واحسنها انتظاماً، وابدعها وضعاً، ولا سيما قيسارياتها، وهي مرتفعات كأنها الفنادق، مثقّفة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب القصور. وكل قيسارية منفردة بضبتها واغلاقها الجديدة. ولها أيضاً سوق، يعرف بالسوق الكبير، يتصل من باب الجابية إلى باب شرقي»[٣].

وقد لفتت المدينة أيضاً نظر بنيامين الططيلي، الذي زارها سنة ٥٥٨ هـ - ١١٦٣م وكتب عنها: «ان المدينة كبيرة وجميلة يدور بها سور ويحيط بها ريف جميل يمتد إلى نحو خمسة عشر ميلاً في حدائق وبساتين من اغنى ما عرف، بحيث انه لا مثيل لها على سطح الأرض لا من حيث عددها ولا من حيث جمالها. هنا يجري نهرا ابانا وفرفر اللذان ينبعان من الجبل التي ترتكز المدينة عليه، وابانا يخترق دمشق، وثمة قساطل تحمل ماءه إلى الشوارع والأسواق. وفيها يجتمع التجار من جميع اقطار الدنيا حيث يتبادلون السلع على مقياس واسع. وفرفر يمر بالبساتين والحدائق في الضواحي ويرويها»[٤].

ولما كان ابن جبير مسلماً ورعاً تقياً، فقد ملأ الجامع الأموي قلبه حبوراً. وقضى فيه ساعات وتسلق قبته وعدد جميع الأماكن والمواقع المباركة فيه. وقد كان الجامع دوماً أروع معالم المدينة، لذلك فانه حري بنا ان نرافق ابن جبير في زيارته:

«هو من اشهر جوامع الاسلام حسناً، واتقان بناء، وغرابة صنعة، واحتفال تنميق وتزيين. وشهرته المتعارفة في ذلك تغني عن استغراق الوصف فيه. ومن عجيب شأنه انه لا تنسج به العنكبوت ولا تدخله، ولا تلم به الطير المعروفة بالخطاف. انتدب لبنائه الوليد بن عبد الملك رحمه الله، ووجه إلى ملك الروم بالقسطنطينية يأمره باشخاص اثني عشر ألفاً من الصنّاع من بلاده، وتقدم إليه بالوعيد في ذلك ان توقف عنه. فامتثل أمره مذعناً، بعد مراسلة جرت بينهما في ذلك، مما هو مذكور في كتب التواريخ. فشرع في بنائه، وبُلغت الغايات في التأنق فيه، وأنزلت جدره كلها بفصوص من الذهب المعروف بالفسيفساء، وخلطت بها انواع من الاصبغة الغريبة، قد مثّلت اشجاراً، وفُرعت اغصاناً منظومة بالفصوص، ببدائع من الصنعة الأنيقة المعجزة وصف كل واصف، فجاء يغشي العيون وميضاً وبصيصاً...

«ذرعه في الطول من الشرق إلى الغرب مئتا خطوة، وهما ثلاث مئة ذراع. وذرعه في السعة من القبلة إلى الجوف مئة خطوة وخمس وثلاثون خطوة، وهي مئتا ذراع، فيكون تكسيره من المراجع الغربية اربعة وعشرين مرجعاً. وهو تكسير مسجد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، غير ان الطول في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم،

من القبلة الى الشمال. وبلاطاته المتصلة بالقبلة ثلاثة، مستطيلة من الشرق إلى الغرب، سعة كل بلاط منها ثمان عشرة خطوة، والخطوة ذراع ونصف، وقد قامت على ثمانية وستين عموداً، منها أربع وخمسون سارية، وثماني ارجل جصيِّة تتخللها، واثنتان مرخمة ملصقة معها في الجدار الذي يلي الصحن، واربع ارجل مرخمة ابدع ترخيم، مرصعة بفصوص من الرخام ملونة، قد نظمت خواتيم، وصورت محاريب واشكالاً غريبة، قائمة في البلاط الأوسط، تقل قبة الرصاص مع القبة التي تلي المحراب، سعة كل رجل منها ستة عشر شبراً، وطولها عشرون شبراً، وبين كل رجل ورجل في الطول سبع عشرة خطوة، وفي العرض ثلاث عشرة خطوة، فيكون دور كل رجل منها اثنين وسبعين شبراً. ويستدير بالصحن بلاط من ثلاث جهاته: الشرقية، والغربية، والشمالية، سعته عشر خطا، وعدد قوائمه سبع واربعون: منها اربع عشر من الجص، وسائرها سوار. فيكون سعة الصحن ـ حاشا المسقّف القبلي والشمالي ـ مئة ذراع. وسقف الجامع كله من خارج ألواح رصاص.

«وأعظم ما في هذا الجامع المبارك، قبة الرصاص المتصلة بالمحراب وسطه، سامية في الهوا، عظيمة الاستدارة، قد استقل بها هيكل عظيم، هو غارب لها، يتصل من المحراب إلى الصحن، وتحته ثلاث قباب: قبة تتصل بالجدار الذي إلى الصحن، وقبة تتصل بالمحراب، وقبة تحت قبة الرصاص بينهما. والقبة الرصاصية قد أغصّت الهواء وسطه، فإذا استقبلتها أبصرت منظراً رائعاً، ومرأى هائلاً، يشبهه الناس بنسر طائر، كأن القبة رأسه، والغارب جؤجؤه، ونصف جدار البلاط عن يمين، ونصف الثاني عن شمال، جناحاه. وسعة هذا الغارب من جهة الصحن ثلاثون خطوة، فهم يعرفون الموضع من الجامع بالنسر لهذا التشبيه الواقع عليه. ومن أي جهة استقبلت البلد، ترى القبة في الهواء منيفة على كل علو، كأنها معلقة من الجو.

«والجامع المكرم مائل إلى الجهة الشمالية من البلد، وعدد شمسياته الزجاجية المذهبة الملونة اربع وسبعون: منها في القبة التي تحت قبة الرصاص عشر، وفي القبة المتصلة بالمحراب، مع ما يليها من الجدار، اربع عشرة شمسية، وفي طول الجدار عن يمين المحراب ويساره أربع وأربعون، وفي القبة المتصلة بجدار الصحن ست، وفي ظهر الجدار إلى الصحن سبع وأربعون شمسية.

«وفي الجامع المكرم ثلاث مقصورات: مقصورة الصحابة رضي الله عنهم، وهي أول مقصورة وضعت في الاسلام، وضعها معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنهما، وبإزاء محرابها عن يمين مستقبل القبلة باب حديد، كان يدخل معاوية رضي الله عنه إلى المقصورة منه إلى المحراب. وبإزاء محرابها لجهة اليمين مصلى ابي الدرداء رضي الله عنه، وخلفها كانت دار معاوية رضي الله عنه. وهي اليوم سماط عظيم للصفارين، يتصل بطول جدار الجامع القبلي، ولا سماط احسن منظراً منه، ولا اكبر

طولاً وعرضاً. وخلف هذا السماط على مقربة منه دار الخليل برسمه، وهي اليوم مسكونة، وفيها مواضع للكمّادين. وطول المقصورة الصحابية المذكورة اربعة واربعون شبراً، وعرضها نصف الطول. ويليها لجهة الغرب، في وسط الجامع، المقصورة التي احدثت عند اضافة النصف المتخذ كنيسة إلى الجامع، حسبما تقدم ذكره. وفيها منبر الخطبة، ومحراب الصلاة. وكانت مقصورة الصحابة أولاً في نصف الخط الاسلامي من الكنيسة، وكان الجدار حيث اعيد المحراب في المقصورة المحدثة. فلما اعيدت الكنيسة كلها مسجداً، صارت مقصورة الصحابة طرفاً في الجانب الشرقي، واحدثت المقصورة الأخرى وسطاً، حيث كان جدار الجامع قبل الاتصال. وهذه المقصورة المحدثة أكبر من الصحابية. وبالجانب الغربي بإزاء الجدار مقصورة اخرى، هي برسم الحنفية، يجتمعون فيها للتدريس، وبها يصلون. وبإزائها زاوية محدقة بالاعواد المشرجبة، كأنها مقصورة صغيرة. وبالجانب الشرقي زاوية اخرى على هذه الصفة، هي كالمقصورة، كان وضعها للصلاة فيها احد امراء الدولة التركية، وهي لاصقة بالجدار الشرقي. وبالجامع المكرم عدة زوايا على هذا الترتيب، يتخذها الطلبة للنسخ، والدرس، والانفراد عن ازدحام الناس، وهي من جملة مرافق الطلبة.

«وفي الجدار المتصل بالصحن المحيط بالبلاطات القبلية، عشرون باباً متصلة بطول الجدار، قد علتها قِسي جصّية مخرمة كلها على هيئة الشمسيات، فتبصر العين من اتصالها اجمل منظر وأحسنه. والبلاط المتصل بالصحن، المحيط بالبلاطات من ثلاث جهات، على أعمدة. وعلى تلك الأعمدة ابواب مقوسة، تقلها أعمدة صغار، تطيف بالصحن كله. ومنظر هذا الصحن من اجمل المناظر واحسنها، وفيه مجتمع اهل البلد، وهو متفرجهم ومتنزههم كل عشية تراهم فيه ذاهبين وراجعين، من شرق إلى غرب، من باب جيرون إلى باب البريد: فمنهم من يتحدث مع صاحبه، ومنهم من يقرأ، لا يزالون على هذه الحال من ذهاب ورجوع، إلى انقضاء صلاة العشاء الآخرة، ثم ينصرفون. ولبعضهم بالغداة مثل ذلك. واكثر الاحتفال إنما هو بالعشي. فيخيل لمبصر ذلك انها ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم، لما يرى من احتفال الناس واجتماعهم، لا يزالون على ذلك كل يوم. واهل البطالة من الناس يسمونهم الحرّاثين.

«للجامع ثلاث صوامع: واحدة في الجانب الغربي، وهي كالبرج المشيّد، تحتوي على مساكن متسعة، وزوايا فسيحة، راجعة كلها إلى اغلاق، يسكنها اقوام من الغرباء اهل الخير، والبيت الأعلى منها كان معتكف ابي حامد الغزالي رحمه الله، ويسكنه اليوم الفقيه الزاهد ابو عبد الله ابن سعيد، من اهل قلعة «يحصب» المنسوبة لهم، وهو قريب لبني سعيد المشتهرين بالدنيا وخدمتها، وثانية بالجانب الغربي على هذه الصفة، وثالثة بالجانب الشمالي على الباب المعروف بباب الناطفيين...

«وكان هذا الجامع المبارك، ظاهراً وباطناً، منزّلاً كله بالفصوص المذهبة،

مزخرفاً بأبدع زخاريف البناء المعجز الصنعة. فادركه الحريق مرتين، فتهدم وجدد، وذهب اكثر رخامه، فاستحال رونقه، فأسلم ما فيه اليوم قبلته مع الثلاث قباب المتصلة بها. ومحرابه من أعجب المحاريب الاسلامية حسناً، وغرابة صنعة، يتقد ذهباً كله. وقد قامت في وسطه محاريب صغار متصلة بجداره، تحفها سويريات مفتولات فتل الاسورة، كأنها مخروطة، لم يرَ شيء اجمل منها، وبعضها حمر كأنها مرجان. فشأن قبلة هذا الجامع المبارك ــ مع ما يتصل بها من قبابه الثلاث، واشراق شمسياته المذهبة الملونة عليه، واتصال شعاع الشمس بها، وانعكاسه إلى كل لون منها، حتى ترتمي الابصار منه أشعة ملونة...

«وفي هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم، كل يوم اثر صلاة الصبح، لقراءة سبع من القرآن دائماً، ومثله اثر صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية، يقرأون فيها من سورة الكوثر إلى الخاتمة، ويحضر في هذا المجتمع الكوثري كل من لا يجيد حفظ القرآن. وللمجتمعين على ذلك اجراء كل يوم، يعيش منه أزيد من خمس مئة انسان. وهذا من مفاخر هذا الجامع المكرم. فلا تخلو القراءة منه صباحاً ولا مساء. وفيه حلقات للتدريس للطلبة، وللمدرسين فيها اجراء واسع. وللمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي، يجتمع فيها طلبة المغاربة، ولهم اجراء معلوم. ومرافق هذا الجامع المكرم للغرباء، واهل الطلب، كثيرة واسعة. وأغرب ما يحدث به ان سارية من سواريه، هي بين المقصورتين القديمة والحديثة، لها وقف معلوم يأخذه المستند اليها للمذاكرة والتدريس. ابصرنا بها فقيهاً من اهل اشبيلية، يعرف بالمرادي. وعند فراغ المجتمع السبعي من القراءة صباحاً، يستند كل انسان منهم إلى سارية، ويجلس امامه صبي يلقنه القرآن. وللصبيان أيضاً على قراءتهم جراية معلومة. فأهل الجدة من آبائهم ينزهون ابناءهم عن اخذها، وسائرهم يأخذها، وهذا من المفاخر الاسلامية» (٥).

لم يكن افتتان ابن جبير بالمدارس والمستشفيات والزوايا اقل من افتتانه بالجامع. فقد كانت تلك بيوت العلم في الاسلام ورمز التماسك الاجتماعي واعمال البر والاحسان. وحماسته لها تبدو واضحة في وصفه اياها: «وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة، وبها مارستانان قديم وحديث، والحديث احفلهما واكبرهما، وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً، وله قَوَمة بأيديهم الأزمة المحتوية على اسماء المرضى، وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك. والأطباء يبكرون إليه في كل يوم، ويتفقدون المرضى، ويأمرون باعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية، حسبما يليق بكل انسان منهم. والمارستان الآخر على هذا الرسم، لكن الاحتفال في الجديد اكثر. وهذا القديم هو غربي الجامع المكرم. وللمجانين المعتقلين أيضاً ضرب من العلاج، وهم في سلاسل موثقون، نعوذ بالله من المحنة وسوء القدر...

«وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الاسلام، والمدارس كذلك. ومن

احسن مدارس الدنيا منظراً مدرسة نور الدين رحمه الله، وبها قبره نوره الله. وهي قصر من القصور الانيقة، ينصب فيها الماء في شاذَروان وسط نهر عظيم، ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة إلى ان يقع في صهريج كبير وسط الدار. فتحار الأبصار في حسن ذلك المنظر، فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين رحمه الله. واما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة، وهي برسم الصوفية. وهي قصور مزخرفة، يطّرد في جميعها الماء على احسن منظر يبصر.

«وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد، لانهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها، وفرّغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في اسباب المعايش، واسكنهم في قصور تذكرهم قصور الجنان. فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعيم الدنيا والآخرة. وهم على طريقة شريفة، وسنة في المعاشرة عجيبة، وسيرتهم في التزام رتب الخدمة غريبة، وعوائدهم من الاجتماع للسماع المشوق جميلة، وربما فارق منهم الدنيا في تلك الحالات المنفعل المثابر رقة وتشوقاً. وبالجملة فاحوالهم كلها بديعة، وهم يرجون عيشاً طيباً هنيئاً»(٦).

انه من نافل القول ان نذكر ان ابن جبير لم يقصر نشاطه أو وصفه على الجزء المسور من المدينة، فقد تنقل وتمتع وزار الأماكن المعظمة تبركاً بالزيارة. فدمشق كانت قد اصبحت في ايامه جزءاً لا يتجزأ من الأدب الديني الاسلامي. فالامويون (٤١ ـ ١٣٢ هـ/٦٦١ ـ ٧٥٠م) وخلفاؤهم من بعدهم اسبغوا على دمشق منزلة الكرامة. ففيها قتل قابيل اخاه هابيل، وفيها ولد ابراهيم، وفيها دفن رأس القديس يوحنا المعمدان، وفيها، وان جاءت آخراً فهي ليست الأقل أهمية، وجدت السيدة العذراء والمسيح ملاذاً. يضاف إلى ذلك ان مدافن المدينة كانت تحتوي على قبور عدد من الصحابة. ولا شك ان بعضهم مدفون هناك، لكن دمشق اصابها من التشريف اكثر من حصتها. وقد زار ابن جبير هذه المشاهد جميعها وامتلأ قلبه حبوراً لذلك. وتردد أيضاً على مواطن الحسن في ضواحي دمشق. وقد مر بنا وصفه للقلعة، فلنصحبه الآن في زيارة للمنطقة المصاقبة لها، وهي التي كانت تعرف في القرن السابع (الثالث عشر) باسم ميدان تحت القلعة. قال ابن جبير:

«ولهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان، منحازة في الجهة الغربية من البلد، وهي بإزاء باب الفرج من ابواب البلد. وبها جامع السلطان يجمّع فيه. وعلى مقربة منها، خارج البلد في جهة الغرب، ميدانان كأنهما مبسوطان خزًا لشدة خضرتهما، وعليهما حلق، والنهر بينهما، وغيضة عظيمة من الحور متصلة بهما. وهما من ابدع المناظر، يخرج السلطان اليهما، ويلعب فيهما بالصوالجة، ويسابق بين الخيل فيهما، ولا مجال للعين كمجالها فيهما. وفي كل ليلة يخرج ابناء السلطان إليهما للرماية، والمسابقة، واللعب بالصوالجة».

وقد رقي ابن جبير جبل قاسيون القابع غربي دمشق، حيث اشرف منه على المدينة وارباضها. ووصفه يضع امامنا صورة لدمشق كما كانت في القرن السادس (الثاني عشر)، كما يبين لنا ما كان قد لصق بها من القصص إلى ذلك الوقت، فقد قال:

«بجبل قاسيون أيضاً لجهة الغرب، على مقدار ميل أو أزيد من المولد المبارك، مغارة تعرف بمغارة الدم، لأن فوقها في الجبل دم هابيل قتيل أخيه قابيل، ابني آدم صلى الله عليه، يتصل من نحو نصف الجبل إلى المغارة. وقد ابقى الله منه في الجبل آثاراً حمراً في الحجارة، تحك فتستحيل، وهي كالطريق في الجبل، وتنقطع عند المغارة، وليس يوجد في النصف الأعلى من المغارة آثار تشبهها فكان يقال: انها لون حجارة الجبل، وإنما هي من الموضع الذي جرَّ منه القاتل لأخيه حيث قتله حتى انتهى إلى المغارة، وهي من آيات الله تعالى، وآياته لا تحصى. وقرأنا في تاريخ ابن المعلى الاسدي: ان تلك المغارة صلى فيها ابرهيم، وموسى، وعيسى، ولوط، وايوب، عليهم وعلى نبينا الكريم افضل الصلاة والسلام. وعليها مسجد قد أتقن بناؤه، ويصعد إليه على أدراج، وهو كالغرفة المستديرة، وحولها اعواد مشرجبة مطيفة بها، وبه بيوت ومرافق للسكنى. وهو يفتح كل يوم خميس. والسرج من الشمع والفتائل تقد في المغارة، وهي متسعة. وفي أعلى الجبل كهف منسوب لآدم صلى الله عليه وسلم، وعليه بناء، وهو موضع مبارك. وتحته في حضيض الجبل مغارة، تعرف بمغارة الجوع، ذكر ان سبعين نبياً ماتوا فيها جوعاً، وكان عندهم رغيف، فلم يزل كل واحد منهم يؤثر به صاحبه، ويدور عليهم من يد إلى يد، حتى لحقتهم المنية، صلوات الله عليهم. وعلى هذه المغارة أيضاً مسجد مبني، وابصرنا فيه السرج تقد نهاراً.

«ولكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة، من بساتين وأرض بيضاء ورباع، حتى ان البلد تكاد الاوقاف تستغرق جميع ما فيها. وكل مسجد يستحدث بناؤه، أو مدرسة، أو خانقة، يعين لها السلطان اوقافاً تقوم بها وبساكنيها والملتزمين لها، وهذه أيضاً من المفاخر المخلدة. ومن النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة، وتنفق فيها الاموال الواسعة، وتعين لها من مالها الأوقاف. ومن الامراء من يفعل مثل ذلك، لهم في هذه الطريقة المباركة مسارعة مشكورة عند الله عز وجل.

«وبآخر هذا الجبل المذكور، في آخر البسيط البستاني الغربي من هذا البلد، الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله تعالى: مأوى المسيح وأمه صلوات الله عليهما، وهي من ابدع مناظر الدنيا حسناً، وجمالاً، واشراقاً، واتقان بناء، واحتفال تشييد، وشرف وضع، هي كالقصر المشيد، ويصعد اليها على ادراج. والمأوى المبارك منها مغارة صغيرة في وسطها، وهي كالبيت الصغير. وبإزائها بيت يقال: «انه مصلى الخضر

صلى الله عليه وسلم. فيبادر الناس للصلاة بهذين الموضعين المباركين، ولا سيما المأوى المبارك. وله باب حديد صغير ينغلق دونه، والمسجد يطيف بها، ولها شوارع دائرة، وفيها سقاية لم ير احسن منها، قد سيق إليها الماء من علو، وماؤها ينصب على شاذروان في الجدار، متصل بحوض من رخام يقع الماء فيه، لم ير أحسن من منظره. وخلف ذلك مطاهر، يجري الماء في كل بيت منها، ويستدير بالجانب المتصل بجدار الشاذروان. وهذه الربوة المباركة رأس بساتين البلد، ومقسم مائه، ينقسم فيها الماء على سبعة انهار، يأخذ كل نهر طريقه. واكبر هذه الانهار نهر يعرف «بِثَوْرَا»، وهو يشق تحت الربوة، وقد نقر له في الحجر الصلد اسفلها، حتى انفتح له متسرب واسع كالغار، وربما انغمس الجسور من سبّاح الصبيان أو الرجال من أعلى الربوة في النهر، واندفع تحت الماء حتى يشق متسربه تحت الربوة ويخرج اسفلها، وهي مخاطرة كبيرة. ويُشْرف من هذه الربوة على جميع البساتين الغربية من البلد، ولا اشراف كاشرافها حسناً وجمالاً واتساع مسرح للابصار. وتحتها تلك الانهار السبعة تتسرب وتسيح في طرق شتى، فتحار الأبصار في حسن اجتماعها، وافتراقها، واندفاع انصبابها، وشرف موضوع هذه الربوة، ومجموع حسنها، اعظم من ان يحيط به وصف واصف في غلوّ مدحه. وشأنها في موضوعات الدنيا الشريفة خطير كبير.

«ويتصل بها اسفل منها، بمقربة من المسافة، قرية كبيرة تعرف «بالنيرب» قد غطتها البساتين، فلا يظهر منها الا ما سما بناؤه. وبها جامع لم ير أحسن منه، مفروش سطحه كله بفصوص الرخام الملون، فيخيل لناظره انه ديباج مبسوط. وفيه سقاية ماء رائقة الحسن، ومطهرة لها عشرة ابواب، يجري الماء فيها، ويطيف بها. وفوقها لجهة القبلة قرية كبيرة، هي من أحسن القرى، تعرف «بالمزّة»، وبها جامع كبير وسقاية معينة. وبقرية النيرب حمّام، واكثر قرى هذه البلدة فيها الحمامات»(٧).

الهوامش

(١) رحلة ابن جبير، ص ٢٤٨ ــ ٢٤٩.
(٢) رحلة ابن جبير، ص ٢٧١.
(٣) المصدر نفسه، ص ٢٧٨.
(٤ انظر بنيامين في *Early Travels in Palestine*. Ed. Th. Wright (London 1848) P.90.
(٥) رحلة ابن جبير، ص ٢٤٩ ــ ٢٦٠.
(٦) رحلة ابن جبير، ٢٧٢ ــ ٢٧٣.
(٧) رحلة ابن جبير، ٢٦٣ ــ ٢٦٥.

٣ ـ الرحّالون الأوروبيون في دمشق

وطد المماليك حكمهم في مصر ٦٤٨/ ١٢٥٠، ولم يمر عليهم نصف قرن من الزمان حتى كانوا قد ضموا فلسطين ولبنان وسوريا إلى امبراطوريتهم، وبذلك اخضعوا ما كان من قبل دويلات لاتينية في الساحل، وقضوا على بقايا الامارات الايوبية في الداخل. وكانت اليد التي تحكم الآن يداً اقوى من ذي قبل. ومن ثم فان الميل إلى التوسع الذي كان قد اخذ سبيله إلى دمشق في القرن السادس (الثاني عشر) ازداد الآن قوة. ففي اوائل القرن الثامن (الرابع عشر) انتقلت النشاطات التجارية من الشوارع الضيقة في المدينة المسورة إلى ميدان تحت القلعة الذي كان يتطور بسرعة، والذي كان له دور فعال في حياة المدينة الاقتصادية. ولم يقتصر الأمر على هذا بل ان الحياة الاقتصادية انتعشت عموماً لأن المناطق المحيطة بدمشق زاد اعتمادها عليها، ولأن المدينة كان يرد عليها عدد متزايد من الحجاج الذين وجدوا في دمشق منطلقاً إلى مكة المكرمة. ومن ثم فقد ارتفع عدد الناس الذين كانوا بحاجة إلى الزاد والمؤن، لا اثناء اقامتهم في دمشق وحسب، بل للتزود للطريق إلى مكة ذهاباً واياباً، وكانت هذه السفرة تقتضي من الوقت ثلاثة شهور أو أربعة. ذلك ان الطريق بين دمشق ومهبط الوحي كانت تجتاز صحارى قاحلة، وكان الحجاز نفسه بلداً فقيراً، فكان من المحتم على الحجاج ان يحملوا من الزاد ما يحتاجونه مسافرين ذهاباً واياباً وما يلزمهم اثناء حجهم. يضاف إلى ذلك ان دمشق اصبحت قاعدة عسكرية تنطلق منها الحملات المملوكية لحرب المغول والصليبيين والأرمن أو تأديباً للعصاة والثوار. وكان الجند بحاجة إلى المؤن والدواب والعدة والثياب. وهكذا تهيأت لدمشق الاحوال التي تساعدها على الازدهار.

كان المماليك مولعين بالبناء، وبعض مآثرهم في العمارة في دمشق، مثل المدرسة الظاهرية، لا تزال حتى اليوم تبهج الناظر. وقد اتاح هذا للبنائين ومهرة الصناع ان يحافظوا على المهارة التقليدية في الفنون الزخرفية. وكانت المدارس كثيرة عبر التاريخ المملوكي، وكان ثمة مشاركة جدية في شؤون العلم والتعليم طوال هذه المدة. ولما وجد السكان التشجيع على السكنى خارج الاسوار، اتسعت الضواحي القديمة ونشأت ضواح جديدة، بحيث اصبح الكثير منها بلداناً صغيرة.

وزادت القلعة أهمية، خاصة لما استقلت عن نائب السلطنة في دمشق واصبح لها

واليها الخاص. والقلعة التي اصبحت جزءاً رئيسياً من تحصينات المدينة، كانت موضع عناية آل زنكي والايوبيين والمماليك. وقد ادرك الملك العادل، عم صلاح الدين وخليفته، حاجة القلعة إلى التوسيع والتقوية. فهدم المتصدع من البناء حتى كاد ان يعفوا اثره، وجعل الامراء مسؤولين عن القلعة الجديدة التي كانت تحيط بها اسوار حصينة عليها اثنا عشر برجاً ويدور بها خندق. ومما كان داخلها مدرستها وجامعها وحماماتها وبركة. ثم بنى داخلها تدريجاً مساكن للامراء والجنود والخدم.

كانت القلعة خربة تقريباً لما رحل قازان عن دمشق، ولم يرَ الملك الظاهر انه من المناسب ان يترك المدينة خلواً من الحصون. لذلك فانه بنى اسوارها وعني بترميم القلعة. فلما تم ذلك اصبح للقلعة اربعة ابواب كان احدها، وهو الشرقي، يؤدي إلى المدينة وكان الناس يعبرون إليها على جسر متحرك. وكانت الأبواب الثلاثة الباقية توصل القلعة إلى مناطق خارج المدينة، وكان الغربي منها يؤدي إلى ميدان الصولجان. ولما ولي سنجر أمور دمشق في عهد الملك الاشرف في أواخر القرن السابع (الثالث عشر)، اقام ابنية اخرى داخل القلعة وهدم بعض المنازل والحوانيت في الرقعة المصاقبة لها. ولعل الفصل بين ادارة المدينة والقلعة يرجع إلى هذا الوقت.

ومع أن جيوش تيمور دمرت بعض دمشق وقلعتها، فقد اعيد بناؤهما حالاً بعد رحيله. ذلك ان السلاطين لم يكن بامكانهم ان يهملوا هذا الجزء الهام من التحصينات.

وقد تركت القلعة اثراً كبيراً في نفوس الرحالين الأوروبيين. ففي اواسط القرن الثامن (الرابع عشر) كتب نيكولو البوغيبونصي يقول «في طرف المدينة تقع قلعة حصينة يدور بها سور مرتفع ويتوصل إليها عبر جسر يقوم على نهر [خندق]، ويقوم اعوان السلطان على حراستها». ولما زار جورجو غوتشي المدينة بعد ذلك بقليل قال في وصف القلعة: «ان دمشق، أو الجزء المحاط بالاسوار منها، تبلغ مساحته ثلاثة اضعاف مساحة فلورنسة. ويدور بها سوران: اي ان هناك أولاً سوراً متيناً يبلغ ارتفاعه نحو ٣٠ ذراعاً وهو خارج الخندق، وثمة سور آخر يبعد عن الأول بين ١٥ و١٦ ذراعاً ويزيد ارتفاعه عشرة اذرع عن السور الأول. والسوران محصنان، اذ تقوم عليهما ابراج مستديرة كثيرة على ابعاد تبلغ خمسين ذراعاً في كل حالة. والأبراج أعلى من السورين. وحول السورين يوجد خندقان، داخلي وخارجي. والمدينة المذكورة حصينة جداً باسوارها وخنادقها. ويوجد في داخلها قلعة لها اسوار وخنادق، ويبلغ محيطها نحو الميل. ولا يقيم فيها الا حملة السلاح الذين يدافعون عن المدينة والبلاد باسم السلطان. ولا يسمح لأي شخص آخر بدخولها. ومنازلها متسعة بحيث يمكن ان يأوي إليها نحو عشرين ألفاً من رجال الحرب مع خيولهم»[١].

وزار دمشق، بعد حملة تيمور، برتراندون دو لا بوركييه، فقال عنها: «لدمشق قلعة حصينة، تقع في مواجهة الجبل، تحيط بها خنادق عريضة عميقة، يشرف عليها نائب

من ثقات السلطان، ولا يسمح لوالي دمشق بدخولها. وقد دمرها تيمور سنة ٨٠٢/ ١٤٠٠ بحيث سوى بها الأرض، ولا تزال آثار هذه النكبة ظاهرة للعيان. كما انه على مقربة باب القديس بولس لا يزال حي باكمله من المدينة لم يرمم بعد، وفي المدينة خان (فندق؟) يأوي إليه التجار حيث يأمنون على انفسهم ومتاعهم»[٢].

وقد كان بين الرحالين الذين زاروا دمشق (سنة ٩٠٨/ ١٥٠٢)، قبل سقوط دولة المماليك، لودفيكو دي فارتما البولوني ـ نسبة إلى مدينة بولونيا ـ الذي ابدى اعجابه بالقلعة فقال عنها: «يتحتم عليك ان تعرف ان في مدينة دمشق قلعة حصينة جميلة... يضاف إلى ذلك انه في كل زاوية من القلعة المذكورة يوجد رنك فلورنسي محفور بالرخام. وهي [القلعة] محاطة بخنادق ولها أربعة ابراج متينة التحصين وجسور متحركة. وتعلو هذه الابراج دوماً مدافع قوية ممتازة. وثمة خمسون مملوكاً، من خدم السلطان الكبير، يقيمون مع والي القلعة باستمرار»[٣].

وكان البدري، وهو مصري سكن دمشق وكان كبير العناية بمراقبة الحصون ومواطن الجمال، قد كتب قبل لودفيكو بقليل يقول: «ومن محاسن الشام قلعتها وحسن بنائها واتساعها فانها قدر مدينة... وبها حمام وطاحون وبعض حوانيت لبيع البضائع. وبها دار الضرب التي تضرب فيها النقود. وبها الدور والحواصل وبها الطارمة التي ليس على وجه الأرض احسن منها كأنها افرغت بقالب من شمع ينظر الرائي اعلاها فيحسن نظره وان طال مرآه.

«وهي تسامت رؤوس الجبال. يقال ان تمرلنك لما ان حاصرها وعجز عنها أمر ان ينقب تحتها وتقطع الاشجار وتعلق بها حتى اذا انتهى تعليقها اطلق النار فيما تحتها من الاخشاب وظن انها تفسخ بذلك وتسقط شذر مذر فيبلغ مراده من اخذ القلعة. فلما عمت النار فيما تحتها بركت بصوت ازعج الوجود.

«وبالقلعة آبار ومجار للماء ومصارف بحيث اذا وقع الحصار وقطع عنهم الماء تقوم الآبار مقامه»[٤].

كان بين المباني الرسمية التي حفلت بها دمشق قصر بيبرس ودار العدل والميادين الكثيرة التي كان ابعدها شهرة الميدان الاخضر وميدان الحصى. وكانت مواكب نائب السلطنة والاستعراضات الحربية تقام في هذا الميدان، كما كان السلطان يلعب الصولجان فيه أو يتمتع بمشاهدة سباق الخيل. اما ميدان تحت القلعة فما كان اكثر من يرده من المهرجين والمشعوذين والقصاصين، وخاصة في ليالي الصيف.

وكان إلى جنوب المدينة ميدان آخر، على مقربة من حي الميدان اليوم، يزخر بالناس مرتين في العام: عند مغادرة موكب الحجاج وعند عودتهم. ولم يغفل الرحالون والكتاب عن تدوين وصفهم لهذه المناسبة الهامة. (وانا اذكر شخصياً استمتاعي بمثل هذا الاحتفال في طفولتي ايام كانت اسرتي تقطن دمشق). وقد كتب ابن جبير عن ذلك.

وكان بين الرحالين الاوروبيين الذين تأثروا بهذا الاحتفال برتراندون دو لا روكييه الذي خلّف لنا صورة حية لعودة الحجاج، قال: «في اليوم التالي لوصولي شاهدت قافلة الحجاج عائدة من مكة. وقد قيل انها كانت تتألف من ثلاثة آلاف من الابل. وفي الواقع استغرق دخول الحجاج المدينة يومين وليلتين. وقد كانت هذه الحادثة، على مألوف القوم، يوماً بالغاً في الحفاوة. وقد خرج والي دمشق، يحف به مقدمو المدينة، لاستقبال الحجيج اجلالاً للقرآن الذي كانوا يحملونه... وكان ملفوفاً بغلاف من الحرير، عليه كتابة عربية، وكان الجمل الذي يحمله مجللاً بالحرير. وكان يتقدم الجمل أربعة من حملة المزمار والطبول والدربكات الكثيرة وكلها تدق. وكان يحيط بالجمل نحو ثلاثين رجلاً يتنكب بعضهم الاقواس، ويشهر آخرون السيوف. ويحمل غيرهم البنادق ويطلقون النيران بين الفينة والفينة. وكان يتلو الجمل ثمانية رجال اجلاء، يعلون ابلاً سريعة العدو، وخيولهم المجنونة مجللة بالقماش المزركش تعلوها سروج مزخرفة، على عادة القوم هناك. وقد تلا ذلك هودج مغطى بالقماش الجميل يحمله جملان. وفيه سيدة هي قريبة للسلطان. وقد كان ثمة عدد كبير من هذه الدواب المجللة بالقصب المذهب. اما الحجيج فقد كانوا عرباً واتراكاً وبرابرة ومغولاً وفرساً وغير ذلك من المسلمين»[٥].

واما المكان الذي لم يكن يعلو عليه مكان في دمشق، ولا يزال كذلك إلى يوم الناس هذا، فهو الجامع الاموي الكبير. ولعل ذلك يعود إلى انه لم يكن استعماله مقصوراً على فئة دون اخرى، بل كان مفتوحاً لجميع المسلمين. وابن بطوطة، الرحالة المغربي الشهير الذي زار دمشق في القرن الثامن (الرابع عشر)، واقام فيها بعضاً من الوقت، خلّف لنا وصفاً مطولاً للمسجد الجامع. ومع انه نقل بعض ما قاله عن ابن جبير، فقد اضاف بضعة انطباعات شخصية يجد القارىء فيها متعة خاصة. فقد لاحظ انه كان للجامع ثلاثة عشر اماماً يقومون على خدمته. ولاحظ ايضاً ان الجامع «اعظم مساجد الدنيا احتفالاً، واتقنها صناعة، وابدعها حسناً وبهجة وكمالاً، ولا يعلم له نظير ولا يوجد له شبيه»[٦].

وقد وصف ابن بطوطة التعليم في الجامع بقوله: «ولهذا المسجد حلقات التدريس في فنون العلم والمحدثون يقرأون كتب الحديث على كراسيّ مرتفعة، وقراء القرآن يقرأون بالأصوات الحسنة صباحاً ومساءً. وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم إلى سارية من سواري المسجد يلقن الصبيان ويقرئهم. وهم لا يكتبون القرآن في الألواح تنزيهاً لكتاب الله تعالى وإنما يقرأون القرآن تلقيناً. ومعلم الخط غير معلم القرآن يعلمهم بكتب الاشعار وسواها فينصرف الصبي من التعليم إلى التكتيب، وبذلك جاد خطه، لان المعلم للخط لا يعلم غيره»[٧].

ولعل من خير ما وصل إلينا في وصف الدور الذي كان يقوم به الجامع الأموي هو

الذي تركه ابن فضل الله العمري، وهو من جغرافيي القرن الثامن (الرابع عشر)، قال العمري: «وهذا المسجد معمور بالناس كل النهار وطرفي الليل، لأنه ممر المدارس والبيوت والأسواق. وفيه ما ليس في غيره من كثرة الأئمة والقرّاء، ومشايخ العلم والاقراء، ووجوه اهل التصدير والافتاء، ووظائف الحديث وقراء الاسباع والمجاورين من ذوي الصلاح. فلا تزال اوقاته معمورة بالخير، آهلة بالعبادة. قل ان يخلو طرفة عين في ليل أو نهار من مصلّ، أو جالس في ناحية منه لاعتكاف، أو مرتل لقرآن، أو رافع عقيرته بأذان، أو مكرر في كتاب علم، أو سائل ومسؤول، ومفت ومستفت. هذا إلى من يأتي هذا المسجد مستأنساً الحديث، أو مرتقباً لقاء أخ، أو متفرجاً في فضاء صحنه وحسن مرأى القمر والنجوم ليلاً في سمائه. هذا إلى فسحة الفضاء وطيب الهواء وبرد رواقاته، اوقات الهجير، وحسن مرائي ميازيبه، احيان المطر. وفي كل ناحية من وجهها قمر.

«وعلى هذا الجامع من الوظائف المرتبة ما لا يستقل به الا ديوان ملك، وعليه جلائل الاوقاف. الا ان الايدي العادية قد استولت على كثير منه لشبه الاكابر والمناصبات، وغير ذلك مما عمل عليه على سبيل النصبات»[٨].

وكانت اسواق دمشق ومتاجرها مدعاة لادخال السرور والمتعة إلى نفوس زوارها، سواء أتوا من الشرق أو الشمال أو الجنوب. وما كانت دمشق العصر المملوكي لتختلف عن دمشق في أي عصر آخر، ولم يكن زوارها الاوروبيون ليختلفوا عن غيرهم من هذه الناحية. وقد تنبه بعضهم لا الى البضائع المعروضة للبيع فحسب، بل الى تنظيم الصناعات والأسواق، وزودنا البعض الآخر بمعلومات عن تنظيم العمل في المدينة.

فسورية بلد غني، وقد كان موقعها على الطرق التجارية ذا فائدة خاصة لها في العصور المتوسطة. ولم تفد دمشق من هذه التجارة فحسب، بل من الصناعات أيضاً، وخاصة من الحِرف. فقد كانت دمشق تنتج السكر والنقولات وتصنع المنسوجات القطنية والحريرية والزجاج والخزف والفخار والمزخرفات الحديدية والكاغد والصابون والعطور وماء الورد وماء الزهر والشموع والأحذية. وكانت المدينة مشهورة أيضاً بصياغة الذهب والفضة. وكانت تقرن بالقاهرة، وكان بعض الاوروبيين يفضلونها على باريس وفلورنسة.

وثمة فئة من الرّحالين الاوروبيين مثل نيكولو البوغبونصي وليوناردو فرسكوبالدي وجورجو غوتشي وسيمون سيولي وفون سوخم الذين زاروا الاراضي المقدسة في القرنين السابع والثامن (الثالث عشر والرابع عشر)، أو مثل برتراندون دو لا بروكييه ولودفيكو دي فارتما، الذين شملت زياراتهم المشرق في الوقت نفسه، جميع هؤلاء قادتهم اسفارهم إلى دمشق. وهؤلاء هم مرشدونا في زيارة دمشق في تلك الفترة. فلنزر اجزاء المدينة المختلفة في صحبة هؤلاء النفر. وقد ضمت رواياتهم بعضها إلى

البعض الآخر، فتم لنا منها صورة ذات ألوان زاهية لاسواق دمشق ومتاجرها.

«ان جميع الشوارع الواقعة داخل اسوار المدينة تنيرها في الليل مصابيح معلقة فيها. وبيوتها مرتفعة ومبنية من الخشب الذي لا يظهر للعيان، اذ ان جدرها الداخلية مطلية باللون الأزرق الفاتح، وارضها مكسوة بالفسيفساء. ما اقل البيوت التي لم تكن فيها نوافير منحوتة من الرخام، هي متعة للناظرين».

«ومع ان عشرين الفاً قد يغادرون دمشق إلى مكة لاداء فريضة الحج، فلم يبد على المدينة كأن احداً تركها، وقد كانت شوارع كثيرة يملأها الناس كما يملأ الناس شوارع فلورنسة يوم عيد القديس يوحنا. وكما كانت المدينة مزدحمة بالسكان فان شوارعها كانت مكتظة بالتجار والصناع».

«ان ما يصنع في دمشق، من اي نوع كان، كبيراً كان او صغيراً، هو اكثر مما يصنع في أي مكان آخر في الدنيا، سواء في ذلك الاقمشة الحريرية والقطنية والكتانية والذهب والفضة والنحاس من جميع الاصناف، والزجاج من جميع الأنواع. فقد حذق الصناع ذلك كله، وكان منهم مهرة الصناعة في كل فن. وعندهم إلى ذلك غالب اصناف الفواكه الجيدة التي يحفظونها من سنة لأخرى».

«والثلج موجود باستمرار في دمشق، فكان يوضع في الصيف على الفواكه باصنافها فيحفظها طازجة ويبردها بحيث تكون لذيذة المطعم. وتباع جميع المآكل في الشوارع كالخبز والماء واللحم المطهو على اختلاف انواعه، وكل اصناف الفواكه، إذ ان الناس هناك لا يطبخون في البيوت، بل انهم يبعثون في طلب كل ما يرغبون فيه من السوق. ويقوم في اماكن كثيرة، في طول المدينة وعرضها، طهاة امامهم اللحوم المنوعة، يطهون كل شيء، وكل ذلك جيد ونظيف، وبذلك يمكنهم ان يقدموا إلى كل انسان ما يرغب فيه والكمية التي يريدها من لحم أو غيره من مطهو الطعام. ويتنقلون في انحاء المدينة يبيعون ما عندهم، حاملين متاعهم من موقد ومقلاة يغلي ما فيها ولحم ووعاء وكبشة صغيرة وماء وملح وكل ما هو لازم، على موائد لكل منها أربع ارجل يركزها الواحد على رأسه. اما الزبائن فيجلسون على صفات في الشوارع ليأكلوا على مهلهم والبائع ينتظر، ويشربون الماء القراح والخشاف. وما اقل ما ينفقونه على طعامهم أو مطبخهم أو ثيابهم».

«ولنعد إلى متاجر دمشق: فهذه لا يصدق وصفها الذي لم يرها بام عينه، وذلك بسبب كثرة التجار والصناع في المدينة باجمعها، داخلها وخارجها. لا يمكن تصور شيء غير موجود في الضواحي. فاجمل ما في الدنيا وانبله واشده اتقان صنعة موجود هناك. فلو انك سرت متفرجاً لرأيت المصنوعات الرائعة الأنيقة الدقيقة التي تغريك، بحيث لو انك كنت تخفي نقودك في قصبة رجلك لما ترددت في كسرها واخراج النقود لشراء بعض ما هناك. فان خيالك لن يمكنه ان يتصور شيئاً وبأي شكل كان الا

وجدته هناك. فالأقمشة الحريرية الكثيرة من أي نوع أو لون تجدها هناك على افضل واجمل ما يعرفه العالم. وثمة كميات كبيرة من الاقطان، من اجمل ما في العالم، بحيث لو شاهدها احد الناس، ولم يكن خبيراً، لحسبها حريراً لما هي عليه من النعومة واللمعان والدقة والجمال. والبروكار أيضاً متوفر في الاسواق. وما اكثر ما يصنع هناك من طسوت النحاس وابارياقه التي تبدو كأنها من الذهب، وكلها مزخرفة بنقوش من الاشكال والأوراق، كما يعمل من الفضة أشياء فنية جميلة تسر العين لرؤيتها.

«وهكذا فالصناعات جميعها كانت من شغل مهرة الصنّاع واقدرهم، هذا إلى ما كانوا يتحلون به من نظام جميل، ونبيل أيضاً. إذ انه إذا كان الأب صائغاً فان ابناءه ما كان لهم ان يتعلموا غير صناعته، وبذلك توارث الناس الصناعة جيلاً بعد جيل وترتب على ذلك انهم بلغوا الغاية في المهارة الصناعية في فنونهم. وحوانيتهم مرتبة أنيقة نظيفة، بحيث ان مشاهدتها كانت باعثاً على السرور، وجميعها تملأها المتاجر. وكانت الحوانيت تمتلىء بنفس السرعة التي تباع المتاجر فيها، إذ انه كان لديهم مستودعات كما ان بيوتهم كانت تملأها البضائع.

«والواقع ان محاولة وصف المتاجر الكثيرة الموجودة في دمشق قد تربك الكاتب، ولكن قد يقع الذي لم يرها في ارتباك وحيرة اشدّ. وحتى لو رغب الواحد في تعداد الصناعات واضاف الأشياء الموجودة، لاضطر الى الاطالة إلى ما لا قبل له به. إذ انه بالاضافة إلى ما ذكر فان اسواق دمشق فيها الحجارة الكريمة والجواهر والافاويه التي تأتيها من الهند. وقد قال المسيحيون العارفون بهذه الأمور بان ما في دمشق من المتاجر يكفي حاجات العالم المسيحي سنة كاملة. ولك ان تتصور ما اجمل هذا كله عندما تقع العين عليه: اما اللسان فيعجز عن القول، كما يعجز العقل عن التصور».

«يسكن في تلك المدينة عدد هائل من الناس، بحيث ان شوارع دمشق مكتظة دائماً. وكان لهم ترتيب جميل لحراسة الشوارع التي فيها التجار والصناع ليلاً. ان اكثر شوارع دمشق مسقوفة أو معقودة ويتخللها النور بالقدر اللازم من فتحات في السقف، وإذا جن الليل اوقدوا المصابيح الزجاجية في الشوارع كلها بحيث يكون بين المصباح والآخر اثنا عشر ذراعاً، فترى ليلاً، وكأنها في وضح النهار، بسبب المصابيح الكثيرة التي توقد. وقد قيل إن عدد المصابيح التي كانت توقد كل ليلة كان يبلغ نحو ثلاثين الف مصباح. وكان في كل شارع حراس يقومون على حراسة الحوانيت، ولم يكن احد يجرؤ على الخروج ليلاً ان لم يكن معه قنديله. فإذا عثر على شخص دون ان يكون معه قنديل قبض عليه واقتيد امام الحاكم الذي يفرض عليه غرامة معينة. ومن ثم فلم يتعرض احد لشر قط. وإذا اعتبر الواحد عدد السكان في تلك المدينة وجد انه كانت هناك افضل اسواق الخبز واللحم من كل صنف وخير الاشياء، باستثناء الخمور، لان السكان لا يشربونها. والحطب قليل. وكل شيء يباع بالوزن. وبسبب قلة الحطب يتجنب

الكثيرون الطبخ في البيوت. بل انه كان هناك عدد كبير من الطهاة وكلهم غاية في النظافة، وكان باستطاعة كل انسان ان يحصل على كل ما يريد مطبوخاً طبخاً جيداً ونظيفاً[٩]».

زار برتراندون دو لا بروكييه دمشق في اواسط القرن التاسع (الخامس عشر) وقد جاءها من بيروت. وبعد زيارته لفلسطين اتجه شمالاً في سورية. وقبل ان ينضم الى حاشية مملوك ذاهب إلى تركية ابتاع الأشياء التي احتاجها من دمشق. وها نحن اولا ننقل هنا تجاربه وملاحظاته عن المدينة بكاملها: «بعيد هذه المقابلة رافقت احد اصحابي إلى السوق وابتعت رداءين طويلين حتى انهما كانا يبلغان الكاحل، وعمة كاملة وحزاماً من الجلد ورباطين من القطن اضم بهما طرف الرداء، وكيسين صغيرين احدهما لاستعمالي والآخر للحصان [مخلاة] يطعم فيه شعيره وتبنه، وملعقة من الجلد وملحاً وبساطاً انام عليه. وآخر ما ابتعته معطف من الجلد الأبيض، بطنته بالكتان، لاستعماله ليلاً. وابتعت كذلك جعبة بيضاء كاملة، وقد تدلى منها سيف وسكاكين. اما الجعبة والسيف فقد ابتعتهما سراً، إذ لو عرف القيمون على القضاء بذلك لتعرضنا، انا والبائع، إلى مخاطر كبيرة.

«ان سيوف دمشق هي انبل واجمل ما يصنع في سورية. ومن الممتع ان يلاحظ الواحد اسلوب الصناع في صقلها. فان هذا يتم قبل ان تسقى. ويستخدمون في سبيل ذلك مقبضاً من الخشب شكت فيه قطعة من الحديد يجرونها على نصل السيف، وبذلك ينعم ملمسه، كما تنعم الفارة سطح الخشب. ثم يسقونه ويلمعونه. وهذا التلميع بلغ حداً كبيراً من الاتقان بحيث ان الواحد إذا اراد ان يصلح من شأن عمامته اتخذ من نصل السيف مرآة. واما السقي فهو كامل، ولم أرَ قط سيوفاً تقطع بمثل هذه الدرجة من الاتقان. ويصنع في دمشق، وفي ما جاورها من الديار، مرايا من المعدن التي تضخم الأشياء كما في الزجاج العاكس النور. رأيت بعضها وقد وجهت نحو الشمس فعكست من الحرارة ما كان كافياً لحرق لوح من الخشب على بعد ١٥ أو ١٦ قدماً.

«قد يبلغ عدد سكان دمشق، على ما بلغني، نحو مئة الف نسمة. والمدينة غنية تجارية، وهي، بعد القاهرة، أهم مدينة في دولة السلطان. يمتد حولها الى الشمال والجنوب والشرق سهل متسع، ويرتفع غربها جبل عال وقد قامت الضواحي عند اقدامه. يخترقها نهر تقسمته قني متعددة. والمدينة وحدها يدور بها سور بديع، لأن الضواحي اوسع من المدينة. ولم تقع عيناي على حدائق اوسع ولا على فواكه أجود، ولا على مياه اغزر من هذا الذي شاهدته هناك. فالماء هناك غزير إلى حد انه قلما يعثر على بيت ليس فيه نافورة. وحاكم المدينة نائب السلطنة لا يعلو عليه، في مصر وسوريا، سوى السلطان. ولكن بسبب الثورات التي قام بها بعض الحكام فان السلطان يحاول ان يضيق على الحكام حيطة وحذراً»[١٠].

هوامش

(١) انظر: Gucci P. 142
(٢) انظر بروكييه في: *Early Travels in Palestine* P.204
(٣) *The Itinerary of Ludvico di Varthema*. London, 1928, P. 8-11.
(٤) البدري: نزهة الانام في محاسن الشام، (القاهرة ١٣٤١) ص ٦٠.
(٥) بروكييه في المرجع نفسه، ص ٣٠١.
(٦) رحلة ابن بطوطة، ج١ ص ٢١٠.
(٧) المصدر نفسه، ٢١٢ ــ ٢١٣.
(٨) العمري: مسالك الابصار، ج١ ص ٢٠٢ ــ ٢٠٣.
(٩) مختارات من فرسكوبالدي وغوتشي وسيغولي.
(١٠) انظر بروكييه، المصدر نفسه ص ٢٩٤، ٣٠١ ــ ٣٠٤.

٤ ـ دمشق وضواحيها

تضافرت عوامل جديدة على تطوير ضواحي دمشق: منها الازدهار الاقتصادي وحكم القانون واستعادة المناطق الساحلية من الصليبيين وتركيز التجارة على الطرق السورية بسبب ما كان يعترض الطريق الشمالي البزنطي من متاعب. وما اكثر الرحالين الذين زاروا سورية في القرن الثامن (الرابع عشر) والذين لاحظوا ان دمشق خارج الاسوار كانت اكبر من دمشق الداخلية.

كانت الضواحي موضع عناية ابن بطوطة، وهو يشير إلى الضواحي التي زارها ابن جبير ـ النيرب والمزة وقاسيون ـ ثم يضيف إلى ذلك وصفاً للربوة والصالحية. وكان يرى في الربوة ما كانت التقاليد قد اقامتها حولها من انها «ربوة ذات قرار معين». وقد ردد ابن بطوطة قول ابن جبير في عبارته: «وهذه الربوة تشرف على البساتين الدايرة بالبلد ولها من الحسن واتساع مسرح الابصار ما ليس لسواها وتلك الانهار السبعة تذهب في طرق شتى فتحار الاعين في حسن اجتماعها وافتراقها واندفاعها وانصبابها. وجمال الربوة وحسنها التام اعظم من ان يحيط به الوصف ولها الأوقاف الكثيرة من المزارع والبساتين والرباع تقام منها وظايفها للامام والمؤذن والصادر والوارد»[١].

ثم اضاف إلى ذلك من عنده: «وفي آخر جبل قاسيون الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله ذات القرار والمعين ومأوى المسيح عيسى وأمه عليهما السلام. وهي من اجمل مناظر الدنيا ومتنزهاتها، وبها القصور المشيّدة والمباني الشريفة والبساتين البديعة. والمأوى المبارك مغارة صغيرة في وسطها كالبيت الصغير وازاءها بيت يقال انه مصلى الخضر عليه السلام يبادر الناس الى الصلاة فيها وللمأوى باب حديد صغير والمسجد يدور به وله شوارع دايرة وسقاية حسنة ينزل لها الماء من علو وينصب في شاذروان في الجدار يتصل بحوض من رخام ويقع فيه الماء ولا نظير له في الحسن وغرابة الشكل. وبقرب ذلك مطاهر للوضوء يجري فيها الماء»[٢].

كان من اثر احتلال الصليبيين للقدس (١٠٩٩/٤٩٢) ان قرر بعض اهل التقوى المسلمين ان يهجروا المدينة المقدسة كي يتخلصوا من حكم المسيحيين. ومن هؤلاء ابو عمر ابن قدامة المقدسي، الذي خرج من القدس مع جماعة كبيرة من الاتباع، لم تلبث ان ازداد عددها. واستقر المقدسي وجماعته في مسجد ابي صالح خارج باب

شرقي في دمشق، ثم انتقلوا فيما بعد إلى سفح جبل قاسيون حيث انشأوا مدرسة وزاوية للحنابلة. وقد سماهم الناس الذين نزلوا في جوارهم الصالحين اما لصلاحهم أو بسبب اقامتهم في مسجد ابي صالح قبلاً. وعلى كل حال فقد سميت الضاحية الجديدة الصالحية نسبة اليهم. يقول ابن بطوطة في وصف الصالحية التي كانت مزدهرة ايام زيارته لها: «وتدور بدمشق من جهاتها ما عدا الشرقية ارباض فسيحة الساحات دواخلها املح من داخل دمشق لأجل الضيق الذي في سككها. وبالجهة الشمالية منها ربض الصالحية وهي مدينة عظيمة لها سوق لا نظير لحسنه وفيها مسجد جامع ومارستان وبها مدرسة تعرف بمدرسة ابن عمر موقوفة على من اراد ان يتعلم القرآن الكريم من الشيوخ والكهول، وتجري لهم ولمن يعلمهم كفايتهم من المآكل والملابس. وبداخل البلد أيضاً مدرسة مثل هذه تعرف بمدرسة ابن منجّا واهل الصالحية كلهم على مذهب الامام احمد بن حنبل رضي الله عنه»[٣].

وقد كان في الصالحية في أواخر العهد المملوكي سبع دور للحديث وستة عشر رباطاً وثمان وثلاثون حارة وواحد وسبعون مسجداً. وقد ذكر احد الكتاب المتأخرين ما كانت تنتجه الصالحية وغيرها من ضواحي دمشق من الفواكه والخضار منها التفاح والخوخ والتوت والرمان والتين والخس والهليون، وكانت تغرس فيها الزهور وخاصة الزنبق والبنفسج.

إذن فقد كانت دمشق محاطة من كل جهة، الا من الجهة الشرقية، بضواح مزدهرة فيها بيوت ومدارس ومساجد واسواق واماكن للهو، وكانت طبيعة المنطقة تضفي على هذه الاماكن سحراً خاصاً. ولم يكن الدمشقيون يحارون اين يقضون ايام المتعة والصفاء سواء في ذلك الربيع والصيف والخريف، وعندهم الغوطة والجبهة ووادي البنفسج وبين النهرين وقطية واليلكي. وكان في كل من هذه الامكنة حوانيت تبيع الطعام الجاهز والحلوى، وكان ثمة امكنة يأوي إليها الناس اذا احتاجوا إلى ذلك. وكان المؤمنون يجدون حتى زوايا يختلفون إليها حيث يقيمون الذكر والصلاة مع غيرهم. وكان البعض يذهبون إلى ربض الاديرة المسيحية طلباً للنزهة، وكانوا في الاغلب من الحالات موضع ترحيب. فالناس كانوا، على العموم، يقضون اوقات فراغهم في نزهة، وكانوا يحسنون التصرف هناك. اما اولئك الذين كانوا يسعون وراء رغبات وأمور لا يقبلها المجتمع فقد كانوا يختلفون إلى اماكن محجوبة، وما كان اكثرها.

اشرنا عدداً من المرات إلى مدارس دمشق، وقد آن لنا ان نتحدث عنها بشيء من التفصيل في هذه المرحلة من دراستنا. بين ايدينا اسماء ست وثمانين مدرسة عرفتها دمشق زمن المماليك، وكان بعضها قد انشيء قبل ايامهم. وقد كان منها مدرستان طبيتان مرتبطتان بالبيمارستانين. اما المدارس الأخرى فقد كانت مدارس دينية

ينحصر التدريس فيها في المذهب الشافعي والحنفي والحنبلي. ولم يكن للمالكية في سوريا مكانة خاصة ايام المماليك، الا ان بعض المؤلفات المعنية بتلك الحقبة تشير احياناً إلى مدارس مالكية.

وكان بين المدارس الدينية الأربع والثمانين في دمشق خمس وثلاثون شافعية واربع وثلاثون حنفية وثمانون حنبلية وسبع مشتركة لمذهبين أو أكثر. ومما هو حري بالذكر ان الايوبيين كانوا على المذهب الشافعي، وان دمشق كان قاضي القضاة فيها دوماً شافعياً حتى ايام بيبرس الذي أمر بأن يكون في كل من القاهرة ودمشق وحلب أربعة من قضاة القضاء وكان الحنابلة حديثي عهد في الاستقرار في دمشق، إذ جاؤوها في القرن الخامس (الحادي عشر) ومطلع القرن السادس (الثاني عشر) من الشرق، وخاصة من بغداد.

كانت اوقاف المدارس غنية. وقد كان حبس الملك لتوفير النفقات للمؤسسات امراً قديماً في الاسلام، ويبدو ان هذا دفع إلى الامام في ايام تملك السلاجقة وآل زنكي والايوبيين والمماليك. كان اولو الأمر يقومون بالعمل والاثرياء يقتفون آثارهم. وكان المألوف ان يزود الوقف المدرسة بحاجتها من المدرسين، الذين قد يبلغ عددهم ثلاثين مدرساً، والماء والنور والاثاث. وكانت بعض الاحباس الغنية توفر الخبز والنفقات للطلبة. وما اكثر ما يجد الباحث انه كانت ثمة مدارس تأتي نفقاتها من ايجار سوق وبضعة بساتين ومن بعض اسباب التجارة. فقد كان وقف المدرسة الريحانية مكوناً من بساتين وقطعة أرض وبستانين للخضار وخمسة اسداس مزرعة واسطبل. وكان وقف المدرسة الجوانية غنياً على ما يبدو من نفقاتها: فقد كان كل من مدرسيها الخمسة والعشرين يتقاضى ١٣٠ درهماً شهرياً بالاضافة الى كيل كبير من القمح وآخر من الشعير (لدابته) أيضاً. وكان الناظر على المدرسة يتناول عشر مدخول المدرسة لقاء اتعابه وسهره ومراقبته ما تملكه المدرسة. وقد خصص ٨٠٠ درهم لتنفق على الاحتفاء بليلة نصف شعبان. وكان للناظر ان يزيد عدد المدرسين وغيرهم اذا رأى في ذلك نفعاً.

كانت ابنية هذه المدارس ضخمة جميلة. فقد اقام المماليك صروحاً للعلم اصيلة. كانت المدرسة تتألف من صحن تتوسطه نافورة محفورة من الرخام، تدور به اروقة في جهاته الأربع. وكان احد هذه الاروقة يؤدي إلى المسجد، فيما كان رواق ثان ينتهي بمقصورة تعلوها قبة ويقوم في وسطها في غالب الأحيان قبر صاحب المدرسة، وكان يحاذي الجانبين الآخرين الغرف المعدة للدرس والقراءة.

كان لكل مدرسة ناظرها الذي كان اليه النظر في الوقف وضبط الحسابات وتدبر انفاق الموارد وفق رغبات الواقف. وكان الناظر يختار من اهل العلم، وغالباً ما كان قاضي قضاة المذهب، وقد كان التدريس بعض واجباته. وكان بين اصحاب التدريس

المحدّثون والقراء والفقهاء وشيوخ النحو. وثمة ما يؤكد ان الحساب والمنطق درسا في بعض المدارس في دمشق.

كانت مدارس الضواحي تغلب عليها السعة الشديدة، مثل مدارس الصالحية ـ كالمدرسة الضيائية والاتابكية والصاحبة والعمرية، كما انها كانت غنية في اوقافها. فقد كان في الضيائية مكتبة احتوت العهدين القديم والجديد، على ما روى ابن عبد الهادي، وقد ظلت موضع اشراف حسن إلى حملة تيمور على دمشق. ولعل العمرية كانت ابعد مدارس الصالحية ثراء. انشأها العالم ابو عمر ابن قدامة مدرسة للحنابلة في أواخر القرن السادس (الثاني عشر)، لكنها اصبحت فيما بعد مدرسة للمذاهب السنية جمعاء. وبسبب الاضافات المستمرة تدريجاً آلت إلى مجموع كبير من القاعات والصحون ومسجد وغرف صغيرة كان الطلاب يعيشون فيها. وكان لها من الاوقاف ما مكن ناظرها من توزيع الف من الارغفة يومياً بالاضافة الى الخبز الذي كان يدفع به الى اصحاب التدريس. وكان مئات من الناس يتناولون طعام الافطار في رمضان من مطبخ العمرية، وكان الطعام يتكون من اللحم والحبوب والحلوى. فإذا جاءت ايام الاعياد طعم الحاضرون لحماً وحلوى أشهى وألذ، وسمح لهم باستعمال الحلل والماء الساخن. وكانت مكتبة العمرية بالغة الثروة في الكتب، ولم يكن استخدامها مقصوراً على اهل المدرسة فحسب.

بني في دمشق بين سنتي ٥٤٥/ ١١٥٠ و٩٠٦ / ١٥٠٠ ستة بيمارستانات كان اثنان منها قائمين لما زارها ابن جبير سنة ٥٨٠/ ١١٨٤. فالبيمارستان النوري وسع في القرن السابع (الثالث عشر)، وظل الزوار والمؤرخون يتأثرون به حتى في القرن التاسع (الخامس عشر). وقد انشئت بيمارستانات اخرى قرب باب البريد وفي الميدان الاوسط وفي الصالحية وفي النيرب.

كان المألوف ان يقوم الحكام ببناء البيمارستانات، لكن اثنين من بيمارستانات دمشق الستة، على الأقل، بناها الاثرياء. وكان بناة البيمارستانات، مثل مؤسسي المدارس، يتركون لها من الأوقاف ما يكون ايراده كافياً لصيانتها وضمان سيرها. فالبيمارستان القيمري في الصالحية كان ينتفع بريع قريتين واملاك اخرى يبلغ مجموعها قريتين ونصف القرية ومنطقة فيها مطاحن وخمسة وثلاثين حانوتاً واسطبل وخانين وغير ذلك.

كانت اكثر البيمارستانات مقسومة إلى موضعين: الواحد للرجال والآخر للنساء، وكان هناك مقاصير للجراحة وأخرى للامراض الداخلية وسواها لامراض العين. وكان للمجانين مقاصير مقتطعة منه. وكان الاطباء يشرفون على المقاصير ويخبرون الناظر الذي كان يعين لمثل هذا المنصب بعد تدبر دقيق للأمر. وكان الناظر إذا ولي أمر

البيمارستان تلقى الأوامر والنصح في كيفية معاملة المرضى. ولم يكن من الضروري ان يكون الناظر نفسه طبيباً، فقد كان من المتعارف عليه ان العمل كان يتطلب مقدرة ادارية ومناقب خلقية اكثر من تطلبه حذق الطب.

أنشأ البيمارستان القيمري امير مملوكي من اصل كردي هو سيف الدين (تو ١٢٥٧/٦٥٥)، وكان على سفح الجبل، ويشرف على دمشق، حتى ان تيمور نفسه اعجبه المنظر من هناك. وكان يتألف من قاعة كبيرة ترتكز على أعمدة، يحيط بها من جهتين من جهاتها مقاصير خاصة بالمرضى. وكان يصاقب هذه غرفتان كبيرتان (واحدة للرجال واخرى للنساء) مخصصتان للمصابين بالهيضة والاسهال. وكان ثمة مقصورة كبيرة تحفظ فيها الأدوية على اختلاف انواعها. وكان للبيمارستان عيادة خارجية تفتح للجمهور يومي الاثنين والخميس من كل اسبوع، وكان المرضى يعطون الأدوية مجاناً. وكان مطبخ البيمارستان يعد الاطعمة العادية والاطعمة الخاصة للمرضى. وكان ثمة قسم للمجانين وبذلك يتم البناء المجمع. وكان القائمون على البيمارستان فيهم طبيب وكحال وصيدلي وممرضون وممرضات وخدم، على رأسهم ناظر يشرف على المكان ويدير شؤونه. والجدول التالي يبين الموظفين وجعالاتهم.

الموظف	المرتب الشهري بالدراهم (للواحد)	حصة القمح الشهرية بالمكيال (للواحد)
الأطباء (٣)	٦٠ ـ ٧٠	من نصف الى واحد
ناظر	٤٠	نصف
كحال	٤٥	نصف
خدم (٣)	١٣	سدس
مساعدات	١٠	سدس
صيدلي	٢٦	ثلث
ناظر الوقف	٦٠	واحد (وواحد من الشعير)
امام	٤٠	ثلث
بناء	١٣	سدس
عتالون	٨	سدس

وقد تتبع بعض البيمارستانات مدارس طبية، مثل البيمارستان النوري حيث كان الأطباء يعنون بالمرضى ويدرسون الطب في بناء مجاور للبيمارستان. وكان تدريس الطب يتمتع بكثير من الحرية لأنه لم يكن يخضع لرقابة الدولة. وقد الف مدرسو البيمارستان النوري واطباؤه ستة وثلاثين كتاباً في الطب ــ وهو عدد ضخم ينتجه معهد واحد.

كان ابن علي الدخوار احد كبار الأطباء والمدرسين، وكان يدرس الطب في بيته ايضاً، فلما توفي أوصى ببيته ليستعمل مدرسة للطب، مع وقفية كبيرة للانفاق على المدرس ومساعديه.

فإذا نحن نظرنا إلى المعرفة الطبية من حيث قيمتها الاجتماعية، وان تطويرها كان عاملاً في تطور المجتمع في المدينة والبلاد، قلنا بان البيمارستان والمدرسة الطبية الملحقة به كانا مركزين لمثل هذا التطور، وذلك لأنهما كانا حرين من التقليد.

إنّا وان كنا عرجنا على قلعة دمشق وجامعها وميادينها واسواقها وضواحيها ومدارسها وبيمارستاناتها، فانه لا يصح اعتبار زيارتنا لها تامة ما لم نزر زواياها.

ان اتساع الدولة الاسلامية وسيطرتها على رقاع متعددة، جعل من الضروري ان توضع اجزاؤها النائية، والاجزاء التي قد تتعرض لثورات داخلية، تحت رقابة مستمرة. ومن هنا نشأ الرباط حيث كان يقيم المدافعون عن الدين والدولة الذين كان يتوجب عليهم ان يدفعوا الأذى عن الحدود او اماكن الاضطراب. والاربطة التي كانت تقوم في المدن والقصبات اصبحت، فيما بعد، ملتقى المتصوفين. فلما اخذ المتصوفة بتنظيم انفسهم طرقاً، منذ القرن الخامس (الحادي عشر)، اقاموا اماكن خاصة باجتماعاتهم وهي التي اطلق عليها اسم زاوية او خانقاه، والكلمة الأولى عربية اما الثانية فهي فارسية أصلاً. وكانت الزاوية في غالب الاحوال مكاناً يلجأ اليه اهل التقوى والورع. وعلى كل فانه منذ القرن السابع (الثالث عشر) اصبحت الكلمات الثلاث ـ الرباط والزاوية والخانقاه ـ تستعمل دون تفريق بحيث انها صارت تعني الشيء نفسه. ولم تكن دمشق لتشذ عن هذه القاعدة.

يبدو من الاطلاع على الروايات الكثيرة ان دمشق كان فيها في ايام المماليك ثمان وسبعون زاوية للرجال وزاويتان للنساء. ولم يكن يكلف المقيمون فيها، سواء في ذلك اهل البلد والغرباء أو المقيمون دوماً والضيوف، انفسهم اي مشقة ــ فقد كان رزقهم يأتيهم رغداً. فكانوا من ثمة يصرفون وقتهم كله في العبادة والتعلم، إذ ان الزوايا كانت مراكز للتعليم، شأنها في ذلك شأن المدارس، الا انها كانت اكثر انطواء، حتى في الدروس الدينية. ومن المهم ان نتذكر انه ليس من السهل الفصل بين العلم والتقوى في الاسلام.

مر بنا ما قاله ابن جبير عن الزاوية بشكل عام، فلنرافقه الآن في زيارة لزاوية اخرى، لعلها من افخم ما عرفته دمشق من الزوايا. يقول الرحالة: «ومن اعظم ما شاهدناه لهم موضع يعرف بالقصر، وهو صرح عظيم مستقل في الهواء، في اعلاه مساكن لم ير اجمل اشرافاً منها، وهو من البلد بنصف الميل، له بستان عظيم يتصل به، وكان متنزهاً لاحد ملوك الاتراك. فيقال: انه كان فيه احدى الليالي على راحة،

فاجتاز به قوم من الصوفية، فهرق عليهم من النبيذ الذي كانوا يشربونه في ذلك القصر. فرفعوا الأمر لنور الدين، فلم يزل حتى استوهبه من صاحبه، ووقفه برسم الصوفية مؤبداً لهم»(٤).

وقد كان في دمشق في ايام المماليك عدد من الطرق الصوفية الواسعة الانتشار في دنيا الاسلام، على نحو ما عرف في غيرها من المدن. وكان اشهرها القادرية والوفائية والقلندرية والنبوية التي كانت ابرزها واكثرها اتباعاً في دمشق.

كانت زاوية ابن داود اكبر زوايا الصالحية، وكان فيها خزان للماء وعرصة متسعة ومسجد حسن البناء ومقاصير كثيرة للفقراء ومكتبة وموضع خاص بالنساء. وكان فيها معلموها وخطباؤها وكانت تعقد حلقات الذكر فيها اعاشي الخميس من كل اسبوع.

هوامش

(١) رحلة ابن بطوطة، ١: ٢٣٥.
(٢) رحلة ابن بطوطة، ١: ٢٣٣ ــ ٢٣٤.
(٣) المصدر نفسه، ص ٢٢٩ ــ ٢٣٠.
(٤) رحلة ابن جبير، ص ٢٧٣.

٥ ـ السكان ومشكلاتهم

كان رحالو العصور المتوسطة يعتبرون دمشق في المنزلة الثانية بعد القاهرة، والاوروبيون منهم كانوا كثيراً ما يذكرون ان سكانها اكبر عدداً من سكان أي من باريس أو فلورنسة. ومع ان تقدير عدد السكان يختلف من كاتب إلى آخر، فانه من المعقول القول بان سكان دمشق كانوا حول مئة الف نسمة.

كان العرب الغالبية الساحقة من سكان دمشق، وكانوا يستعملون العربية في البيت والمدرسة والسوق، لكن جماعات من غير الناطقين بالضاد وفدوا على دمشق في ايام المماليك، أو لعلهم اتت بهم السلطات الحكومية عمداً. فالتركمان جاؤوا ايام آل زنكي ان لم يكن قبلاً. وجاء صلاح الدين بالاكراد، كما ان الجنود الشراكسة والاتراك واكبوا الحكام وامراء الاجناد من المماليك.

كان اغلب السكان من المسلمين، الا ان فئات من المسيحيين واليهود كانوا يقطنون المدينة. وكان للمسيحيين حي خاص بهم في جنوب شرق المدينة على مقربة من باب توما، كما ان اليهود كانوا يقطنون في قسم مماثل من المدينة جنوبي الشارع المستقيم الممتد من باب الجابية الى باب شرقي. وقد قدر بنيامين الططيلي عدد اليهود بدمشق بنحو ثلاثة آلاف، «بينهم كثيرون من أهل العلم والثراء»، كما انه يشير إلى وجود نحو مئتين من السمرة. ومع انني لم اقف على أي تقدير للمسيحيين، فالذي يبدو لي انهم كانوا ا كثر عدداً من اليهود.

وقد وصف ابن جبير كنيسة دمشق العظمى فقال: «وفي داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن عظيم، تعرف بكنيسة مريم، ليس بعد بيت المقدس عندهم افضل منها. وهي حفيلة البناء، تتضمن من التصاوير أمراً عجيباً تبهت الافكار، وتستوقف الأبصار، ومرآها عجيب، وهي بأيدي الروم، ولا اعتراض عليهم فيها»[1].

وقد ورد وصف للأماكن المعظمة عند المسيحيين في دمشق في كلام لرحالة من اهل القرن الثامن (الرابع عشر)، جاء فيه ما يلي: «ثم دخلنا دمشق حول الظهر من اليوم التاسع من الشهر المذكور، وهي مدينة كبيرة وجميلة، فيها اشياء كثيرة شهيرة بديعة، وهي تتفوق على كل البلاد التابعة للسلطان في كل شيء. وذكر دمشق هناك مثل ذكر باريس عندنا. وأول ما يذكر هو أنه على بعد نصف ميل من دمشق نجد المكان الذي ضرب فيه المسيح القديس بولس قائلاً له شاول، شاول لماذا تضطهدني؟ وفي

سور دمشق يوجد أيضاً النافذة التي هرب منها بعد ان قبض عليه اليهود وسجنوه، وبعدها ذهب القديس بولس إلى القدس ليبحث عن القديس بطرس. وفي دمشق هذه يوجد بيت حنانيا الذي ارشد الرب القديس بولس بوجوب الذهاب إليه، لما ضربه الرب كما ذكرنا. وهناك عمّده حنانيا. وعلى بعد غلوتين من اسوار دمشق يوجد حقل يدفن فيه المسيحيون الذين يتوفون في المدينة، سواء في ذلك الكاثوليك والارثوذكس والأرمن واصحاب الزنار. ويوجد في وسط الحقل وبين القبور حجر من الرخام الأبيض مربع، ذراع في ذراع تقريباً، يقال انه الحجر الذي قطع عليه رأس القديس جرجس. والمسيحيون جميعهم يحترمون المكان احتراماً كبيراً، ويذهبون إلى هناك يومياً، وخاصة في ايام الأعياد المسيحية، ليقبلوا الحجر اعظاماً له. والحجاج جميعهم يأخذون قطعاً منه. ويقال ان ايوب ولد في دمشق هذه في سفح جبل يبعد خمسة اميال عنها، ويرى من جميع أنحاء دمشق، ومثل ذلك يقال في حقل قريب من الطريق الممتد خارج دمشق حيث قتل قابيل أخاه هابيل.

«ثم على بعد نحو اثني عشر ميلاً من دمشق يوجد كنيسة معظمة جميلة ودير، والدير للروم الارثوذكس وخاص بالنساء ــ ولم نجد غيره ديراً خاصاً بالنساء في كل اسفارنا في تلك النواحي. والكنيسة والدير معظمان وجميلان ويشبهان ما عندنا هنا إلى حد كبير. والسطح وظاهر الجدران من الآجر، والمكان يعظمه المسيحيون والمسلمون كثيراً... وفي المكان ايقونة لسيدتنا التي يؤمن بها الكثيرون هناك... ومن هذه الايقونة ينز زيت تعطيه الراهبات الى الحجاج، وهو معظم عندهم. والمكان يقع في بلاد جميلة غنية. وقضينا هناك ليلة ونصف يوم ثم عدنا إلى دمشق»[٢].

كان في دمشق في القرنين الثامن والتاسع (الرابع عشر والخامس عشر) جالية اوروبية صغيرة تتكون من رجال اعمال من بنادقة وقطلونيين وجنويين وفلورنسيين وكالابريين وفرنسيين ــ وقد ذكر بعض الرحالين انهم كانوا كثيرين. كان لهم مخازن في المدينة فيها الأقمشة المنوعة، من الحرير والساتان والقطيفة والنحاس، وغير ذلك من المتاجر التي يتطلبها السوق. وكان كثيرون من التجار حريصين على شراء الافاويه والطيوب التي كانت تشحن الى اوروبا عبر بيروت. وكان للجماعات قناصل او مقدمون يهتمون بشؤونهم، ونحن نعرف انه كان ثمة على الاقل قنصل لقطلانية ومقدم للبندقية. وكان اما هؤلاء أو بعض كبار التجار يستضيفون كبار الزوار الاوروبيين الذين يقدمون دمشق.

كان المسيحيون واليهود في دمشق، شأنهم في ذلك شأن اهل الكتاب في الدولة الاسلامية، يعتبرون ذميين، يدفعون الجزية ولا يولون اعمالاً ذات مسؤولية. وحتى ما اشترعه القرآن الكريم والسنة النبوية من حق حماية اهل الكتاب لم ينقذهم دوماً من بعض الظلم. وقد كان الناس، في ايام المماليك، يتعرضون للكثير من مصادرة الاملاك وفرض الغرامات من قبل الدولة أو السلطان وسوء المعاملة لأسباب منوعة. وكان

المسيحيون واليهود معرضين لذلك، على ان مثل هذه المغارم كانت تقع على المسلمين أيضاً. وقد يكون حظ المسيحيين الاجانب خيراً من حظ ابناء البلد إذا كانت ثمة معاهدة مع دولهم تحميهم، ولو ان الرعاع لم يتقيدوا دوماً بمثل هذه الاتفاقات. ومن ثم فاننا نقرأ بين الحين والآخر عن صبيان اساؤوا إلى الزوار، ثم اختفوا عن اعين رجال الدولة. ويبدو ان احدى الوسائل التي لجأت إليها الدولة لتوفير الحماية للتجار المسيحيين الاجانب هي ان تحملهم على البقاء في بيوتهم ليلاً. يقول برتراندون دو لا بروكييه: «كان موظفون مخصوصون يقومون باقفال منازل التجار المسيحيين، ثم يفتحونها في الصباح، عندما يروق لهم ذلك».

يشتهر اهل دمشق دوماً بلياقتهم في سلوكهم، سواء أكان ذلك فيما بينهم ام مع الغرباء. وقد تأثر كثيرون ممن اقاموا بينهم بما فيهم من اللطف والاهتمام بالآخرين. والانطباع الذي وصفه كل من ابن جبير وابن بطوطة (وهذا كان قد جاب في طول الأرض وعرضها وتنقل براً وبحراً) حري بان ينقل. فقد قال ابن جبير:

«ومخاطبة اهل هذه الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد، وبامتثال الخدمة، وتعظيم الحضرة، وإذا لقي احد منهم آخر مسلماً يقول: جاء المملوك أو الخادم برسم الخدمة، كناية عن السلام، فيتعاطون المحال تعاطياً، والجد عندهم عنقاء مغرب، وصفة سلامهم ايماء للركوع أو السجود، فترى الاعناق تتلاعب بين رفع وخفض، وبسط وقبض، وربما طالت بهم الحالة في ذلك، فواحد ينحط وآخر يقوم، وعمائمهم تهوي بينهم هوياً. وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات النساء، وعند استعراض رقيق الاماء، فيا عجباً لهؤلاء الرجال، كيف تحلوا بسمات ربات الحجال، لقد ابتذلوا انفسهم فيما تأنف النفوس الابية منه، واستعملوا تكفير الذمي المنهي في الشرع عنه! لهم في هذا الشأن طرائق عجيبة في الباطل...

«ومن عجيب حال الصغير عندهم والكبير، بجميع هذه الجهات كلها، انهم يمشون وايديهم إلى خلف، قابضين بالواحدة على الأخرى، ويركعون للسلام على تلك الحالة المشبهة بأحوال العناة مهانة واستكانة، كأنهم قد سيموا تعنيفاً، واوثقوا تكتيفاً، وهم يعتقدون تلك الهيئة لهم تمييزاً لهم في ذوي الخصوصية وتشريفاً، ويزعمون انهم يجدون بها نشاطاً في الأعضاء، وراحة من الأعياء، والمحتشم منهم من يسحب ذيله على الأرض شبراً، أو يضع خلفه اليد الواحدة على الأخرى، قد اتخذوا هذه المشية بينهم سنناً، وكل منهم قد زين له سوء عمله، فرآه حسناً، استغفر الله منهم! فان لهم من آداب المصافحة عوائد، تجدد لهم الإيمان، وتستوهب لهم من الله الغفران، لما بشر به الحديث المأثور عن رسول اللهﷺ في المصافحة، فهم يستعملونها اثر الصلوات، ولا سيما اثر صلاة الصبح، وصلاة العصر. وإذا سلم الامام، وفرغ من الدعاء، اقبلوا عليه بالمصافحة، واقبل بعضهم على بعض يصافح المرء عن يمينه وعن يساره، فيتفرقون عن مجلس مغفرة، بفضل الله عز

وجل. وقد تقدم الذكر فيما سلف من هذا التقييد انهم يستعملونها عند رؤية الأهلة، ويدعو بعضهم لبعض، بتعرف بركة ذلك الشهر ويمنه واستصحاب السعادة والخير فيه، وفيما يعود عليه من امثاله، وتلك أيضاً طريقة حسنة، ينفعهم الله بها، لما فيها من تعاطي الدعوات، وتجديد المودات، ومصافحة المؤمنين بعضهم بعضاً رحمة من الله تعالى ونعمة»[٣].

ويقول ابن جبير ايضاً عن اهتمام القوم بالاوقاف المحبوسة على العناية بالغرباء ما يلي:

«وللربوة المباركة اوقاف كثيرة، من بساتين وارض بيضاء ورباع. وهي معينة التقسيم لوظائفها: فمنها ما هو معين باسم النفقة في الادم للبائتين فيها من الزوار، ومنها ما هو معين للأكسية برسم التغطية بالليل، ومنها ما هو معين للطعام، إلى تقاسيم تستوفى جميع مؤنها، ومؤن الأمين الراتب فيها برسم الامامة، والمؤذن الملتزم خدمتها، ولهم على ذلك كله مرتب معلوم في كل شهر. وهي خطة من اعظم الخطط.

«والأمين فيها الآن من بقية المرابطين المسوُّفيين ومن اعيانهم، يعرف بأبي الربيع سليمان بن ابراهيم بن مالك، وله مكانة من السلطان ووجوه الدولة، وله في الشهر خمسة دنانير حاشا فائدة الربوة، وهو متسم بالخير ومرتسم به، وهو متعلق بسبب من اسباب البر في ايواء اهل الغرب من الغرباء المنقطعين بهذه الجهات، يسبب لهم وجوه المعايش من امامة في مسجد، أو سكنى بمدرسة تجري عليه فيها النفقة، أو التزام زاوية من زوايا المسجد الجامع يجبى إليه فيها رزقه، أو حضور في قراءة سبع، أو سدانة مشهد من المشاهد المباركة يكون فيه، ويجري عليه ما يقوم به من اوقافه، الى غير ذلك من الوجوه المعاشية، على هذه السبيل المباركة مما يطول شرحه. فالغريب المحتاج هنا، إذا كان على طريقة الخير، مصون محفوظ غير مريق ماء الوجه. وسائر الغرباء ممن ليس على هذه الحال، ممن عهد الخدمة والمهنة، يسبب له ايضاً اسباب غريبة من الخدمة: اما بستان يكون ناطوراً فيه، او حمام يكون عيناً على خدمته وحافظاً لأثواب داخليه، أو طاحونة يكون أميناً عليها، أو كفالة صبيان يؤديهم إلى محاضرهم ويصرفهم إلى منازلهم، إلى غير ذلك من الوجوه الواسعة. وليس يؤتمن فيها كلها سوى المغاربة الغرباء، لأنهم قد علا لهم بهذا البلد صيت في الامانة، وطار لهم فيها ذكر، واهلها لا يأتمنون البلديين. وهذا من ألطاف الله تعالى بالغرباء، وله الحمد والشكر على ما يولي عباده. وان شاء احد المتعلقين باسباب المعارف التعرض هنالك للسلطان، يقبله ويكرمه ويرتبه، ويجري عليه بحسب قدره ومنصبه، قد طبعت هذه البلاد وملوكها على هذه الفضائل قديماً وحديثاً. وقد تسلسل بنا القول إلى غير الباب الذي نحن فيه، والحديث ذو شجون، والله كفيل بحسن العون، لا رب سواه»[٤].

ثم يقول:

«ومرافق الغرباء بهذا البلد اكثر من ان يأخذها الاحصاء، ولا سيما لحفاظ كتاب

الله عز وجل، والمنتمين للطلب. فالشأن بهذه البلدة لهم عجيب جداً. وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم، لكن الاحتفال بهذه البلدة اكثر، والاتساع اوجد. فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا، فليرحل الى هذه البلاد، ويتغرب في طلب العلم، فيجد الأمور المعينات كثيرة. فأولها فراغ البال من أمر المعيشة، وهو اكبر الاعوان وأهمها، فإذا كانت الهمة فقد وجد السبيل الى الاجتهاد، ولا عذر للمقصر الا من يدين بالعجز والتسويف، فذلك من لا يتوجه هذا الخطاب عليه، وإنما المخاطب كل ذي همة يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده في وطنه من الطلب العلمي، فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك، فادخل ايها المجتهد بسلام، وتغنّم الفراغ والانفراد قبل علق الأهل والأولاد وتقرع سن الندم على زمن التضييع، والله يوفق ويرشد، لا إله سواه، قد نصحت ان ألفيت سامعاً. وناديت ان اسمعت مجيباً، «ومن يهد الله فهو المهتد»، جلّت قدرته، وتعالى جده. ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقية كلها الا مبادرة اهلها لاكرام الغرباء، وايثار الفقراء، ولا سيما اهل باديتها، فانك تجد من بدار الى بر الضيف عجباً، كفى بذلك شرفاً لها. وربما يعرض احدهم كسرته على فقير فيتوقف عن قبولها، فيبكي الرجل ويقول: لو علم الله فيَّ خيراً لأكل الفقير طعامي. لهم في ذلك سر شريف.

«ومن عجيب امرهم تعظيمهم للحاج، على قرب مسافة الحج منهم، وتيسير ذلك لهم، واستطاعتهم لسبيله. فهم يتمسحون بهم عند صدورهم، ويتهافتون عليهم تبركاً بهم»[٥].

وقد كتب ابن بطوطة عن الموضوع ذاته لكنه وضع النبرة على الوقف وأهميته فقال:

«والاوقاف بدمشق لا تحصر انواعها ومصارفها لكثرتها: فمنها اوقاف على العاجزين عن الحج يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته، ومنها اوقاف على تجهيز البنات الى ازواجهن وهن اللواتي لا قدرة لاهلهنَّ على تجهيزهن، ومنها اوقاف لفكاك الاسارى، ومنها اوقاف لابناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم، ومنها اوقاف على تعديل الطرق ورصفها لان ازقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه يمر عليها المترجلون ويمر الركبان بين ذلك، ومنها اوقاف لسوى ذلك من افعال الخير. حكاية: مررت يوماً ببعض أزقة دمشق فرأيت به مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني وهم يسمونها الصحن فتكسرت واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم اجمع شقفها واحملها معك لصاحب اوقاف الاواني فجمعها وذهب الرجل معه اليه فأراه إياها فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن، وهذا من احسن الأعمال فان سيد الغلام لا بد له ان يضربه على كسر الصحن او ينهره وهو أيضاً ينكسر قلبه ويتغير لأجل ذلك فكان هذا الوقف جبراً للقلوب جزى الله خيراً من تسامت همته في الخير إلى مثل هذا. واهل دمشق يتنافسون في عمارة

المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد. وهم يحسنون الظن بالمغاربة ويطمئنون اليهم بالأموال والأهلين والأولاد. وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لا بد ان يتأتى له وجه من المعاش من امامة مسجد أو قراءة بمدرسة أو ملازمة مسجد يجيء إليه فيه رزقه أو قراءة القرآن أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة أو يكون كجملة الصوفية بالخوانق تجرى له النفقة والكسوة. فمن كان بها غريباً على خير لم يزل مصوناً عن بذل وجهه محفوظاً عما يزري بالمروة. ومن كان من أهل المهنة والخدمة فله اسباب اخر من حراسة بستان أو أمانة طاحونة أو كفالة صبيان يغدو معهم إلى التعليم ويروح. ومن أراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة وجد الاعانة التامة على ذلك. ومن فضايل أهل دمشق انه لا يفطر احد منهم في ليالي رمضان وحده البتة، فمن كان من الأمراء والقضاة والكبراء فانه يدعو اصحابه والفقراء يفطرون عنده، ومن كان من التجار وكبار السوقة صنع مثل ذلك، ومن كان من الضعفاء والبادية فانهم يجتمعون كل ليلة في دار احدهم أو في مسجد ويأتي كل احد بما عنده فيفطرون جميعاً»[٦].

كان المماليك يحبون الفخامة والعظمة وكانوا حريصين على عرض ذلك باسلوب لا يجارى، سواء في الاقامة والرحيل وفي الحرب والسلم وفي دور القضاء واقامة الولائم. فإذا هبط السلطان دمشق كان يحرص على ان يرى في دمشق ما ألفه في القاهرة. فإذا صلى الجمعة في الجامع الأموي الكبير استوثق بنفسه من ان المقصورة زينت على خير ما يمكن ووضع حولها الحرس الضروري، وان مظلته الصفراء كانت ترفع فوق رأسه إذ يجتاز البلد في موكبه إلى الجامع، وان السرج المطرز بالذهب كان يستعمل، والا فانه يحمل امامه إذا مشى، وان الرنوك وعليها ألقابه ونقوشه كانت ترفع امامه، وان العدد المألوف من الطبول والكوسات كانت ترافق موكبه. اما في دار العدل فكان السلطان يجلس على كرسي يرتفع عن مقاعد الآخرين، يحف به الوزراء والامراء والقضاة جلوساً على الجانبين.

وكان نائب السلطنة في دمشق يحذو حذو سيده: فكانت مواكبه مثالاً للفخامة. فإذا ذهب إلى ميدان الخيل أو ميدان تحت القلعة أو المزة أو أي من الميادين في الضواحي، حف به الأمراء يرتدون الاقبية الحمراء ويعتمرون العمائم الأنيقة ويمتطون صهوات الجياد المكسوة بالسروج الجميلة يتدلى من جوانبها القماش المزركش الثمين. هناك كان نائب السلطنة وحاشيته يدربون الجياد أو يرشقون السهام أو يلعبون بالصوالجة. فإذا بدأوا العودة اخذ مرافقو النائب يترجلون، بدءاً بصغار الضباط، فئة بعد فئة عند اماكن معينة، حتى إذا وصل الموكب دار النيابة لم يبق سوى النائب ممتطياً صهوة جواده. ثم يدخل القاعة الكبرى حيث يجد كرسياً خاصاً مجللاً بالحرير الأصفر موضوعاً على منصة فيتخذ منه مكان جلوسه، ويجلس القضاة إلى يمينه واصحاب المناصب الإدارية إلى يساره، ويتوزع الباقون اماكنهم جلوساً أو وقوفاً.

وعندما تقدم إليه المظالم في رقاع ينقلها الموظفون من اصحابها، فينظر فيها ويبدي رأيه الذي يدونه كاتب قائم لذلك، ثم يعهد إلى اصحاب الوظائف الخاصة بتنفيذ احكام النائب. وكان يتلو ذلك، في العادة، سماط يشترك فيه الموجودون جميعهم. فإذا فرغ القوم من الطعام تفرقوا الا خاصة النائب من النصحاء والامراء وسواهم من اصحاب الوظائف وذلك للتحدث في أمور الحكومة وقضاياها.

كانت دمشق، ولها من الموارد ما ورد ذكره، تنعم بثروتها التي لم تكن ولا شك موزعة توزيعاً سوياً. وما اكثر ما كانت الاعياد العامة مناسبات لاقامة السماط. فقد احتفى المظفر (٧٠٨ /١٣٠٨ ـ ٧٠٩ /١٣٠٩) بعيد المولد النبوي فقدم على سماطه خمسة آلاف من الخرفان وعشرة آلاف من الطيور المحمرة ومئة الف زبدية من الخضار المطبوخة وثلاثون ألف صحن من الحلوى، ودعي القوم الى الاكل. وقد خلف تنكز، الذي حكم دمشق بضع سنوات، ثروة بلغت ٧٣٠,٠٠٠ درهم و٢,٧٠٠,٠٠٠ دينار فضلاً عن المجوهرات. وفي سنة ٦٣٣ /١٢٣٦ توفي الكمال التاجر فترك ثروة قيمتها ٣٠٠,٠٠٠ دينار ومئة لؤلؤة كبيرة. وفي سنة ٦٩٩/ ١٣٠٠ فرض قازان على دمشق اربعة ملايين درهم، ولم تجد المدينة صعوبة في دفع المبلغ، لولا ان الوسطاء طالبوا بمبالغ ضخمة لأنفسهم.

من لغو القول ان الاشخاص الذين ذكروا كانوا يمثلون الطبقة الحاكمة التي لم تتورع عن اللجوء إلى شر الوسائل لجمع الثروة. والتجار كانوا يسيطرون على الاسواق فيفيدون من الربح العادي كما كانوا يفيدون من تقلب الاسعار. وقد كانوا يخفون المتاجر احياناً، بسبب نقص الغلال أو غزو خطير أو طلب التجار الاجانب للبضائع، ثم يبيعونها باسعار مرتفعة أو في السوق السوداء. ولكن ماذا كانت حال المواطن العادي الذي كان يسعى السعي الحثيث لتحصيل ما يقوم بأوده؟ الجدول التالي يبين الحاجة الشهرية لأسرة دمشقية عادية، مكونة من الابوين وأربعة أولاد، في ايام المماليك، باستثناء ثمن الثياب وأجرة البيت.

المادة	الكمية بالكيلو	الثمن (بالدولار)
القمح	٧٥	٠,٩٥
الارز	١٢	٠,٢١
القطاني	١٢	٠,١٨
اللحوم	١٢	٠,٨٥
السكر	٧	٠,٩٠
الزيت	١٠	٠,٢٥
الخضار	—	٠,٣٠
	المجموع	٣,٦٤

ومن ثم فان رب العائلة كان عليه ان يحصّل بين خمسة وستة من الدولارات شهرياً كي يؤمن حاجات افراد الأسرة.

من المؤسف انني لم اتمكن من العثور على ارقام عن اجور العمال، مهرة كانوا أو شبه ذلك. ولكن الوقف، كان في غالب الأحيان، يبين فيه عادة شروط الوقفية والمبالغ المتوجب دفعها الى من يقومون بالأعمال في المدرسة أو الجامع أو البيمارستان. وقد لخصت هذه المعلومات في الجدول التالي:

اصحاب العمل	الاجرة الشهرية (بالدولار)
الطبيب	٢١,٠٠
المدرس	٥,٦٠
الامام	٢,٨٠
المؤذن	٢,١٠
المحدث	٢,١٠
المعيد	١,٤٠
التلميذ	٠,٧٠
القارىء	١,٠٠
الحمّال	١,٤٠

من الواضح ان الطبيب هو الوحيد الذي يمكنه ان يعيش براحة، واما المدرس فقد يخرج من أجرة الشهر لا عليه ولا له.

الا انه يجب ان نذكر ان اكثر اصحاب الوظائف الصغرى كان يصرف لهم الخبز ايضاً، ولعلهم كانوا يعملون بعض الوقت في هذه الوظائف. ومع ذلك فمما لا شك فيه انهم لم يكونوا يحسدون على ما كانوا فيه.

فضلاً عن التجار واولئك الذين يعيشون من الوقف، كان ثمة عمال، مهرة وغير مهرة، وفلاحون وموظفون في الدولة (عدا القضاة) واعداد اخرى من الناس الذين تكون منهم سكان دمشق. ومع اننا لا نملك معلومات عن هؤلاء، فانه يبدو ان المؤسسات الخيرية كانت تؤوي عدداً كبيراً من الفقراء، كما ان هؤلاء كانوا يجدون اعمالاً صغيرة كثيرة يقومون بها لقاء مكافآت زهيدة تعين على المعيشة. ومع ذلك فمن الواضح ان عدد الذين كانوا ينعمون بالحياة من سكان «مدينة دمشق النبيلة» هم قلة. وكان من حسن حظ دمشق ان اماكن المتعة الطبيعية في ضواحي دمشق كانت توفر للناس، كما لا تزال توفر لهم اليوم، السرور والحبور لقاء القليل من النفقات.

عرفت دمشق في زمن المماليك، كما عرفت ذلك من قبل، اياماً عسيرة في حياة

السكان. فالجوع والقحط والحملات الكثيرة كانت تحمل التجار على اخفاء ما عندهم فيـؤدي ذلك الى ارتفـاع سـريع في الاسعـار، الأمـر الذي لم يكن من الممكن السـيطرة عليـه دومـاً. والجـدول التـالي هو خـلاصـة تبيـن ارتفـاع الاسعـار في المـواد الغـذائيـة الاساسيـة في دمشق في القرنين الثامـن (الرابع عشر) والتاسع (الخـامس عشر). وهذه الارقام مـأخوذة عن العـمري والقلقشندي. والـجدول يبين الارتفـاع بالنسبـة الى الاحوال العادية.

المادة	ارتفاع الاسعار (بالنسبة المئوية)
القمح	٧٠٠ الى ١,٠٠٠
الشعير	٦٠٠ الى ١,٠٠٠
الارز	٣٥٠ الى ٤٠٠
اللحوم	٥٠٠ الى ١,٨٠٠
السكر	٥٠٠
الطيور	٦٠٠

هوامش

(١) رحلة ابن جبير، ص ٢٧٢.
(٢) انظر غوتشي، ص ١٤٠ ــ ١٤١.
(٣) رحلة ابن جبير، ص ٢٨٥ ــ ٢٨٦.
(٤) رحلة ابن جبير، ص ٢٦٦ ــ ٢٦٧.
(٥) رحلة ابن جبير، ص ٢٧٤ ــ ٢٧٥.
(٦) رحلة ابن بطوطة، ص ٢٣٧ ــ ٢٤١.

٦ ـ ادارة المدينة

كان الغالب على المدن الاسلامية انها لم تعتمد الانتخاب سبيلاً لاختيار الهيئات او الموظفين الذين يشرفون على شؤونها، فلا الاسلام بحد ذاته شرع في هذه الناحية، ولا نشأت أي من هذه المنظمات نتيجة للتجارب التي مرت المدن بها. يجب ان نتذكر ايضاً ان المدن الاسلامية في العصور المتوسطة لم تجاهد في سبيل الحصول على حريتها، على نحو ما فعلت نظيراتها في اوروبا، ومن ثم فلم تنشأ في الأولى المؤسسات البلدية التي عرفتها الفئة الثانية. فقد كان موظفو المدينة الاسلامية اجمعين يختارهم السلطان. وفي ايام المماليك كانت هذه السلطة، اي اختيار الموظفين، يمارسها اما السلطان مباشرة أو نائبه. ولم تكن دمشق لتشذ عن ذلك: فجميع اصحاب الوظائف الذين كانوا يشرفون على النشاطات المختلفة ويدبرون امورها المدنية، كانوا موظفين تعينهم الدولة.

فما هم الموظفون الذين عرفتهم دمشق؟ وبعبارة أخرى من كان يحكم المدينة ويقوم على حراستها ويعنى بأمورها وينظر في اسواقها ويدير القضاء فيها.

كان في دمشق والٍ يعينه السلطان، لكنه كان تابعاً لنائب السلطنة. كانت واجبات الوالي تشمل الحفاظ على الأمن، الأمر الذي كان يشرف عليه شخصياً عندما يتفقد الحارات في الليل. وكان يترتب عليه أن يداور العيارين والشطار. وكانت المدينة والضواحي، باستثناء القلعة، تحت امرته. وكان للوالي اعوان يتنقلون باستمرار، إذ لم تكن ثمة مكاتب يقيم فيها هؤلاء. وكان الشرطة وصاحبهم تحت اشرافه، الا انه كثيراً ما كان الوالي نفسه صاحب الشرطة. وكثيراً ما كان صاحب الشرطة يسمح له بان يتميز عن غيره بلباس خاص للرأس، وبذلك يسهل التعرف عليه. وكان كل من يلقى عليه القبض يحضر إلى صاحب الشرطة أولاً للتحقيق في أمره، ومع ان صاحب الشرطة لم تكن له رتبة قضائية فانه كان يتصرف في القضايا التي لم يكن فيها خلاف للشريعة.

كانت دمشق، شأنها في ذلك شأن اي من المدن الكبيرة في جميع الأزمان، يقطنها عدد كبير من الذين يعبثون بالأمن ويزعجون السكان. ولما كان على الوالي ان يراقب هؤلاء مراقبة تامة، فانه كان يحتفظ بمساعدين، بالإضافة الى الشرطة، وكان يلجأ إلى وسائل متعددة للقيام بمسؤولياته. فالاحداث كانوا يوضعون اثناء الليل في الاماكن الهامة، وكان شيخ الاحداث مسؤولاً عن النظام في محلته.

وكانت اكثر شوارع دمشق منارة في الليل، وكان ثمة جماعة من الناس، يسمون الضوئية، كان عليهم ان يحفظوا المصابيح مشتعلة باستمرار. وقد اعتاد سكان دمشق سماع طبول القلعة تضرب ثلاث مرات في الليلة الواحدة، لا من اجل تذكير الناس بالاوقات فحسب، بل من أجل تنبيه الحرس الى وجوب اليقظة الدائمة.

وعندما كان يقع جرم قتل كان الوالي كثيراً ما يلجأ الى ما يصح تسميته بالعقوبة المشتركة، بمعنى انه يفرض على سكان الحارة ان يدفعوا دية القتيل، بالاضافة إلى غرامة إذا عجزوا عن اظهار القاتل. وكان على الوالي ان يتأكد بان احكام الشرع فيما يتعلق ببيع الخمور جارية تماماً. كما انه كان مسؤولاً عن سلامة الحجاج الى نحو خمسين ميلاً تمتد جنوبي دمشق.

وكان تنفيذ احكام الشرع في انحاء المدينة من عمل القضاة، الذين كانوا يقومون بذلك تحت اشراف قاضي قضاة المذهب. وقد اقتصر الايوبيون على تعيين قاضي قضاة شافعي واستمر الحال على ذلك ايام المماليك حتى سنة ٦٦٤ هـ/ ١٢٦٦م إذ أمر بيبرس بوجوب تعيين أربعة من قضاة القضاة ليس في القاهرة فحسب، ولكن في دمشق وحلب أيضاً، ومنذ ذلك الوقت اصبح لكل من المذاهب السنية الأربعة قاض للقضاة، وكان القضاة مرتبطين به. وكثيراً ما كان منصب قاضي قضاة المالكية اسمياً. وقد كانت دمشق، بسبب اتساع رقعتها وكثرة سكانها، بحاجة الى عدد كبير من القضاة للنظر في القضايا المختلفة.

كان القاضي يحكم بالشريعة وكان ينظر في جميع القضايا، التي كان غالبها يتعلق بالأمور الشخصية. اما القضايا التجارية فكانت من اختصاص الإدارة وكان ينظر فيها عرفاً، لا بحسب قانون معين، خاصة إذا كان الاجانب طرفاً فيها. وكان المسيحيون يلجأون الى المحاكم الكنسية في القضايا الدينية، واليهود كانوا يعرضون مثل هذه القضايا على محاكمهم الدينية.

ومن المؤسسات التي عرفتها دمشق في ايام المماليك الشهود، الذين كانوا يعينون القاضي في تقرير قضايا العدالة، وكانوا اشبه ما يكون بكتاب العدل، خاصة بين القرن الثاني (الثامن) والقرن الرابع (العاشر)، وقد يحلون الخصومات الصغيرة بانفسهم. ومن ثم فقد كان ارتباطهم بالقاضي وثيقاً، فهو الذي يعينهم وهو الذي يعزلهم. ويبدو ان هذا النظام، الذي كان قد اندثر أو كاد، عادت إليه الحياة في القرن السابع (الثالث عشر) وشاع استعماله. فلما ولي الجمال المصري قاضياً في دمشق (سنة ٦١٧/١٢٢٠) عمد الى جمع الشهود ايام الثلاثاء والجمعة من كل اسبوع في صحن العادلية، وبذلك كان باستطاعة من اراد التثبت من وثيقة أو فض نزاع، ان يتم له ذلك حالاً. ولم يكن يتطلب في الشهود مقدرة خاصة، الا انهم كانوا دوماً يختارون من الصالحين. وقد كان الكثيرون من الشهود في دمشق من الوراقين والمجلدين الذين

كانوا يذهبون الى دور العدل، بعد الفراغ من اعمالهم، للقيام بواجباتهم القضائية. وقد اصبح من المألوف فيما بعد ان يجتمع الشهود في أربعة اماكن في دمشق هي: تحت الساعات والخزانة وباب الشامية وسوق ساروجا.

وكان المفتي بين الرجال المعنيين بالنظر في شؤون القضاء، وعمله ان يوضح بعض قضايا الشرع متى اشكلت أو استعصت. وقد كان لكل من حلب ودمشق مفتٍ، وكانت الولاية بكاملها تقع في نطاق اختصاصه. وقد يكلف مفتي دمشق بالاجابة عن اسئلة تحول إليه من ولاية مجاورة، ان لم يكن فيها مفتٍ. وعندنا قضية طريفة من هذا النوع ترجع الى القرن الثامن (الرابع عشر). فقد حدث ان فئة من التجار الاوروبيين نزلوا عكا سنة ٧٥١ هـ/١٣٥٠م، وسمح لهم ان يحتفلوا بعيد الفصح في المدينة. فاعتدي عليهم، وتلا ذلك بعض الاضطراب الذي وقع بينهم وبين اهل المدينة، فالقي القبض عليهم، لكن حاكم عكا لم يعرف على أي اساس يجب ان يحاكموا ـ ايحاكمون كما لو كانوا مسيحيين من ابناء البلاد، ام على اساس انهم يحملون الامان لانهم جاؤوا البلاد تجاراً؟ فاستنجد بوالي صفد، الذي كانت عكا تابعة له، ولكن الوالي لم يستطع ان يقطع برأي، وكان منصب المفتي يومها خالياً، فبعث هو بدوره بالقضية الى مفتي دمشق ليبدي فيها رأيه. وقد اصدر السبكي، وكان مفتي دمشق يومها، فتوى تتلخص بانه لما كان من مصلحة الدولة الاسلامية ان تظل علاقات السلطان حسنة مع المدن التي جاء منها هؤلاء التجار، فانه يجب ان ينظر إليهم على انهم كانوا يتمتعون بالامان، وبذلك كانت العقوبة التي انزلت بهم خفيفة نسبياً، ثم اطلق سراحهم.

ومن طريف ما كان يحدث انه عندما كانت تخلو المدينة ممن ينظر في امرها بسبب هرب واليها أو اختفائه ابان حملة شديدة أو هجوم عنيف، كان يجتمع بعض اعيانها ويهتمون بقضايا المدينة وادارتها. فلما دخل رجال قازان دمشق سنة ٦٩٨/ ١٢٩٩، هرب النظار، بما في ذلك الوالي، فاجتمع القاضي وشيخ التداريس ونفر من العلماء وبعض شيوخ الحارات وحملوا العبء انفسهم. ولم يكن ثمة قانون أو عرف يصح اتباعه، ولعل هذه الحادثة لم تكن فريدة في نوعها.

وكانت المصالح الصغرى في المدينة يرئسها موظفون يعرف واحدهم باسم الشادّ. وكان الوالي من المماليك، وكذلك كان صاحب الشرطة في الغالب، ان لم يكن هو الوالي نفسه، ولكن القاضي والشاد وغيرهما من الموظفين كانوا من ابناء البلاد. فقد كان ثمة شادّ الزكاة، الذي كان اليه النظر في جمع الزكاة من كل مسلم مكلف بدفعها، كما انه كان يترتب عليه ان يجمع من تجار العطارة المترتب عليهم من العشور. وكان هناك شاد للاوقاف، وكان عليه ادارة اوقاف المدينة، ان لم يكن الواقف قد اشترط سبيلاً خاصاً لادارة وقفه. وكان هذا المنصب من اهم مناصب المدينة بسبب الاوقاف الكثيرة المنتشرة في دمشق.

وكان ثمة اربعة موظفين أُخر هم شادّ مسابك الزجاج والحديد والنحاس، وشادّ دار البطيخ والفاكهة وشاد مصانع السكر وشاد العشور. وكانت المسابك ملكاً للسلطان، ومعناها ان الشاد كان عليه ان يهتم بمصلحة الدولة، فيحتفظ بالقيود الصحيحة للمتاجر كلها. وكانت اسواق الفاكهة مورداً هاماً للوالي، فكان على الشاد ان يتأكد من ان الرسوم كانت تجمع بانتظام. وكان يتحتم على شاد العشور ان يضمن دفع الرسوم الجمركية المترتبة على التجار الاجانب.

ويبدو انه كانت لسوقين بعينهما مكانة خاصة في عين الوالي، لا لانهما كانتا تزودان الخزينة بالكثير من مواردها فحسب، بل لارتباطهما بالشؤون العسكرية وأمور الأمن وهما: سوق الخيل وسوق الرقيق. اما الأولى فلان الجند كانوا بحاجة دائمة إلى الخيل، وهي عدة النقل الأولى في الحروب، وكان من المهم ان يستمر جلبها وبيعها. واما السوق الثانية فكانت مراقبتها شديدة خشية ان يتزيا العيون بزي الرقيق فيطلعوا على ثغرات البلاد ويبعثوا باخبارها الى قومهم، فضلاً عن ان المماليك كانوا يبحثون عن الخدم والحرس الخاص في هذه السوق.

وكان لكل من المؤسسات الاجتماعية في دمشق، مثل البيمارستانات والمساجد والمدارس والزوايا، ناظرها. ولم يكن من الضروري ان يكون ناظر البيمارستان طبيباً، لكنه كان من المحتم ان يختار رجل متين الخلق لذلك. وكان الناظر مسؤولاً في تصرفاته امام نائب السلطنة، وكان ينظر في اوقاف البيمارستان. اما الأطباء فقد كانوا تحت اشراف رئيس خاص بهم، سواء في ذلك الأطباء الموظفون في البيمارستان أو اولئك الذين كانت لهم عياداتهم الخاصة. وقد كان من المتعارف عليه ان يكون في دمشق ثلاثة من هؤلاء الرؤوساء: رئيس للأطباء ورئيس للجرائحية ورئيس للكحالين. وقد يتولى احد هؤلاء، اذا كان مبرزاً في علمه، الجسم الطبي بكامله وقد تولى بدر الدين مثل هذا المنصب في مطلع القرن السابع (الثالث عشر).

وكان اليبرودي من كبار اطباء دمشق في القرن الخامس (الحادي عشر)، وقد وضع ما يصح ان يسمى ناموساً ادبياً للمشتغلين بالطب، الذين كانوا حريصين على السير بموجبه. فالطبيب هو الذي اجتمعت فيه الخصال التالية:

١ ــ ان يكون تام الخلق صحيح الاعضاء حسن الذكاء جيد الرواية عاقلاً ذكوراً خيِّر الطبع.

٢ ــ ان يكون حسن الملبس طيب الرائحة نظيف البدن والثوب.

٣ ــ ان يكون كتوماً لاسرار المرضى لا يبوح بشيء من امراضهم.

٤ ــ ان تكون رغبته في ابراء المرضى اكثر من رغبته فيما يلتمسه من الأجرة، ورغبته في علاج الفقراء اكثر من رغبته في علاج الاغنياء.

٥ ــ ان يكون حريصاً على التعليم والمبالغة في منافع الناس.

٦ ــ ان يكون سليم القلب عفيف النظر صادق اللهجة، لا يخطر بباله شيء من أمور النساء والأموال التي شاهدها في منازل الاعلاء، فضلاً عن ان يتعرض الى شيء منها.

٧ ــ ان يكون مأموناً ثقة على الأرواح والأموال لا يصف دواء قتّالاً ولا يعلمه ولا دواء يسقط الاجنة. يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه.

وكان يقوم على شؤون المساجد نظار وخطباء وأئمة، فالناظر يدير الوقف وينظر في صيانة البناء، والخطيب كان مسؤولاً عن خطبة الجمعة كما انه كان يقوم بقسط من التعليم، والامام كان يؤم الناس في الصّلاة. ولما كان للجامع الأموي الكبير منزلة خاصة في دمشق وجوارها، فقد كان كثيراً ما يتولى نظره قاضي القضاة بذاته. كما كان يرجع إليه النظر في التداريس بدمشق، كبارها وصغارها. ولا شك في ان التداريس الكبار كان يشغلها كبار العلماء ــ فهم الذين حفظوا للعلم مشعله في العاصمة السورية.

ومع ان الزوايا كانت من مراكز العلم، بالاضافة الى أمور أخرى، فان النظر فيها لم يكن لقاضي القضاة: فقد كانت مستقلة وكان لها مدبروها. فكل زاوية حتى ولو سميت خانقاه أو رباط، كان لها شيخ يرجع إليه في أمور جماعته أو اتباعه. وكان هؤلاء الشيوخ جميعاً تحت امرة شيخ الشيوخ، الذي كان، في وقت واحد: مدبراً للجميع، وحلقة اتصال بينهم وبين اصحاب السلطان. فقد كان لهؤلاء اهمية خاصة في نظر اهل الحكم، إذ انه كان باستطاعتهم ان يخلقوا متاعب للحكومة لو أنهم أثاروا في الناس روح التذمر، لكنهم لم يفعلوا. فقد فضلوا ان يكونوا حلفاء السلطان، وما اكثر اولئك الذين كانوا يسبحون بحمده. الا ان الزوايا كانت تقع تحت رقابة شديدة خشية ان ينضم اليها شيعة او اسماعيلية. والواقع ان الكثيرين ممن كانوا يترددون على الزوايا ويقيمون فيها كانوا كثيري الحرص على تعقب هؤلاء. اما بوصفها مراكز للمعرفة الصوفية فقد ادت الزوايا خدمات جلى للأدب والفكر ايام المماليك، الأمر الذي سنتحدث عنه فيما بعد.

تردد كثيراً ان اكثر المدرسين، على اختلاف مراتبهم، كانوا في خدمة الدولة، التي كانت حريصة في اختيارهم، وخاصة اصحاب النفوذ منهم. الا انه يجب ان نتذكر ان عدداً لا يستهان به من هؤلاء المدرسين كانوا يتخلون عن مناصبهم ذات الدخل الكبير ويعتصمون في بيوتهم، حتى لا يخضعوا لنزوات الحكام. ذلك انهم كانوا ينظرون الى مهنتهم نظرة اجلال، وكانوا يرون في الحفاظ على علوم الدين واجباً وعملاً كبيرين. ويتضح ذلك من اسماء اولئك الذين قبلوا بالتدريس: لقد كانوا كبار العلماء في ايامهم.

ادرك المماليك، كما عرف ذلك من قبل، انه كان ايسر عليهم ان يكون اتصالهم برعاياهم من غير المسلمين عن طريق خاص بهم. فما داموا قد منحوا وضعاً خاصاً

وسمح لهم بان يمارسوا عقائدهم وعباداتهم بحرية، فانه حري بهم ان تكون لهم منظماتهم الخاصة، على الاقل عندما تكون مسائل الاحوال الشخصية والأمور الدينية هي موضع الاهتمام.

وكان للمسيحيين بطركان (بطريركان) في دمشق: الواحد للملكيين والثاني لليعاقبة. وكان كل منهما مسؤولاً امام نائب السلطنة، وكان اختصاص كل منهما يشمل المسيحيين التابعين له لا في دمشق وحدها فحسب، بل في طول المملكة وعرضها. وكان فيما يتعلق بهذه الناحية يأتي تحت السلطان مباشرة.

وكانت الطائفة تختار بطركها (بطريركها)، الا ان تعيينه كان يتم بمرسوم يصدره السلطان. وقد جاء في التوقيع السلطاني، بالاضافة الى أمور أخرى ما يلي: «فلذلك رسم بالأمر الشريف ــ لا زال احسانه العميم لكل طائفة شاملاً، وبره الجسيم لسائر الملك بالفضل متواصلاً ـ ان يستقر بطركاً على النصارى الملكية بالشام وأعماله، على عادة من تقدمه في ذلك، وتقوية يده على اهل ملته، من تقادم الكريم المستمر حكمه الى آخر وقت.

«فليباشر هذه البطركية مباشرة محمودة العواقب، مشكورة لما تحلت به من جميل المناقب، وليحكم بينهم بمقتضى مذهبه، وليسر فيهم سيراً جميلاً ليحصل لهم غاية قصده ومأربه، ولينظر في احوالهم بالرحمة، وليعمل في تعلقاتهم بصدق القصد والهمة، وليسلك الطرق الواضحة الجليّة، وليتخلق بالاخلاق المرضية، وليفصل بينهم بحكم مذهبه في مواريثهم وأنكحتهم، وليعتمد الزهد في أموالهم ومتعتهم، حتى يكون كل كبير منهم وصغير ممتثلاً لأمره، واقفاً عندما يقدّم به إليه في سره وجهره، منتصبين لاقامة حرمته، وتنفيذ أمره وكلمته، وليحسن النظر فيمن عنده من الرهبان، وليرفق بذوي الحاجات والضعفاء: من النساء والصبيان، والاساقفة والمطارنة والقسيّسين زيادة للاحسان، احساناً جارياً في المساء والصباح، والغدو والرواح.

«فليمتثلوا أمره بالطاعة والاذعان، وليجيبوا نهيه من غير خلاف ولا توان، ولا يمكن النصارى في الكنائس من دق الناقوس، ورفع اصواتهم بالضجيج ولا سيما عند اوقات الأذان لاقامة الناموس، وليتقدم الى جميع النصارى بأن كلاً منهم يلزم زيه، وما جاءت به الشروط العمرية ــ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ــ لتكون أحوالهم في جميع البلاد مرعيّة، وليخش عالم الخفيات، وليستعمل الأناة والصبر في جميع الحالات، والوصايا كثيرة وهو بها عارف، والله تعالى يلهمه الرشد والمعارف»(٢).

كان رئيس اليهود يسمى الناغد في بادىء الأمر ثم شاع استعمال الرئيس. وقد كان ثمة مقدم لطائفة السامريين الذين كان عددهم في دمشق لا بأس به، لكن رئيسهم كان في مدينة نابلس بفلسطين. وقد كانت واجبات رئيس اليهود توضح في مرسوم التعيين وهي تشبه وظائف البطرك.

فالبطرك والرئيس كان لهما اعوان على مراتب متفاوتة. فالأول كان يعتمد على الاساقفة والكهنة، اما اعوان الثاني فكان منهم البرناس الذي كان يجمع الصدقات، والمقدمون والديان (المراقبان) والحزان وبيت الدين (القاضي)، وكان كل يقوم بواجباته على نحو ما نص عليه ناموس اليهود.

ولم يكن البطرك أو الرئيس مسؤولين عن جمع الجزية. فقد كانت هذه تدفع إلى موظفي الدولة رأساً. الا انه كان من الضروري ان يطلع رجال الحكومة على التطورات التي تجري في الطائفة، في سبيل تعيين المبالغ الواجب دفعها. لذلك كان على رؤوساء المسيحيين واليهود والسامريين ان يعدوا الرقاع المفصلة المحتوية اسماء المقيمين في مناطقهم واسماء الطارئين عليها واسماء المولودين والمتوفين والنازحين والذين اعتنقوا الاسلام. هذه الرقاع كانت تقدم الى شاد الجوالي، الذي كان عليه ان يتشدد في الحصول عليها.

وقد ترتب على منح هذه الادارة الذاتية للطوائف الدينية المختلفة حل بضع من المشكلات الادارية، ويسر ذلك لها ان تطور مجتمعها داخلياً. على ان هذا التنظيم شجع الانطواء الديني والعنصري، الا انه، من الناحية الأخرى، مكن للحاكم ان يهتدي الى تلك الطوائف بيسر عندما يحتاجها، بقطع النظر عن الباعث الى تلك الحاجة.

كانت الاسواق والصناعات هي التي تستأثر بعناية الدولة في ايام المماليك. فقد كانت دمشق مدينة كبيرة، ومن ثم كان توفير الحاجات الضرورية لسكانها امراً هاماً. كان الموردون مبدئياً من سكان المناطق المجاورة، لكن البضائع غير القابلة للتلف، كان يحملها التجار من اماكن بعيدة، بما في ذلك التجار الاجانب. ولم تكن الاسعار تتوقف على العرض والطلب فحسب، بل كانت ثمة عوامل اخرى تتعلق باساليب البيع واختلاف الموازين والمكاييل وتنوع النقود المستعملة. ذلك ان دمشق، وقد كانت متاجرها تأتيها من اماكن بعيدة، كان فيها ما لا يقل عن ثلاثة انواع من المكاييل للحبوب وفيها اثنان للزيوت والسوائل الاخرى واربعة اصناف من المقاييس. يضاف الى ذلك ان دمشق كانت تستعمل ثلاثة انواع من النقود.

فقد سار المماليك على الخطة التي اتبعتها الدول الاسلامية من قبل واتخذوا نقدين، الواحد اساسه الذهب ووحدته الدينار (١,٤٥ دولاراً) وكان دوماً نادر الوجود والثاني قاعدته الفضة ووحدته الدرهم (٠,٠٧ من الدولار) وهو الذي غلب وجوده واستعماله. وقد اختلفت نسبة الأول الى الثاني بنسبة وجود الفضة في الدرهم. وكانت خير الدراهم النقرة وفيها الثلثان من الفضة والثلث الواحد من النحاس، وكان عشرون درهماً من النقرة تساوي عادة ديناراً واحداً. وقد سك المماليك الفلس، وهو نقد نحاسي كان كل ٤٨ منه تساوي درهماً، لكنه لم يعمر طويلاً لأن قيمته تدنت بعد وقت قصير. وكان ثمة دينار آخر كانت تحسب بموجبه مكافآت رجال الجيش، وان لم

يستعمل كنقد في واقع الأمر. وكان أربعة انواع من النقد الاجنبي شائعاً استعمالها في دمشق وهي: الافرنتي (ولعله نقد فرنسي يساوي ١٧ درهماً أو ١,١٩ دولاراً)، والذهب البندقي (يساوي ١,٤٠ دولاراً)، والدوقة الفضية (٠,١٤ من الدولار) والبزنتة التي تساوي عشرة دراهم (٠,٧٠ من الدولار).

ومن ذا الذي كان اليه النظر في مثل هذه النشاطات وما إليها؟ ليسمح لنا القارىء بان نذكره بان بعض الاسواق، مثل سوق الخيل وسوق الرقيق، وبعض الصناعات مثل السكر والحديد، كان لها مشرفون وكان هؤلاء تعينهم الدولة. لكن العبء الحقيقي في الاشراف على الاسواق والتجار كان يقع على كاهل المحتسب.

ادخل اليونان إلى مدن الشرق الأدنى وظيفة كان صاحبها يسمى أمين السوق. كان يدخل في نطاق واجباته التأكد من ان ما يباع في السوق جيد وان المكاييل والمقاييس المستعملة صحيحة. وقد استمرت هذه الوظيفة ايام الرومان والبيزنطيين ولعل المسلمين ورثوها منهم بعد الفتح، مع ما ورثوه من مناصب ادارية متنوعة. ويبدو ان المدن السورية استمرت تستعمل هذه الوظيفة، لكن منذ القرن الرابع (العاشر) او الخامس (الحادي عشر)، اصبحت الوظيفة دينية المعنى والغاية، شأنها في ذلك شأن وظائف كثيرة غيرها.

وحدث تطور آخر يتعلق بالمحتسب بعد القرن الخامس (الحادي عشر)، وهو ظهور عدد كبير من الكتب التي كانت توضح طبيعة الوظيفة الشرعية والدينية، وتبين ما يجب ان يتحلى به من يتولاها، وتعين واجباته. وقد كان المحتسب، ايام الايوبيين والمماليك، واحداً من اوسع موظفي الدولة نفوذاً، لأنه كان يراقب الحركات التخريبية والاشخاص المرتاب بهم. ولم يكن محتسب دمشق ليشذ عن ذلك، الا في ان مسؤوليته كانت اكبر.

كان المعين لهذا المنصب يختار بدقة. يجب ان يكون فقيهاً عارفاً بالشريعة تقياً نظيف القلب دقيقاً صبوراً عارفاً بوسائل اهل الصنائع وطرق غشهم. وكانت واجباته متعددة. كانت له دكة في السوق، وكان يظل قريباً من الاسواق، يركب خلالها ويفاجىء التجار نهاراً وليلاً. وكان اعوانه وغلمانه يرافقونه في غدواته وروحاته. وكان يعين عرفاء لمباشرة الاسواق (وكانوا في الواقع رؤوساء التجار، اذ انه كان لكل صناعة أو تجارة سوقها الخاص في الغالب)، ومع ان اكثر اعمال المحتسب كانت تتم في الاسواق، فما اكثر ما كان يتفقد المساجد ليتأكد من ان المشرفين عليها حافظوا على نظافتها وان الذين يفدون عليها يحسنون استعمالها. وكان عليه ان يراقب الأزقة الموحشة خشية ان يسيء بعض الرجال والنساء استعمالها للاجتماع أو الالتقاء.

وكان على المحتسب ان يعنى بنظافة الاسواق والشوارع، وان يتأكد من ان المتاجر لا تزعج المارة. وكان يحمي الجمهور من ان يقدم الباعة له الطعام الرديء او

يغشوه بالكيل والميزان، ومن تجار النقود الزائفة والمحتكرين، وان يحمي الاطفال من الضرب على ايدي معلميهم، ومن تزوير الأطباء والكحالين والجرائحية والصيادلة. وكان يضع اصحاب الصناعات التالية تحت المراقبة المباشرة أو غير المباشرة وهم: الجزارون وقلاة السمك وطهاة الحلوى وصناع النقانق والحاكة والخزافون وصناع الإبر وباعة الحناء والصناع في معاصر السيرج وصناع المناخل والدباغون واللباديون وصانعو الحصر وبائعو الحلى وتجار الارز وسقاة الماء.

فالمحتسب كان موظفاً كبيراً في الدولة، وكانت واجباته تقوم على اساسين: أولهما انه عهد اليه بحماية الجمهور من الغش والظلم، وكان عليه ان يستوثق من ان الذين يحملون الحاجيات والبضائع الى المدينة لا يعترضهم التجار المحليون خارج الاسوار، فيبتاعون ما معهم بالثمن البخس ليبيعوه فيما بعد بالثمن الفاحش. فالبيوع جميعها كان يجب ان تتم في السوق وعلى ايدي دلال وباشراف اعوان المحتسب. ومع ان المحتسب لم يكن له ان يسعر الاشياء، فانه كان يستطيع ان يحول دون الباعة والاسعار الفاحشة. وكان يتوجب عليه ان يتأكد من ان القمح والدقيق والخبز متوفرة للاستهلاك. لكن يجب ان نذكر ايضاً ان المحتسب كان يحمي الحكومة (وهذا هو الاساس الثاني). فالصناع، وهم ما يمكن ان يسمى اهل الطبقة الوسطى او ما الى ذلك، كانوا تحت اشرافه، أي اشراف الحكومة. ويمكن تفهم هذا الأمر إذا تذكرنا ان هذه الفئة من السكان كانت مهيئة لان تتأثر بتعاليم الشيعة والاسماعيلية، الأمر الذي كان مدعاة للقلق في دولة سنية.

وكان ثمة مصالح لم تخضع لاشراف المحتسب. فقد اشرنا الى الاسواق والمصانع التي لم تكن تحت اشرافه، ولنضف الآن ان التعليم العالي لم يكن من اختصاصه ايضاً. فالأولى كان لها نظارها والتعليم كان يقع على كاهل قاضي القضاة، ولم تكن الحكومة قلقة من هذه الناحية. ذلك ان الصناعات التي كانت يجب ان تكون تحت مراقبة شديدة هي الصناعات الحرة والأقل أهمية.

وكان للمحتسب ان يوقع بعض العقوبات، خاصة إذا كانت الشرطة تحت اشرافه، لكن ذلك كان لا يأتي الا بعد التعزير مرات متعددة. ويبدو انه في هذه المسائل كان المحتسب يقوم بعمل قاض في قضايا، لم تكن تستحق نظر المحكمة، ولو انها اجرامية، وكان بطبيعة الحال، يطبق احكام الشرع.

هوامش

(١) انظر زيادة: الحياة المدينية في سوريا تحت حكم المماليك (بالانكليزية). الفصل السابع.
(٢) صبح الاعشى، ١٢: ٤٢٥ ــ ٤٢٦.

٧ ـ الحياة الفكرية

كان الفاطميون، في نهاية القرن الخامس (الحادي عشر)، قد احتلوا جزءاً كبيراً من فلسطين وسوريا، وكان التشيع قد انتشر في جزء كبير من البلاد. وقد اصاب الدول الاسلامية بعض الخذلان السياسي لما اتيح للصليبيين اقامة الدويلات اللاتينية في سوريا ولبنان وفلسطين في القرن نفسه والقرن الذي تلاه. الا ان ردة الفعل الاسلامية جاءت في القرن السادس (الثاني عشر): بدأها زنكي ودفع بها الى الامام نور الدين ثم تمكنت الجيوش الاسلامية من الانتصار على اللاتين في معركة حطين سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧م بقيادة صلاح الدين الايوبي.

كان زنكي ونور الدين وصلاح الدين سنيين، وانتعاش الاسلام على ايديهم كان معناه احياء السنة. فقد روى ابو شامة ان نور الدين نصر السنة في حلب وازال الزيادة من الأذان وضيق على الروافض. وقد قضى صلاح الدين على الخلافة الفاطمية ٥٦٦ /١١٧١ واعترفت مصر وسوريا بخليفة بغداد، واندفع آل زنكي والايوبيون في تأييد السنة كما انهم لم يتورعوا عن التضييق على الشيعة ما وسعهم ذلك. فانشئت المدارس لتعليم السنة، واعيد منصب المحتسب. وسار المماليك على نهج اسلافهم فأتموا الحملات العسكرية والسياسية ضد الصليبيين وانتهوا الى استرجاع ديار الشام منهم، فضلاً عن انهم انشأوا عدداً اكبر من المدارس، ونظموا الحكومة، وشددوا الخناق على الشعب، وفرضوا مراقبة دقيقة على مرافق الحياة جميعها، وقادوا الحملات ضد النصيرية، وشادوا المساجد على الاراضي التي انتزعت من اصحابها.

كان صلاح الدين وخلفاؤه على المذهب الشافعي الذي اصبح، مع الأشعرية، وكأنه المذهب الرسمي للدولة. وكان بيبرس اول من اعترف بالمذاهب السنية الأخرى إذ عين قاضي قضاة لكل من المذاهب الأربعة في القاهرة أولاً ثم في سورية. وهكذا انتصرت السنّة نهائياً إذ انها ضمنت تأييد السلطة لها، كما كانت هذه بحاجة إلى تأييد العلماء.

التصوف

وكان ثمة حركة أخرى ذات اثر كبير في الفترة التي نتحدث عنها وهي التصوف. وكان التصوف في اصله تعبيراً عن الرغبة في ايجاد الصلة بين الخالق والمخلوق بواسطة التقوى والتقشف، الا انه تطور تدريجاً الى حركة كان لها اثر بعيد في الفكر

الديني في الاسلام. يقول احد الكتاب في ذلك: «كان النساك طلائع الحركة، وقد عرفوا في الجزيرة والعراق وفلسطين وسوريا وخراسان، وكان من الفضائل التي يتحلون بها، والتي جعلوها ناموساً لحياتهم، الزهد والاعراض عن الثروة والجاه. كان النساك سلبيين في موقفهم من الحياة وكانت حياتهم خلواً من الفرح. لكن لم يلبث الدفء ان وجد سبيله إلى حياة الكثيرين من النساك ــ وكان دفئاً ينبع من نور ينفذ الى الاعماق وانطلاق روحي الى الأعلى. من بغداد جاءت الجذوة الأولى، وظلت مصدر الوحي مدة طويلة». وفي واقع الأمر فان بغداد لم تزد عن كونها حافظت على دور القيادة الأول في الأدب والفقه والشرع والفلسفة.

ازداد عدد المتصوفة، وتأثروا بالثيوصوفية اليونانية والهندية والمسيحية وغيرها، بحيث انتهى الأمر بما كان من آراء فردية في التصوف ان اصبح تدريجاً نظريات ونظماً لكلٍّ مريدوه ودعاته، وهي أمور لا يتسع المقام لها هنا.

وكان آخر ما اصاب التصوف من تطور هو قيام الطرق التي كان من اكثرها اصالة القادرية (انشأها في بغداد عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١ / ١١٦٦)، والسهروردية (انشأها السهروردي المتوفى سنة ٦٣١/ ١٢٣٤)، والشاذلية (نشأت في شمال افريقيا على يد الشاذلي المتوفى سنة ٥٥٦/ ١٢٥٨) وهي اولى الطرق المغربية، والمولوية (انشأها جلال الدين الرومي المتوفى سنة ٦٧٢/ ١٢٧٣ في تركية)، والتي يعرف اتباعها احياناً باسم الدراويش الراقصين. من هذه الفرق الأربع وكثير غيرها تفرعت عشرات من الطرق.

ولما كان في التصوف بعض من التعاليم التي لا يقبلها العلماء من اهل السنّة، فلم يكن غريباً ان يثير المتصوفة غضب العلماء، الذين اتهموهم بالشرك والكفر. وقد لاحظ واحد من المؤلفين «ان الفرق الاساسي بين موقف العلماء وموقف المتصوفة هو ان الاولين رأوا في العلم بالقرآن والحديث الطريق الوحيد لادراك الله وتلقي الهدى لاتباع طريقه ووصاياه، بينما حسب المتصوفة المعرفة سبيلاً يؤدي الى الغاية ذاتها. والمعرفة، كما فهمها المتصوفة، لم تكن تقول بالتغاضي عن اركان الاسلام، بل انها وضعت النبرة على التجربة الشخصية واخذت تدريجاً بالاعتراف بالاحوال والمقامات التي كان على الصوفي ان يجتازها في سبيل تحقيق معرفة الله. فالصوفي كانت تمر به احوال وأوضاع روحية في تنقله في طريق الرحلة العلوية من مقام الى الذي يليه. وقد كان هذا الطريق طويلاً ملتوياً مضنياً مرهقاً وفيه خمس واربعون مرحلة من التوبة الى الشوق للبقاء مع الله دوماً». ومن نافل القول ان قلة من الناس اعطي لهم ان يبلغوا الغاية من هذه الاهداف. ولكن احراز بعض النجاح على الاقل، على هذه الطريق، كان يقرب الانسان من الله اكثر مما يقربه التفسير الشرعي، أو على الاقل هكذا قال المتصوفة.

عرف التصوف عالماً كبيراً اتيح له ان يجمع، على اقل حال، في تفكيره شخصياً بين الفكر الصوفي والفكر السني، وهو الغزالي (المتوفى سنة ٥٠٥ ـ ١١١١) الذي كان من كبار علماء عصره ان لم يكن اكبرهم. وقد قطع على نفسه عهداً بان يتمرس بالتصوف عملياً. وكانت النتيجة مذهلة: لم يكتف الغزالي بقبول التصوف، بل نصب نفسه للدفاع عنه. وكان هذا اكبر فتح للتصوف. وقد روى الغزالي قصة رجوعه الى الصواب في ترجمته الذاتية المسماة «المنقذ من الضلال»، قال: «ثم اني لما فرغت من هذه العلوم، أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وعلمت ان طريقتهم انما تتم بعلم وعمل. وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن اخلاقها المذمومة، وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله تعالى، وتحليته بذكر الله.

«وكان العلم أيسر عليّ من العمل. فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم، مثل «قوت القلوب» لأبي طالب المكي ـ رحمه الله ـ وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد، والسلى، وأبي يزيد البسطامي قدّس الله أرواحهم، وغير ذلك من كلام مشايخهم، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية، وحصلت ما يمكن ان يحصل من طريقهم بالتعليم والسماع، فظهر لي ان اخص خواصهم، ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم، بل بالذوق والحال، وتبدل الصفات.

«وكم من الفرق بين ان يعلم حد الصحة، وحد الشبع، وأسبابهما وشروطهما، وبين ان يكون صحيحاً وشبعاناً، وبين ان يعرف حد السكر، وانه: عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر، وبين ان يكون سكراناً. بل السكران لا يعرف حد السكر، وعلمه وهو سكران، وما معه من علمه شيء. والصاحي يعرف حد السكر، وأركانه، وما معه من السكر شيء. والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة، واسبابها، وادويتها، وهو فاقد الصحة. كذلك فرق بين ان تعرف حقيقة الزهد وشروطها، واسبابها، وبين ان يكون حالك الزهد، وعزوف النفس عن الدنيا.

«فعلمت يقيناً انهم ارباب الاحوال، لا اصحاب الاقوال. وان ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته. ولم يبق الا ما لا سبيل اليه بالسماع والتعلم، بل بالذوق والسلوك.

«وكان قد حصل معي ـ من العلوم التي مارستها، والمسالك التي سلكتها في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية ـ ايمان يقيني بالله تعالى، وبالنبوة، وباليوم الآخر.

«فهذه الاصول الثلاثة من الايمان كانت رسخت في نفسي، لا بدليل معين محرر، بل بأسباب، وقرائن، وتجاريب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها.

«وكان قد ظهر عندي انه لا مطمع لي في سعادة الآخرة الا بالتقوى، وكف النفس

عن الهوى. وان رأس ذلك كله، قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور، والانابة الى دار الخلود، والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى. وان ذلك لا يتم الا بالاعراض عن الجاه، والمال، والهرب من الشواغل والعلائق.

«ثم لاحظت احوالي: فإذا انا منغمس في العلائق، وقد احدقت بي من الجوانب. ولاحظت اعمالي ـــ واحسنها التدريس والتعليم ـ فإذا انا فيها مقبل على علوم غير مهمة، ولا نافعة في طريقة الآخرة. ثم تفكرت في نيتي في التدريس، فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى. بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت، فتيقنت اني على شفا جرف هارٍ، واني قد أشفيت على النار، ان لم اشتغل بتلافي الاحوال.

«فلم أزل اتفكر فيه مدة، وانا بعد على مقام الاختيار. أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الاحوال يوماً، وأحل العزم يوماً، وأقدم فيه رجلاً وأُؤخر عنه أخرى. لا تصدق لي رغبة في الآخرة بكرة، الا وتحمل عليّ جند الشهوة حملة فتفترها عشية. فصارت شهوات الدنيا تجاذبني سلاسلها الى المقام، ومنادي الايمان ينادي: الرحيل الرحيل، فلم يبق من العمر الا قليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما انت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل، فان لم تستعد الآن للآخرة، فمتى تستعد؟ وان لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع؟ فعند ذلك تنبعث الداعية، وينجزم العزم على الهرب والفرار.

«ثم يعود الشيطان ويقول: هذه حال عارضة، اياك ان تطاوعها، فانها سريعة الزوال. فان أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض، والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص، والامن المسلم الصافي عن منازعة الخصوم، ربما التفتت اليه نفسك ولا يتيسر لك المعاودة.

«فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعي الآخرة، قريباً من ستة اشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة. وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار الى الاضطرار: إذ اقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسي ان ادرس يوماً واحداً تطييباً لقلوب المختلفة إليّ، فكان لا ينطق لساني بكلمة واحدة، ولا استطيعها البتة، حتى أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب، بطلت معه قوة الهضم، ومراءة الطعام والشراب، فكان لا ينساغ لي ثريد، ولا تنهضم لي لقمة. وتعدى الى ضعف القوى، حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج، وقالوا: هذا أمر نزل بالقلب، ومنه سرى الى المزاج، فلا سبيل إليه بالعلاج الا بأن يتروح السر عن الهم الملم.

«ثم لما أحسست بعجزي، وسقط بالكلية اختياري التجأت الى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له. فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه. وسهل على قلبي الاعراض عن الجاه، والمال، والأولاد، والأصحاب»[٣].

وقد ترتب على هذه النقلة ان اوجد الغزالي «للمواقف الباطنية الداخلية مكاناً في مجال الاسلام الرسمي، فكان جنباً إلى جنب مع الشريعة والكلام». الا ان الغزالي جعل التصوف سنياً، لان ما قَبِله من التصوف لم يكن التصوف المتطرف. وقد ارتأى ا.ج. آربري انه منذ ايام الغزالي اصبح بامكان نوع هادىء من التصوف ان يحتل مكاناً بين العلوم الاسلامية. الا ان هذا القول يقابله استثناءات متعددة، كابن تيمية، عالم دمشق في ذلك العصر، الذي كان شديد الحملة على التصوف. ولنا الى هذا الموضوع عودة.

كان التصوف الاسلامي، في القرن السابع (الثالث عشر)، قد كون ثيوصوفيته الخاصة المبنية على اساس فكرة الكلمة، والتي اصبحت فيما بعد فكرة الحقيقة المحمدية. وقد كان لصوفيين كبيرين الفضل في نشرها وهما: ابن الفارض (المتوفى في القاهرة سنة ٦٣٣ / ١٢٣٥) وابن عربي (المتوفى في دمشق سنة ٦٣٨ /١٢٤٠). كانت دمشق بين القرنين السابع (الثالث عشر) والتاسع (الخامس عشر) مركزاً هاماً لناحيتي التفكير الاسلامي: السنة والشريعة من جهة والتصوف من جهة اخرى، وكانت كفة الناحية الأولى ارجح في غالب الأحيان.

علماء في دمشق

وكانت ثمة عوامل كثيرة ادت الى ذلك، منها النظام الجديد الذي ظهر في هذه الرقعة من العالم الاسلامي. لكن يجب ان نذكر الآن ان خطر الغزو المغولي، الذي تحقق لما احتل هؤلاء بغداد، حمل كثيرين من العلماء على الهجرة من العاصمة العباسية متجهين غرباً، وكانت دمشق المكان الطبيعي الذي يلقون عصا التسيار فيه. كما ان الرعاية التي كان آل زنكي والايوبيون وبعض سلاطين المماليك يسبغونها على العلماء، جذبت كثيرين منهم فانتقلوا من شمال العراق الى دمشق. فأسرة ابن تيمية انتقلت الى دمشق وعالم المستقبل كان لا يزال طفلاً، لكن اباه وجده كانا من العلماء المرموقين. ويبدو ان القاهرة لم تجذب اهل الفكر دوماً في تلك العصور. فابن عربي تركها بعد ان اعتدي عليه اكثر من مرة، وابن خلدون رضي بالبقاء هناك مرغماً. اما دمشق فكانت ذات جاذبية خاصة. وفضلاً عن ذلك فان عدداً من العلماء هجر فلسطين، وهي تحت حكم الصليبيين، الى دمشق مثل بني قدامة، الذين انشأوا الصالحية. وقد ظلت بغداد مركزاً للعلم، لكن دمشق سبقتها.

تجمع لدينا اسماء ١٣٥ عالماً قضوا حياتهم، أو جزءاً منها، في سورية، وكان غالبهم يعيشون في دمشق. وقد امكن تصنيفهم على الشكل التالي:

الفقهاء	٢٦
المفسرون والمحدثون	٢٣
المتصوفة	٥
اهل النحو والأدب والشعراء	٣٢
المؤرخون والجغرافيون	٢٨
الأطباء والعلماء والفلكيون	١٤
الموسوعيون	٤
مؤلفون متفرقون	٣

فأهل الاصناف الثلاثة الأولى، اي الذين ألفوا في الموضوعات الدينية، وعددهم ٥٤ عالماً، يكونون ٤٠ بالمئة من مجموع العلماء.

فإذا انتقلنا الى الكتب وجدنا ان ٩١٨ مجلداً وضعت في الفترة نفسها، فإذا وزعناها موضوعات وجدناها كما يلي:

الفقه	٢٧١
التفسير والعقيدة والحديث	١٦٤
التصوف	١٥٨
اللغة والأدب والشعر	١٣٥
التاريخ والجغرافية	١٢٣
الطب والعلوم والفلك	٥٢
الموسوعات	٤
مؤلفات متفرقة	١١

والكتب الموضوعة في الشؤون الدينية هي ٥٩٣ وتؤلف ٦٥ في المئة من مجموع ما ألّف. ولعله من الخير ان نضيف الملاحظ التالية:

١ ــ نجد ان الكثير من الدواوين يدخل في عداد الكتب الدينية إذا كان الموضوع ذكر الله ومدح الرسول.

٣ ــ ثمة عدد من الكتب الدينية يتكون من عدد من المجلدات، بينما الكتب العلمية قصيرة في الغالب. فالجواب الصحيح وفتاوى ابن تيمية وتفسير ابن كثير، على سبيل المثال، يقع كل منها في مجلدات عدة.

٣ ــ ان عدداً كبيراً من المحدثين والقراء اقتصر عملهم على التعليم في المساجد والمدارس لكنهم لم يؤلفوا كتباً. وهؤلاء يجب ان يذكروا.

واذا تذكرنا الكتب التي فقدت بالمرة فنحن محقون في اعتبار النتاج الادبي في هذه الفترة ضخماً وممتلئاً نشاطاً. ولو تفحصنا بعض ما كتب دفاعاً عن الاسلام أو ما

تعرض للموضوعات التي لا تدخل في نطاق السنة أو التي تتحدث عن غير المسلمين لاتضح لنا ان المؤلفين كانوا على شيء كثير من الحيوية.

والفترة عرفت القليل من التأليف العلمي، باستثناء كتب قليلة في الطب والفلك. وثمة كتابان في المنطق واثنا عشر كتاباً في الجغرافية وكتاب واحد عن الاستراتيجية والتعبئة. وقد اتبع الطب بسبب رعاية نور الدين وصلاح الدين وخلفائهما. فضلاً عن ان الطب كان ذا فائدة عملية ولم يكن له نصيب من التدخل في أمور السياسة. وعلى غرار ذلك كانت كتب الفلك وما اليه في الغالب تعنى بالناحية العملية من هذه القضايا، مثل التوقيت وعمل الاسطرلاب.

هل من الممكن تفسير هذه الأمور كلها؟

كانت الدولة تشرف على التعليم العالي. وكان هدفها حماية نفسها، وكان هذا هو الغرض الذي قبل علماء الدين والمفكرون الاضطلاع به. فلم يكن لحرية الفكر مكان في نظام التعليم في تلك الفترة، بل انه لم يكن لها مجال في الحياة الفكرية عامة. ويروي ابو شامة ان صلاح الدين لم يكن يحب الفلاسفة او اولئك الذين كانوا يخالفون المتبع المألوف، حتى انه أمر بقتل السهروردي (المقتول). وقد كان هذا سابقة خطرة استنها هذا الرجل الذي كان ينظر اليه خلفاؤه بعين الاكبار.

كانت التربية اساسها فهم النظام الفقهي الذي بذل العلماء جهداً في اقامته. ومن ثم فقد ضاقت حلقات المتعلمين واقتصرت موضوعات التعليم. ويلاحظ الباحث ان الكثير من كتب العقائد لم تكن اكثر من شروح وتفاسير لكتاب واحد او ذيول له. ومن حيث ان المجتمع الاسلامي لم يتلق، في القرن السابع (الثالث عشر) او بعده، تيارات فكرية من الخارج، فان الحياة الفكرية لم تعرف الحوافز او البواعث التي تحملها على الانطلاق. ذلك ان التوازن الداخلي القائم وجد في الفقه المعاصر له ما يلزمه لسد حاجاته. وكان لا بد من ضغط خارجي لاحداث رد فعل يؤدي الى تبديل الوضع، ومثل هذا الضغط لم يشهده العصر المملوكي.

شهدت الفترة التي اصطدم فيها الصراع بين المسلمين والصليبيين ازدهاراً في الشعر العربي. فقد زودت انتصارات نور الدين وصلاح الدين الشعراء بموضوعات لقصائدهم، ولم يقصروا قط في التغني باعمال الامراء الكبار. فابن عنين وابن الساعاتي امتدحا الايوبيين مع ان الأول ذاق ألم النفي من دمشق، وقضى مدة في اليمن ــ لكن في بلاط واحد من الايوبيين.

وشعراء الفترة ــ اي في القرنين السابع (الثالث عشر) والثامن (الرابع عشر) ــ الذين يمكن عدهم بين شعراء سورية كثر: فثمة ثلاثة وعشرون منهم. لكن نتاجهم الأدبي لا يبلغ مبلغ النتاج الشعري العربي القديم من حيث نوعه. ولعل ابن نباتة اذيعهم صيتاً. ولد هذا الشاعر في ميافارقين سنة ٦٨٦/١٢٨٧ وانتقل الى دمشق سنة

١٣١٦/٧١٦، لكنه رحل اخيراً الى القاهرة وتوفي فيها سنة ٧٦٧/ ١٣٦٦. وفي ديوانه الكثير من شعر المديح، ومن هذه القصائد ثماني عشرة تبدأ بالطريقة التقليدية من تذكر الاحبة والمرابع. وقد نظم ابن نباتة الموشح، الذي يزعم البعض ان ابن عربي نقله الى المشرق من الأندلس، كما انه نظم الزجل، وفي ديوانه نموذج من ذلك.

ويبدو ان الأدباء في ذلك العصر احسوا برغبة اهل الفكر في ان ينصرفوا الى الفقه وما اليه، لذلك نجد ان ياقوت يعتذر في مقدمة كتابه «ارشاد الاريب الى معرفة الاديب» بقوله:

«واني لجد عالم ببغيض يندد ويزري عليّ. ويقبل بوجه اللائمة اليّ. ممن قد أشرب الجهل قلبه. واستعصى على كرم السجية لبه. يزعم ان الاشتغال بأمر الدين اهم. ونفعه في الدنيا والآخرة أعم. اما علم ان النفوس مختلفة الطبائع. متلونة النزائع. ولو اشتغل الناس كلهم بنوع من العلم واحد لضاع باقيه. ودرس الذي يليه. وان الله جل وعز جعل لكل علم من يحفظ جملته. وينظم جوهرته. والمرء ميسر لما خلق ولست انكر اني لو لزمت مسجدي ومصلاي. واشتغلت بما يعود بعاقبة دنياي. في أخراي أولى. وبطريق السلامة في الآخرة أحرى. ولكن طلب الافضل مفقود. واعتماد الأحْرى غير موجود. وحسبك بالمرء فضلاً ان لا يأتي محظوراً. ولا يسلك طريقاً وعيراً»[٤].

ابن عربي

كان ابن عربي من كبار متصوفة اواخر القرن السادس (الثاني عشر) وأوائل السابع (الثالث عشر)، وقد صرف عشرين سنة أو يزيد من حياته في دمشق، حيث وضع قسماً كبيراً من خير مصنفاته. ولد ابن عربي في مرسية من اعمال الأندلس سنة ٥٦٠ /١١٦٥ وتلقى علوم الحديث والفقه في لشبونة واشبيلية وسبتة واطال التجوال في شمالي افريقيا. ومع انه كان قد تعرف الى الصوفية من قبل، فانه انضم الى المتصوفة في تونس. ويبدو ان هذا الاتجاه الجديد في حياته هو الذي حمله على الاتجاه شرقاً، إذ ان عصر الموحدين لم يكن يتقبل مثل الآراء التي كان ابن عربي يقول بها. فضلاً عن انه، مثل غيره من أهل الورع من المسلمين، رغب في اداء فريضة الحج. وقد كان بلغ الثامنة والثلاثين من عمره لما بدأ رحلته الى المشرق.

ولم تكن اقامته في مصر هينة، فقد هدد في حياته غير مرة، لكن مكة راقته وطابت له صحبة اهلها والواردين عليها من الحجاج، فاقام هناك ثماني سنوات عكف اثناءها على التأليف والتدريس، وقد تم له اثناءها اقامة مذهبه التأملي. وزار فيما بعد بغداد التي اعجبته لكنه لم يقم فيها طويلاً ــ ولعله احس بالاخطار المحدقة بالعاصمة العباسية من الشرق. وبعد تجوال قصير في آسيا الصغرى القى عصا الترحال في دمشق، وفيها توفي سنة ٦٣٨/١٢٤٠.

حظي ابن عربي في دمشق بكل ما يمكن ان يطمع فيه من لقاء طيب وعيش رغيد ورعاية اولي الأمر، وكان في ذلك خير له ولنا. وكان بين الذين افاؤوا عليه الرعاية ابن الزكي قاضي القضاة، الذي كان يقوم على خدمة الصوفي الكبير بنفسه. وكان جو دمشق الحر نسبياً، إذا قورن بالقاهرة والغرب الاسلامي، مما راق ابن عربي فحمله على العمل الفكري الجدي ـ إذ انه اتم وهو في دمشق «الفتوحات المكية» و«فصوص الحكم».

وقد خلف لنا ابن عربي عدداً ضخماً من المؤلفات تقدر بين ٤٠٠ و٧٠٠، وقد سلم منها ما يربو على المائتين. لا شك ان بعضها يتألف من اوراق مجموعة، لكن الكثير منها يتكون من مجلدات عديدة، مثل الفتوحات والفصوص. ولم يكن ابن عربي كاتباً فحسب، ولكنه كان شاعراً على نحو ما نعرف من شعره الذي رواه صاحب نفح الطيب.

والسؤال الذي يطرح نفسه علينا هو ماذا كان مذهب ابن عربي، هذا الصوفي الكبير. لقد «جمع ابن عربي في اطار تأملاته الجامع علوم الاسلام، ولم تكن معرفته الوثيقة مقتصرة على ما وضعه الفقهاء والفلاسفة السنيون والمتصوفة القدماء والمحدثون فحسب، بل كان مطلعاً على ما عند المخالفين لهم مثل المعتزلة والقرامطة والاسماعيليين. ومذهبه، على ما فيه من اتساع وتنوع، يتكشف عن ما عرفته مصادره جمعاء من تأملات وتعابير. ومن ثم فان الاشارات الغامضة تزداد تعقيداً بسبب الصعوبة التي تواجهنا باستمرار، وهي الصعوبة الناشئة عن استعمال التعابير الفنية المتناقضة».

ولا تتيح لنا الفسحة القصيرة التي بين ايدينا اكثر من ان نشير إلى بعض من آراء ابن عربي المتشعبة، الا ان الملاحظ التالية قد توضح موقفه من اسلافه وتأثيره في الذين تلوه من المتصوفة.

١ ــ الله هو الوجود الحق وهو مصدر كل الموجودات. وفي الله وحده يتحد الوجود والكيان.

٢ ــ الكون له وجود نسبي إما واقعي أو تصوري. وهو في الوقت ذاته وجود دائم وعدم موقت. فالوجود الدائم هو في علم الله اما العدم الموقت فهو خارجي بالنسبة لله.

٣ ــ ان الله منزه ومشبه، ذلك بان التنزيه والتشبيه مظهران اساسيان للحق على ما يدركه الانسان. فالحق الذي يقوم على التنزيه هو الخلق الذي يقوم على التشبيه، مع ان الخالق يتميز عن المخلوق.

٤ ــ ان الوجود، بعيداً عن الله، يقع بارادة الله، وهو خاضع للنواميس المتعلقة بالأشياء الكائنة. ويتم ذلك بواسطة الاسماء الحسنى أو الآراء الكلية.

٥ ــ كانت الاشياء في العالم الظاهري، قبل ان تصبح موجودات، قائمة في العقل الالهي كاعيان ثابتة، ومن ثم فقد كانت شيئاً واحداً مع الكيان والوعي الالهيين.

٦ ــ ليس ثمة شيء اسمه اتحاد بالله، بمعنى ان يكون المرء واحداً مع الله، ولكن هناك تحقيق للكيان الواقعي وهو ان الصوفي واحد مع الله.

٧ ــ ان الاصل الخلاق المحيي العاقل في الكون أو العقل الأول هو الحقيقة المحمدية المسماة ايضاً حقيقة الحقائق. هذا الاصل يظهر على أو في صورة الانسان الكامل.

٨ ــ كل نبي هو حقيقة الله، والحقيقة هي محمد سيد الأنبياء. وهذه الحقائق جميعها تتقمصها الحقيقة المحمدية.

٩ ــ الانسان الكامل هو مصغر الحقيقة. انه العالم الاصغر الذي يعكس الصفات الكاملة للعالم الأكبر جميعها. وكما ان الحقيقة المحمدية كانت المبدأ الخلاق في الكون، فان الانسان الكامل هو علة الكون لانه تحقيق لرغبة الله في ان يعلن. ذلك بان الانسان الكامل وحده هو الذي يعرف الله ويحب الله ويحبه الله. فقد صنع العالم من اجل الانسان فقط.

وفي اسلوب ابن عربي كثير من التعقيد والغموض والاضطراب، مما يثير حفيظة القراء ويعجزهم. فهل يكون ذلك نتيجة طبيعية لهذا المدى الواسع الذي امتد فيه تفكيره وتجاربه الروحية وتأملاته، ام انه تعمد هذا الاسلوب ليخفي عن معاصريه اموراً ما كان لهم ان يقبلوها، لكنه كان حريصاً على ان يودعها القرطاس؟ بعد هذا التنبيه ننقل الى القراء شيئاً مما كتبه ابن عربي.

يقول ابن عربي في «فصوص الحكم»: «وإذا كان الأمر من هذا الوجه ممتنعاً، ولم تكن الشهادة الا في مادة، فشهود الحق في النساء اعظم الشهود واكمله»[1]. ولعلّ هذه العبارة تعيننا على فهم القصيدة التالية لابن عربي:

مرضي من مريضة الاجفان ... عللاني بذكرها عللاني
هفت الورق بالرياض وناحت ... شجو هذا الحمام مما شجاني
بأبي طفلة لعوب تهادى ... من بنات المخدور بين الغواني
طلعت في العيان شمساً فلما ... أفلت أشرقت بأفق جناني
يا طلولاً برامةٍ دارسات ... كم رأت من كواعبٍ وحسان
بأبي ثمّ بي غزال ربيب ... يرتعي بين أضلعي في أمان
ما عليه من نارها فهو نور ... هكذا النور مخمد النيّران
يا خليلي عرّجا بعناني ... لأرى رسم دارها بعياني
فإذا ما بلغتما الدار حطا ... وبها صاحبيّ فلتبكياني
وقفا بي على الطلول قليلاً ... نتباكى بل أبك مما دهاني
الهوى راشقي بغير سهام ... الهوى قاتلي بغير سنان

عـرفـاني إذا بكيت لديهـا تسعداني على البكا تسعداني
واذكرا لي حديث هند ولبنى وسليمى وزينب وعنان
ثم زيدا من حاجر وزرود خبّرا عن مراتع الغزلان
واندباني بشعر قيس وليلى وبميّ والمبتلى غيلان
طال شوقي لطفلة ذات نثر ونظام ومنبر وبيان
من بنات الملوك من دار فرس من أجلّ البلاد من اصبهان
هي بنت العراق بنت امامي وأنا ضدها سليل يماني
هل رأيتم يا سادتي أو سمعتم ان ضدّين قطّ يجتمعان
لو ترانا برامة نتعاطى أكؤساً للهوى بغير بنان
والهوى بيننا يسوق حديثاً طيّباً مطرباً بغير لسان
لرأيتم ما يذهب العقل فيه يمن والعراق معتنقان
كذب الشاعر الذي قال قبلي وبأحجار عقله قد رماني
«أيها المنكح الثريّا سهيلاً عمرك الله كيف يلتقيان»
«هي شاميّة إذا ما استقلّت وسهيل إذا استقلّ يماني»[٦].

وما اكثر ما كان ابن عربي يشرح شعره، على نحو ما نرى في القصيدة التالية:

ما رحلوا يوم بانوا البزّل العيسا الا وقد حملوا فيها الطواويسا

فيها: بمعنى عليها. البزل: الابل المسمنة. رحلوها: جعلوا رحالها عليها. الطواويس: كناية عن أحبته. شبههم بهن لحسنهن.

المقصد: البزل، يريد الاعمال الباطنة والظاهرة، فانها التي ترفع الكلم الطيب الى المستوى الأعلى، كما قال تعالى: ﴿اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾. والطواويس: المحمولة فيها أرواحها، فانه لا يكون العمل مقبولاً ولا صالحاً ولا حسناً الا حتى يكون له روح مزينة عاملة أو همة، وشبهها بالطيور لانها روحانية وكنى عنها أيضاً بالطواويس لتنوع اختلافها في الحسن والجمال.

وعلى هذا النحو سار في شرح سائر الأبيات[٧].

والأبيات التالية توضح لنا موقف ابن عربي من الحب باسلوبه المعنوي المجرد الجامع:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لاوثان وكعبة طائف والواح توراة ومصحف قرآن
ادين بدين الحب أنّى توجهت ركائبه فالحب ديني وايماني[٨]

ووضع ابن عربي كتاب «الاجوبة اللائقة عن الاسئلة الفائقة» الذي تصور فيه

نفسه يجيب سائلاً عن القضايا التي تعترضه[٩].

و«الفتوحات المكية» هو تجليات ابن عربي وتفسيره للكون والعقيدة والروح وشؤون الحياة اجمالاً.

ويمكن تقصي المدى الذي تأثر فيه المتصوفة بابن عربي في اكثر من اتجاه واحد. فحتى اولئك الذين لم يقبلوا، أو تظاهروا بأنهم لم يقبلوا، نظرته بالوهية الكون، كثيراً ما عبوا من معين ابن عربي وخاصة آراءه في الحب. وحتى القاهرة، التي اقضت مضاجعه اثناء اقامته فيها، وجدت فيما بعد الكثير عنده. ونجد انه في نهاية القرن السابع (الثالث عشر) اصبح جماعة من المتصوفة في القاهرة من اشد المؤيدين لآرائه. وحتى العلماء حفزهم ابن عربي على العمل، لأنهم انصرفوا إلى نقده، وما كان ذلك بالأمر اليسير. وقد اختلف المفكرون والمؤلفون المسلمون المتأخرون في تقييم آرائه بسبب تنوع ما مر به من التجارب الروحية والتأملات وعمقها.

دور العلماء

العلماء هم حماة الشريعة. هذه هي النظرة الاسلامية التقليدية اليهم. وفي الفترة التي نتحدث عنها كان العلماء اصحاب نفوذ كبير. فقد كانوا يحتلون الوظائف الدينية. فمنهم القاضي والمحتسب والمفتي والمدرس والامام والخطيب والقارىء، وبذلك استطاعوا السيطرة على التعليم، وكان اليهم النظر في القضاء، واليهم تعود الفتوى. وكان ثمة عدد كبير من الوظائف الدينية وقفاً عليهم. فكتّاب الانشاء ونظّار المؤسسات المختلفة، كالبيمارستانات والجيش، كانوا من العلماء. والأدب الرسمي الذي تحدر الينا من تلك الفترة مطبوع بطابعهم.

وكان هناك من العلماء من لم يتولوا ايّاً من وظائف الدولة، ومع ذلك كانوا يفرضون رأيهم على الدولة، بسبب ما تمتعوا به من قوة الشخصية والخلق القويم، ولان الجمهور الذي عرف عنهم العلم والاخلاص والحماسة احترمهم وايدهم.

وتكفينا امثلة قليلة للدلالة على ذلك. فقد اصدر الملك العادل نقوداً جديدة سميت قراطيس، فانتقد اليونيني هذا العمل واتهم العادل بانه كان ينوي غش التعامل بين التجار. فما كان من العادل الا ان الغى القراطيس. وكان سبط ابن الجوزي مستشاراً خاصاً للملك المعظم. وفي سنة ١٢٦٧/٦٦٥ عقد الملك الظاهر بيبرس مجلساً في دمشق دعا اليه العلماء وطلب منهم ان يصدروا فتوى تسمح له بالاستيلاء على اراضي الغوطة، ولكن الشهرزوري عارض في ذلك على اساس ان السلطان لم يكن له حق في الارضين. ونزل السلطان عند رأي العلماء. وقد تمكن ابن عبد السلام ــ وهو معاصر للظاهر ــ من الغاء الاذن ببيع الخمور، وتقدم السلطان في مبايعة الخليفة، واصر على ان يبيع الأمراء المماليك في سوق الرقيق بنفسه، وتم له ذلك، وانفق ما تحصل له على اعمال البر. وفي سنة ٦٨٠ /١٢٨١ كان بيع الخمور وبيوت

الفسق يسمح بهما لمن نال حظوة عند اولي الأمر، ولكن العلماء قاوموهما ونجحوا في ابطالهما.

وابن تيمية مثل حسن لتبيين اثر العالم المتين الخلق في شؤون الدولة والمجتمع، على ما يتضح من بضعة حوادث منتزعة من حياته. لما رأى الخطر المغولي المحدق بالبلد سنة ٦٩٧ /١٢٩٨، تحدث الى الناس في شؤون الجهاد، فكان حديثه اوقع في النفوس من أوامر السلطان. ولما احتل المغول دمشق بقيادة قازان، كان ابن تيمية الذي حض ارجواش، نائب القلعة، على وجوب الامتناع عن تسليمها. وقد ذهب ابن تيمية الى النبك، بصحبة نفر من اعيان دمشق، للقاء قازان والحصول على امان لأهل المدينة. وبعد رحيل جيش قازان من دمشق طاف ابن تيمية واتباعه على حوانيت الخمور يكسرون آنية الخمر ويهرقون محتوياتها على الأرض، ويعزرون اصحاب الحانات. وقد رافق ابن تيمية حملتين عسكريتين الى كسروان بلبنان في اوائل القرن الثامن (الرابع عشر). وقبل معركة شقحب (سنة ٧٠١ /١٣٠٢) ذهب الى الجيش وتحدث الى الجند عن الوحدة والنصر واستوثق من ان الامراء وغيرهم اقسموا على الاخلاص، واوضح لهم شرعية قتال المغول، ولو ان هؤلاء كانوا مسلمين مثل اهل سورية.

قدمنا هذه الامثلة لنوضح الدور الذي كان العلماء يقومون به في الحياة العامة. فإذا اضفنا الى ذلك نشاطاتهم الفكرية، لا يتولانا العجب إذا نحن وجدنا ان حظهم في ارشاد القوم وتوجيه قضاياه المختلفة كان كبيراً.

وكانت دمشق في ايام المماليك تعج بالعلماء، فقد هاجروا اليها من الجزيرة وبغداد وفلسطين، وتقبلتهم دمشق مشجعة وافاءت عليهم من خيراتها وامنها، ومنحتهم الفرصة لينموا اهتمامهم العلمي.

وكانت دمشق في القرن الثامن (الرابع عشر) شديدة العناية بالحديث. وانصرف عدد كبير من المحدثين الى الاحاديث يتوثقون من اسنادها ويصنفونها ويبوبونها، وخاصة ان مئات من الاقوال كانت الى ذلك الحين قد نسبت، اما مصادفة او تعمداً، الى الرسول. وهكذا فان علم الحديث كانت له نهضة على ايدي فئة من ابرع من عرف علم الحديث في تاريخه ـ مثل الموفق والنووي والذهبي والسبكي وابن التقي وغيرهم. ولما كان علم الحديث لم ينفصل عن غيره من متفرعات الشرع والفقه، فلم يكن غريباً ان ينبغ واحد في الحديث والفقه على السواء. على انه يتوجب علينا ان نتذكر بهذه المناسبة حقيقة واحدة هامة وهي ان علم الحديث كان دوماً واحداً بقطع النظر عن المذهب او المدرسة التي ينتمي اليها المحدث، بينما كان الفقه يختلف تدارسه باختلاف المذهب. وهذا يوضح لنا السبب في ان مدارس الحديث، سواء في دمشق وفي غيرها، كانت للجميع، بينما كانت مدارس الفقه مخصصة لواحد من المذاهب الأربعة.

كان الحنابلة ذوي نفوذ وقوة واضحين في القرون السابع والثامن والتاسع (الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر)، وقد كان للهجرتين اللتين ذكرتا من قبل اثر في ذلك: هجرة جماعة ابن قدامة الذين تركوا بيوتهم قرب نابلس واستقروا في دمشق، ومجيء أسرة ابن تيمية قادمة من حران في شمال سورية. وظهر في بني قدامة عدد من العلماء والدارسين الذين كانت اكبر خدماتهم العلمية جمع الفقه ووضع المصنفات الموسوعية فيه. وأسرة تيمية منحت دمشق تقي الدين ابن تيمية (تو ٧٢٨ / ١٣٢٨) الذي لعله كان اكبر فقيه في ايامه. فهو يمثل الفئة الثانية، بعد ائمة السنة الأربعة الأوائل، التي يعود اليها الفضل في اعادة النشاط الى الدروس الاسلامية الشرعية، وتصنيف بعض ما سبق للفقهاء ان قدموه من آراء هامة، وتطبيق المنطق الحديث على بعض القضايا التي لم تكن قد خطرت لاسلافهم من قبل. وقد يكون في الاشارة الى ابن تيمية وصحبه على انهم مصلحون بعض المبالغة، ولكن اثرهم، وخاصة اثر ابن تيمية نفسه، يمكن ملاحظته في آراء المصلحين من المسلمين حتى يوم الناس هذا.

كان التأريخ موضع اهتمام وعناية في هذه الفترة، وقد صنفت فيه كتب قيمة. وكان الاخباريون الأوائل في الاسلام مغلقين على انفسهم بعض الشيء، وكان الاسلام وتاريخه هو كل ما يهمهم، وقلما عنوا بمن سبقهم من الاقوام أو حتى بمعاصريهم من الأمم الأخرى. اما مؤرخو العصر المملوكي فقد كانوا منفتحين. كانت كتاباتهم عن الاسلام والبلاد الاسلامية، الا انهم كانوا قد ارتبطوا بجماعات اخرى في الشرق والغرب وكونوا معها علاقات وثيقة وتعاملوا معها بشكل واسع. وقد جاء مؤرخو المماليك بعد ان كان عدد كبير من الجغرافيين والرحالين قد درسوا اجزاء العالم وكتبوا عنها. فلم يكن بامكان هؤلاء المؤرخين ان يتجاهلوا الاقوام الأخرى حتى ولو ارادوا ذلك. فضلاً عن ان بعضهم بذلوا جهودهم لتدوين تاريخ الحروب الصليبية ــ اكبر نزاع مسلح بين المسيحية والاسلام. ولسنا نعنى الآن بموقف المؤرخين، ولكن المهم انهم تناولوا الموضوع بالكتابة. كانت آفاقهم اوسع. والذي نراه هو ان مؤرخي القرن الثامن (الرابع عشر) هم الذين ارشدونا الى كتابة التاريخ: لقد كان طليعته ابن خلدون. وقد قامت دمشق ومؤرخوها بدور كبير في هذا الاتجاه.

ازدهرت في الفترة التي نتحدث عنها ايضاً المؤلفات الموسوعية التي شملت فنون العلم والمعرفة على انواعها. ففي الفقه وضع الموفق «المغني»، وفي التاريخ ظهر ابن الاثير وابن الفرات والذهبي، وفي الموسوعة بالذات صنف ابن فضل الله العمري كتاب «مسالك الابصار». وهذا الكتاب، وسنعود اليه فيما بعد، في عشرين جزءاً فيه الجغرافية والتاريخ والجغرافية السياسية والأدب على نحو ما عرفها العصر. فضلاً عن انه كان، في زمنه، دليلاً رسمياً للذين يعملون في وظائف الدولة.

ولعلّه من الأفضل لتوضيح نواحي الحياة الفكرية في ذلك الوقت ان نضع امام

القارىء تراجم مقتضبة جداً لبعض العلماء والفقهاء الذين كانت حياتهم نموذجاً للعصر، إذ ان ذلك من شأنه ان يدخلنا الى الجو الذي عاش فيه هؤلاء الناس.

كان الموفق في العاشرة من عمره لما هاجرت أسرة بني قدامة من فلسطين واستقرت في دمشق. وكان أبوه أول معلميه، ثم أخذ العلم عن بعض علماء دمشق. ورحل بعد ذلك الى بغداد والموصل ومكة حيث لقي العلماء واخذ عنهم، وكان قد بلغ الثلاثين من عمره لما استقر في دمشق نهائياً، وانصرف الى التعليم والتأليف حتى وفاته سنة ٦٢٠/ ١٢٢٣. وكان عدد كبير من الطلبة يحضر دروسه، بينهم جماعة بلغوا من العلم درجات عالية. كان الموفق حنبلياً واشتهر بالفقه، وخلف لنا «المغني» وهو كتاب في الفقه في عشرة مجلدات. وميزة الكتاب هو ان مؤلفه كان يقارن فيه بين نظرة الحنابلة وآراء غيرهم من اهل السنة، ومن ثم فالقارىء يجد فيه الفقه المقارن. وقد قيل عن الموفق انه كاد ان يبلغ مرتبة الاجتهاد.

وسنتحدث عن ابن تيمية، وهو فقيه العصر غير منازع، فيما بعد. اما الآن فلنشر الى فئة أخرى من الذين كان لهم باع في ميادين العلم الأخرى. من هؤلاء الذهبي المؤرخ (تو ٧٤٩ / ١٣٤٨) الذي صنف «تاريخ الاسلام» في سبعين قسماً خص كل قسم منه بعقد من السنين. وقد كان واسع المعرفة ضليعاً في علمه بالمصادر بحيث ان كتابه يمكن اعتباره من نوع الموسوعات التاريخية. وقد خلفه في كتابة التاريخ ابن كثير صاحب «البداية والنهاية» الذي وضعه في اربعة عشر جزءاً. وقد لجأ الاثنان ـ الذهبي وابن كثير ـ الى تلخيص من سبقهما في كتابة تاريخ القرون الأولى، لكنهما كانا يحسان، وهما يدونان اخبار زمانهما، انهما يؤرخان لفترة فيها الكثير من الحركة والنشاط، ومن ثم فقد انصرفا الى عملهما باهتمام، فخلفا لنا ثروة تاريخية لا مثيل لها، وخاصة ابن كثير الذي يرسم لنا صوراً حية للاحداث والمجريات بحيث نستطيع مرافقته يوماً فيوماً.

يعتبر ابن فضل الله العمري (تو ٧٤٩ /١٣٤٨) مؤلف «مسالك الابصار في ممالك الامصار» موسوعي دمشق في عصر المماليك. ولقد كان أبوه وجده من قبل موظفين في الدولة المملوكية، وكانا متصلين بتنظيم البريد خاصة. وقد ولد العمري في دمشق حيث سمع العربية والفقه والحديث وتولى منصب القضاء فيها. واخيراً تأسى خطوات والده وجده فتوظف في ديوان الانشاء، وهذا ما حفزه على وضع مؤلفه الضخم «المسالك». والكتاب فيه بحث عن جغرافية الأرض، الا انه عندما يتكلم عن الجغرافية السياسية فانه يقصر بحثه على بلاد الاسلام (وهو يأمل ان يتحدث عن بلاد الكفار في مناسبة تالية). على ان الاكتفاء بهذا القول عن الكتاب فيه اجحاف، ذلك بان المؤلف يزودنا بالاخبار التاريخية المعاصرة وبالمعلومات المتعلقة بالإدارة والعلاقة بين السلطان ونوابه وامرائه. ويسهب في تبيين الأمور المتعلقة بالضرائب وموارد الدولة والمكافآت وحق الانتفاع بالارض وما الى ذلك. ووصفه للمدن، وخاصة القريبة،

واف ودقيق. واسلوبه يتفق مع روح العصر، الا انه لا يضحي بالدقة في سبيل زخرف القول. وفي الكتاب عدد كبير من المراسيم والأوامر السلطانية التي صدرت في اوقات مختلفة، وان لم يكن هو الكتاب الوحيد الذي يوردها. ولا سبيل الى فهم الادارة المملوكية دون الاطلاع على كتاب المسالك هذا.

وابن طولون الصالحي ولد في أواخر عصر المماليك وتوفي سنة ٩٥٣ /١٥٤٦، لذلك لم يتمتع برعايتهم مدة طويلة، إذ جاء موته بعد زوال امبراطوريتهم بنحو ثلاثة عقود من السنين. ومع ذلك فهو من اهل ذلك العصر لانه ولد قبل الاحتلال العثماني (٩٢٢ /١٥١٦) باثنتين واربعين سنة. ولم تكن مؤلفات ابن طولون شيئاً مبتكراً، الا انه عالم من علماء تلك الفترة. فقد قرأ القرآن وسمع الفقه والحديث ودرس التصوف (وهو أمر غير مألوف الا اذا كان المقصود الرد على المتصوفة) واللغة والتاريخ والرياضيات والفلك والهندسة والطب. والكتب التي وضعها، ويبلغ عددها سبعمائة، شملت هذه الموضوعات كلها. كان ابن طولون نموذجاً لعالم العصر ـ كان ذكياً فتعلم كل شيء رآه، وكان قادراً على هضم هذه المعرفة، وتمكن من كتابتها باسلوب مقبول. على انه لا يبدو انه وعى مشكلات الفترة وقضاياها اذ انه لم يبد فيها رأياً خاصاً. الا ان الانصاف يقضي بأن نقول بأن ابن طولون لم يكن الوحيد من مفكري عصر المماليك الذين لم يعنوا الا بالتعلم والتدريس على الطريقة التقليدية المألوفة.

ابن تيمية

على ان الرجل الذي ارتفع الى مستوى القضايا وحاول معالجتها بمعرفة وصراحة ومواجهة المعية هو ابن تيمية (٦٦١ / ١٢٦٣ ـ ٧٢٨ / ١٣٢٨). ولم تكن كتابته هامة فحسب، بل ان حياته كانت مثالاً يحتذى، فلم يكن يأبه الصعاب متى اقتنع بانه على حق. ولذلك فاننا نود ان نتحدث عنه بشيء من التفصيل.

كان احمد ابن تيمية قد بلغ السابعة من عمره لما رحلت أسرته من حران في الجزيرة الى دمشق، خشية تكرر الهجمات المغولية. وقد اصبحت دمشق في القرن السادس (الثاني عشر) مركزاً للفقه الحنبلي، الأمر الذي تقوى بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦/ ١٢٥٨. ولما كانت أسرة أحمد حنبلية، فقد اتيح له من أول الأمر، ان يأخذ العلم عن خير المدرسين الحنابلة في تلك الفترة. فالمدارس الحنبلية كانت قد دربت فقهاء ومتكلمين ومفسرين ومحدثين يشار اليهم بالبنان. وكان علماء الحنابلة يولون الخطب في المساجد والمدارس والزوايا عناية كبيرة، وكان ابن تيمية ينمو مع هذه الأمور كلها كأنه جزء منها. ولما كان في الثانية والعشرين من عمره خلف اباه، وكان قد توفي في السنة السابقة، في التدريس، وكان هذا اعترافاً بمقدرته. وذاعت شهرة دروسه لا بين السنّة فحسب، ولكن بين الشيعة الذين حضروا دروسه.

وكان العصر الذي عاش فيه يسيطر عليه المذهب الاشعري ومسحة من التصوف مع

استعداد تام لقبول النظرة التقليدية في الشؤون العامة. وكان ابن تيمية خصماً لهذه جميعها، وقد اثار عليها، منذ أول الأمر، حرباً عواناً. وهذا هو الذي جعله يعتبر «مصلحاً».

وقام بدور فعال في حياة مدينته وجماعته. وقد اثارت «قسوته» في مهاجمة خصومه كثيراً من ردود الفعل العنيفة. فاتهمه هؤلاء بالعناد وطلبوا ان تنزل به العقوبة. ومن ثم فقد صرف الرجل سنوات من حياته في سجون القاهرة ودمشق، حتى ان السنوات الأخيرة من حياته قضاها في قلعة دمشق وتوفي فيها.

لم يكن ابن تيمية عالماً يكتفي بالتعليم والتصنيف، بل كان أيضاً، مثل عدد كبير من الحنابلة عبر التاريخ، متفاعلاً مع بيئته. فقد اخذ على عاتقه ان يتأكد من ان الناس، كبيرهم قبل صغيرهم، كانوا يحافظون على الآداب الاسلامية في تصرفهم. هذا كان من واجبات المحتسب، لكن ابن تيمية كان (بتوظيفه نفسه بنفسه) محتسباً فعالاً نشيطاً.

وخلف لنا ابن تيمية عدداً كبيراً جداً من المصنفات التي تعالج قضايا مختلفة. وليس من الممكن ان نتحدث عن كتبه جميعها في هذه العجالة، لكننا نرى لزاماً علينا ان نضع بين ايدي القارىء بضعة من آرائه ومواقفه الأكثر أهمية.

فقد بحث في رسالته الواسطية، وفي غيرها، العقيدة الاسلامية التي كان يرى انها تأذت من الاشعرية والتصوف والتقليد. فقد قبل بعض المسلمين القول بان الله ذو صفات جثمانية، بانين ذلك على تفاسير مجازية لبعض آيات جاءت في القرآن. وقد عاد ابن تيمية، ودعا الناس الى ان يعودوا مثله، الى القرآن الكريم والسنة النبوية لفهم العقيدة فهماً عميقاً دقيقاً صحيحاً اصيلاً، تاركين غير ذلك من الوسائل والآراء التي تسربت الى الاسلام من الخارج كالتمثيل والتجسد والتشبيه. ولم يكن ليقبل بما جاء به المتصوفة من تطرف في الرأي إذ قالوا بالحلول والاتحاد. فمثل هذا القول كان، في نظره، شركاً لا يقبله الاسلام، ومن ثم كان هجومه العنيف على ابن عربي، مع ان ابن تيمية لم يهاجم التصوف جملة. الا ان المتصوفة نقموا عليه موقفه منهم ورفعوا أمره الى السلطان في القاهرة، ونجحوا في ان يزج به في السجن.

وكان ابن تيمية حرباً على المقلدين. ذلك ان المألوف في ذلك الوقت هو ان الفقهاء كانوا يتقيدون، في بحثهم أمور الشريعة، بما جاء به أئمة السنة الأربعة، اي انهم لم يكونوا يبدون رأياً خاصاً قط. ذلك ان باب الاجتهاد كان قد اقفل قبل نحو خمسة قرون. ومع ان الحنابلة لم يقبلوا بهذا تماماً، الا انهم راعوا هذا التقليد في بعض نواحيه. وكان ابن تيمية يرى ان الاجتهاد أمر اساسي للجماعة الاسلامية واستمراره لازم. وقد اوضح موقفه هذا في عدد كبير من الفتاوى، التي اظهر فيها اصالة في الرأي والأسلوب مقتصراً في جدله على الاستشهاد بالقرآن والسنة، والرجوع الى الاجماع على ما عرف في ايام الصحابة.

كان الفقهاء يعتمدون الاجماع والقياس والرأي احياناً في تفسيرهم للأمور الشرعية. وقد تحدى ابن تيمية هذه كلها وقال بان اجماع العلماء يمكن اعادة النظر فيه، ومن ثم فان آراء أئمة المذاهب السنية الأربعة يجب ان ينظر فيها من جديد متى سنحت فرصة لذلك، على ان يعتمد على الكتاب والسنة.

ولم يكن ابن تيمية وحيداً في هذا الموقف، بل ان ابن عبد السلام وابن قيم الجوزية لم يريا قبول آراء الائمة الأربعة قبولاً مطلقاً. وقد حدد ابن عبد السلام موقفه إذ لم يسمح للجمهور بالاجتهاد، بل قصره على اهل العلم. وكان ابن قيم الجوزية يقول بان الفقه يجب ان يكون عملية نامية متطورة كي تسترشد به الدولة للوصول الى الوسائل التي تعينها على القيام بمصلحة الأمة.

وكان لابن تيمية مشاركة في عدد من القضايا مع غيره من علماء دمشق. ولعل عرضاً موجزاً لبعض هذه المشكلات التي بحثوها يوضح لنا مدى فعاليتهم ونشاطهم[١٠].

تقديس الأراضي المقدسة (فلسطين)

كان اهتمام الناس بالأراضي المقدسة من الموضوعات التي احتلت مكاناً مرموقاً في المناقشات الدينية في عصر المماليك. والكتب الثلاثة التالية التي وضعت في هذه الفترة تظهر مدى استئثار هذه القضية بتفكير العلماء، وهي: «ترغيب اهل الاسلام بسكنى الشام» لعز الدين ابن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء، و«مثير الغرام في زيارة القدس والشام» لشهاب الدين المقدسي، و«مثير الغرام في زيارة الخليل عام» للتدمري الخليلي.

والفكرة التي يتناولها الكتاب الأول، وهو مثل لكتب كثيرة في الموضوع، هو ان الشام (اي ديار الشام) ــ ودمشق خاصة ــ بلد مقدس بالنسبة للمسلمين وذلك بسبب الاحاديث النبوية المتعددة المتعلقة بها. وقد دفن عدد من الصحابة في سورية، ومن ثم فان البلاد تشغل مكانة هامة في الاسلام، واذن فانه يتعين على المسلمين الدفاع عنها. والمثير الأول يضع النبرة على القدس، بينما يهتم الثاني بالخليل.

ويبدو ان تقديس الاراضي المقدسة كان قد اصبح في القرن السابع (الثالث عشر) قوياً الى حد ان ابن تيمية وجد انه من المصلحة ان يفند مثل هذه الفكرة، التي كان يعتبرها امراً فاضحاً. لذلك فانه صنف كتاباً سماه: «قاعدة في زيارة بيت المقدس». وتتلخص حججه وكذلك تفنيده فيما يلي: (١) ان المسجد الاقصى يعتبر ثالث مسجد في الاسلام من حيث اهميته، اما مسجد الخليل فلا يعتبر مساوياً له. (٢) والمسجد الاقصى هو مكان لعبادة الله، مثل اي مسجد آخر، لكن زيارته لا تغني المرء عن الحج الى مكة. (٣) ليس ثمة حرم مرتبط بأي من مسجدي القدس أو

الخليل، مع ان لمسجد مكة حرماً خاصاً به. (٤) زيارة المسجد الاقصى أمر عادي ويمكن ان تتم في أي وقت، لكن لا يمكن قط اعتبارها حجاً. (٥) لا يمكن اعتبار زيارة لعسقلان وعكا وطرسوس زيارة دينية لان هذه الأماكن هدمت مساجدها. وقد جرب ابن تيمية، بالاضافة الى أمور أخرى، ان يبين ان كثيراً من الأحاديث التي يقبلها الناس على انها صحيحة ليست هي كذلك، وإنما هي من وضع القُصّاص.

علاقة الانسان بالله

كانت علاقة الانسان بالله من المسائل التي كثر القول فيها في ذلك العصر. وكان ثمة اتجاهان: الأول هو التفسير الصوفي، وهو الذي يجذب اليه العدد الكبير من الأتباع، والذي لفت نظر العلماء لما اخذ المتصوفة تنظيم انفسهم طرقاً. وكان الاتجاه الآخر هو الاتجاه السني، الذي كان يحتضنه الاشاعرة والمدارس الحنبلية الحديثة العهد، والتي كانت تتطور بسرعة بين القرن السادس (الثاني عشر) والقرن الثامن (الرابع عشر).

كان التفسير الصوفي يقول بالحلول والاتحاد، وهما فكرتان نشأتا مع الوقت وتطورتا بتأثير عدد من المفكرين. وقد اضيف اليهما، في القرن السابع (الثالث عشر)، وحدة الوجود. وقد تشدد المتصوفة في اعتبار المعرفة طريقاً لادراك الله. وكان الكثيرون منهم، ان لم يكن كلهم، مستعدين لقبول اساليب غريبة للعبادة، أو التخلي عن بعض ما هو مفروض من العبادات: فقبلت الطرق الصوفية الذكر والسماع طريقاً للمعرفة. وقد مر بنا ان الصوفي الأول في هذه الفترة كان ابن عربي، لذلك لما اخذ ابن تيمية نفسه بمقارعة التصوف اتخذ ابن عربي هدفاً لحملاته.

اما الاتجاه السني فقد حافظ على مستوى رفيع في الاخلاق والتفكير، ورفض قبول اي تجديد أو ترتيب قد ينتقص من صفاء العقيدة الأولى. وقد كان علماء السنة، سواء في تفنيدهم للصوفية أو في اعادة النظر في بعض الأمور المتعلقة بالاسلام، نشيطين جداً. ولعل ابن تيمية، على ما ذكرنا، كان اكبر قادة الفكر السني (الحنبلي) في ذلك العصر.

كان ابن تيمية ومعاصروه يرون ان الاسلام هو الدين الحق، ومن ثم فانه كان يتعين على المسلم ان يؤمن بالله وبرسوله. والمسلم يرجع الى القرآن والسنة لتفهم العقيدة لان جميع الأمور المتعلقة بالايمان والعمل موضحة فيهما بما لا يترك زيادة لمستزيد. والايمان الذي يضمن للمسلم النجاة هو الاعتقاد بالله وحده وبرسوله. واصرار ابن تيمية على ان الايمان وحدة لا تتجزأ أمر يلفت النظر، إذ ان هذه النظرة قبلت العبادة على ما جاءت عليه في مصدري الاسلام الاساسيين فقط. يضاف الى ذلك ان الانسان يجب ان يسلم أمره الى الله، وان تسليمه يجب ان يكون تاماً، شأنه في ذلك شأن إيمانه.

كان الله يوحي الى الانسان بواسطة الرسل، ومحمد هو خاتم الرسل، وإذن فعلى الانسان، عندما يطلب العون من الله، ان يسأل النبي شفاعته، لكن ابن تيمية عارض التردد على المزارات وزيارة قبور الأولياء على اساس ان مثل هذه الأماكن واولئك الرجال لهم قوى خارقة، او انهم يمنحون بركات خاصة أو انهم يستطيعون ان يتوسطوا بين الانسان وخالقه، وحمل على مثل هذه الزيارة حملات شعواء، وبذل الكثير من الجهد ليظهر للناس ان الله لم يهب مثل هذه القبور مكانة متميزة أو قوة خاصة.

الانسان والأمة

كانت الأمة الاسلامية هي الأمة في نظر ابن تيمية، وكان التعاون بين افراد الأمة هو اساس العمل المشترك، فكان يترتب على المسلم ان يعين الآخرين على فعل الخير وتجنب الشر واحقاق الحق. وكان ابن تيمية يعتبر الأمة شيئاً عضوياً وان لها اهدافاً وغايات معروفة. وغرض الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومعنى هذا ان الأمة كانت تحقق ارادة الله.

وكان على الأمة، رغبة منها في تحقيق غاياتها، ان يكون لها تنظيم دولة هو الامامة التي يتوجب عليها، وعلى ما فيها من موظفين وهيئات، ان تذعن لمبادىء الاسلام. ويترتب عليها ان يكون هدفها أيضاً الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويجب ان تكون دولة عادلة لان الله لن يؤازر دولة ظالمة، ولو ان هذه قد تكون دولة مكونة من مؤمنين. والدولة التي كان ابن تيمية يفكر فيها هي دولة دينية، لكنه كان يريدها، على ما يرى هنري لاوست، دولة واجبها ان تتعاون مع الأمة وتخدمها، لا ان تكتفي بان تقبل خضوعها فحسب. على ان الخضوع كان لازماً لتحقيق الهدف الذي وجدت الأمة من اجله. وعلى الدولة واجب ادبي في الحياة الاجتماعية والاقتصادية للأمة، إذ يتوجب عليها ان تحق الحق، وتنشر الأمن وتتأكد من ان الناس قاموا بفروضهم الدينية. وعليها، بالاعتماد على المحتسب، ان تستوثق من صحة المعاملات وان تحمي الناس من الغش والتدليس.

اما من الناحية الاقتصادية فقد كان على الدولة ان تحمي الأمة ضد الاحتكارات وتدليس التجار. ومراقبة الاسعار كانت جائزة عندما يكون المقصود منها مساعدة الناس في الحصول على حقهم ـ في ايام القحط والعوز. وقد قبل ابن تيمية ان تتدخل الدولة في الشؤون الاقتصادية للمجتمع لضمانة حاجاته فقط. واذن فقد كان جائزاً ان يكلف البعض القيام باعمال تجارية أو زراعية أو في حالة الحرب على ان يكون ذلك لقاء تعويض، وعلى ان لا يتأذى احد بسببها.

ولم يكن ابن تيمية يحبذ الاقتصاد الفردي، لأن الفرد لم يكن السيد المطلق لتصرفه وافعاله: بل ان قيامه بعمل ما كان خاضعاً لتعاليم الاسلام. وكان على الدولة ان تتأكد من ان هذه القوانين تراعى في الأعمال.

الجهاد

قامت امبراطورية المماليك والصليبيون لا يزالون يحتلون بعض اجزاء المنطقة، وكان لا بد من شن الغارات ضدهم الى ان يخرجوا. على ان خطر هجوم اوروبي مجدد كان قائماً في اذهان الناس، والواقع انه كان ثمة اكثر من محاولة واحدة نذكر منها على سبيل المثال الحملتين الفاشلتين على الاسكندرية ونيكوبوليس. وكانت بعض عناصر السكان تتهم بمساعدة الاوروبيين. وكانت الدولة تعتبر هؤلاء خونة، ويجب ان يطالهم العقاب اما افراداً او جماعات. وقد هاجم المغول سورية وجوارها مرات عدة، وكان القتال يتراوح بين النصر والخذلان بدرجات مختلفة. وقد وجد هناك من يعطف على المغول من ابناء البلاد. فهل يعتبر هؤلاء خونة أيضاً؟ وعلى أي اساس؟

كانت هذه القضايا المتعلقة بحروب تلك الفترة موضع بحث ونقاش. كان الاوروبيون مسيحيين ولذلك لم تكن الدولة حرة في تسيير حملات ضدهم، بل كان في واقع الأمر يتوجب عليها ان تقوم بالجهاد ضدهم على يد السلطان. لكن المغول كانوا قد اسلموا. فهل كان القتال ضدهم عملاً مشروعاً؟ لقد رأينا ان ابن تيمية قاد الحملة ضدهم بنفسه، ولو لم يكن الرجل مقتنعاً بصواب رأيه لما قام بهذا العمل. وقد كان رأيه في الموضوع واضحاً كل الوضوح. كان المغول مسلمين، ولكن تصرفهم الوحشي مع المسلمين في مدن العراق وشمال سورية وقراهما وضعهم في مصاف المجرمين العاديين، ومن ثم فقد حق عليهم القتال. وكان اكثر من نصرهم من الشيعة، ولم يكن ابن تيمية معجباً بهم. ولذلك فقد رافق حملة ارسلت للهجوم على معاقلهم في جبال سوريا ولبنان.

ترك علماء عصر المماليك اثراً لا في معاصريهم فحسب بل تعداهم الى الاجيال التي تلت. وفي هذا المجال يبدو اسم ابن تيمية في طليعة المصلحين في ذلك العصر، وذلك بسبب نشاطه ودقة تفكيره وصفاء اسلوبه (بالنسبة الى الفقهاء وأهل الشرع) وصراحته. وقد كان اتباع ابن تيمية كثيرين، ومن ابرزهم ابن قيم الجوزية (توفي سنة ٧٥١/ ١٣٥٠). وممن تأثر بآراء ابن تيمية من غير الحنابلة نذكر الذهبي وابن كثير وابن حجر، وهم ثلاثة من كبار المؤرخين العلماء. وقد كان تأثير ابن تيمية في مصر كبيراً حتى في حياته.

ومن الجدير بالتذكر انه لما سمع بعض علماء بغداد، العاصمة التي دمرها هولاكو قبل ذلك بسبعين سنة، بأن ابن تيمية معرض للسجن في قلعة دمشق كتبوا الى السلطان الناصر يرجونه في قضية شيخ الاسلام. وجاء في رسالتهم انه لما بلغ المشارقة واهل الولايات العراقية الشرقية بان شيخ الاسلام تقي الدين أحمد بن تيمية مسجون، حز ذلك في نفوسهم. ولما ادرك علماء تلك النواحي مدى المأساة كتبوا الى السلطان مؤيدين الشيخ في فتاواه، مشيدين بعلمه وفضله، مدافعين عن دينه وحرصه

على نصح الامراء المسلمين بما يتوجب عليهم نحو الاسلام.

ولما فتح العثمانيون سورية، ضعف شأن الحنابلة ومدارسهم، لان الاتراك كانوا حنفيين. وقد ظل ابن تيمية مدة طويلة منسياً في بلده. ولعل المتصوفة، الذين مال العثمانيون اليهم (فقد بنى سليم، فاتح سورية، زاوية حول ضريح ابن عربي في دمشق) اسهموا في ذلك. الا ان بلاداً أخرى أخذت نفسها بالتعرف الى ابن تيمية ودرس آرائه واتباعه. ففي اواسط القرن الثامن عشر قام محمد بن عبد الوهاب بدعوته في نجد، وكانت اصلاً تسير على خطوات ابن تيمية. وبعد ذلك بقرن تقريباً قام السيد محمد ابن علي السنوسي بحركته الاصلاحية في ليبيا ـ وأثر تعاليم ابن تيمية واضح في الدعوة السنوسية. وفي مطلع القرن الحالي اعلن السيد رشيد رضا صاحب المنار، وأحد كبار السلفيين، انه من اتباع ابن تيمية.

واذن فقد وضع ابن تيمية الاطار الأول للاصلاح الاسلامي والاحياء الديني، الأمر الذي قبله دعاة الاصلاح وجماعة الاحياء منذ ذلك اليوم.

هوامش

(١) المنقذ من الضلال، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٥٢، ص ٨٨ ــ ٩١.
(٢) ياقوت، ارشاد الأديب، القاهرة، مطبعة هندية ١٩٣٢، ج١ ص ٧.
(٣) ابن عربي، محيي الدين، فصوص الحكم، القاهرة، دار احياء الكتب العربية، ١٩٤٦، ص ٢١٧.
(٤) ابن عربي، ترجمان الاشواق، بيروت، صادر، ص ٧٨ ــ ٨٦.
(٥) المصدر نفسه، ص ١٥.
(٦) ترجمان الاشواق، ص ٤٣ ــ ٤٤.
(٧) ما يزال هذا الكتاب مخطوطاً في مكتبة India Office بلندن.
(٨) Ziadeh, N., *Urban Life in Syria under the Mamluks*. Beirut, American University of Beirut, 1953.

المصادر

- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله: **تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار**، باريس، المطبعة الأهلية، ١٨٧٤ ـ ١٨٧٩ (٤ اجزاء)
- ابن تغري بردي، يوسف: **النجوم الزاهرة في اخبار مصر والقاهرة**، القاهرة، ١٩٦٣ (١٢ جزءاً)
- ابن تيمية، تقي الدين: **بغية المرتد**، القاهرة، ١٣٢٣ هـ
- ابن تيمية، تقي الدين: **الحسبة في الاسلام**، (ضمن مجموعة الرسائل الكبرى) القاهرة، ١٣٢٣ هـ
- ابن تيمية، تقي الدين: **رسائل ومسائل**، القاهرة، ١٣٤٦ هـ
- ابن تيمية، تقي الدين: **فتاوى**، القاهرة، ١٣٢٥ ـ ١٣٢٩ هـ (٥ اجزاء)
- ابن تيمية، تقي الدين: **كتاب السياسة الشرعية**، القاهرة، ١٣١٦ هـ
- ابن تيمية، تقي الدين: **مجموعة الرسائل الكبرى**، القاهرة، ١٣٢٣ هـ
- ابن جبير: **رحلة ابن جبير** (حسين)، بيروت، صادر، ١٩٦١
- ابن طولون، محمد بن علي: **تاريخ الصالحية**، دمشق، ١٩٤٩ (جزءان)
- ابن عربي، محيي الدين: **ترجمان الاشواق**، بيروت، صادر، ١٩٦٣
- ابن عساكر، علي بن الحسن: **تاريخ مدينة دمشق**، دمشق، ١٩٤٥
- ابن الفرات، محمد: **تاريخ ابن الفرات**، بيروت، ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨ ج٨ و٩
- ابن فضل الله العمري: **مسالك الابصار في ممالك الامصار**، القاهرة، ١٩٢٣ ج١
- ابن قدامة، موفق الدين: **المغني**، القاهرة، ١٣٤٦ ـ ١٣٤٨ هـ (١٢ جزءاً)
- ابن كثير، اسماعيل بن عمر: **البداية والنهاية**، القاهرة، ١٣٥٨ هـ ج ١٤
- ابو شامة، عبد الرحمن: **تراجم رجال القرنين السادس والسابع** (ذيل كتاب الروضتين)، القاهرة، ١٩٤٧
- ابو الفدا، اسماعيل بن علي: **تقويم البلدان**، (تحقيق رينو دي سلان) باريس، ١٨٤٠
- ابو الفدا، اسماعيل بن علي: **المختصر في اخبار البشر**، استانبول، ١٢٦٨ هـ
- البدري، عبد الله: **نزهة الاعلام في محاسن الشام**، القاهرة، ١٣٤١ هـ
- زاترستن، ك.ف. (محقق): **تاريخ سلاطين المماليك**، ليدن، ١٩١٩
- الشيزري، عبد الرحمن: **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**، القاهرة، ١٣٤٦
- الظاهر خليل: **زبدة كشف الممالك**، (تحقيق رافيسو) باريس، ١٨٩١
- القلقشندي، شهاب الدين: **صبح الاعشى**، القاهرة، ١٩١٣ ـ ١٩١٤ ج١٤

-Affi, A.E., *The Mystical Philosphy of Muhyid Din Ibn ul'Arabi*, Cambridge, 1939.
- Arberry, Arthur J., *Sufism*, London, 1950.
- Benjamin of Tudela, *The Travels of Rabbi Benjamin, In Early Travels in Palestime*, (ed. by Th. Wright), London, 1848.
- Brocquiere, Bertrandon de la, *The Travels of Bertrandon de la Brocquiere*, (ed. by. Th. Wright), London, 1848.
- Ecochard, M. and Claude Le Coeur, *Les Baines des Damas*, Beirut, 1940.
- Frescabaldi, Leonardo and others, *Visit to the Holy places of Egypt, Sinai, Palestime and Syria in A. D. 1384,* Jerusalem, 1948.
- Gaudfroy-Demombyne, M., *La Syrie à L'epoque de Mamlouks d'apres les Auteurs Arabes,* Paris, 1923.
- Gibb, Sir Hamilton, *Arabic Literature*, Oxford, 1963 (2nd ed.).
- Laoust, Henri, *Essai sur les Doctrimes Sociales et Politiques de Taki-Din Ahmad B. Taymiyya,* Cairo, 1939.
- Niccolo of Poggobonsi.*A Voyage Beyond the Seas,* Jerusalem, 1945.
- Sauvaget, Jean, *Esquisse d'une Histoire de la ville de Damas,* Revue Etudes Islamiques, 1934.
- Smith, Margaret, *Readings from the Mystics of Islam*, London, 1950.
- Terresse, Rene, *L'Irrigation dans la Ghouta de Damas* Revue Etudes Islamiques, 1929.
- Ziadeh, Nicola A., *Urban Life in Syria under the Early Mamluks*, Beirut, 1953.

نقولا زيادة

الأعمال الكاملة

عواصم عربية

المحتويات

المدينة في الاسلام: وظيفتها وخصائصها ١٠٩
ابو ظبي ١١٤
جيبوتي (العاصمة) ١٣٢
بغداد ١٤٢
القدس ـ تاريخ ووجدان ١٦٤
بخارى ١٨٨
مدينة الجزائر ٢١٠
بيروت بين الأسطورة والتاريخ ٢٤١
تونس الحاضرة ٢٦٤
مراجع مفيدة ٢٨٣

المدينة في الاسلام: وظيفتها وخصائصها

ما أكثر ما مَصّر العرب والمسلون من الأمصار، وأنشأوا من المدن، وعَمّروا من القديم منها، فجدّدوا شبابها وأعادوا إليها رونقها! فالدولة العربية الإسلامية التي امتد نفوذها من أواسط آسية إلى جبال البرانيه، والتي دامت سيطرتها، موحدةً أو مقسمة، قروناً طويلة، كان لا بد لها من أن تقوم في ظلالها مدن كثيرة.

وكل مدينة أقيمت كانت لها وظيفة أساسية: فهي إما أن تكون مركزاً للجيش، خاصةً في أيام الفتوح، يريح فيها ويستعد، وتجمع له فيها أقواته ومؤنه، وإما أن تكون مركزاً للملك أو الإدارة، إما عاصمةً لِمُلْك عريض كدمشق وبغداد، وإما مركزاً لإدارة محلية كتونس وقرطبة وغيرهما. وكل مدينة، وخاصة تلك التي كانت تقوم على حدود العالم الإسلامي، كان عليها أن تقوم بالدفاع عن الإسلام. وقد يفرض عليها موقعها أن تقوم بنشر الإسلام في الجوار.

لكن، بالإضافة إلى هذه الوظائف الأساسية الأصلية، كانت ثَمّةَ لبعض المدن وظائفُ خاصةٌ ودورٌ يميزها عن غيرها. والذي فرض على مدينة معينة أن تقوم بدور معين بالذات، هو واقعها التاريخي بالنسبة إلى تاريخ العروبة والإسلام في وقت ما. فنحن إذا أخذنا دمشق، مثلاً، وجدنا أنها واحدة من المدن التي كانت قائمة قبل ظهور العرب على مسرح التاريخ بقرون طويلة. ومنذ أن تولى معاوية الخلافة أصبحت عاصمة لهذا المُلك العريض. فهل قيض واقع دمشق التاريخي لها أن تقوم بدور خاص؟

لنذكر أنه لم يكد يمضي قرن على انتقال الرسول الكريم إلى الملأ الأعلى حتى كان العرب المسلمون قد ضموا إليهم بلاداً منوعة في جغرافيتها، متباينة في خلفياتها التاريخية، متعددةَ التجارب الحضارية والإدارية. ولم يكن للعرب بعدُ كبيرُ تجربة في شؤون الإدارة. ومن ثَمَّ فقد كان التحدي الأول الذي جابههم هو تنظيم هذا المُلْك الواسع. والأمويون هم الذين بدأوا بالاستجابة لهذه المجابهة. فقد كان لهم، بطبيعة الحال، من هدي القرآن الكريم والحديث الشريف ما يدلهم على المبادىء السامية التي لا يمكن أن يضلوا سواء السبيل إن هم اتبعوها. أما فيما يتعلق بالتفاصيل الإدارية البيروقراطية التنظيمية فقد أخذوا ما عرف في البلاد التي حكموها من قبل، على أن لا يخالف ذلك أصلاً من أصول الإسلام. وَلْنضربْ على ذلك مثلاً واحداً: لقد

احتفظ الأمويون بالسجلات والقيود في كلٍّ من العراق وإيران وبلاد الشام ومصر باللغة التي كانت شائعة قبل الفتح، وهي الفارسية واليونانية والقبطية، إذ لم يكن عندهم العدد الكافي من الكتاب لتوثيق هذه القيود بالعربية. فلما كان زمن عبد الملك وابنه الوليد تغير الوضع. فقد وجد عندهم من يستطيع أن يقوم بالعمل باللغة العربية، فنقلت الدواوين جميعها إلى تلك اللغة. وتعريب الإدارة هذا عمل جليل له في مستقبل الدولة العربية الإسلامية شأن هام. يضاف إلى ذلك أن هذه الفترة شهدت أيضاً سك الدينار والدرهم عربياً، لا من حيث النقش الذي عليه، ولكن من حيث وزنُ الدينار ذهباً. ومعنى هذا أن عصر عبد الملك وأبنائه كان بدءاً لخلق نظرة مالية خاصة بهذه الدولة الجديدة. فدَوْرُ دمشق الخاص كان تنظيم الحياة المالية والإدارية في الدولة.

لكن بغداد كانت، كما نعرف، إنشاءً عباسياً. كانت تمثل حكماً جديداً وأسرة جديدة. ولم تلبث أن أصبحت، كما يقول عنها اليعقوبي، سُرَّةَ الدنيا. فأديرت منها بلاد الخلافة، وانصبت إليها الثروة، وصارت مركز الفكر والعلم. ولكن ما هو دورها الخاص؟

إن بغداد عرّبت الفكر المعروف إلى يومها، بأن نقلت التراث الهندي والفارسي والسرياني واليوناني إلى اللغة العربية، لكن الثقافات التي لقيتها بغداد، وقابلتها، كانت ثقافات حيةً نشيطة في مجالات الفكر والفلسفة والجدل. ومن ثَمَّ فقد كان على بغداد أن تفكر وتتفلسف وتجادل. فقامت بهذا العمل على شكل متين. يضاف إلى ذلك أن الخلافة العباسية كانت تعنى عناية خاصة بتمتين موقفها على قواعد الإسلام، فكان أن قامت بغداد بقسط وافر من الاهتمام بالفقه والشريعة.

قد يبدو أن النقلة من بغداد إلى مراكش نقلة غير طبيعية، على الخصوص، وهي نقلة في الزمن أيضاً. لكنني أنظر إلى قضية المدينة في الإسلام لا من حيث تطوُرها الزمني، ولكن من حيث الوظيفةُ الخاصة التي كانت تقوم بها مدينة ما، ومراكش مدينة المرابطين والموحدين، أي أنها من نتاج القرنين الخامس والسادس للهجرة مع استمرار في القرن السابع. وهذه المدينة الواقعة في جنوب المغرب، عندما ننظر إلى دورها التاريخي نجد أنها كانت مَعْقِل الإسلام وعاصمته في رقعته الجنوبية الغربية وكانت نقطة الانطلاق لتوضيح الإسلام وتفسيره بشكل صحيح لأهل تلك الجهات. وقد كان لمراكش دور آخر. ففي الوقت الذي كانت مراكش تعد نفسها لدورها الكبير كانت الأندلس تتعرض لخسارة كبيرة في بلادها وامتدادها. ولذلك قامت مراكش، مرابطيةً وموحديةً، بتقديم الحماية اللازمة، فاجتاز أولو الحكم فيها إلى الأندلس مرات عدة.

وكانت مراكش تشعر بأنها عظيمةٌ بالإسلام، وكان ملوكها يشعرون بذلك. لذلك فإنهم بنوا المدينة ومؤسساتها على شكل يدل على هذه العظمة. فجامع الكتيبة في مراكش له صومعة ضخمة يبلغ ارتفاعها قرابة مئة متر. ولنذكر على سبيل المثال أن

محاولة أخرى لم تتم كانت قد قامت في الرباط لبناء جامع كان مقدراً له أن يكون أوسع وأكبر جامع في الإسلام.

وإذا انتقلنا من مراكش إلى قرطبة في الأندلس، وجدنا أنفسنا أمام مدينة عاصرت بغداد زمناً، إذْ إنهما ترجعان إلى القرون الثاني والثالث والرابع للهجرة، وشابهتها من حيث أنها كانت نقطة اجتماع لعناصر مختلفة من الشعوب والثقافات لكن الثقافة الإسبانية التي لقيها العرب في قرطبة والأندلس لم تكن شيئاً بالمقابلة بما لقيه العرب في بغداد وجوارها . لذلك لم يكن في قرطبة غليان فكري وتصارع ثقافي، وإنما كان فيها قبول لما ينتج في الشرق وامتصاص لعادات اجتماعية كانت هناك. لكن وظيفة قرطبة، وغيرها من مدن الأندلس مثل طليطلة، كانت في أن منها انطلق الفكر العربي الإسلامي والفلسفة الإسلامية والعلوم المختلفة من ديار العرب والإسلام إلى أوروبة. فقرطبة كانت مدينة عربية إسلامية على الحدود، تعطي للراغبين في الزاد الفكري مؤونة للطريق وما بعد الطريق.

في الإسلام مدينتان لهما منزلة خاصة في نفوس الناس، «القاهرة» في المشرق، و«فاس» في المغرب. والقاهرة، بقطع النظر عن الأماكن التي سبقتها في جوارها مثل الفسطاط، والقطائع، والعسكر، هي إنشاءٌ فاطميّ وقد أقيمت لتمثل دولة جديدة وفلسفة خاصة. أنشئت في القرن الرابع للهجرة، وآلت إلى أن تصبح دار علم ودار دعوة متمثلة بالأزهر الشريف وغيره من مؤسسات الدرس والتعليم. ومع أن هذا الدور الحضاريّ للقاهرة كان هاماً، فالواقع التاريخي للقاهرة حفظ لها دوراً أهم في القرون السابع والثامن والتاسع للهجرة. كان هذا في أيام المماليك، وكانت القاهرة عاصمة سلطنة تشمل مصر وبعض ليبيا والديار الحجازية وبلاد الشام. وكانت دولة غنية بسبب سيطرتها على طريقي التجارة الرئيسيين في المنطقة: طريق البحر الأحمر وطريق الخليج العربي. فالدور الذي قامت به القاهرة عسكرياً هو أنها أخرجت الصليبيين من ديار الشام نهائياً، وأوقفت الزحف المغولي. لكن دورها الثقافي كان أهم من ذلك. في هذه القرون أصبحت القاهرة مستودع العلوم الإسلامية والفكر والثقافة الإسلاميين. كانت بغداد قد اجتاحها المغول ودمروها. ولم يبق للفكر والعلم ملجأ سوى القاهرة في المشرق. فهي التي لخّصت الحضارة الإسلامية وهي التي خلصتها مما قد يعلق بها من أمور خارجية.

إلى هذا كله يضاف شيء آخر. كان المماليك مغرمين بالبناء. وقد زينوا القاهرة بالمساجد الصغيرة والكبيرة والمدارس والزوايا والقباب، بحيث أن المدينة أصبحت متحفاً حيًّا للفنون الإسلامية عمارة ونقشاً وزخرفاً. وقد اتيح لي أن أزور ثلاثة وثمانين مسجداً من مساجد القاهرة كان أكثرها من أيام المماليك، وكان أكثرها جميلاً جداً.

ومثل الدور الذي قامت به القاهرة في المشرق تعهدته «فاس» في المغرب في أيام بني مرين، أي في القرنين السابع والثامن للهجرة. كانت مدن الأندلس تتساقط الواحدة بعد الأخرى. وكانت دولة الموحدين قد زالت. وجعل المرينيون «فاس» عاصمة سياسية لدولتهم، فضمت العلم إلى النفوذ. فلجأ إلى جامع القرويين فيها أهل العلم والمعرفة، فاختزنت فاس العلم واحتضنته وحافظت عليه ونقلته، بحيث انها كانت ضمير الإسلام المتعلم في المغرب الإسلامي. وهكذا فقد كان في طرفي العالم العربي مستودعان أمينان للمعرفة الإسلامية.

أنشأ عقبة بن نافع «القيروان» في تونس مراحاً لجيوشه، ومستودعاً للمؤن والذخائر، ونقطة انطلاق للأعمال العسكرية والحربية والفتوح. ولم تلبث أن أصبحت مركزاً للعلم أيضاً، حتى كان يقال في المغرب في مدح العالم: إنه يجمع علم القيروان إلى علم الأندلس. لكن القيروان عصفت بها الحملة الهلالية في القرن الخامس للهجرة، فدالت دولتها. وكانت تونس، خليفة قرطاجة القديمة، قد أصبحت عاصمة المنطقة ودار صناعة ومركز أسطول. وكان جامع الزيتونة قد أخذ يجذب إليه أهل العلم ـ شيوخاً وطلاباً.

وفي أيام بني حفص، أي في القرون السابع والثامن والتاسع للهجرة، قامت تونس بدور حضاري خاص. فهي من جهة يسرت للكثيرين منتجعاً للعلم، وملجأ لمهاجرة الأندلس. فكان فيها المشتغلون بالموسوعات كالتيفاشي والقرطاجني، ورجال العلم الرياضي كالسقلادي، والأطباء كأسرة الصقلي، والنباتيون كابن البيطار.

والدور الذي قامت به القيروان أولاً وتونس ثانياً، هو أنهما كانتا محطتين كبيرتين على طريق العلم. «القيروان» محطة على الطريق الشرقي العربي، «وتونس» محطة على طريق انتقال الطب والعلوم الأخرى إلى أوروبة.

وما دمنا بصدد التحدث عن المدن المحطات فلنذكر «بلرمو» في صقلية. لنترك تاريخ «بلرمو» القديم جانباً، ولنذكر أن العرب فتحوا صقلية في القرن الثالث للهجرة. ودخلت حضارة الإسلام منهم إليها. وفي القرن الخامس انتزع النورمان صقلية من العرب. ولكنهم تركوا للسكان، وهم يونان مع حضارة يونانية، وعرب مع حضارتهم الإسلامية، حرية العمل والتقدم. وفي أيام «روجار الصقلي» وضع الشريف الإدريسي في «بلرمو» كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» وصنع صورة الأرض ورسم خرط العالم. واستمرت الحضارة العربية الإسلامية في «بلرمو» مدة طويلة. وكانت «بلرمو» محطة بين تونس وإيطالية. فعن طريقها نقل قسطنطين الإغريقي طب ابن سينا من تونس إلى «سالرنو» في القرن الخامس للهجرة. ومن صقلية انتقل الفن العربي إلى أوروبة كما نقلت صناعة السكر والقطن والكاغد أي الورق.

هذه مـدن ثمـان، جـمـيـعـهـا فـي العـالم العـربي، كـانت لكل منهـا، بالإضـافـة إلى وظيفتها الأساسية، وظيفة خاصة ودور معين في تطوير الحضارة الإسلامية إما نقلاً أو خلقاً أو مـزجاً أو حفظاً غطاءً. وبسبب الدور الذي فرضه الواقع التاريخي تميزت كل بخصائص: إما علماً أو فناً أو أدباً أو صناعة.

ودراسة هذه المدن وغيرها هي دراسة الحضارة الإسلامية ذاتها.

ابو ظبي

جاءت زياراتي إلى الخليج العربي بعد أن كان النفط قد اكتشف، وحتى قد تدفق في بعض الحالات. ذلك بأنني زرت الكويت لأول مرة سنة ١٩٥٦ وقطر سنة ١٩٦١ أما أبوظبي فلم اسعد بزيارتها الا سنة ١٩٦٩. وفي كل مرة كنت أعود فيها إلى بيروت، ويسألني صحبي عما رأيت، كان جوابي - «ورشة عمل وعمران». وإنني لم أزر البلاد قبل ان تعرف النفط وآثاره، فقد يصعب علي ان أتصور وضع المنطقة قبل ذلك. إلا انني كانت لي معرفة بالصحراء في جهات أخرى من العالم العربي. فقد اجتزت صحراء سيناء بالقطار مرات وبالسيارة مرة، وعرفت بعض أجزاء من الصحراء الليبية، وخاصة في المناطق الساحلية. ومن ثم فانني لما قرأت أو قيل لي، ان ابو ظبي كانت من قبل تتكون، اقتصادياً، من ثلاث مناطق هي العين ومحاضر ليوا والساحل، وان ما تبقى هو صحراء أو ما إلى ذلك، لم أجد تصور الأمر صعباً. ولما زرت تلك الجهات ادركت المقصود. العين، أو المنطقة الشرقية على الأصح، كانت تزود القوم بالخضار اصلاً، ومحاضر ليوا فيها واحات متصلة تنتج ارضها ما يتغذى به القوم، كما ان الكثير من الانعام والدواب كانت تربى هناك. والساحل كان محط رحال الكثيرين في الصيف، لا منتجعاً أو مصطافاً أو متربعاً، ولكن مرمى للشباك القصيرة والطويلة لصيد الاسماك، ومغاصاً للماهرين من البحارة ومن هم بحاجة إليه من العون، للبحث عن خبايا المياه الدافئة هناك - اللؤلؤ. والسمك يحتاج بعد صيده إلى تجفيف قبل نقله إلى الداخل أو إلى الأقطار النائية نسبياً، ولكن الغوص بحثاً عن اللؤلؤ صناعة معقدة وتجارة مركبة. وكانت ثمة أماكن يغاص فيها بحثاً عن اللؤلؤ في الخليج العربي كله، وكانت ابو ظبي (البلدة) أحد الأسواق المهمة لتبادل هذه اللآلىء.

موقع المدينة وبعض تاريخها

تقع مدينة ابو ظبي على جزيرة كبيرة بجوار الساحل ويفصلها عن البر الرئيسي خور ضحل. كان يجتاز في قوارب صغيرة أو عند مخاضات، إلى ان بني الجسر (جسر المقطع). والجزيرة هذه، على أهمية موقعها بالنسبة إلى الساحل والجوار، ظلت تعاني مشكلة المياه، ومن ثم فلم يتح لها ان تصبح مركزاً كبيراً. فالأمطار قليلة للغاية والآبار الضحلة تضرب مياهها إلى الملوحة، ومع ذلك فهي قليلة. هذه كانت الحال منذ ان

اخذ الإنسان في أبو ظبي يحاول أن يفيد من هذا الموقع لنقل البضائع ـ مهما كان نوعها ـ من الداخل إلى هذه السوق، وليحمل منها حاجته، وليجمع السمك واللؤلؤ.

لكن تاريخ الموقع تبدّل في سنة ١٧٦٩ (وهناك من يؤرخ الحادث سنة ١٧٦١). ففي تلك السنة اكتشف جماعة من بني ياس الماء العذب في الجزيرة، فتنفس الناس الصعداء، وضربوا أوتادهم في الأرض. وبنو ياس هم القبيلة الرئيسة في حلف يضم خمس عشرة جماعة أو عشيرة. وقبيلة بني ياس وحلفاؤها كان يتزعمهم آل نهيّان في مواطنهم في الظفرة منذ أواسط القرن الثامن عشر. وكانوا في الواقع القوة البرية الهامة منذ ذلك الوقت (القوتان الاخريان هما دولة آلبو سعيد في مسقط وقوة القواسم البحرية في رأس الخيمة).

وجاء إكتشاف الماء العذب في ايام دياب بن عيسى (انتهى حكمه ١٧٩٣)، فاصبحت القرية الصغيرة مركزاً دائماً، وصارت مقراً للتجار ومُتبادلاً للسلع. وكان فيها من قبل أكواخ من الطين وسعف النخل، وأخذ الناس يبنون البيوت الأقوى والأنسب، وفي مدة عامين اقيم فيها اربعمئة منزل.

لكن الذي اتخذ من أبو ظبي عاصمة للمشيخة هو شخبوط بن دياب (١٧٩٣ ـ ١٨١٦). فهو المؤسس الحقيقي للإمارة. وقد اجمل العمل هذا بهذه العبارة: «قام الشيخ شخبوط بن دياب بخطوة جريئة ذات أثر سياسي واقتصادي بالغ في حياة إمارة ابو ظبي. قام الشيخ شخبوط بنقل مقر حكمه من واحة ليوا في الداخل إلى المدينة الناشئة الجديدة في جزيرة ابو ظبي. وهكذا أصبح لبني ياس وحلفائهم كيان سياسي مرموق على ساحل عُمان. كما فتح امام أهالي إمارته نشاط البحر بخيراته الواسعة في التجارة والملاحة والغوص. وانتشر اهالي ابو ظبي على الجزر وتناثروا عليها وهنا تبدأ ـ مثلاً ـ جزيرة دلما قصتها وتاريخها في دينا الغوص واللؤلؤ في القرن الماضي».

ليس من اليسير ان نتابع اخبار الحكّام والحكم في مثل هذه العجالة، لذلك فنحن مضطرون إلى التخيّر، والذي نرجوه هو ان يكون تخيّرنا صواباً. ولذلك فإننا ننتقل إلى حكم الشيخ زايد بن خليفة (١٨٥٥ ـ ١٩٠٩) المعروف باسم زايد الكبير ايضاً. ولي الأمر شابا، إذ اختارته اسرة آل نهيان وهو في سن العشرين. وكان له في ابو ظبي، مدينة وإمارة، شأن كبير. ولعل أهم منجزاته السياسية هي اقامة العلاقات الوطيدة مع حكام الجوار. وقد شهد السربرسي كوكس، الذي زار ابو ظبي سنة ١٩٠١، انه كان في رحلته من مدينة ابو ظبي وحتى مدينة عبرى في حماية الشيخ زايد بن خليفة ورعايته.

اللؤلؤ وأبو ظبي

كان لبني ياس مشاركة في صيد اللؤلؤ منذ ان بدأت هذه الصناعة تتطور في الخليج في العصور الحديثة (صيد اللؤلؤ في الخليج العربي قديم ويعود إلى العصور التاريخية المبكرة). فحتى قبل أن يتخذ بنو ياس من جزيرة ابو ظبي مستقراً لهم، كانوا

يذهبون في الصيف إلى المناطق الغنية بالمحار (الحصيرات) ويعودون بعد ذلك بما يجمعون من اللآلىء. لكن استيطان بني ياس جزيرة ابو ظبي وسّع نطاق اتصالهم بالبحر، فكانت سفنهم تذرع البحر بحثاً عن مصدر هذه الثروة. والواقع ان صيد اللؤلؤ عملية معقدة، فهناك، اولاً، التحضير، الذي يبدأ قبل موسم الصيد بشهرين تقريباً. والتحضير هو إعداد السفن وطلاؤها وجرها إلى البحر وتجهيزها بخزانات الماء. ويدخل في التحضير إتصال ربان السفينة بالبحارة، والخطوة الثانية هي البحث عن ممول يقرض هؤلاء المنظمين للصيد ما يشترون به حاجاتهم من كساء وغذاء للمسافر والمتخلف في البيت. ويلي ذلك الخطوة الثالثة، اذا جازت التسمية، وهي حمل الماء والمأكل إلى السفينة. ومواسم صيد اللؤلؤ تمتد من نيسان (ابريل) إلى ايلول (سبتمبر). وأطول هذه المواسم زمناً هو الغوص الكبير، من اوائل شهر حزايرن (يونيو) إلى آخر شهر آب (اغسطس).

وبين الجزر العديدة التي توجد في المياه المواجهة لساحل ابو ظبي جزيرتان مرتبطتان بصناعة اللؤلؤ ـ صيداً وتجارة ـ وهما دلما في الدرجة الأولى، وابو ظبي (المدينة) في الدرجة الثانية. ومع ان ابو ظبي تأتي في الدرجة الثانية، فأبو ظبي كانت، أيام ازدهار هذه التجارة (إلى الثلاثينات من القرن الحالي)، «ميناء اللؤلؤ حيث يقصدها العديد من تجار اللؤلؤ في موسم الغوص، ويقيمون فيها طيلة الموسم للمتاجرة باللؤلؤ فيما بينهم من جهة، والمتاجرة مع تجار ابو ظبي من جهة اخرى» وتجار ابو ظبي بالذات، قدر عددهم في ايام الازدهار اللؤلؤي (اي في العقود الأولى من القرن الحالي) بثلاثمئة تاجر.

ولست احسب انني سأتحدث عن اللؤلؤ صيداً وتجارة وما إلى ذلك بأي تفصيل، فذلك يبعدني عن الخط الأصلي، لكنني لا أرى مندوحة عن نقل ما ذكره مانع سعيد العتيبة في كتابه «اقتصاديات ابو ظبي» (١٩٧١) اذ انه يضعنا في الجو الملائم لما نحن فيه. يقول المؤلف: «كانت صناعة اللؤلؤ حتى قبل الحرب العالمية الثانية العمود الفقري بالنسبة للاقتصاد الوطني سواء ما كان للقطاع الخاص [الانتاج] أم للقطاع العام [واردات الدولة]. وكان يشتغل بصناعة اللؤلؤ، بصورة مباشرة وبصورة غير مباشرة، حوالى ٨٥٪ من سكان ابو ظبي، الذين كان يقدر عددهم آنذاك بحوالى خمسة وخمسين الف نسمة، الغالبية العظمى منهم من المواطنين. [وكان أكثر هؤلاء السكان يقيمون في (المدينة) ابو ظبي، اكثر الوقت ان لم يكن كله]. كما ان صناعة اللؤلؤ تساهم بما نسبته ٩٥٪ من مجموع الدخل القومي. أما الباقي، وقدره ٥٪ فانه يأتي من بقية القطاعات الأخرى مثل الزراعة والتجارة والرعي وصيد الاسماك».

بلغت تجارة اللؤلؤ في ابو ظبي أوجها في أعقاب الحرب العالمية الأولى وقبل الأزمة الاقتصادية التي عصفت بالعالم (١٩٢٨ ـ ١٩٢٩). ومع ان تجارة اللؤلؤ عادت

إلى الازدهار بعد سنة ١٩٣٣، واستمرت حتى الحرب العالمية الثانية، إلا انها بعد هذه الحرب تأخرت ـ صيداً وتجارة ـ ثم استمر التدهور والاضمحلال على ما نراه اليوم.

ويعزو الباحثون تدهور صناعة اللؤلؤ إلى اسباب قد يختلفون في اهميتها. ولكن، دون ان ندخل في التفاصيل، أو ان نفاضل بين سبب وسبب، نود ان نشير إلى ان شركات النفط العالمية عادت، في اعقاب الحرب العالمية الثانية، إلى التنقيب عن النفط في ابو ظبي، فوجد الكثيرون من العمال فرصاً جديدة للعمل، كان فيها الدخل اكبر والضمان اكثر. فانصرف عن اللؤلؤ اللمّاع كثيرون والتحقوا بالذهب الأسود. وجاء اللؤلؤ الياباني «المزروع» فزاحم اللؤلؤ الطبيعي وزحمه وزحم العاملين في صناعته. وهذا الوضع الجديد هو الذي نبّه البحارة والغواصين إلى المخاطر التي كانوا يتعرضون لها، مع انهم كانوا يعرفونها من ذي قبل ـ اقصد المخاطر الجسمانية من تأثير التيارات والأعماق وكثرة الأسماك الخطرة. ومع ان أسعار اللؤلؤ كانت دوماً معرضة للتقلب في الأسواق العالمية، فلعل هذا إزداد عالمياً، بحيث ان الاقراض للؤلؤ لم يعد يسيراً كما كان قبلاً.

إلى جانب اللؤلؤ

في الامارة مناطق كثيرة، مثل العين وبعض الواحات، فيها مزارع ومراع، ومنتوجاتها منوعة، لكن المدينة (ابو ظبي) حصتها في هذه الأمور هي حصة «السوق الكبيرة». فسواء كانت السلع معدة للتصدير إلى الخارج، أو لنقلها إلى الأسواق الداخلية، فإنها كانت تجد طريقها إلى العاصمة كي توزع من هناك. فإما ان يتبادلها التجار داخلياً، أو تحملها السفن إلى الخارج، لتعود بما كان القوم يحتاجونه. وكانت القوافل، على اختلاف انواع الدواب، هي وسيلة التنقل في الداخل، والسفن الشراعية الوسيلة الأساسية، ان لم تكن «الوحيدة في نقل البضائع ما بين ابو ظبي والعالم الخارجي».

وما دمنا بسبيل التحدث عما كان يصدّر من ابو ظبي، نذكّر بوفرة الأسماك في المنطقة وضحالة المياه مما يجعل الصيد يسيراً. والسمك المجفف كان ينقل إلى جهات مختلفة من البلاد، قريبها وبعيدها.

وليس ثمة مجموعة بشرية يمكن ان تستغني عن المصنوعات «الحرفية»، بعد ان تكون قد عرفتها. فالسوق المحلية لا بد ان تلبي حاجات الناس. فصيادو السمك بحاجة إلى القوارب والشباك وغير ذلك، وصاحب الحانوت بحاجة إلى باب ومفتاح، وابو ظبي (المدينة) كان عليها ان تقوم بصنع الأدوات البسيطة من الحديد أو غيره من المعادن، بعد ان تحصل على المادة الخام من الخارج. وكان على ابو ظبي (المدينة) ان تأوي النجارين المهرة لصنع القوارب، بعد ان ينقل الخشب إليها من عمان أو حتى من الهند! وكان على أبو ظبي (المدينة) ان تزوّد الصيادين بالشباك. وهذه جميعها حرف

او صناعات حرفية عُرفت واستُغلت وأتقنت، على قدر ما يمكن لها الاتقان.

لكن ابو ظبي (المدينة) كان فيها شيء آخر يحتاج إلى نظم، إن لم يحتج إلى صناعة، وهو اللؤلؤ، واللؤلؤ تحتاج صناعته إلى الذهب: البحر في أغواره غني باللؤلؤ، والبحر في أسفاره غني بالذهب. فليُحْمَل هذا من حيث يوجد ليقوم الصاغة بثقب اللؤلؤ ونظمه وعندها يصح فيه قوله الشاعر أو لعلها شاعرة (؟):

والدرّ ليس بنافع أربَابه حتى يُؤَلَّفَ بالنظام ويثقبا

ومع ان هذه الأشياء كانت تصنع على ايدي أصحاب الحرف، وبآلات بسيطة، فإن الكثير مما كان ينتج على أيدي هؤلاء الصناع كان مدعاة للعجب العجاب. وقد رأيت في إحدى زياراتي (ولعلها الأولى سنة ١٩٦٩) لأبو ظبي، في بيت احد التجار الكبار عقداً من اللؤلؤ بسيط الثقب والنظم، اذ ان حباته يربطها خيط انيق من الذهب، لكن العقد كان مما تحب أي جميلة ان تُجمل جيدها به.

جاء النفط والشيخ زايد

في سنة ١٩٦٣ بدأ تصدير النفط من أبو ظبي. لكن عوائد النفط، تنقيباً وحفراً وتنظيماً، كانت قد وجدت سبيلها إلى أنحاء الإمارة. وكان شخبوط بن سلطان اميراً على أبو ظبي (١٩٢٨ ـ ١٩٦٦) يوم جاءت هذه الثروة. وفي عهده تم انشاء محطتين لتحلية مياه البحر لكي تسد حاجة القرية التي اخذت تتطور إلى مدينة زاهرة. فقد كانت أبو ظبي تعتمد على المياه التي تضرب إلى الملوحة، إذ ان الآبار التي كانت تزودها بالمياه الجوفية كانت ضحلة. «ولهذا كانت طوال حياتها قرية صغيرة محدودة المساحة، قليلة السكان، ولم يكتب لهذه القرية التطور والتقدم الا في ظل إنتاج البترول». وبعد الخطوة الاولى التي تمت في عهد شخبوط، وهي إنشاء المحطتين المذكورتين، جاءت الخطوة الثانية وكانت «جلب الماء الجوفي اليها من منطقة بعيدة تقع على مقربة من مدينة العين... هي منطقة الساد. فلقد حفر في هذه المنطقة سبع من الآبار العميقة... ومدّ خط من الأنابيب سعة تسع بوصات لحمل هذه المياه إلى مدينة ابو ظبي». وهكذا استطاعت «مدينة ابو ظبي ان تجد حاجتها من الماء لتواجه أولى مراحل التعمير وازدياد عدد السكان في العاصمة».

وفي ٦ آب (أغسطس) استقر رأي آل نهيّان على أن يتولى حكم البلاد الشيخ زايد بن سلطان، ونودي به حاكماً على البلاد.

كان الشيخ زايد قد قضى عشرين سنة من حياته في العين، وكانت قلعة المويجعي مركزه. عاش زايد بن سلطان في هذه المنطقة قريباً من البادية، أحب فيها البدو وأحبوه. وفي سنة ١٩٤٨ (اي بعد انتقاله إلى المويجعي بسنتين) زاره الرحالة ثسيغر، صاحب كتاب «رمال العرب». وقد قال عنه: «ان زايد قوي البنية، ويبلغ من

العمر ثلاثين عاماً، له لحية بنية اللون، وجهه ينمّ عن ذكاء وقوة شخصية. وله عينان حادتان، وهو يبدو هادئاً، ولكنه قوي الشخصية. ويلبس الشيخ زايد لباساً عمانياً بسيطاً ويتمنطق بخنجر، وبندقيته دوماً إلى جانبه على الرمال لا تفارقه. ولقد كنت مشتاقاً لرؤية زايد لما يتمتع به من شهرة واسعة بين البدو. فهم يحبونه لانه بسيط معهم، ودود. وهم يحترمون شخصيته وذكاءه وقوته البدنية. وهم يرددون باعتزاز: زايد رجل بدوي، لأنه يعرف الكثير عن الجمال، كما يجيد ركوب الخيل مثل واحد منا، كما انه يطلق النار بمهارة ويعرف كيف يقاتل».

ويذكر كاتب هذه السطور انه بعد ذلك العام بأقل من ربع قرن استقبله الشيخ زايد بن سلطان في قصره في أبو ظبي. ودار بيننا حديث طويل؛ وقد شعرت يومها بأن الوصف الذي دوّنه تسيغر، باستثناء لون شعره، كان لا يزال صحيحاً، إلا ان الخبرة التي حصل عليها أميراً لأبو ظبي زادت في قدراته. وفي نهاية الزيارة ـ وكانت الساعة قد بلغت الواحدة صباحاً ـ قال الشيخ زايد لمرافقي: «ارسلوا ضيفنا إلى العين»، واضاف «يجب ان تزور العين، وستحبها كما أحبها أنا». وقد زرت العين وأحببتها فعلاً. وكان ذلك قبل فندق هلتون العين والجامعة.

والرجل الذي تولى حكم إمارة أبو ظبي سنة ١٩٦٦ حفظت عنه وله اقوال مدونة يمكن اعتبارها جزءاً من قاعدة التصرف والعمل.

وها نحن اولاء نورد بعضاً من هذه الأقوال:

١ ـ «ان العلم والتعليم بصر للانسان يهديه طريقه في الحياة».

٢ ـ «لا قيمة للمال إذا لم يُسخّر لخدمة الشعب».

٣ ـ «اذا كان الله جلّ وعلا قد منَّ علينا بالثروة، فإن أول ما التزمنا لرضا الله وشكره هو ان نوجه هذه الثروة لإصلاح البلاد ولسَوق الخير إلى شعبها وذلك عن طريق بناء مجتمع تتوفر فيه وسائل التعليم والصحة والمسكن والمأكل».

٤ ـ أنا اعتبر نفسي رب عائلة كبيرة هي الشعب. وان واجب رب العائلة أن يرعى شؤون أفراد عائلته، ويعمل على سعادتهم ورفاهيتهم».

٥ ـ «ان الحاكم اذا عاش لنفسه وسخَّر اموال الشعب في مصالحه الشخصية يغدو لا قيمة له عند الله وعند الناس».

٦ ـ «إنني أحب ان أُوزّع هذا الخير الذي رزقنا الله إياه على جميع أبناء الشعب، وانني احب ان أوفّر لأهل كل منطقة حاجياتهم من ماء صالح ورعاية صحية، وتعليم لابنائهم في القرى البعيدة التي ننشئها لهم في الظفرة والمنطقة الشرقية حتى لا يهجر الأهالي مواطن الآباء والأجداد، وحتى يحافظ شعب ابو ظبي على تقاليده العربية الأصيلة وتعاليم الإسلام الحنيف».

التنظيم الإداري والسياسي

كان في مقدمة الأمور التي صرف الشيخ زايد همه إليها هو التنظيم الإداري للإمارة. فقد صدر المرسوم الأميري لتنظيم دوائر الحكومة، الأمر الذي لم تعرفه البلاد من قبل؛ وقد تم ذلك في ١٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٦٦، أي بعد تولي الشيخ زايد الحكم بستة أسابيع. وبموجب هذا المرسوم استحدثت تسع دوائر للعناية بنواحي الحياة المختلفة في البلاد. وكان بين هذه دائرة خاصة ببلدية ابو ظبي (العاصمة).

وفي صيف سنة ١٩٧١، وكانت المفاوضات والمشاورات بشأن إنشاء اتحاد للإمارات في ساحل عُمان، كما كان يسمى من قبل، ارتأى الشيخ زايد ان ينتقل بإمارته من التنظيم الإدارى إلى التنظيم السياسي. وكانت تجربته وخبرته قد مكنتاه من التعرف إلى الحاجات الآنية والمستقبلية. لذلك فإنه اصدر في ١ تموز (يوليو) ١٩٧١ قانونين جديدين هما قانون إعادة تنظيم الجهاز الحكومي وقانون المجلس الاستشاري. والأول من هذين القانونين نظّم العمل الإداري والسياسي في الإمارة على اساس مجلس وزراء. فأنشئت خمس عشرة وزارة تتناول مجالات العمل في الحقل الداخلي. (وزارة الخارجية جاءت بعد انشاء دولة الامارات العربية في ٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧١). والفرق واضح، من حيث النظرة والعمل بين تنظيم إداري ونظام وزاري يعمل متكاملاً متكافلاً متضامناً.

تطور العاصمة

أبو ظبي التي انتقلت، كما رأينا، من جزيرة للعبور من البحر إلى البر، حيث كانت شيئاً صغيراً يقيم الناس فيه موقتاً، إلى قرية فيها ماء عذب (١٧٦٩)، صارت مكاناً يستقر فيه الناس، بل مركزاً دائماً حتى لبعض المهام الإدارية (أيام دياب بن عيسى). وفي أيام شخبوط بن دياب، ارتفعت أبو ظبي منزلة اذ اتخذها عاصمة للمشيخة. وفي عهد الشيخ زايد بن سلطان اصبحت أبو ظبي عاصمة الدولة. والعاصمة يجب ان تقود المدن والقرى القريبة والبعيدة في العمران. ومع ان كل جزء من إمارة ابو ظبي ناله حظه من الاهتمام، فإن العاصمة حظيت، بحكم الأحوال والظروف، بالقسط الأول، ولا نقول الأوفر، من العناية والاهتمام.

وفي السنوات الأولى وضعت موازنة للخطة الخمسية الأولى (١٩٦٨ ـ ١٩٧٢). ونحن يمكننا ان نجمل ما افادته العاصمة من جماع المشاريع إلى زمن قيام دولة الإمارات العربية المتحدة.

أولى المشكلات التي كانت تتطلب حلاً بالنسبة إلى مدينة تنمو بسرعة في سكانها، وتقام فيها الأبنية المختلفة نهاراً وليلاً (وقد شاهدت هذا بنفسي في المدينة)، هي مشكلة الماء. وقد أشرنا من قبل إلى نقل الماء من سبع آبار حفرت في منطقة

الساد (تبعد ١٣٠ كيلومتراً عن أبو ظبي على طريق العين) في خط أنابيب قطره تسع بوصات. ثم حفرت آبار عشر أخرى في المنطقة نفسها، ونقل الماء منها إلى أبو ظبي بخط انابيب قطره ثماني عشرة بوصة. وأعيدت الكرة فحفرت ثماني آبار جديدة ومد خط أنابيب قطره عشر بوصات. وهذا وفر للعاصمة مليوني غالون من الماء يومياً. هذا بالاضافة إلى محطات تحلية المياه، التي تزود المدينة بقسط وافر من المياه. ولا بد من ان نذكّر أنفسنا بأن خزان المدينة العالي، مع الخزانات الأخرى، تزود جميع الأبنية والمنازل في أبو ظبي بالمياه التي تصل إليها بأنابيب مدت لهذه الغاية.

والمشكلة الثانية كانت مشكلة الكهرباء، لا لأن الإنارة والتبريد (في مدينة تتراوح حرارة الصيف فيها بين ٣٨ و٥٠ مئوية، وتصل الرطوبة إلى درجة التشبّع) امران ضروريان، بل لأن اعمال البناء كانت تعتمد على الطاقة الكهربائية. إذ لما تولى الشيخ زايد بن سلطان حكم الإمارة (١٩٦٦) كانت أبو ظبي تفيد من محطة كهرباء ابو ظبي التي كانت تولد ثلاثة آلاف كيلو واط فقط وكان من الضروري العمل بسرعة على زيادة الطاقة الكهربائية. وبقطع النظر عن الحديث الفني عن توليد الكهرباء (التوربينية بالغاز أو غير ذلك) فالمهم انه في ثلاث سنوات تضاعفت طاقة كهرباء أبو ظبي ثماني مرات. لكن كل هذا كان نقطة انطلاق. وقد تم تقوية الانتاج للطاقة الكهربائية بحيث ان أبو ظبي حصلت على ٢٥٠,٠٠٠ كيلو واط في سنة ١٩٧٦.

والجدير بالذكر ان جميع الأبنية والمنازل والشوارع في أبو ظبي تحمل إليها الكهرباء شبكة كابلات كاملة.

ومما يجب ان لا يغرب عن البال ان مدينة ابو ظبي تنمو وتتطور باستمرار. لذلك فإن الذي اذكره هنا قد يصبح شيئاً قديماً إلى حين يصل إلى النشر. ومن ثم فإنني أذكر ما تم، لا ما سيتم، فذلك اتمامه مرهون بالمستقبل، وأنا وغيري، كما قال الشاعر الجاهلي زهير بن ابي سلمى:

وأعلم علم اليـــوم والأمس قـــبله ولكنني عن علم مـا في غـدٍ عـمي

ولنحمل أولاً ما تم في المدينة ثم ننتقل إلى التفاصيل. فقد مدت شبكة من الطرق في العاصمة، ووصلت بالعين ودبي، وأُنشئت الشوارع وأضيئت وأقيمت الجسور وبنيت أسواق حديثة عصرية لبيع الخضار واللحوم والمواد الغذائية وغيرها. ووزعت هذه الدكاكين الموجودة في الأسواق على المواطنين المستحقين من أبناء الشعب لكي يستفيدوا منها سواء بالعمل في المجال التجاري أو بتأجيرها والاستفادة من ريع ايجارها.

ونحن إذا أخذنا انفسنا بتعداد الأعمال التي تمت في العاصمة بشيء من التفصيل وجدنا ان وزارة الاشغال انشأت اوتوستراد أبو ظبي العين. وطول هذا الطريق ١٦٠ كيلو مترا. وبنت مطار أبو ظبي، الذي يستقبل أكبر الطائرات.

وزائر أبو ظبي يلاحظ كيف يرتفع في كل يوم بناء جديد، وكيف يختفي في الوقت ذاته بناء آخر قديم. على ان هذا لا يسير خبط عشواء. فقد قسّمت اراضي مدينة أبو ظبي، من أول الأمر، إلى مناطق سكنية وأخرى تجارية وصناعية. وقام قسم الأراضي في بلدية أبو ظبي بتوزيع ٢٧٩ أرضاً تجارية و٢٦٢ أرضاً صناعية و٨٢٤ أرضاً سكنية، واحتفظ بـ١٢٩٣ أرضاً موقتة، كي تستخدم حسب الحاجة. وهذه الحاجة المقصود منها تلبية تطور المدنية ـ العاصمة. وقد روعي في تخطيط مدينة أبو ظبي «ان يكون مرنا، كما روعيت فيه جميع العوامل الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية في إطار أهداف عليا، وعلى أسس فنية وعلمية سليمة. كما حرص التخطيط على إبراز موقع مدينة أبو ظبي الجميل والاستفادة من وضعها كجزيرة تحيط بها المياه من جميع الجهات».

وعلى هذه الأسس سار العاملون على تحقيق هذه الأهداف. فالأسواق الثلاثة ـ للخضراوات والفواكه واللحوم والأسماك ـ مساحة كل منها نحو الف متر مربع. وفي سبيل الاستفادة من شاطىء جزيرة أبو ظبي الشمالي بني حاجز بحري طوله اربعة كيلومترات، وقد رصف هذا فيما بعد فكان عندنا كورنيش أبو ظبي الجميل، الذي يبلغ طوله خمسة كيلومترات.

كانت جزيرة أبو ظبي «مفصولة عن البر الأصلي بخور ضحل، وهذا الخور يتصل ببحيرة ساحلية تقع إلى الجنوب، وينحني شاطئها انحناء كبيراً نحو الداخل، وتزركشها الشطوط والجزر» ومياه البحر. والمرسى في ميناء أبو ظبي كان «عبارة عن قناة بحرية يصل عمقها إلى خمسة عشر قدماً، تمتد إلى جانب الشاطىء الخارجي للجزيرة، ويوفر له الحماية من رياح الشمال شعب مرجاني، تغمره المياه إلى عمق قليل. وكانت تستطيع السفن الصغيرة التي يصل غاطسها إلى اثني عشر قدماً على الأكثر الرسو فيه. ولكن الميناء، رغم ضعف امكاناته، كان يزدحم عادة بالسفن المحلية». (محمد متولي، حوض الخليج العربي ـ القاهرة ١٩٧٠ ـ ص ٢٩٦).

أما الآن، فبالاضافة إلى الكورنيش الذي ذكرنا، فأبو ظبي تتصل بالبر الأصلي بجسر المقطع، وهو انجاز هندسي جميل، بلغت كلفة بنائه ١,٣٥٠,٠٠٠ دينار (بحريني) وقد تم انجازه سنة ١٩٦٨.

كانت من مشكلات ابو ظبي عدم وجود ميناء كبير يستقبل البضائع والمعدات الضخمة القادمة من الخارج لتعمير البلاد. وقد ظلت السفن الكبيرة تقف على بعد عشرة كيلومترات من الميناء، وتفرغ حمولتها في «لنشات». لكن العمل نشط للتغلب على هذه الصعوبة. فاختير الطرف الشرقي للجزيرة ليكون الميناء الجديد. وقد افتتح الجزء الأول منه في شهر آذار (مارس) ١٩٦٩. وهذه المرحلة كانت بناء رصيف طوله ٤٥٨ متراً وعمقه ثلاثة امتار. لكن عمقه يصبح أكثر من خمسة امتار عندما يرتفع ماء

البحر. لكن الميناء تم في ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣، فأصبح الوضع على الشكل التالي: فيه ١٧ مرسى، طول كل مرسى ١٠٣ امتار، وعمقها نحو عشرة امتار. وحفرت قناة على طول سبعة كيلومترات عمقها نحو عشرة امتار، وعرضها ١٥٢ متراً وبني جدار وقائي لمسافة ثلاثة كيلومترات في البحر ليحمي الميناء من العواصف والتيارات. واصبح الميناء يستطيع أن يستقبل سبع عشرة سفينة من عابرات المحيطات.

ومما يزيد في جمال ابو ظبي وفخامتها جامع أبو ظبي الكبير، الذي يبلغ طول مئذنته اربعين متراً. وهو من اروع ابنية المساجد الحديثة التي شاهدتها في رحلاتي الكثيرة.

وعنيت بلدية ابو ظبي بتجميل المدينة، فضلاً عن الاهتمام بالأمور الأساسية. ومما يساعد على القيام بعملية التجميل، بإنشاء الحدائق، ان البلديات والزراعة كانت في وزارة واحدة. فالبلدية بنت الطرق والشوارع الداخلية في المدينة، واعانتها دائرة الزراعة في إنشاء ثلاث حدائق ـ منها اثنتان في المدينة نفسها، الأولى قرب المطار والثانية تحت ربوة خزان المياه قرب الخالدية. أما الحديقة الثالثة فتقع خارج المقطع، على بعد اثنين وعشرين كيلومترًا، وتبلغ مساحتها ٧٥٠× ٧٥٠ متراً مربعاً. بدىء العمل بها سنة ١٩٦٨، بعد أن اختار الموقع الشيخ زايد نفسه. وقد زرعت في هذه الحدائق اشجار النخيل والأشجار المستوردة من الخارج. والواقع ان زراعة الأشجار والأزهار الجميلة لا تقتصر على الحدائق، اذ إن الزائر لمدينة أبو ظبي يرى هذه الأشجار من النخيل وغيره في وسط الطريق، منذ ان يتخذ سبيله من المطار، كما يراها في كل شارع، يضاف إلى هذا الأزهار الجميلة التي تزين ميادين العاصمة. ومن اجمل شوارع العاصمة شارع الشيخ زايد (طوله ٥ كيلومترات).

المال وما اليه

تدفق مال النفط إلى ابو ظبي فبلغ منتوج النفط فيها سنة ١٩٧٦ نحو ٧٠ مليون طن، هذا بالاضافة إلى الغاز الطبيعي. ومعنى هذا ان البلد اصبح في إمكانه ان ينفق على مشاريعه المختلفة. ومع ان البلاد اصابتها نكسة اقتصادية بسيطة سنة ١٩٧٠، عطلت بعض الأعمال فيها، فإن الأمر عاد لسيرته الأولى بعد ذلك بقليل. واقتضى التعامل المالي على نطاق دولي أن تنظم أبو ظبي الشؤون المصرفية. ولذلك نجد أنه في مطلع سنة ١٩٧١ كان ثمة مصارف هامة تعمل في العاصمة وهي: بنك أبو ظبي الوطني وبنك دبي الوطني وبنك عمان والبنك العربي والبنك البريطاني للشرق الأوسط وبنك ناشيونال أند كريندليز العثماني ويونايتد بنك وفيرست ناشيونال بنك وبنك صادرات ايران.

وقد تأسس بنك ابو ظبي الوطني سنة ١٩٨٦. وهذا البنك «يشكل دعامة كبيرة للاقتصاد الوطني، كما انه مؤسسة مالية واقتصادية تسهم في التنمية الاقتصادية في

ابو ظبي. وهو أيضاً بمثابة جهاز للدولة يتم لها عن طريقه مراقبة اعمال البنوك الأخرى».

ولعله من المفيد هنا أن نتحدث قليلاً عن النظام النقدي في ابو ظبي (قبل قيام دولة الامارات العربية المتحدة). كانت العملات المستعملة في ابو ظبي هي الليرة الاسترلينية الذهب ودولار ماريا تريزا الفضي والروبية الهندية. وفي سنة ١٩٥٨ اصدرت الحكومة الهندية روبية خاصة بالخليج العربي. على أن حكومة الهند خفضت قيمة الروبية الهندية سنة ١٩٦٦ بنسبة ٣٥٪، الأمر الذي احدث اضراراً مادية لإمارة ابو ظبي (مثلها في ذلك مثل باقي امارات الخليج العربي). وعندها أوقفت حكومة ابو ظبي التعامل بالروبية الهندية، وأخذت باستعمال الدينار البحريني، الذي كان قد اصدر في البحرين سنة ١٩٦٥، اما العملة الحالية فهي درهم الإمارات العربية المتحدة، قيمته ٣,٧ درهم لكل دولار امريكي (١٩٨٠).

على أن الأمر لم يقتصر على عشرة بنوك في العاصمة (مع فروع لبعضها في العين) بل ان العدد ازداد. وقد ذكر احد الخبراء البريطانيين الذي عمل في ابو ظبي في مطلع السبعينات انه كان يقابل اربعة مسؤولين مصرفيين (فقط) في اليوم الواحد، وانه، خلال سنتي الخدمة هناك استقبل ٤٣٧ مسؤولاً مصرفياً، محلياً وزائراً. وقد وصل الحد في سنة ١٩٧٨ إلى أن كل الفين من سكان مدينة ابو ظبي كان لهم فرع لواحد من المصارف.

ووفرة المال، كما ذكرنا، تيسّر للمشروعات التحقيق، وإذ اصبحت ابو ظبي عاصمة دولة الإمارات العربية المتحدة، ازدادت المشاريع اللازمة للمدينة ضخامة لإيواء مئات الألوف من الموظفين والعاملين واصحاب الشركات والخبراء ولتوفير اماكن للشركات للعمل، ولذلك فإن زائر ابو ظبي اليوم يقول عنها انها ورشة عمل وإعمار، كما قلت أنا عنها سنة ١٩٦٩، انما يومها كانت الورشة اقل اكتمالاً، والآن هي ورشة تتوسع في كل الجهات، كما تتجه إلى الأعالي. وليس غريباً ان تبلغ اثمان السلع المستوردة إلى أبو ظبي سنة ١٩٧٩ سبعة الآف وسبعمئة وخمسين مليوناً من الدراهم. والقسم الأكبر من هذه السلع يدخل الإمارة عن طريق مدينة ابو ظبي - عاصمة دولة الإمارات العربية المتحدة.

ومثل هذا الحجم من الواردات وما يقابله من الصادرات، من النفط وغيره، بحاجة إلى الكثير من التنظيم، وخاصة فيما يتعلق بالعلاقات بين التجار المحليين والأجانب، فضلاً عن توثيق العلاقات بين التجار المحليين، ووضع أسس التعاون بين تجار مدينة ابو ظبي كجماعة وتجار العالم العربي كجماعة ايضاً. وقد بدىء بهذا لما انشئت غرفة تجارة وصناعة أبو ظبي في شهر آيار (مارس) من سنة ١٩٦٩. وقد جاءت موافقة الحاكم الشيخ زايد بن سلطان لطلب تقدم به ثمانية وعشرون تاجراً في

البلاد. وخلال السنوات التي مرت على هذه الغرفة، وخاصة بعد انشاء الاتحاد، تمكنت من تثبيت أقدامها على الصعيدين الداخلي والخارجي، بحيث انها اصبحت فعلاً تحقق ما كان مؤسسوها يصبون إليه.

الدولة والبلدية تحتضنان السكان

الواقع هو أن الدولة تحتضن الجميع ـ البلدية والسكان. فالحكم الناضج الواعي هو الذي يدفع إلى الأمام. لكن لا بد من العمل المحلي ليستطيع ان يحقق الأجزاء، وعندها يتكامل العمل. والبلدية، في أبو ظبي، بالإضافة إلى حرصها على الشوارع وصيانتها الميادين والأرصفة وحدائق الأزهار وأشجار النخيل، فإنها حريصة على ان تيسر لمن يريد أن ينتقل في انحاء المدينة في وسائل النقل العامة. والعاصمة بدأت هذا العمل بثمانية باصات (شهر آذار ـ مارس ـ ١٩٦٩)، وكانت هذه تعمل من السادسة صباحاً حتى التاسعة مساءً. لكن عدد الباصات تضاعف مرات، والخطوط طالت وامتدت، وساعات العمل زادت.

وأودّ أن اذكّر القارىء الكريم انني لن اتمكن، في هذه العجالة، من ذكر كل ما تقوم به البلدية والدولة، أو الدولة والبلدية، للسكان. إن الذي يمكن صنعه هنا هو وضع اطار ورسم خطوط قليلة، وللقارىء ان يتبع خياله، فيزيد الخطوط، ويعبىء الإطار، ومهما جمع خياله، فإنه لن يعدو الحقيقة والواقع.

ولنمثل على ذلك. في سنة ١٩٦٦ لم يكن في إمارة أبو ظبي غير عيادة طبية واحدة في العاصمة، وكان لهذه العيادة طبيب واحد. وقبيل قيام الاتحاد بقليل كان في العاصمة مستشفيان الأول الكبير والثاني الجديد يحويان ١٩٥ سريراً. وفي كل منهما كل ما يمكن أن يحتاجه الطبيب والفاحص والمريض في أي مرض أو اصابة قد تعرض له. وحظيت العاصمة بثلاث عيادات ـ للأسنان، وللنساء، وللرجال. وكل من هذه العيادات كان فيها أطباء، لا طبيب واحد، ومتخصصون، وحري بالذكر ان الخدمات الصحية تقدم مجاناً (علاجاً ودواء) مواطنين ووافدين.

وهذا الذي نتحدث عنه كان سنة ١٩٧١، أما الآن فالمستشفيات وسعت وزيدت، والعيادات، وهذا الأهم، انتشرت في انحاء العاصمة. ومن الطبيعي ان تعنى ادارة الصحة في العاصمة بتلقيح من يحتاج ضد الأمراض الوافدة. ولكن، في رأيي، أن الخطوة المستقبلية التي توضح فلسفة المعنيين بالأمور الصحية هي العناية بالطب الوقائي، لا من حيث التطعيم والتلقيح، ولكن من حيث توعية السكان لكي يتجنبوا الوقوع في حبائل المرض اصلاً. هذه نظرة مستقبلية.

والتعليم. في سنة ١٩٥٨ افتتحت أول مدرسة ابتدائية في مدينة أبو ظبي (المدرسة الفلاحية)، ومع أنها تعثرت سنة، فقد عادت إلى العمل سنة ١٩٦٠. ومنذ سنة ١٩٦٦ اخذ فتح المدارس يسير سيراً سريعاً. فالعدد والنوع والدرجة تنمو وتتطور.

فالدراسة الأكاديمية العادية تسير معها مدارس فنية وتوازيها معاهد زراعية. (في سنة ١٩٧٧ انشئت جامعة الإمارات في العين، وسميت باسمها).

ومثل ذلك يقال عن سائر مرافق الحياة في العاصمة.

في أرجاء العاصمة

تطل من الطائرة على أبو ظبي ليلاً، فيقع نظرك على منظر رائع، ويُخَيَّل اليك أن طبقاً كبيراً جداً نثرت فيه المجوهرات، من لآلىء وأحجار كريمة، فلمعت كلها معاً، وتموج الضوء المتوهج من لمعانها، بحيث انها تخطف الأبصار. عندها تتمنّى، كما تمنيت أنا، أن يكون معك شاعر مثل ابن المعتز ليصف المنظر. ولكن ابن المعتز لم يكن موجوداً، فتخيّل واكتف بذلك.

وإذا اطللت عليها نهاراً من الجو رأيت هذه السفن والمراكب والقوارب التي تحيط بالميناء أو تقصده أو تبتعد عنه. ويزيد في جمال المنظرين ان الشاطىء في تلك المنطقة له جماله الخاص.

ومتى وصلتَ المدينة استطعت ان تقضي أيامك ـ هذا إذا رتبت الحجز مبكراً ـ في فندق فخم مريح بكل ما في كلمة الراحة من معنى ـ فرشاً وأثاثاً ودفئاً (أو تبريداً وهو الأهم) واتصالاً بالعالم الخارجي لزياراتك المحلية.

وعندما تقصد أصحاب الأعمال للتباحث معهم، ينقلونك في آخر موديلات السيارات ـ لا أقول المريحة، فذلك أمر نسيه الناس هناك ـ الفاخرة. ثم يستقبلونك في مكاتبهم، في الدور الرابع أو الخامس أو السادس من بناء ضخم مبني من الاسمنت المسلح ـ والمكاتب مؤثثة على أفخم وأجمل ما يكون.

وأنت ـ التاجر أو المتعهد الذي يزور أبو ظبي ـ لن تكون الوحيد في ذلك اليوم الذي يقابلك المدير أو الرئيس أو الصناعي أو المصرفي أو موظف الدولة المسؤول. قد تكون واحداً من اثنين أو ثلاثة أو حتى عشرة. لذلك لا تستغرب كثرة الحركة. وإذا عرفت ان عدد الخبراء الموجودين في أبو ظبي يقدر بنحو ثلاثين ألفاً، فلن تستغرب الاستقبال والصرف المحوطين بالكثير من المجاملات. وهؤلاء الخبراء الذين ينصحون زجال الحكم ويقدمون لهم الآراء ويرسمون المشاريع ويخططون المقاولات ـ هم الخبراء الرسميون أو شبه الرسميين. لكن هناك خبراء للشركات النفطية وغيرها تستقدمهم هي لمدة معينة ولعمل معروف قبلاً.

وقد تحس وأنت في الفندق انه سهي عن بالك ان تحضر معك بعض ما تحتاجه من ثياب أو أدوات زينة أو علاج. يا أخي «لا تجزع، إن الله معنا»، فنحن في أبو ظبي. في المبنى الضخم الذي اجتمعت فيه مع المصرفي، أو في المبنى المجاور له، حانوت وصيدلية يمكنك أن تجد فيهما كل ما تحتاج. ولن تجد الا ما يستعمله علية القوم، أو هكذا يقال لك.

أسواق البلد وحوانيتها الصغيرة والكبيرة فيها كل ما تنتجه المصانع من طوكيو إلى كلفورنيا، ومن الابرة إلى السيارة. ولست استغرب ان تجد إبرة الكترونية أو محاية تعمل على الكمبيوتر.

وإذا استقر بك المقام مدة في أبو ظبي، بحيث أصبح عندك بيت ومطبخ وطهي، فأنت واجد كل أصناف الخضار والفواكه والأسماك واللحوم طازجة ومعلبة ونصف مطبوخة. أما الطازجة فاذا شئت الانتقاء فعليك بالأسواق الثلاث الرئيسية التي تباع فيها الخضار والفواكه المنقولة من الأردن ولبنان وغيرهما براً وجواً، واللحوم التي تحمل من جهات مختلفة. اما الأسماك ـ فعفواً لست أحسب انك واجد أماكن كثيرة في العالم فيها السمك الذي يوجد في الخليج العربي.

أما إذا كان وقتك لا يسمح بالطبخ وما إلى ذلك، وإذا كنت مستعداً لبيع صحتك على الطعام المعلب، فأمامك الخيار في كل ما يمكن ان تتصوره من فِطَر الصين إلى فِطَر باريس، ومن طون اليابان إلى طون غربي امريكا الشمالية، وما بين الاثنين من انواع، والأماكن الأربعة من مواقع.

لكن يجب ان تتذكر انك في أبو ظبي ـ في المدينة العاصمة. أنت واحد من نحو مئتي الف نسمة (وقد تكون واحداً من مئتين وخمسين الف نسمة). نعم المدينة نمت بسرعة: وخططت ونظمت، ومع ذلك فالسكان يزدادون والمدينة تنمو عَدَداً.

هؤلاء السكان سيرغمونك على الاهتمام بهم. قد لا يحدث هذا وأنت تنتقل في سيارتك لموعد هام؛ ولكن لا بد ان يحدث هذا، وعندئذ يأخذك العجب. إن العجب الذي أخذك بسبب الأنوار والكورنيش وشارع الشيخ زايد والمباني الضخمة والسيارات الفخمة والمشاريع التي امتلأ بها رأسك، (أو فرع منها)، هو عجب ظاهري. لكن عندما تتفرس في الناس (لا اقول تدرسهم، فذلك أمر صعب) ـ في وجوههم وسحنهم ولباسهم وحركاتهم ـ هناك يأخذك العجب المرتبط بالحياة. ان السحن تختلف لوناً من الأشقر والأبيض إلى الأسود وما بينهما؛ والسحن تختلف شكلاً من حيث تقاطيع الوجه وشكل الرأس. والناس يختلفون من حيث الشعر لوناً، والشعر ترجيلاً؛ ويتباينون من حيث الثياب، فمن الثوب الفضفاض إلى البدلة المصنوعة عند كبار الخياطين وما بينهما؛ ومن حيث ألوان الثياب.

وكيف لا يكون ذلك ومن هؤلاء الذين تراهم (ولو استبعد تراهن الا لتغليب الواحد على الآخر لغوياً) منهم الخُمس فقط (طريقة الكتابة العلمية ٢٠٪) من أهل البلاد، أي من إمارة أبو ظبي أو الامارات المجاورة؛ والأخماس الأربعة الباقية (أي ٨٠٪) هم من خارج المنطقة!

وبين هؤلاء (وهم بين ١٦٠,٠٠٠ و٢٠٠,٠٠٠ تبعاً لتقدير السكان) الخبير والمهندس والطبيب والصيدلي والتاجر والعامل والخادم والموظف ـ وكل هؤلاء يمكن

أن يعملوا في دوائر الدولة أو في القطاع الخاص عند الشركات الكبيرة. إن سكان أبو ظبي (الذين هم من خارج المنطقة) يأتون، بأعداد متفاوتة، من ايران وبلوخستان (باكستان) والهند وبلاد المشرق العربي، وشمال افريقيا وأوروبا وامريكا - دون التخصيص: دولة دولة أو بقعة بقعة أو جماعة جماعة. وأنت تستطيع ان تحكم من نظرك إلى هؤلاء القوم أيهم هو صاحب العمل وأيهم الموظف وأيهم العامل وأيهم الخادم. ترى هذا في المكتب الرسمي والخاص وفي الفندق وفي المطعم، وتتبين هذا في سحن الناس في الطريق. لست تعدم وسيلة إلى تقصي هذا الأمر.

وأنت تحس ان وقت أداء الصلاة قد حان. فان كنت مسلماً فأمامك من المساجد عدد كبير - من مسجد أبو ظبي الكبير إلى المساجد الموجودة في الأحياء المختلفة. وإذا كنت مسيحياً فأمامك واحدة من كنائس ثلاث تقام فيها شعائر الطوائف الارثوذكسية والانجيلية والكاثوليكية. وستجد في الكنيسة الكاثوليكية عدداً كبيراً من الهنود مثلاً. وقد اقيمت هذه الكنائس على أرض منحها الشيخ شخبوط للطوائف المختلفة.

ولا تحسبن ان جميع بيوت السكن أو المتاجر في أبو ظبي من هذه الأبنية الضخمة المبنية من الاسمنت المسلح. هذه يتزايد عددها يومياً. ولكن هناك أبنية من الحجر، وهي ليست كثيرة. ثم تأتي البيوت المبنية من الآجر. وقد كانت هذه بيوت الأثرياء والتجار إلى قبل أيام النفط. ولكن هذه المنازل زال منها شيء كان يميزها عن غيرها، هو «برج الهواء»، الذي كان برجاً يرتفع في وسط البناء بضعة امتار فوق السطح، وجوانبه الأربعة كانت مفتوحة، وهو مفتوح إلى داخل المنزل. هذا البرج كان «المُبرِّد» الطبيعي للمنزل. ففتحاته الأربع كانت تلتقط الهواء من أي جهة يهب، ومنها ينزل إلى داخل المنزل. (التقليد يقول بان هذه الأبراج بدأ استعمالها في أواخر القرن التاسع عشر على ايدي تجار لعلهم جاءوا أصلاً من السواحل المقابلة للمنطقة. ويمكن رؤية هذه الابراج إلى الآن في دبي والشارقة).

وفي أبو ظبي آلاف من المنازل (كان العدد ٣٠٠٠ في سنة ١٩٧٣) التي بنتها الحكومة وأعطتها للمواطنين ذوي الدخل المحدود مجاناً. وفي كثير من الحالات أعطت الدولة قطعاً من الأرض ليبني عليها المواطنون منازل سكنهم.

لكن مع وجود كميات كبيرة من المال في البلاد، ومع اهتمام الحكومة بالتخطيط للسكن ومساعدة الذين يحتاجون، ومع كثرة الأعمال، فان عدداً كبيراً جداً من سكان العاصمة لا يستطيعون الحصول على منازل لإقامتهم. بعضهم ليسوا مواطنين، فالدولة لا تقدم لهم ما تقدم للمواطنين. وقد يكون بينهم مواطنون حديثو العهد بالمدينة، التي تجذب اليها الآلاف، ولم يصلهم الدور بعد. هؤلاء يقيمون في بيوت من الطين وسعف النخيل، تسمى «براستي». ومع أن المنزل من هذه قد يحتوي على خمس غرف أو ست

فان هذه قلة إذ انَّ أكثر من نصف هذه المنازل يحوي غرفة واحدة، والباقي فيه اكثر من ذلك. وهذه المنازل ينقصها، في غالب الحالات، الماء والكهرباء. النمو السكاني في العاصمة كان عنيفاً بشكل لا يمكن مجاراته في تقديم الخدمات للجميع.

احتجت إلى أمور ضرورية فعثرت عليها في حوانيت الأبينة الضخمة والشوارع العريضة الجميلة. ولكن، ما دام عندك بقية من وقت، اذهب إلى الأسواق القديمة. هناك ترى بأم عينيك، إلى الآن، الصناعات التقليدية يمارسها أصحابها في حوانيت صغيرة متواضعة، لكن بالمهارة ذاتها التي كانت معروفة عن صنّاع الأيام الغابرة. هؤلاء الصنّاع يعملون للسوق المحلية ـ لكن السوق المحلية هذه تشمل زوار المدينة، وقد كنّا منهم واشترينا بعض ما ينتجه هؤلاء القوم. فهناك تجد الصاغة ـ في الذهب والفضة ـ الذين يزينون مصنوعاتهم ـ اليدوية طبعاً ـ باللؤلؤ. وإلى جانب هؤلاء الصناع «الفنيين» يقوم اولئك الذين يزودون الناس العاديين بحاجاتهم من الخبز والحلوى اكلاً، والثياب والأدوات الحديدية البسيطة، والفخار. ولعلّ الصناعة المحلية التي لا يزال لها كيان هي صناعة القوارب.

هذا كله يمثل مجتمع أبو ظبي تمثيلاً عامودياً وافقياً، ثروة وجاهاً وعملاً وكدحاً. لكن، بعد ان رأيت أنت ما رأيت، أريدك ان ترافقني إلى مكان قريب من أبو ظبي. إنه من ارباضها، إلى أم النار.

وأنت عندما تصل إلى جزيرة ام النار، على مقربة من المقطع، فانك تعود إلى الوراء زمنياً ما لا يقل عن أربعة آلاف سنة (وقد يكون الفرق الزمني خمسة آلاف عام). وهي جزيرة تبلغ مساحتها نحو كيلو مترين ونصف الكيلومتر المربع. فيها سبخة تحيط بجنوبها، والوصول إليها، على قربها، صعب. وفي سنة ١٩٥٨ تنبه أحد المهندسين النفطيين من الأجانب إلى وجود «تلال لدفن الموتى» شبيهة بالتي اكتشفت من قبل بالبحرين. وذكر هليارد ذلك أمام أعضاء البعثة الاثرية الدانمركية التي كانت تعمل في البحرين، فجاء اثنان من اعضائها لزيارة الجزيرة (١٩٥٩). وبموافقة حاكم أبو ظبي بدأت البعثة التنقيب الأثري هناك (١٩٦٠) واستمرت في العمل خمس سنوات. فما الذي انتهى اليه بحثها؟

لا أريد ان اطيل عليك، ايها القارىء الكريم، ولكن إسمح لي ان ألخص لك ما انتهى إليه بحثها، ومتى ذهبت أنت إلى أم النار، فلك الخيار في تتبع التفاصيل أو الاكتفاء بالنظرة السريعة. توصلت البعثة إلى الأمور التالية:

١ ـ ان القبور لم تكن جميعها محفورة في الرمل. بل ان الكثير منها كان مبنياً من الحجر؛ الأبنية هذه (لعل كلمة فستقية مناسبة هنا) كانت مستديرة في شكلها، وجدرانها مبنية من حجارة بدون مونة (في أكثر الحالات) لكنها مشطوفة (مشذبة)

بحيث تتم الاستدارة. وكانت هذه القبور تغطيها قطع من الحجارة الكبيرة بحيث تتخذ شكل قبة معتدلة الميل.

٢ ـ في هذه القبور وجدت هياكل عظمية. وكان معها فخار وخرز من الحجر ودبابيس نحاسية وخناجِر. والفخاريّات (طناجر ومزهريات) كانت دقيقة الصنع (على دولاب) ومزخرفة بأشكال هندسية.

٣ ـ على الساحل القريب من المقابر كانت تقوم قرية عدد بيوتها يتراوح بين عشرين وثلاثين بيتاً. مبنية من الحجر. وهي متسعة، وأكبرها تساوي مساحته ٣٠ متراً مربعاً تقريباً وفيه سبع غرف. والفخار الموجود هنا يشبه فخار القبور.

٤ ـ يبدو من الأدوات الموجودة في هذه البيوت ان السكان كانوا صيادين (صنانير نحاسية، وأثقال مثقوبة لعلها استعملت لتثقيل الشبكات كي تغطس في الماء) وكانوا يزرعون الحبوب (المطاحن اليدوية) ويربون الماعز والأغنام والأبقار (العظام موجودة حول المنازل) وكانوا يصطادون عجل البحر بكثرة (عظامه كثيرة حول المنازل).

٥ ـ كانت المنازل في وسط القرية تتزاحم، بينما تقع المنازل الأكبر في أطرافها (البيوت، كما ذكرنا، كانت مبنية من الحجارة).

٦ ـ لم تكن ام النار، مما عثر عليه وأجملناه هنا، قرية صيادي سمك صغيرة، وإذن فالمرجح انها كانت محطة على طريق تجاري، حتى تمكن أهلها من بناء بيوت على هذا الشكل!

٧ ـ يبدو ان هذه القرية تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد. ولما انتهى أمرها، جهلها التاريخ أو تجاهلها، إلى ان عمل الرفش والمعول على اكتشافها. المهم ان المنطقة كانت معمورة على درجة من الحضارة رفيعة قبل أربعة إلى خمسة آلاف سنة.

وما دمنا في الأرباض الشرقية من أبو ظبي فلنزُرْ جزيرة السعديات، حيث تقوم محطة للتجارب الزراعية. وقد انشئت هذه المحطة سنة ١٩٦٩ بناء على طلب الشيخ زايد نفسه. وانشأتها جامعة اريزونا بامريكا (والاختيار سببه ان اريزونا فيها شبه للمناطق الصحراوية). وقد تم العمل فيها سنة ١٩٧٢، وغادرها آخر امريكي سنة ١٩٧٦؛ وهي الآن تحت إدارة محلية. وهذه محطة للتجارب، (فهي ليست مشروعاً تجارياً)، وما يحصل عليه من خبرات ونتائج هنا تفيد منه بلاد الخليج جميعها. والري هنا بالتنقيط، والنباتات يعنى بها عملياً وعلميًّا عناية كبرى. لكن إلى أي حد يمكن ان يستفاد من مثل هذه التجارب عملياً وتجارياً مثلاً، فأمر متروك للمستقبل. ولعلَّ أماكن غير أبو ظبي تفيد منها!

أبو ظبي ـ المدينة العاصمة ـ كما رأينا، حديثة العهد: ماء (١٧٦٩) فمركز فعاصمة؛ نفط (١٩٦٢) فثراء فانتقال مفاجىء إلى مصاف المدن؛ وقيام دولة الامارات العربية المتحدة (١٩٧١) فتصبح أبو ظبي عاصمة دولة، وفيها ايضاً الماء العذب.

وهناك قلعة مدينة أبو ظبي ـ القصر، التي بناها الشيخ شخبوط بن دياب (١٧٩٣)، وقد جددت عدة مرات. وهناك قلعة وأبراج المقطع (ترجع إلى أوائل القرن التاسع عشر).

لكن بين تهدم (لماذا؟ لا ندري) قرية أم النار والقرن الثامن عشر لم يقم في المنطقة مركز أو محطة هامة.

لا بد أن يكشف المستقبل عن شيء لا يزال مطموراً.

جيبوتي (العاصمة)

الموقع

يقع خليج عدن بين شواطىء شبه الجزيرة العربية الجنوبية شمالاً وشواطىء القرن الافريقي جنوباً وغرباً. وعند النقطة التي تقترب منها آسية من افريقية توجد ثغرة بحرية هي مضيق باب المندب، الذي يصل الخليج بالبحر الأحمر. أما في الجهة الشرقية فينفتح الخليج على المحيط الهندي عبر بحر العرب. ويبلغ طول الخليج نحواً من ثمانمئة من الكيلومترات. وفي الجزء العربي من الخليج، وكله أفريقي، يوجد لسان مائي، يبلغ طوله سبعين كيلومتراً تقريباً اسمه خليج تاجورة. وطرف هذا الخليج الصغير يتكون من مجمع مائي بحري، يكاد يكون بحيرة، اسمه قُبّة الخراب. وعلى خليج عدن، على الساحل الأفريقي منه، وهو الذي يعنينا الآن، تقع المدن التالية، بدءاً من الغرب: أوبوك وجيبوتي وزيلع وبلهار وبربرة وعلوا (أو ألولا).

وكل من هذه المدن ـ الموانىء كان لها، في وقت من الأوقات، مشاركة فعلية في التجارة التي كانت تقوم أصلاً بين القرن الأفريقي وموانىء شاطىء الجزيرة العربية. وكانت أدوار هذه الموانىء تختلف باختلاف العوامل والأحوال التي تسيطر على المنطقة.

فالأصل في قيام تجارة، من أي نوع كانت، يتوقف على أمور هامة، هي، في جماعها، التي تعيِّن دور الميناء وطرق نقل المتاجر. من هذه الأمور أن يكون للميناء خلفية أرضية واسعة بحيث يمكنها ان تزود الميناء أو الموانىء بسلع تصلح للتصدير، ومنها أن تكون هذه الخلفية بالذات تحتاج إلى مواد لا توجد فيها، أو لا توجد فيها بالقدر الكافي للسكان، ومنها ان يكون الميناء صالحاً للسفن ترسو فيه. والقصد هنا الميناء الطبيعي قبل ان يقوم الإنسان ببناء الموانىء وإنشاء الجدران التي تحميها وإقامة الأرصفة بالنسبة إلى السفن الحديثة، ومنها ان تكون الطرق الموصلة من أماكن تجميع المواد الصالحة للتصدير من الخلفية الأرضية سهلة ـ نسبياً ـ وأن تكون آمنة للتجار، ومنها أن يكون الميناء نفسه يشرف عليه حاكم أو أمير يستطيع أن يحمي التجار. وآخر هذه الأمور أن لا يصيب الحاكم أو الأمير الجشع، فيفرض على التجار رسوماً وضرائب باهظة تنفرهم، وعندها ينتقلون إلى ميناء آخر.

ونحن لا نملك معلومات أكيدة عن التجارة القديمة بالنسبة إلى موانىء القرن الافريقي الشمالية، إلاَّ ما ورد في «دليل البحر الأريتري» الذي وضعه مؤلف مجهول في النصف الثاني من القرن الأول للميلاد. ويذكر صاحب الدليل ميناءين في المنطقة التي تعنينا وهما: افاليتِس والمرجّح أنّها زيلع، ومالاو (بربرة) التي كانت تصدّر المر والقرفة والرقيق والعاج. ولا نجد إشارة إلى غيرهما عنده، كما أننا لا نعثر على إشارة تستحق الذكر عنهما أو عن غيرهما عند أولئك الذين نستقي منهم معلوماتنا عن التجارة والموانىء والطرق التجارية. ولعل السبب يعود إلى موانىء البحر الأحمر الأفريقية، مثل عصب ومصوع، وموانىء شرق افريقية مثل أوبون (رأس هافون) وراتبا (ولعلها كلوة) وغيرهما، اقتنصت التجارة البحرية، ومن ثم لفتت الانتباه إليها عند الكتّاب.

ولذلك فاننا مضطرون إلى الانتقال إلى العصور الحديثة للتحدث عن هذه الموانىء. وجيبوتي بالذات، وهي موضوع حديثنا، من احدث الموانىء الأفريقية من حيث أهميتها التجارية.

قبل جيبوتي

كانت زيلع، في القسم الأول من القرن التاسع عشر تقوم فيها سوق يومية تدور فيها المعاملات التجارية. وكان التبادل التجاري بين التجار المحليين أساسه المقايضة؛ أما التجارة الخارجية فكانت تتم المعاملات بها على أساس دفع الثمن بالنقد. فالقماش الآتي من الخارج، مثلاً، كان يدفع ثمنه نقداً، ثم يتقايض به التاجر المحلي بالحبوب أو غيرها من المواد اللازمة له. وكانت الصادرات الأساسية من زيلع، التي كان أكثرها يأتي من هرر في إثيوبيا، تشمل البن والصمغ والجلود والذرة والعاج والزباد (civet) والأبقار والخراف والعسل وقرون الأيل والرقيق. أما زيلع فكانت تستورد الأقمشة والأرز (من الهند)، وهذا كان يستهلك محليًا. وكانت قوافل زيلع تتجه شمالاً، وغرباً، وغرباً في جنوب، لتنقل المواد التي تجمعها في الميناء تمهيداً لتصديرها. أما بالنسبة للتصدير فقد كانت لزيلع سفن تصل إلى أماكن كثيرة شرقاً. فقد شاهد برتُن (حول سنة ١٨٩٠) نحو عشرين سفينة وطنية، كبيرة وصغيرة، كانت عشر سفن منها تخص الحاكم. وهذه السفن كانت تنقل السلع إلى بربرة وبلاد العرب وغرب الهند. وقد أضافت السفن الزيلعية إلى ما كانت تستورده قبلاً التمور والأكياس والحبال والبسط والخيام والحصر. وحري بالذكر أنه بعد أن احتل المصريون عدن ثم جاء الإنكليز بعدهم (١٨٣٩) أصبحت تجارة زيلع مرتبطة بالتجارة العدنية. فكانت السنابك (مفردها سُنْبُك)، التي بلغ عددها خمسين (حول سنة ١٨٨٨)، وحمولة الواحد منها حول ٥٠ طناً، تنقل البضائع بين زيلع وعدن. أما القوافل الزيلعية إلى الداخل فقد كان عددها يقرب من المئتين في السنة.

وكانت بربرة ميناء قديمة العهد، وكانت تجارتها مع الداخل كبيرة، أما مع الخارج فقد كانت تتاجر مع جدة ومُخا وعدن وغيرها من الموانىء العربية والهندية.

وكانت تجارة بربرة موسمية. فالمكان كان بلقعاً تعمره الوحوش بين شهري نيسان (أبريل) وتشرين الأول (أكتوبر). وحتى صيد السمك لم يكن مألوفاً في بربرة في هذه المدة. فإذا جاء فصل الشتاء قامت هناك بلدة كبيرة من اكواخ مؤقتة، حيث كانت المنتوجات الأوروبية والآسيوية والأفريقية تنتقل من يد تاجر إلى يد تاجر آخر. ففي هذا السوق السنوي كان المرء يجد البن والمرّ واللّبان والصبرة (الألوة) والزباد والعاج والصمغ وحب الهال والزبدة والشمع والجلود (بما في ذلك جلود الأسد والفهد) والأبقار والخراف والرقيق. وهذه جميعها سلع افريقية. وكانت تقوم إلى جانبها السلع المستوردة من الأقمشة والنحاس والفضة والكحل. وكان هذا الميناء، في أثناء السوق، يعجّ بما لا يقل عن عشرين ألف من الناس. وقد تبدل هذا في الثمانينات من القرن التاسع عشر إذ كان يقيم في المكان نحو ألفي صومالي إقامة دائمة، ومعهم فئة من التجار العرب والهنود.

وقد أصاب بربرة ما أصاب زيلع في أواخر النصف الثاني من القرن التاسع عشر إذ ارتبطت تجارتها ارتباطاً وثيقاً بعدن.

وكان لبلهار سوق سنوية شتوية أيضاً بدئاً من اواسط الثمانينات. وكان يؤم هذه السوق نحو ١٥,٠٠٠ نسمة وتنقل البضائع من الداخل إليها وبالعكس إبل كثيرة جداً، قدّرها أحد الرحالين بنحو ٩٥,٠٠٠ جمل.

وكانت ثمة موانىء أخرى صغيرة إلى الشرق من بربرة، منها من الغرب إلى الشرق كَرين ولاس خوريا وبراجه وبندر زيادة وبندر قوسم وبندر خور وراس ألولا (علولا). وكانت السلع التي تتجمع في هذه الموانىء تنقل إلى بربرة في سنابك للعرب أو للهنود.

الأوروبيون في خليج عدن

كانت لفرنسة آمال في أن تسيطر على طرق الشرق التجارية لما جاء نابليون مصر (١٧٩٨). لكن الأحلام جميعها تبخرت لما اضطر الفرنسيون إلى الانسحاب من مصر نهائياً، ولعلَّ الأمر طوي بعض الوقت، ولو ظاهريًا. لكن لما احتلت بريطانية عدن (١٨٣٩) عادت الشهوة الفرنسية للاستيلاء على نقاط أو محطات في المنطقة. (وفي هذا الوقت كانت لفرنسة محاولات في الخليج العربي أيضاً) وكان ان عملت على وضع اقدامها في الساحل الأفريقي المشرف على عدن، فقررت أن تتخذ من أوبوك، الواقعة على المدخل الشمالي لخليج تاجورة، مركزاً لنشاطها. فاتفقت مع الشيخ ديني أحمد أبو بكر على أن يتنازل لها عن ميناء أوبوك وجوارها لقاء مبلغ عشرة آلاف ريال (١١ آذار/مارس، ١٨٦٢).

لم ترتح بريطانية لهذا العمل، فأخذت هي الأخرى تتطلع إلى الساحل الأفريقي، إلى الصومال. هذا مع العلم أن فرنسة لم تحتل أو تستغل المنطقة التي ابتاعتها بشكل من الأشكال. لكن لما احتلت بريطانية مصر (١٨٨٢) تحركت فرنسة وأخذت تعمل جديًا بالمنطقة. (وكانت سواكن ومصوع وبلهار وبربرة وزيلع وتاجورة تابعة لمصر حتى سنة ١٨٨٤، حين جلت القوات المصرية عنها). وحصلت فرنسة على المنطقة الممتدة من تاجورة إلى قبة الخراب، (حتى قبل أن تنسحب القوات المصرية منها) بموجب معاهدة عقدتها مع سلطان تاجورة. فلما انسحبت القوات المصرية احتلت فرنسة المنطقة، وبذلك أصبحت تسيطر على الساحل الشمالي لخليج تاجورة. لكن أوبوك لا تشرف على خليج عدن على النحو الذي أرادته فرنسة، لذلك احتلت جيبوتي (١٨٨٧) وأقامت قاعدة لها هناك. فجيبوتي أنفع لها من أوبوك. ووضع البريطانيون والفرنسيون حداً للمنافسة والخلاف بأن تركت بريطانية جيبوتي لفرنسة مقابل قبول هذه بإعلان بريطانية الحماية على الصومول (البريطاني)، الذي كان ساحله يمتد من زيلع إلى نهاية القرن الأفريقي، ويمتد جنوباً بعض الشيء. في سنة ١٨٩٢ اتخذت فرنسة من جيبوتي عاصمة لما عرف فيما بعد بالصومال الفرنسي (جمهورية جيبوتي حالياً).

إن الموانىء التي تحدثنا عنها من قبل تقع جميعها فيما عرف بالصومال البريطاني (وهو الآن جزء من الجمهورية الصومالية). أما في المنطقة التي أصبحت منذ سنة ١٨٨٤ تابعة لفرنسة فإن ميناء تاجورة كانت مركز الحركة التجارية هناك. وهذه كانت تتاجر اصلاً مع المنطقة الواقعة إلى الشمال الغربي من هرر. وكانت تجارتها بسيطة أصلاً، ولكنها، مثل بقية الموانىء التي ذكرت، كانت تصدِّر الرقيق والأخشاب والقمح والذرة. لكن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أخذت تجارتها بالإزدياد نوعاً وكماً. فقد دخل البن في صادراتها، وزادت كمية الأقمشة والأدوات المنزلية المصنوعة المستوردة. لكن المهم أن تاجورة أصبحت تستورد كميات من الأسلحة والذخيرة وترسلها إلى الداخل. وقد قيل عنها (سنة ١٨٨٣) إنه من المعروف أن السبيل الفعَّال للحصول على قافلة محملة بالعاج وغيره من منتوجات الحبشة هو ان يُدْفَع ثمنها أسلحة وذخيرة.

جيبوتي في الميدان

لم يكن المرء يرى، حيث تقوم مدينة جيبوتي اليوم، سوى رمال، وذلك عند منقلب القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين. وكان بعض الغواصين على اللؤلؤ والصيادين يؤمّون المكان سعياً وراء الرزق. وكان تجار الرقيق يلجأون إلى المكان ـ إلى الشاطىء الرملي ـ لأنهم كانوا يستطيعون القيام بأعمالهم التجارية في اطمئنان، إذ لم يكن ثمة من يلاحقهم، أو حتى يضايقهم. كانت تظهر، بين الفينة والفينة، سفينة حراسة

بريطانية محاولة وقف الاتجار بالرقيق مع الجزيرة العربية، إلاّ أنها لم تكن في الواقع مما يصعب الانفلات منها. بل كانت، كما يقول أحد أصحاب سفن التهريب، تضيف إلى عملية نقل الرقيق شيئاً من اللّذة والمغامرة.

وحتى في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى، والتي تلتها مباشرة، كانت تجارة الرقيق رائجة ورابحة. وقد نقل الرحالة جون بوخهولتسر رواية عن حامد، صاحب السنبك الذي نقله من جيبوتي إلى زيلع سنة ١٩٥٨ القصة التالية: «لما كنت شاباً لم أكن أحمل في سنبكي لا نساء ولا رجالاً يقولون إنهم أولياء الله». قال هذا وهو يشير إلى الركاب الذين كانوا يفترشون خشب سنبكه ويلتحفون السماء. «يومها كنت أنقل الرقيق والسلاح والذخيرة. لقد كان هذا عملاً يليق بالرجل. وكانت هذه التجارة رابحة من حيث أنها كانت تدرّ المال إلا انها كانت، في الوقت ذاته، تزيد في عدد الخصوم. إلا أن كثرة الخصوم كانت تحمل المرء على أن يكون يقظاً، وهذه اليقظة والانتباه كانا يزيدان في المال الذي يحصل المرء عليه. ثمة عدد كبير من الناس يُوَلدون والخوف يملأ أحشاءهم إلا أنني لم أكن واحداً من هؤلاء. لقد بدأت العمل في البحر منذ أن أصبحت قادراً على المشي. كنت أولاً أعمل مع والدي في سنبكه، ثم أصبحت أملك سنبكي الخاص، ولذلك فإنني أعرف كل مكان صالح للاختباء أو التستر. ولم يكن بمقدور أحد أن يلحقني ليقبض عليَّ وفي سنبكي وسقة كبيرة من الرقيق. ولم أتعرض لذلك إلا مرة واحدة. ولكنني نجوت. كنت قد أطلقت لسنبكي العنان وفيه شحنة كبيرة من الرقيق، لما وقع نظر الإنكليز علينا. لقد أعانهم على ذلك ناظورهم القوي (الدربين)، فاتجهوا نحونا بسرعة كبيرة. فعدت إلى الشاطىء حالاً، وألقيت المرساة في مياه ضحلة صخرية الطابع لا تستطيع سفينتهم الوصول إليها. لكن الإنكليز أرسلوا قاربين صغيرين نحونا. لقد كان المألوف، على ما قيل لنا، أن يكافأ أولئك الذين يلقون القبض على سفينة أو سنبك يحمل الرقيق، أن يكافأوا على ذلك مالياً. فلما رأونا نهرب منهم لحقونا بكثير من السرعة والنشاط. إلا انني، قبل أن يصل القاربان الينا، كنت قد أنزلت الرقيق إلى البر، واتجهوا إلى أماكن مختلفة للاختفاء. إن الرقيق كانوا من الرجال البيض، لذلك كان من اليسير عليهم أن يقبلوا التعليمات التي تعطى لهم. وأصبحت القضية الهامة بالنسبة لي هي سنبكي. وقد قاتلت ورجالي في سبيل إنقاذ المركب. وقد خسرت بعض رجالي في المعركة، لكننا أغرقنا أحد القاربين المهاجمين. ولم يتوقف الإنكليز حتى انتشر الظلام، وعندها اختفوا عن أعيننا. فجمعت الرقيق من جديد، وأبحرت بحيطة وحذر محاذياً الشاطىء، وتملّصت من سفينة الحراسة التي كانت لا تزال في البحر بانتظارنا».

وأضاف حامد: «لقد كنت احتفظ بأماكن لحفظ السلاح في هذه الجزر الصغيرة (وكانت فعلاً كثيرة). وكثيراً ما كنت أخبىء البنادق والذخيرة في صناديق أطمرها في

الرمال. وقد كان أعواني من العبيد الأقوياء المخلصين لي. إن الساحل هذا تملأه جماجم وعظام تعود إلى تلك الأيام. إننا لم نكن نتكلم كثيراً في تلك الأيام ـ لقد كنا نطلق النار! إن الحياة هذه الأيام لا تستحق أن يعيشها المرء. لكنني بلغت من الكبر عتيا، وليس أمامي أيام كثيرة».

قصة حامد واحدة من عشرات القصص كان بحارة أوائل القرن يروونها عن أعمالهم في الشاطىء الرملي البلقع، حيث تبلغ الحرارة عادة (في المكان الذي تقوم فيه جيبوتي الآن) ٣٨ درجة مئوية في الصيف. لكن إذا أصابت المنطقة موجة حر لافحة وصلت الحرارة إلى ٤٩ درجة مئوية ـ هذا في الظل. وهذه الحرارة لم تتغير. فجيبوتي لا تزال الحرارة فيها مثل ذلك. يضاف إلى هذا أنه لا تكاد الشمس تشرق حتى تنبعث الرطوبة القوية في الجو.

لنذكّر أنفسنا بأن فرنسة استقرت في جيبوتي (منتقلة من أوبوك) سنة ١٨٨٧ وأن الخصومة بينها وبين بريطانية انتهت إلى اتفاق على اقتسام المنطقة سنة ١٨٨٨، وأن الحكومة الفرنسية أعلنت جيبوتي عاصمة للجزء الذي استولت عليه.

تجارة جيبوتي

وهنا بدأت التجارة تنشط في جيبوتي؛ ففي العقد الأخير من القرن التاسع عشر بزَّت جيبوتي منافساتها. وكان العامل الأساسي في هذا التطور هو أن فرنسة كانت على استعداد لتزويد إثيوبيا بحاجتها من السلاح الناري الذي كان سلعة مرغوباً فيها في البلاد. ثم جاءت سكة حديد جيبوتي ـ أديس أبابا.

وظهرت البيوت حول الميناء. وقامت فيها سوق كبيرة، وكأن ذلك قد تم بفعل السحر. واتبعت القاعدة التي كانت تراعى في الأسواق الأخرى ـ كان يتوجب على الصوماليين عند دخولهم السوق أن يتركوا أسلحتهم في الخارج.

وعندنا حفنة من الأرقام التي توضح لنا ما أصابه ميناء جيبوتي من التقدم في التجارة تعود إلى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر. فقد أظهرت سجلات عدن أن جيبوتي صدَّرت إلى عدن ما قيمته نحو ٢٠,٠٠٠ جنيه إسترليني (١٨٩١). وكانت الصادرات تشمل، في أكثرها، العاج والذهب والبن والزُّباد. واستوردت من عدن ما يعادل ١٣,٠٠٠ جنيه إسترليني. وكان جل البضائع المستوردة هذه (من عدن) السلاح والمشروبات الروحية والعطور والأقمشة القطنية (من صنع لانكشاير في إنكلترا). وقد ذكر دوسالما أنه شاهد (١٨٩٢) قوافل مؤلَّفة من مئات من الإبل تصل ميناء جيبوتي. ونستخلص من تقرير للقنصل البريطاني (١٨٩٩) أن تجارة أواسط إثيوبيا وشرقها كانت تنصب نحو جيبوتي، وأن صادرات الحبشة كان يستخدم ثمنها لدفع أثمان الأسلحة النارية. وعندنا أرقام لقيمة المتاجر الإثيوبية التي كانت تنقل عن طريق جيبوتي لسنوات ١٨٩٩ و١٩٠٠ و١٩٠١، إذ كانت في الأولى تقدر بـ ٢٥٥,٠٠٠

دولار ماريا تريزا، وفي الثانية كانت قيمتها ٥٧٢,٠٠٠ دولار ماريا تريزا، أما في الثالثة فقد وصلت أثمانها إلى ١,٥٢٢,٠٠٠ دولار. (وبهذه المناسبة فإن دولار ماريا تريزا هو نقد فضي ينسب إلى الامبراطورة ماريا تريزا التي عاشت بين ١٧١٧ و١٧٨٠. وقد سك هذا الدولار في آخر سنة من حكمها، وكان العملة المستعملة في التجارة البحرية خاصة في موانىء البحر الأحمر الجنوبية، العربية والأفريقية، وفي القرن الأفريقي وموانىء بحر العرب وخليج عُمان لمدة طويلة. ولعل آخر دولة عربية استعملته كانت المملكة اليمنية. وكانت قيمته تساوي جزءاً من ثمانية أجزاء من الجنيه الإسترليني على وجه التقريب).

في سنة ١٨٩٧ بدأت الحكومة الفرنسية بإنشاء سكة حديد جيبوتي ـ أديس أبابا على أنه مشروع فرنسي ـ إثيوبي. وقد بدىء باستخدام القطار في ٢٢ تموز/ يوليو سنة ١٩٠١، إذ وصلت السكة إلى دَوَلِه، وهي أول محطة في إثيوبيا، وتبعد ١٠٦ كيلومترات عن الميناء (جيبوتي). وفي ٢٤ كانوا الأول/ديسمبر سنة ١٩٠٢ وصلت السكة إلى ديري داوا، القريبة من هرر. وبذلك اصبح من الممكن نقل جزء كبير من متاجر هرر وجوارها بطريق السكة الحديدية. ولم تصل السكة الحديدية أديس أبابا إلا في سنة ١٩١٧. فليس من الغريب أن نلاحظ تقدماً كبيراً في تجارة جيبوتي بعد سنة ١٩٠٢. فقد كانت قيمة الواردات والصادرات معاً ٣,٥ مليون دولار (ماريا تيريزا) وأصبحت ٤,٧ ملیوناً سنة ١٩٠٢ و٧,٧ من الملايين سنة ١٩٠٦.

ويمكن إلقاء بعض الضوء على تجارة جيبوتي، وخاصة فيما يتعلق باتصالها بإثيوبيا، إذا نحن أخذنا بعض الأرقام التي تعود إلى سنة ١٩٣٥ (يذكر القراء أن إيطالية هاجمت إثيوبيا في خريف ١٩٣٥ واحتلتها، وظلت البلاد مستعمرة إيطالية حتى عاد إليها استقلالها بعد الحرب العالمية الثانية). فقد صدّرت جيبوتي في سنة ١٩٣٥ من البن الذي حمل بسكة الحديد ١٦,٠٠٠ طن، ومن الجلود ٨,٠٠٠ طن، ومن العاج ٥ أطنان، ومن الحبوب ٣,٠١٠ طن، وهذا على سبيل المثال. أما جماع ما حمل بهذه الواسطة وصدِّر من جيبوتي من السلع المختلفة فهو قرابة ٢٩,٠٠٠ طن.

وهذه السلع المصدرة تشمل الزبدة والبن والشمع والعاج والجلود والذرة والقمح والبطاطا والخضار والطحين وبزر زيت الخروع والمر.

أما ما كان يدخل في لائحة الواردات إلى ميناء جيبوتي، ففي مقدمتها الأقمشة والأسلحة والذخيرة والبترول والملح والسكر والمشروبات الروحية والتمور والمصنوعات المعدنية والمصنوعات الزجاجية والتبغ والبخور والأرز. وكان مجمل ما استورد عن طريق ميناء جيبوتي في سنة ١٩٣٥ هو ٣٢,٠٠٠ طن.

ونرى أن الأقمشة والأسلحة كسلعتين هامتين، تستحقان أكثر من الإشارة العابرة.

عندنا أرقام تتعلق بالأقمشة المستوردة عبر جيبوتي لفترة طويلة. ففي سنة ١٨٩٧ ـ ١٨٩٨، وذلك بعد استقرار الفرنسيين في المنطقة بنحو خمس عشرة سنة، استوردت جيبوتي من الأقمشة بما قيمته نحو سبعة ملايين دولار (ماريا تيريزا). وبقطع النظر عن تفصيل الأرقام التي تثقل على القارىء، فإننا نشير هنا إلى أنواع الأقمشة والأماكن التي استوردت منها: قماش قطني من الولايات المتحدة، وقماش قطني أبيض من صنع مانشستر لكنه استُورد عن طريق بمباي، وقماش قطني أبيض مقلم، وقماش قطني أحمر من جزر الهند الشرقية (إندونيسيا اليوم)، وقماش خاص للوزرات من انكلترا وسويسرا وخيوط قطنية للتطريز، وقماش قطني أزرق من الهند، وموصلين من المانيا، واقمشة صوفية من انكلترا والنمسا ومن المشرق العربي، وقماش صوف أسود من المانيا كان يستخدم لصنع «البرانس»، واقمشة حريرية وكانت تستورد للنبلاء ولرجال الدين المسيحيين في إثيوبيا، من فرنسا والمانيا وسويسرا.

وفي سنة ١٩٠٦ كانت الأقمشة تساوي ٥١٪ من مجموع الواردات. ومع الوقت ازداد الاستيراد. ففي سنة ١٩٣٤ بلغت قيمة الواردات من الأقمشة الواصلة إلى جيبوتي ما يزيد على سبعة ملايين دولار (ماريا تيريزا).

وكان استيراد الأسلحة عبر جيبوتي إلى إثيوبيا يكوّن جزءاً كبيراً من التجارة فيها، وخاصة أيام الإمبراطور منيليك الثاني (١٨٨٩ ـ ١٩١٣). ففي سنة ١٨٩٧ ـ ١٨٩٨ كانت قيمة الواردات من السلاح تقرب من ربع قيمة الواردات بأجمعها.

والسلاح كان يشمل البنادق وذخيرتها (من صنع غراس) والسيوف والمسدسات. وحري بالذكر أن منيليك هذا هو الذي انتصر على الطليان في معركة عدوا (١٨٩٦) ودحرهم، في محاولتهم الأولى لاستعمار إثيوبيا. (جاءت المحاولة الثانية الناجحة سنة ١٩٣٥، وكان نتيجة التعاون الألماني الإيطالي والصمت البريطاني الفرنسي).

ومع أننا لا نملك إحصاءات عن تجارة السلاح لفترة ما بعد ١٩١٢، فإن التجارة فيه استمرت، لكن السلطات الفرنسية لم تعد تنشر إحصاءات عنها.

وقد اتخذت تجارة جيبوتي، منذ البدء، صفة التجارة الدولية. فقد كان هناك حتى في سنة ١٩٠٧ شركات مختلفة الهوية أهمها: شركة أفريقية الشرقية، وكانت تعنى بتسويق الفحم الحجري ونقله (فرنسية)، الكونتوار الأوروبي بايجيو وشركاه استيراد وتصدير (فرنسية)، كونترا جيبوتي، للتجارة في السلاح والذخيرة والجلود (فرنسية)، ج. باباكونستانتي للمصنوعات الحديدية والتبغ والخبز (يونانية)، ب. ماتكوفتش للنقل والبقالة (يونانية)، ف ف. موسيكس للبقالة والتموين (يونانية)، ج. غالب تجارة الحرير والأقمشة (سورية)، هذا إلى شركات أخرى تتعامل في مختلف الشؤون التجارية والتموينية، وهي شركات فرنسية أو يونانية أو عربية من الجزيرة.

جيبوتي الحديثة

كتب جون بوخولتسر إثر زيارته لجيبوتي (١٩٥٨) انه حيث كان الشاطىء رملاً بلقعاً عند منقلب القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين، أصبحت «تقوم الآن مدينة مبنية من البيوت البيضاء. وجيبوتي تقدم للزائر الكثير مما تحمله المدنيّة الحديثة معها عندما يأتي أصحابها بها إلى مثل هذا المكان. وقد أدّى إنشاء سكّة الحديد إلى أديس أبابا إلى قيام المدينة؛ وجاءت التجارة المشروعة مع ذلك، لكن المال الكثير كان يأتي من تجارة الأسلحة. فالسلاح كان يصل جيبوتي (وينقل إلى الداخل) بحرية ما دام التجار يدفعون الرسوم الجمركية. وقد تمتّع المغامرون والتجار بوقت طيب يومها. وكان لكل منهم وكيله المحلي في الساحل الأفريقي الذي كان يتولى بيع ما لا ينقل إلى إثيوبيا. وكانت بنادق أوروبة القديمة هي التي تستوردها جيبوتي. وقد أصبحت المنافسة بين التجار والمغامرين شديدة وعنيفة. فهؤلاء كانوا ينسفون المتاجر والمخابىء حيث تجمع الأسلحة. واستمر الحال على ذلك حتى الحرب العالمية الأولى».

استقلت جيبوتي (عن فرنسة) سنة ١٩٧٧ وهي الآن، مثل دول كثيرة في العالم الثالث، تجاهد في سبيل استكمال ما قصرت فيه الدولة المستعمرة نحو البلاد.

ونحن إذا أخذنا العاصمة اليوم وجدنا في مينائها نحو ١٩٥٠ متراً من الأرصفة، وتسعة أحواض لاستقبال السفن ومستودعات كبيرة مبردة وخزاناً للوقود وحوضاً لإصلاح السفن. وهي المحطة البحرية لخط حديد جيبوتي ـ أديس أبابا (طوله ٧٨٤ كلم). وهو شريان التجارة الإثيوبية، لأن جيبوتي هي الميناء الأقرب والأيسر. فهي الميناء الذي يقع على خليج تاجورة، ومعنى ذلك أنه مفتوح على المحيط الهندي رأساً.

وجيبوتي تأثرت بإقفال قناة السويس (١٩٦٧) إذ انخفضت تجارتها إلى ٢٥٪ مما كانت عليه قبلاً. وقد أعيد فتح قناة السويس، لكن استرجاع المكانة السابقة لا يتم بالسرعة المتوخاة.

وتبدو أهمية ميناء جيبوتي بالنسبة إلى حكومة الجمهورية في أن الميناء له وزارة خاصة هناك، وكانت موازنته تتراوح بين نحو ١٨٪ و٢٠٪ من موازنة الدولة.

يبلغ عدد سكان العاصمة نحو ستين إلى سبعين ألفاً (نصف عدد سكان البلاد بأجمعها تقريباً). والسبب في اختلاف التعداد هو أن التنقل من العاصمة وإليها مستمر. فالرجال يقصدون العاصمة للعمل، وخاصة في الأوقات التي لا تتطلب منهم الحياة، في قراهم أو مضاربهم، واجبات كثيرة. فإذا لم يحصلوا على عمل (وهو موقت في الغالب) أو فقدوه، عادوا إلى مساكنهم؛ ثم جربوا حظهم ثانية وثالثة.

ومن الطبيعي في بلاد مثل جيبوتي أن تتركز أكثر الأمور في العاصمة. فمن ستة

مستشفيات في البلاد يوجد اثنان في العاصمة؛ وفي البلاد ما يزيد على أربعين مدرسة، منها اثنتان وعشرون في العاصمة. وتستأثر العاصمة إلى الآن بالمدارس الثانوية المستكملة الشروط.

ومثل ذلك يقال عن النواحي الثقافية والنشاطات الاجتماعية. وجيبوتي يأوي إليها الكثيرون من الأوروبيين (فرنسيين وغيرهم) تجاراً وموظفين ومهندسين وخبراء وعمالاً ماهرين في الميناء وسكة الحديد والمؤسسات الأخرى.

بغداد

لم تكن بغداد مصراً مثل غيرها مما مصّر العرب في بدء عهدهم بالفتوح والاستقرار. ففيما أُنشئت الكوفة والبصرة كمركزين لتجميع الجنود اصلاً، والدفع بهم عند تمام ذلك إلى الشرق، وفيما بنيت القيروان لتكون مجمعاً ومعسكراً ونقطة اراحة ومركز تموين للجيوش التي كانت تقطع صحراء واسعة من مصر إلى مشارف تونس، وحتى الفسطاط، كانت مصراً للإدارة المحلية مدنياً، والاشراف على المغرب العربي حربياً ـ فيما بنيت هذه كلها لأغراض بدأت آنية حربية إدارية، جاء بناء بغداد بعد تفكير وتخطيط وتدبير. بنيت لتكون «رمزاً» لدولة جديدة، وأنشئت لتقول بناني بنو العباس، ونمت حالاً لتدلل على الأمرين معاً ـ فكانت، بعد بنائها بأقل من قرن، «صرة الدنيا»، كما قال عنها اليعقوبي، ومجتمع طرق التجارة وغرة أسواق المشرق وملتقى أهل العلم والطب والفلسفة والشعر. وصار لها بلاط لم يضاهه بلاط يعاصره، وإن كان بلاط قرطبة قاربه. اما القسطنطينية فكان بلاطها ينافس بلاط بغداد ثراءه وتنوع اهتماماته وإمكاناته وإنجازاته.

روي انه في سنة ١٤ (٦٣٥) كان المثنى بن حارثة على حرب العراق، إذ احتل العرب الحيرة وأخذوا يغيرون على السواد. فقال أهل الحيرة للمثنى إن بالقرب منهم قرية تقوم فيها سوق عظيمة مرة في كل شهر فيأتيها تجار فارس والأهواز وسائر البلاد يقال لها بغداد. «فأخذ المثنى على البر حتى أتى الأنبار فتحصن أهلها، فاستدعى المثنى مرزبانها وامنه فجاء، فأخبره انه ينوي الاغارة على سوق بغداد وطلب إليه ان يبعث معه أدلاء وان يعقد له الجسر ليعبر الفرات عليه. فعقد المرزبان الجسر فعبر المثنى مع أصحابه وبعث معه الأدلاء. فسار حتى وافى السوق ضحوة، فهرب الناس وتركوا أموالهم فأخذ العرب من الذهب والفضة وسائر الأمتعة ما قدروا على حمله، ثم رجعوا إلى الأنبار».

واختفى اسم بغداد وسوقها من التاريخ حتى سنة ١٤٥ (٧٦٢)، لما رغب أبو جعفر في اتخاذ عاصمة جديدة له. «ذلك ان أهل الكوفة كانوا يفسدون جنده، وكان الراوندية قد ثاروا به، فأرسل المنصور رواداً ليفتشوا له عن موضع يبني فيه مدينة على أن يكون الموقع واسطاً رافقاً بالعامة والجند. وخرج المنصور بعدهم بنفسه فجرَّب أماكن مختلفة ثم تخير موقع بغداد. فقد روى أهل السير أنه أتى موضع بغداد

وعبر موضع قصر السلام ثم صلى العصر، وذلك في صيف وحر شديد. وبات أغيب مبيت وأقام يومه فلم ير إلا خيراً، فقال: هذا موضع صالح للبناء: فإن الميرة تجيئه من أرمينية وأذربيجان والموصل والشام والسند والصين والبصرة، والمادة تأتيه من الفرات ودجلة ولا يحمل الجند والرعية إلا مثله. فخط البناء وقد المدينة ووضع أول لبنة بيده».

ولما استقر رأي المنصور على أن يبني مدينته حيث هي وجه في حشر الصنّاع والفعلة من الشام والموصل والجبل والكوفة وواسط فأحضروا، وأمر باختيار قوم من أهل الفضل والعدالة والفقه والامانة والمعرفة بالهندسة، فجمعهم وتقدم إليهم ان يشرفوا على البناء. ثم دعا المهندسين وأمرهم بخط الرماد، ثم وضع أساس المدينة مدوراً وجعل قصره في وسطها وجعل لها أربعة ابواب وأحكم سورها وفصيلها، فكان القاصد اليها من الشرق يدخل من باب خراسان والقاصد من الحجاز يدخل من باب الكوفة والقاصد من المغرب يدخل من باب الشام والقاصد من فارس والأهواز وواسط البصرة واليمامة والبحرين يدخل من باب البصرة.

وروى ياقوت نقلاً عن الخطيب ان المنصور «بنى مدينته مدورة وجعل داره وجامعها في وسطها، وبنى القبة الخضراء فوق ايوان، وكان علوّها ثمانين ذراعاً».

وليست الرواية التي نقلنا بالكلمات التي تتناولها، ولكن اهميتها بما توحي به فيما يتعلق ببناء بغداد. وأول ما يجب ان نذكره هو أن ابا جعفر المنصور (٧٥٤ ـ ٧٨٥) هو صاحب فكرة المدينة الجديدة، والعاصمة الجديدة، الرمز الجديد، لهذه الدولة ـ الأسرة ـ الخلافة التي قامت سنة ٧٥٠، والتي تنقلت بين الكوفة وواسط وغيرهما إلى ان اقرها المنصور في بغداد. واحسب اننا نتفق مع صالح احمد العلي في مقولته التي تتلخص في ان كل ما صنع لإنشاء بغداد كان من فكر المنصور، وان جميع الذين كانوا حوله والقائمين على البناء والصناع وغيرهم كانوا ينفذون اوامره ومخططه.

والأمر الثاني الذي يجب ان لا يغرب عن البال هو ان المدينة كانت مدورة وسورها وفصيلها محكمين. والسور كان مزدوجاً، وبين السورين كان يقوم خندق عريض عميق. ومع ان الرواية تقول بأن المنصور جعلها مدورة حتى يكون بعيداً عن السكان بعداً متساوياً، إلا أنه من المهم ان نذكر انفسنا بأن الدفاع عن الوحدة المستديرة أسهل من الدفاع عن المكان المربع أو المستطيل رقعة.

ولم يغفل المنصور أمر الميرة والمؤن في اختيار الموقع. بل تقول الرواية انه استطلع المنجمين. والمدينة هذه لم تكن كبيرة. فقد كان قطرها نحو ستمئة متر فقط. وحتى لو اعتبرنا هذا الرقم تضييقاً، فأن الفسحة فيه لا يجوز أن تتسع كثيراً.

أما الأبنية الهامة فيها فهي الجامع والقصر، وكانا في وسط المدينة.

وقد تخير المنصور سكان مدينته، فهو، على ما كان يكنّ من المحبة والاحترام

للعباسيين كأسرة، فإنه لم يسكنهم بغداد. العاصمة كانت لمن يحمي السلطان والسلطة والأسرة، ولمن يؤمن بالولاء لصاحب الأمر. ومن هنا كان الجند الخاص داخل المدينة، ورجال الإدارة والمقربون من صاحب القصر يشاركونهم هذا المجد والامتياز. وكان في المدينة المدورة حوانيت لسد حاجات الناس، لكن ازدحام المدينة حمل الخليفة المنصور على اخراجهم إلى الكرخ في أواخر عهده.

بعد قرن واحد من وفاة الرسول كانت جيوش العرب قد اجتاحت المنطقة الممتدة من حوض السند شرقاً إلى اسبانية غرباً وبسطت نفوذها عليها. وليس المهم ان العرب، في هذا القرن والقرون الثلاثة التي تلته، قد تم لهم اقامة دولة (أول دول) وتمصير الأمصار وبناء القلاع والحصون وتأمين الطرق والمواصلات، ولكن الأهم من ذلك هو أنهم انشأوا حضارة شامخة البناء، وشيدوا صرحاً للمدنية ضخماً.

فقد اتيح للعرب، إذ ملكوا هذه الرقعة الواسعة، أن يحتكوا بشعوب وأقوام متباينة الثقافة مختلفة العناصر. فقد احتكوا بالفرس والسريان والكلدان والنبط واليونان والقبط والبربر والإسبان واليهود. وهذه الشعوب كانت حياتها تختلف بين خفض العيش ودعته من جهة وشظفه وخشونته من جهة أخرى. وكانت تتباين من حيث استقرار بعضها في مدن ودساكر وأراض زراعية، فيما كان البعض الآخر يعيش حياة فيها الكثير من البداوة والتنقل. وكانت تشمل جماعات تقبل ديناً وحدانياً فيما كانت جماعات اخرى على الوثنية.

وعلى ان العرب لم يقتصر احتكاكهم على الشعوب التي ملكوا ارضها وبلادها، بل انهم اتصلوا بشعوب أخرى عن طريق الجوار والتجارة والرحلة فكانت لهم علاقات بأهل الهند والصين، وكانت لهم صلات بالروس والترك، وكانت لهم ارتباطات بسكان الجزء الأوروبي من حوض البحر المتوسط، وقد تصل أسبابهم حتى بغير هؤلاء من سكان أوروبة.

والاحتكاك والاتصال يسّرا للعرب أن يتعرفوا الى ما عند تلك ال أقوام من عادات وآراء وآداب وأديان. ومع أن الجماعات العربية الأولى ظلت، الى مدة قصيرة، تعتزل تلك الشعوب، فإن مثل هذا لم يطل أمده، فليس من طبيعة الأمور أن يظل العرب في عزلة. ومن ثم فقد كان ثمة اختلاط وتمازج في جميع نواحي الحياة ومجالاتها - في الجوامع مع المسلمين وفي السوق والطريق والزواج مع الجميع: مسلمين وغير مسلمين.

وتعرّف العرب، عن طريق هؤلاء الناس، فرادى وجمعاً، لا الى ما كان عندهم من آثار الأدب والعلم والدين والفكر والفلسفة فحسب، بل الى ما كان عند القدامى من آثار أدبية وعلمية وفكرية وفلسفية ودينية، في مدارس الاسكندرية وأنطاكية وحران ونيسابور وغيرها. تعرفوا الى ذلك عن طريق الترجمة والنقل الى العربية. فنقلوا عن

اللغات الهندية والفارسية والسريانية واليونانية واللاتينية والبربرية والاسبانية. وكانت هذه الترجمة تختلف قوة وضعفاً، وتتباين أثراً بحسب ما كان عند الأقوام المنقول عنها بالواسطة أو مباشرة. إذ ان حضارات الشعوب نفسها وما اختزنته في حياتها من مآثر الفكر والمدنية، كانت على مستويات مختلفة.

إذا نظرنا الى نواحي الاحتكاك والاتصال والاختلاط والتمازج والتعايش والتباعد والتنابذ، فإننا قلما نجد لهذا الذي تم في الدولة العربية الإسلامية مثيلاً في التاريخ: من حيث سعة الرقعة وتعدد الشعوب واختلاف الوسائل وتنوع الأساليب والمناحي. فقد كان التمازج اجتماعياً بين مجتمع العرب قبل الاسلام وبين المجتمعات التي كانت في الامبراطورية والتي نشأت بعد ذلك فأخذ العرب وأعطوا. وكان التمازج روحياً: فاتصل الاسلام بالأديان المختلفة التوحيدي منها والوثني، وترتب على ذلك تأثير وتأثر روحي وعقلاني. وكان التمازج فكرياً: فأقبل العرب على ينابيع المعرفة المعاصرة لهم والقديمة فعبّوا منها شعبهم ثم خرجوا بعد ذلك بالآثار الفكرية القيمة ـ في التفسير والحديث والتشريع والفقه والجغرافية والتاريخ والأدب والفلسفة والطب والكيمياء والرياضيات والطبيعة والفلك والتنجيم، هذا الى الآثار الفنية الغنية.

هذا الذي قصدناه بقولنا ان التمازج الاجتماعي الروحي الفكري لم يكن له في التاريخ مثيل.

هذه هي الرقعة، باستثناء الاندلس وبعض المغرب، التي كانت بغداد عاصمتها. وقد اختزلت بغداد، العاصمة، كل هذا الذي ذكرناه من تنوع الشعوب وتباين السحن وتاثر السكان وازدحامهم وتشعب الحاجيات والأغراض، وعناية بالعلم والدين والفكر والحياة على ما فيها من تنوع. وما كانت المدينة المدورة لتتسع لكل من حدثته نفسه بأن يقبل على بغداد سعياً وراء رزق، أو ابتغاء رعاية خليفة أو وزير، أو طلباً للعلم، أو رغبة في الاقامة في المدينة التي كانت تخطف الأبصار وتبهر الأنظار.

فكان لا بد من التوسع. ولكن المدينة المدورة ظلت، ولو لبعض الوقت، على ما أراد المنصور لها من دور تقوم به. وإذن فالتوسع الى الجهة الشرقية من دجلة أصلاً، وإن كان ثمة توسع في الجهة الغربية أيضاً. وهذا التوسع، في الكثير من الحالات، عاصر بناء المدينة نفسها (٧٦٢ ـ ٧٦٦) أو عقبة بفترة وجيزة. ففي الجهة الغربية ظهرت نواة الضواحي، التي اتسعت وتضخمت مع الزمن، وهي الشماسية (٧٦٥؟) وقد كانت أصلاً ميداناً لتدريب الجنود، والرصافة والمخرّم (٧٦٩) وباب الطاق (٧٧٥) وتلا ذلك منطقة دار الخلافة في القرن التالي. أما في الجهة الغربية، أي في منطقة المدينة المدورة، وعلى بعد معقول من العاصمة، قامت الحربية (٧٦٢) والكرخ (٧٧٤). على إن هذه جميعها كانت بداءة، اذ ان عدد سكان بغداد قدّر، في القرن التاسع أو العاشر للميلاد بنحو مليون أو يزيد قليلاً.

ولسنا ننوي ان نتابع حديث بغداد بالتفصيل، ولو أن في النفس الى ذلك رغبة، لذلك سنكتفي بإيراد خبر واحد، متأخر نسبياً عن أيام المنصور، يعود إلى أيام الخليفة المقتدر بالله (٩٠٨ ـ ١٩٣٢). فقد روى الخطيب البغدادي كيف استُقْبل رسول صاحب الروم إذ زار بغداد. قال الخطيب البغدادي:

«ولقد ورد رسول لصاحب الروم في أيام المقتدر بالله، ففرشت الدار بالفروش الجميلة، وزينت بالآلات الجميلة، ورتب الحجاب وخلفاؤهم والحواشي على طبقاتهم، على أبوابها ودهاليزها وممراتها ومخترقاتها وصحونها ومجالسها: ووقف الجند صفين بالثياب الحسنة، وتحتهم الدواب بمراكب الذهب والفضة، وبين أيديهم الجنائب على مثل هذه الصورة. وقد أظهروا العدد المكسيّة والأسلحة المختلفة، فكانوا من أعلى باب الشماسية وإلى قريب من دار الخلافة، وبعدهم الغلمان الحُجُرية والخدم الخواص الدارية والبرّانية الى حضرة الخليفة، بالبزة الرايعة والسيوف والمناطق المحلاة. وأسواق الجانب الشرقي وشوارعه وسطوحه ومسالكه مملوءة بالعامة النظارة. وقد اكْتُري كل دكان وغرفة مشرفة بدراهم كثيرة، وفي دجلة الشداءات والطيارات والزبازب والدلالات والسميريات بأفضل زينة وأحسن ترتيب وتعبية، وسار الرسول ومن معه من المراكب الى ان وصلوا الى الدار، ودخل الرسول فمر به على دار نصر القشوري الحاجب. ورأى صفاً كثيراً ومنظراً عظيماً، فظن أنه الخليفة وتداخلته له هيبة وروعة، حتى قيل له إنه الحاجب. وحمل من بعد ذلك الى الدار التي كانت برسم الوزير، وفيها مجلس أبي الحسن علي بن محمد الفرات يومئذ، فرأى أكثر مما رآه لنصر الحاجب، ولم يشك في أنه الخليفة حتى قيل له هذا الوزير، وأجلس بين دجلة والبساتين في مجلس قد علقت ستوره واختيرت فروشه، ونصبت فيه الدسوت، وأحاط به الخدم بالأعمدة والسيوف. ثم استدعي ـ بعد ان طيف به في الدار ـ الى حضرة المقتدر بالله، وقد جلس وأولاده من جانبيه، فشاهد من الامر ما هاله. ثم انصرف الى دار قد أعدّت له».

أهمية هذا الخبر أنه يعطينا صورة لما كانت عليه بغداد بعد مرور قرن ونصف القرن على الفراغ من بنائها. ومع ذلك فهذه الصورة جزئية، إذ كانت القصور والمنازل الفخمة تقوم في جميع انحاء المدينة التي اتسعت كثيراً.

ويبدو ان البغداديين يومها، مثل البغداديين اليوم، كانوا يشعرون بأهمية المدينة العاصمة، على ما نلمح من قول أبي إسحاق الزجاج: «بغداد حاضرة الدنيا، وما عداها بادية».

وهذه أبيات لطيفة قالها محمد النيرماني تشوقاً لبغداد.

فدى لك يا بغداد كل مدينة ... من الأرض حتى خطّتي وديارِيا
فقد طفتُ في شرق البلاد وغربها، ... وسيّرت خيلي بينها وركابيا

فلم أر فيها مثل بغداد منزلاً ولم أر فيها مثل دجلة واديا
ولا مثل أهليها أرقّ شمائلا، وأعذب ألفاظا، وأحلى معانيا
وقائلة: لو كان ودك صادقا لبغداد لم ترحل، فقلت جوابيا:
يقيم الرجال الموسرون بأرضهم، وترمي النوى بالمقترين المراميا

ودُور بغداد غير الرسمية، أي البيوت التي يقطنها الناس عادة، كانت تبنى على شكل يكاد يكون واحداً. فبين البيت والشارع دهليز مسقوف، يفضي الى صحن واسع قائم الزوايا عرضه يبلغ ثلثي طوله، وتتصل به القاعة الكبرى وحولها غرف صغيرة. ويحيط بالصحن غرف مربعة متجاورات تستعمل للسكن والمرافق المنزلية المتنوعة. وتشمل الدور على الآبار، وقد يغلب عليها الحمامات. ونجد الدُورَ من طابق واحد، وفي الصغير من هذه الدور يسكن متوسطو الحال من أهل بغداد.

وكانت الأسواق في بغداد عامرة تملأ المتاجر حوانيتها، ويكثر فيها الباعة والمشترون. ولا غرابة في ذلك. فقد كانت عاصمة دولة الخلافة، بما فيها من أهل الادارة والقضاء وبما فيها من الجند. ومن ثم فإنك تجد في أسواقها بضائع الصين ـ خزفاً وحريراً ومسكاً، ومتاجر الشمال عسلاً وشمعاً وفروا ورقيقاً، وبضائع الهند ـ جواهر وطيباً وعطوراً وآفاويه ومعادن وأصباغاً، ومتاجر الشام ـ قماشاً وفواكه وزجاجاً وأدوات معدنية، وبضائع افريقية ـ عاجاً وتبراً وعبيداً، وغلات فارس عطوراً وبقلاً، ومنتوجات أرمينية ـ خشباً وحديداً مصنوعاً، وحاصلات مصر أرزاً وحنطة وكتاناً.

وقد ذكر صاحب «مصارع العشاق» ان الرجل وزوجته من عامة الناس كان يكفيهما ثلاثمئة درهم في السنة لمعيشتهم. وقد روى أنه في أيام المنصور كان الكبش يباع بدرهم واحد، والحمل بأربعة دوانق. وقد كان باستطاعة المرء أن يبتاع ستين رطلاً من التمر بدرهم، وبمثل هذا المبلغ الضئيل كان يشتري الرجل ستة عشر رطلاً من الزيت أو ثمانية أرطال من السمن. فالمعيشة كانت رخيصة، وكانت في الحياة وسعة، والمال وفيراً والعمل كثيراً.

وكان المارّ ببغداد يرى فيها من الخدم أربعة أنواع هم الصقالبة والسودانيون والروم والصينيون. وفيهم جميعاً الخصيان. ومنذ ان أمر المنصور بلبس القلانس الطوال أصبح هذا زي أهل الثراء.

وإذا مر بك رجل يلبس الثياب المصبغة عرفت أن فيه شذوذاً عن عادة البغداديين. إذ أن سروات الناس كانوا يلبسون الثياب البيض. وإذا كان المرء يلبس الأزرق فهو في حالة حداد. وإذا كان الرجل يلبس الدراعة فهو من الكتّاب، وأما من لبس الطيلسان فهو من العلماء. أما القواد فكانوا يلبسون الأقبية الفارسية القصيرة. وكانت الجوارب يلبسها الرجال والنساء على السواء. وكانت العامة تلبس الخفاف الحمر، لكن الخاصة كانت تعتبر لبسها معيباً.

كانت أوقات الفراغ يصرفها أصحاب الثروات في مجالس الغناء والشراب ولعب الشطرنج، أما عامة الناس فكانوا يلعبون النرد وقد يلعب ذلك للكسب. وقد يتاح لهم سماع الغناء في أماكن خاصة بذلك.

كان أكثر شرب أهل بغداد من دجلة. وكان السقاءون يأخذونه إما من النهر رأساً أو من مواضع تحمل الماء اليها نهيرات صغيرة. وكانت ثمة قناتان يجري فيهما الماء الى المدينة وكلتاهما مغطّاة ومحكمة العقد. وقد اعتبر سقاة الماء ببغداد من أظرف الناس، فقد روي أن أحدهم غضب عليه سيده فأمر به فرمي بباب صاحب الأمر مقيّدا. فمر به رجل متزر بمنديل مصري، معتم بمنديل دبيقي بيده كيزان خزف رقاق وزجاج مخروط، فسأل عنه فيما إذا كان ساقي الحاكم، فقيل له إنه ساقي العامة. فأومأ اليه طالباً ماء، فتقدم وسقاه فشم من الكوز رائحة مسك.

وكان الحمار شائع الاستعمال للتنقل داخل المدينة في بغداد. وكان أكبر محمل يقف فيه الحمّارون بحميرهم عند باب الكرخ. وكان التنقل بالقوارب في بغداد مألوفاً، وكانت شوارع بغداد يشرف عليها أصحاب الشرطة، وكانوا يقومون بالطواف طول الليل الى صلاة الفجر.

ولم يكن التجار وأصحاب المطامع والمنافع وحدهم الذين وفدوا على بغداد، بل ان العلماء والأدباء والشعراء هبطوا بغداد. وسواء جاءوا مدعوّين من أصحاب الأمر، أم جاءوا على هواهم، فقد لقوا من الخلفاء والوزراء كل رعاية وتكريم. وأدرك أولئك الذين تولوا شؤون الدولة حاجة الناس الى العلم والمعرفة، فأُخذ القادرون على الترجمة ليقوموا بذلك من السريانية والفارسية واليونانية والهندية. وقد كان أثر فارس يومها في حقل الأدب، وفضل الهند في الرياضيات والفلك. أما اليونان فقد كان لعلومهم وفلسفتهم وطبّهم الأثر الأكبر في تطوير الفكر العربي.

وقد كان أولئل النقلة من النصارى ـ من النساطرة وغيرهم، ممن كانوا قد تلقوا عن اليونانية، ترجمة الى السريانية، العلم والطب والفلسفة. وقد بدأ العمل في أيام المنصور بالذات. وفي هذه الفترة الاولى، على ما يبدو، كانت الترجمة يقوم بها الراغبون في موضوع معيّن أو كتاب خاص، أو بناء على رغبة المنصور نفسه. أما أيام الرشيد والأمين والمأمون (٧٨٧ ـ ٨٣٣) فقد تبدل الوضع، إذ أصبحت الترجمة منتظمة، يقوم بها جماعة بإشراف كبير لهم، وتختار الكتب بناء على مخطط مسبق. وكان «بيت الحكمة» الذي أنشأه المأمون هو المركز للقيام بهذه الأعمال. والمرجّح عند الباحثين أن بيت الحكمة في بغداد، (ولعل بيوت الحكمة الأخرى نقلت عنه) نشأ أصلاً عن خزائن الكتب. وفي هذا يقول محمد أسعد طلس: عُني الخلفاء المسلمون منذ العصر الأموي بالكتاب العربي... وإنشاء الخزائن التي تضم الكتب والدفاتر... كماعنوا بالحصول على كتب العلم القديمة... ولعل أقدم الخزائن العربية التي عرفت

بعض أخبارها هي خزانة الأمير الأموي خالد بن يزيد المتوفى سنة ٨٥ هـ (٧٠٤ م)، وكان من كبار علماء المسلمين... اشتغل بالعلم واهتم بالكيمياء والطب والنجوم. وممن ذكر عنه الاعتناء بجمع الكتب... الوليد بن عبد الملك، فلما استخلف بنو العباس اهتموا كذلك بالعلم وكتبه. وكان أبو جعفر المنصور أول من عني بالعلم والترجمة.

والباحثون في حيرة من حيث منشأ هذا التقليد الذي بدأ بخزانة الكتب وانتقل الى بيت الحكمة. ويرى محمد عبد الرحيم غنيمة أن فكرة بيت الحكمة، أي المكتبة مع مكان البحث، قد نقلت عن أصلها اليوناني، وهو يوضح رأيه بقوله: «كان من آثار اختلاط العرب بالأمم الأجنبية أن أخذوا يقتبسون عنها الكثير من نظمها الإدارية والحربية وأوضاعها الاجتماعية ومواريثها الثقافية، وكانت فكرة بيت الحكمة من هذه المقتبسات... وأكبر الظن عندي انها مما أخذه العرب عن الفرس... ولا شك عندي في أن خزانة الحكمة كانت معروفة لدى الخليفة المنصور... الذي كان على إلمام تام بنظم الحضارة الفارسية... وقد اقتدى بملوك الفرس فاتخذ له خزانة كتب في قصره».

وإذا أخذنا بهذه النظرة الى الموضوع، أدركنا ان الذي تم على يد خلفاء المنصور كان توسيعاً لما بدأ به وتعميقاً للفكرة، إلا أن التوسيع والتعميق كانا بعيدي الأثر في الذي انتهى الأمر اليه. فقد روى ابن القفطي ان هارون الرشيد ولّى يوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب الطبية القديمة لمّا وجدها بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين افتتحها المسلمون وسبوا سبيها، ووضعه أميناً على الترجمة ورتّب له كتّاباً حذاقاً يكتبون بين يديه». ويبدو من هذه الرواية ان فكرة ترجمة الكتب لم تنبت مرة واحدة عند هارون الرشيد فيولي يوحنا الأمر. ان مثل هذا يعني وجود تقليد بدأ قبلا. والذي نعرفه مثلاً، هو أن كتاب ال سند هند في الفلك قد نقل الى العربية في أيام المنصور نفسه. والمنصور الذي كان يعرف أطباء جنديسابور ويستدعيهم لخدمته، كما استدعاهم خلفاؤه، لا بد أنه خطر له أن ينقل بعض ما كان عند هؤلاء الأطباء السريان من معرفة الى العربية.

وعلى كل، فقد سار الخلفاء العباسيون على المنهج الذي استنّه المنصور، حتى كانت أيام الرشيد ثم المأمون الذي أنشأ بيت الحكمة، أي أن المؤسسة انتقلت من مكتبة الى دار للترجمة، وظل يوحنا بن ماسويه يقوم فيه بالعمل. ولكن الرجل الذي عرف في ذلك الوقت باسم صاحب بيت الحكمة هو سلم الترجمان أو المترجم. وفي هذا «البيت» عمل النصارى والصابئة بنقل كتب الفلسفة اليونانية الى العربية. وكان من العاملين في ذلك الحجاج بن مطر وابن البطريق وحنين بن اسحاق. وان الكاتب الشاعر سهل بن هرون يعنى بخزانة الكتب في تلك المؤسسة. وقد أرسل المأمون الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلّما صاحب بيت الحكمة الى ملك الروم لاستخراج

ما عنده من الكتب الحرية بالترجمة. وممن رئس بيت الحكمة في أيام المأمون محمد ابن موسى المعروف بالخوارزمي.

وهكذا فقد أوجد المأمون داراً للمترجمين والمؤلفين يقومون فيها بواجبهم العلمي ويتبادلون وجوه الرأي. وكان هذا تطوراً هاماً في حياة المكتبة تحولت به من خزانة الى مجمع للبحث العلمي تعمل على خدمة العلم وترجمة ثمار الفكرين الاغريقي والفارسي. كما ان المأمون أنشأ مرصداً في الشماسية ببغداد. وبذلك اكتملت وسائل البحث العلمي بالنسبة لعصره.

وقد أحيا المتوكل سُنّة المأمون فأعاد بيت الحكمة الى عزّه سنة ٢٤٠ للهجرة (٨٥٥ للميلاد) وعيّن حنين بن اسحق رئيساً للترجمة هناك. وعلى أيدي حنين وابنه اسحق وابن أخيه حبيش تمّ نقل عدد كبير من كتب أرسطو وسواه من مفكري اليونان.

«بيت الحكمة» كان إذا جاز التعبير، اكاديمية ـ إذ كان للترجمة والبحث في الترجمات بقصد اصلاح الترجمات الاولى وضبط ما جاء بعدها وتبادل الرأي في الشؤون العلمية المختلفة. لكن بيت الحكمة لم يكن مدرسة، فالمدرسة الأولى كانت المسجد. ويبدو انه حتى نهاية القرن التاسع الميلادي كان المسجد، والمسجد الجامع خاصة، مباءة لأشياخ العلم ومراداً لتلاميذهم. فكان الشيخ يجلس الى سارية من سواري المسجد، ويُحلّق أمامه الطلبة فيقول وهم يسمعون أو يقرأ أحدهم وهو يسمع ويشرح ويوضح. والمسجد الجامع الواحد قد يضم من حلقات العلم العدد العديد. فهنا حلقات لتدريس علم الكلام وهناك لتعليم الفقه وأخرى لرواة الحديث، وهكذا تجد المسجد الواحد يشتمل على حلقات كثيرة لعلوم كثيرة ما بين شرعية ولسانية وكونية، وفي جنب هذه المؤسسات مدارس لا تكاد تحصى عداً، ويقصر التعليم فيها على مبادىء القراءة والكتابة وبسائط علم اللغة والحساب، ويعنى فيها عناية بتدريس القرآن الكريم.

وقد أخرج طه الراوي ان أول مدرسة مستقلة عن الجوامع بنيت في بغداد ٢٨٩/٩٠٢. فهو يقول:

«وأول من نعلمه أمر ببناء مدرسة مستقلة عن الجوامع في بغداد أحمد بن طلحة الموفق الملقب بالمعتضد (المتوفى سنة ٢٨٩) فإنه عندما وضع الخطة لإنشاء قصره في الشماسية استزاد المهندسين في الذرع، فسئل عن ذلك فذكر «أنه يريد ان يبني فيه دوراً ومساكن ومقاصير يرتب في كل موضع رؤساء كل صناعة ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعملية، ويجري عليهم الأرزاق السنية ليقصد كل من اختار علماً أو صناعة رئيس ما يختاره فيأخذ عنه».

على أن المدرسة التي بدأت في بغداد ثم انتشرت في العالم الاسلامي هي «المدرسة النظامية»، وسميت باسم (الحسن بن علي) نظام الملك الوزير السلجوقي،

فقد أتم بناءها سنة ١٠٦٧/٤٥٩، وكان يوم افتتاحها مشهوداً. وقد كانت الفكرة التي دارت المدرسة حولها هي تنظيم التعليم والإشراف عليه من قبل الدولة، فقد أصبح منذ ذلك الوقت للمدرسين والطلبة جرايات ومعاليم معروفة، كما أصبح اختيار كبار المدرّسين أمراً للدولة فيه يد. ومع الوقت أصبحت هذه المدرسة، التي انتشرت من نيسابور الى مراكش، هي المؤسسة الرسمية التي تزود الدولة، في غالب أحوالها، بالموظفين.

ولعلنا، ولو أننا نطيل بعض الشيء، نحسن صنعاً ان نحن نقلنا ما قاله ابن جبير عن بغداد وجوامعها ومدارسها لما زارها سنة ١١٨٤/٥٨٠:

«فيها المارستان الشهير ببغداد وهو على دجلة، ويتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس ويطالعون أحوال المرضى به ويرتّبون لهم أخذ ما يحتاجون اليه وبين أيديهم قومة يتناولون طبخ الأدوية والأغذية، وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية، والماء يدخل اليه من دجلة».

وقال ابن جبير عن الجهة الشرقية من بغداد:

«والشرقية حفيلة الاسواق عظيمة الترتيب تشتمل من الخلق على بشر لا يحصيهم الا الله تعالى الذي أحصى كل شيء عدداً. وبها من الجوامع ثلاثة كل يجمع فيها جامع الخليفة متّصل بداره، وهو جامع كبير وفيه سقايات عظيمة ومرافق كثيرة كاملة، مرافق الوضوء والظهور، وجامع السلطان وهو خارج البلد وتتصل به قصور تنسب لسلطان معروف بشاه شاه. وكان مدبّر أمر أجداد هذا الخليفة، وكان يسكن هناك فابتنى الجامع أمام مسكنه، وجامع الرّصافة وهو على الجانب الشرقي المذكور وبينه وبين جامع هذا السلطان المذكور مسافة نحو الميل. وبالرصافة تربة الخلفاء العباسيين رحمهم الله فجميع جوامع البلد ببغداد المجمّع فيها أحد عشر، وأما حماماتها فلا تحصى عدة... والمدارس بها نحو الثلاثين وهي كلها بالشرقية وما منها مدرسة إلا وهي يقصر القصر البديع عنها، وأعظمها وأشهرها النظامية، وهي التي ابتناها نظام الملك وجدّدت سنة أربع وخمسمائة. ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات ومحبسة تتصيّر الى الفقهاء المدرّسين بها ويجرون بها على الطلبة وما يقوم بهم. ولهذه البلاد في أمر هذه المدارس والمارستانات شرف عظيم وفخر مخلّد فرحم الله واضعها الأول ورحم من تبع ذلك السنن الصالح».

وأعجب الرحالة المغربي، وهو العالم الفقيه الأديب، بالمدرسة النظامية فقال يصف درساً حضره فيها:

«فأول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الإمام رضي الدين القزويني رئيس الشافعية وفقيه المدرسة النظامية والمشار اليه بالتقديم في العلوم الأصولية. حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة إثر صلاة العصر من يوم الجمعة الخامس لصفر، فصعد

المنبر وأخذ القراء أمامه في القراءة على كرسي موضوعة، فتوقوا وشوقوا وأتوا بتلاحين معجبة ونغمات محرجة مطربة، ثم اندفع الشيخ الإمام المذكور، فخطب خطبة سكون ووقار، وتصرف في أفانين من العلوم، من تفسير كتاب الله عزّ وجل، وإيراد حديث رسول الله ﷺ، والتكلم على معانيه. ثم شآبيب المسائل من كل جانب فأجاب وما قصر، وتقدم وما تأخر. ودفعت اليه عدة رقاع فيها فجمعها جملة في يده، وجعل يجاوب على كل واحدة منها وينبذ بها الى ان فرغ منها، وحان المساء فنزل وافترق الجميع. فكان مجلسه مجلس علم ووعظ وقوراً هيناً ليناً ظهرت فيه البركة والسكينة».

والبيمارستان الذي ذكره ابن جبير هو، فيما يرجّح، البيمارستان العضدي، الذي بناه عضُد الدولة البويهي (حكم ٣٣٨ ـ ٣٧٢/ ٩٤٩ ـ ٩٨٣)، والمتعارف عليه أنه بناه على أنقاض قصر الخلد. وكان ثمة بيمارستان آخر أقدم عهداً، بني في أواخر القرن الثالث أو أوائل الرابع الهجري (التاسع ـ العاشر). وبعد بناء العضدي أصبح الأول يشار اليه بالعتيق. وبالإضافة الى الخدمة الطبية التي كان يقدمها للسكان، فقد كان العتيق أولاً، والعضدي فيما بعد، مدرسة طبية. وقد كان الرازي (المتوفى ٣٢٠/ ٩٣٢) يشرف عليه ويدرّس الطب فيه.

ولنشر الى مدرسة أخرى كبيرة، ولو أنها بنيت متأخرة، وهي المستنصرية التي بناها الخليفة المستنصر بالله (٧٢٣ ـ ٦٤٠/ ١٢٢٦ ـ ١٢٤٢). وقد تم بناؤها، وفتحت للتدريس أبوابها سنة ٦٣١، وكان يوم افتتاحها يوماً مشهوداً حضره الخليفة والوزير وكبار رجال الدولة والعلماء والأدباء والأعيان وسائر الوجوه في بغداد، وأنشد الشعراء قصائد التهنئة والثناء في ذلك اليوم، وحمل اليها من قصور الخلافة في ذلك اليوم مائة وستون حملاً من الكتب، سوى ما نقل اليها بعد ذلك وما أحضره أرباب الدولة والمتمولون من كتبهم تقرباً الى قلب الخليفة، ورتب فيهامدرسون على المذاهب الأربعة لكل مدرس أربعة معيدين، ورُتب لخزانة كتبها خازن ومساعدون، وأجرى على كل طالب في المدرسة في كل يوم أربعة أرطال من الخبز وكمية معينة من الطبيخ، ورتب لكل طالب أيضاً ديناران في الشهر، إضافة الى ما رتب لهم من الحلوى والفاكهة والصابون والزيت.

وعيّن فيها مدرسون لإقراء القرآن وللحديث وللنحو وللطب، وأجرى على المدرسين والمعيدين وسائر الموظفين ما يكفيهم من الأرزاق اليومية والشهرية. وقد بلغ ريع ما وقف عليها من العقارات والمسقفات أكثر من سبعين ألف مثقال سنوياً.

وميزة المدرسة المستنصرية، على ما يرى مؤرخها الحديث ناجي معروف، هي أنها كانت تجمع العلوم كلها. فقد عينت بدراسة علوم القرآن والسنّة النبوية والمذاهب الفقهية وعلوم العربية والرياضيات وقسمة الفرائض والتركات ومنافع الحيوان وعلم

الطب وحفظ قوام الصحة وتقديم الأبدان ـ وكل هذا في آن واحد. ويقول عن هذه المدرسة:

«يتبين لنا من دراسة أحوال المدارس الاسلامية ان الخليفة المستنصر هو أول من ابتكر فكرة جمع المذاهب الفقهية الأربعة في بناية واحدة، كما أشارت الى ذلك جميع المراجع العربية المعتبرة، وأيدتها الكتابة الاجرية التي ثبتها المستنصر على باب المدرسة... وبذلك امتازت المستنصرية على سائر المدارس المعاصرة لها والتي سبقتها. كما امتازت بوجود بناية خاصة للطب ملحقة فيها... وقد شرط المستنصر أن ضاف الى مدرستي الفقه والطب دار للقرآن ودار للسنّة».

البناء أمر صعب شاق طويل ويتطلب الكثير من المال والرجال والخبراء. أما التدمير فأمر يسير. وبغداد التي بناها المنصور وزينها الرشيد واستقر فيها التجار والعلماء، بحيث كانت منارة لهذا كله، أصيبت بالضربة الأولى اثناء الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون. إذ ان جيوش المأمون لم تنتصر على أتباع أخيه (١٩٧ ـ ٨/ ٨١٢ ـ ٣) إلا بعد ان أصيبت بغداد بالكثير من التدمير والتخريب. لكن المأمون استطاع ان يعيد اليها رونقها، أو بعضه على الأقل. ثم أصيبت بغداد بضربة أخرى لما شغب الجند التركي في عهد المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧/ ٨٣٣ ـ ٨٤٢)، حتى اضطر الخليفة الى نقل العاصمة الى سر من رأى (سامراء) ونقل جنده معه. ومع ان عصر بني بويه (٣٣٤ ـ ٤٤٧/ ٩٤٥ ـ ١٠٥٥) شهد بعض الاضطراب والخلاف بين شقي السكان، فإن العلم والأدب وصلا في بغداد الى القمة العليا. «فعرفت العاصمة أكابر المفسرين والمحدثين والفقهاء والمتكلمين والمؤرخين والكتّاب والشعراء وأساطين علوم العربية والحذاق في المعارف في المعارف الكونية. وبالجملة فإن المعارف التي تم غرسها في عهد المنصور والرشيد والمأمون أزهرت في هذا العصر وآنت أكلها يانعاً شهياً (طه الراوي).

أما الإضطراب والخلاف اللذان أشرنا اليهما فيتمثلان في المحن التي أصابت قبة الاسلام، ومنها ايقاظ الفتن المذهبية وطغيان مياه دجلة عليها، واختلال الأمن داخلها وخارجها. وتفاقمت المجاعات فيها، وقد استولى رجال الجند على الضياع والقرى وضيقوا على الفلاحين.

والعهد السلجوقي (٤٢٩ ـ ١٠٣٨/٥٩٠ ـ ١١٩٤) بدأ بالقضاء على فتنة عارمة كانت قد أكلت الكثير من الأخضر واليابس. إلا أن فترة حكم ملكشاه (٤٦٥ ـ ٤٨٥/ ١٠٧٢ ـ ١٠٩٢) كانت فترة هادئة، ولعلّ الفضل في ذلك يعود الى نظام الملك الوزير الحكيم. ولم تلبث الاسرة السلجوقية ان تقسمت دولتها دولاً.

على ان النازلة الكبرى التي حلت ببغداد كانت حملة هولاكو ١٢٥٨/٦٥٦ التي انتهت بإستيلائه عليها وتدميرها وإزالة معالم الحضارة والمدنية منها.

ونحن إذا عدنا الى ابن جبير (٥٨٠ ـ ١١٨٤) الذي زار بغداد قبل التدمير المغولي الهولاكي بنحو ثلاثة أرباع القرن، عرفنا منه ان الجانب الغربي ـ أي منطقة المدينة المدورة وأرباضها ـ كان قد عمه الخراب. ويقول «وأما الجهة الشرقية فهي اليوم دار الخلافة... ودور الخليفة مع آخرها (أي في قسمها الجنوبي) وهي تقع منها في نحو الربع أو أزيد لأن جميع العباسيين في تلك الديار، معتقلون اعتقالاً جميلاً لا يخرجون ولا يظهرون ولهم المرتبات القائمة. وللخليفة من تلك الديار جزء كبير قد اتخذ فيهاالمناظر المشرفة والقصور الرائقة والبساتين الأنيقة». والخليفة الذي كان أيام زيارة ابن جبير هو الناصر لدين الله (٥٧٥ ـ ٦٢٢/ ١١٨٠ ـ ١٢٢٥).

ولكن بغداد هذه هي التي تهدمت على أيدي هولاكو، لذلك لما زارها ابن بطوطة بعد هذه النازلة بنحو سبعين سنة بدت دهشته اذ وجد ان «هذه الجهة الشرقية من بغداد حافلة الأسواق، عظيمة الترتيب وأعظم أسواقها يعرف بسوق الثلاثاء، كل صناعة فيه على حدة. وفي وسط هذا السوق المدرسة النظامية العجيبة التي صارت الأمثال تضرب بحسنها. وفي آخره المدرسة المستنصرية، ونسبتها الى أمير المؤمنين المستنصر بالله أبي جعفر ابن أمير المؤمنين الظاهر ابن أمير المؤمنين الناصر. وبها المذاهب الأربعة، لكل مذهب إيوان فيه المسجد وموضع التدريس، وجلوس المدرّس في قبة خشب صغيرة على كرسي عليه البسط، ويقعد المدرّس وعليه السكينة والوقار، لابساً ثياب السواد معتماً، وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه. وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الاربعة. وفي داخل هذه المدرسة الحمام للطلبة، ودار الوضوء».

وكأن بغداد لم يكفها ما أصابها على أيدي هولاكو، ومن جاء بعده مباشرة، فهاجمها تيمور أكثر من مرة. وكانت أشد غزواته ضرراً على بغداد تلك التي تمت سنة ٨٠٣/ ١٤٠٠ وعندها «فتحها عنوة وفتك بأهلها هذه المرة فتكاً ذريعاً واستحل جنده المدينة اسبوعاً كاملاً اقترفوا فيه من المنكرات ما يقشعر له جلد الإنسانية».

ولما قامت الدولة الصفوية بإيران (٩٠٧ ـ ١١٤٥/ ١٥٠١ ـ ١٧٢٢) وكانت الدولة العثمانية آخذة في التنبه الى حدودها الشرقية والجنوبية من جديد، احتل الصفويون بغداد. وجاء سليم الأول العراق وانتصر على الصفويين في معركة جلدران ٩٢٠/ ١٥١٤)، أي قبل استيلائه على بلاد الشام وانتزاعها من المماليك بسنتين تقريباً، إلا ان الاحتلال العثماني لبغداد تم على أيدي سليمان القانون (٩٤١/ ١٥٣٤). ومع ذلك فقد عاد اليها الصفويون (١٩٣٣/١٦٢٣) وظلوا الى ان احتلها العثمانيون نهائياً (١٠٤٨/ ١٦٣٨)، على يد مراد الرابع.

وقد ذكرنا هذا لا رغبة في تكثير السنين أمام القارىء، ولكن لنذكّر أنفسنا بأن هذا الكر والفر كانت له عواقب وخيمة على المدينة التي يبدو انها لم تسترح من

الحصار وفك الحصار، والإحتلال والإحتلال المضاد منذ ان جاءها هولاكو (٦٥٦/ ١٢٥٨).

«وقد هبطت بغداد تحت ضغط تلك الفتن المتوالية والحروب المتعاقبة الى الدرك الاسفل من الانحطاط، حتى زعم بعضهم ان تعدادها كان في بعض الأحيان لا يتجاوز ١٤ ألف نسمة. ثم أخذت بالإنتعاش حتى بلغ تعدادها في أوائل القرن الثالث عشر الهجري (القرن التاسع عشر الميلادي) ١٥٠ ألف نسمة. لكن طاعوناً عقبته هيضة ورافقهما طغيان دجلة والفرات انتابت بغداد فهلك فيها نحو أربعة أخماس سكانها».

وكانت بغداد العباسيين الأول فيها نحو مليون نسمة!

بغداد العثمانيين

وكان للتضعضع الذي أصاب الدولة العثمانية في القرن الثامن عشر أثره في بغداد. فقد بدأ، في مطلع القرن، ما يصح ان يسمى حكم المماليك، ذلك لما تولّى حسن باشا الولاية (١٧٠٤) واستمر حتى سنة ١٨٣١. وفي هذه الفترة نجح حسن باشا (١٧٠٤ ـ ١٧٢٤) وسليمان باشا الكبير (١٧٨٠ ـ ١٨٠٢) وداود باشا (١٨١٦ ـ ١٨٣١) في ادخال بعض الإصلاحات في بغداد. فالأول عني بتنظيم الإدارة المحلية عن طريق تنشئة فئة من المماليك هم من خارج الامبراطورية عموماً، على نحو ما عرفت مصر أيام المماليك (١٢٥٠ ـ ١٥١٧)، وسليمان باشا اهتم بالمعابد والمدارس والمراقد اصلاحاً وتنظيم وقف. أما داود باشا فشق بعض الأنهار ونظفها ورعى أهل العلم والأدب وعني بالمدارس.

وقضى السلطان العثماني على حكم المماليك في العراق سنة ١٨٣١، وأخذ السلطان يختار الوالي. وأكبر الولاة أثراً، في القرن التاسع عشر، هو مدحت باشا ١٨٦٩ ـ ١٨٧٢. فقد قام بأعمال كبيرة في بغداد وما اليها، فأنشأ دائرة للنفوس وجرب انشاء دائرة للطابو وأنشأ مطبعة الولاية وجريدة «الزوراء» تكتب بالعربية والتركية، ومد خطاً للتلغراف، وأنشأ تراموای الكاظمية، ومدرسة للأيتام لتعليمهم الصناعة، وبنى الكثير من المباني لإدارات الدولة، وأنشأ دائرة المواصلات النهرية.

ولم يخلف مدحت وال عثماني، يستحق الذكر، إلا إذا ذكر آخر الولاة القائد خليل باشا الذي سقطت بغداد في عهده بيد الإنكليز (١٩١٧).

وقبل ان ننتقل الى العهد البريطاني، نود ان نشير الى بعض المنشآت العمرانية التي تمت، رغم ماكان يصيب بغداد من نكبات في العصور المتعاقبة التي سبقت احتلال بغداد (١٩١٧).

وقفنا عند المدرسة المستنصرية وزيارة ابن بطوطة لها (١٣٢٦/٧٢٧). وقد بنيت في بغداد مدرسة على يد مرجان. ومرجان كان مملوكاً رومياً للسلطان اويس الجلائري

(٨١٨ ـ ٨٢٤/ ١٤١٥ ـ ١٤٢١)، وأنه أنشأ هذه المدرسة ورصد لها الأوقاف الكثيرة وألحق بها مسجداً أصبح اليوم مسجداً جامعاً، وقد غلب اسم المسجد الجامع على هذه المدرسة، فالناس اليوم يعرفون «جامع مرجان» أكثر مما يعرفون «مدرسة مرجان» مع ان المدرسة كانت هي الأصل.

والمدارس القديمة اليوم في بغداد كلها متصلة بالمساجد، وهي كثيرة تدرّس فيها العلوم الشرعية واللسانية وبعض العلوم الكونية، وقد يكون للمدرسة الواحدة منها أكثر من مدرّس واحد. وكل المدارس القديمة ببغداد دينية ومناهجها تابعة للتقاليد القديمة، عدا دار العلوم الدينية والعربية فإنها مؤسسة على النمط الحديث، وتتألف من قسم ثانوي وقسم عال، وتدرس فيها مع العلوم الدينية والعلوم اللسانية علوم أخرى لا يمكن ان يستغني عنها علماء الدين في هذا العصر، مثل علم الإجتماع وعلم النفس وأصول التعليم وغيرها، وأكثر طلابها يعيشون على نفقة مديرية الأوقاف العامة. وهذه المدرسة واقعة الى جوار مشهد الإمام أبي حنيفة (رضي الله عنه).

أما المدارس الحديثة فقد بدىء بإنشائها في بغداد على عهد الوالي مدحت باشا، ولكنها كانت قليلة، ولغة التدريس فيها هي اللغة التركية.

ومن الأمور التي عرفتها بغداد في تاريخها الطويل خزائن الكتب. فقد كان خلفاء بني العباس والاثرياء من رجال دولتهم يبذلون جهوداً مشكورة في جمع الكتب النادرة ويسهلون على أهل العلم الانتفاع بها، فكانت قصور الخلفاء والكبراء تتزين بخزائن تشتمل على العدد الكثير من الكتب. وقد أنشأ الرشيد بناية خاصة في قصره جمع اليها الكثير من الكتب العربية وغيرالعربية، ثم جاء المأمون من بعده فزاد في ثروة هذه الخزانة وأطلق على البناية التي تضمنتها اسم «بيت الحكمة» فكانت تشتمل على الكتب الشرعية واللسانية وما ترجم عن اليونانية والفارسية والسنسكريتية والكدانية والقبطية. وتحول بيت الحكمة في زمنه الى مدرسة عظيمة تضم جماعة من المترجمين عن اللغات الأعجمية على اختلاف ضروبها، والمؤلفين من علماء العربية ورجال الدين والفلسفة، كما تضم جماعة من الوراقين الذين عهد اليهم بنسخ الكتب. ولهذا البيت قيّم يقال له صاحب بيت الحكمة، ثم اقتدى الكبراء بالخلفاء وأنشأوا دوراً للكتب خاصة وعامة. ومن أشهر الدور العامة «دار سابور بن أردشير» في الجانب الغربي، وقد أودعها ألوفاً من المجلدات النادرة الثمينة، وقد كان يتردد اليها أبو العلاء مدة مكثه في بغداد، وإليها يشير بقوله:

وغنت لنا في دار سابور قينة — من الورق مطراب الاصائل ميهال
رأت زهراً غضاً فهاجت بمزهر — مثانيه احشاء لطفن وأوصال

واحترقت هذه الخزانة في فاتحة استيلاء السلاجقة على بغداد. ولما انشئت النظامية أنشئت فيها خزانة عظيمة احتوت على كتب كثيرة في علوم كثيرة، ثم كلما

أنشئت مدرسة ضمت اليها خزانة مثل مدرسة المستنصر. وأعظم كارثة أصيبت بها خزائن الكتب في بغداد هي كارثة المغول، فقد أتلفوا منها الشيء الكثير، ولم تزل بعد ذلك خزائن الكتب موضع الرعاية من رجال الحكومات المتعاقبة الى ان فشا الطاعون في بغداد على عهد الوالي داود باشا، ورافقه طغيان دجلة وحريق هائل، أودى كل ذلك بكثير من خزائن الكتب. ولما اشتدت المجاعة في القرن الثالث عشر الهجري أخذ الناس يبيعون الكتب القيمة بأبخس الاثمان، وأقبل جماعة من تجار الفرنج وعملائهم على شرائها. وقد حدثني بعض الاشياخ المعمرين أنه كان يرى بعينه سفناً تنحدر الى البصرة لا تحمل الا الكتب، ومن هناك تشحن في السفن البخارية الى ديار الفرنجة، وقال إنه رأى بأم عينه صحاح الجوهري بخط امرأة بغدادية ذكرت في آخره انها كتبته وهي الى جنب ولدها، وكثيراً ما كانت تحرك المهد برجلها وهي تكتب.

ويبدو ان فتح المدارس الذي بدأه مدحت باشا استمر، ولو على شيء من التعثر، بعده. ففي سنة ١٨٩٩ فتحت أول مدرسة للبنات. وكان في بغداد أربع مدارس ابتدائية سنة ١٨٩٠، وفتحت مدرسة لتدريب معلمي المدارس الابتدائية سنة ١٩٠٠.

وقد مر بنا ان مدحت باشا أنشأ أول مطبعة في بغداد (١٨٦٩). وبين ١٨٨٤ و١٩٠٧ أنشئت خمس مطابع في المدينة. ولما أعلن الدستور (الثاني) ١٩٠٨ بدأت الصحف بالظهور. وقد عرفت بغداد بين ١٩٠٨ و١٩١٥ خمساً وأربعين صحيفة.

وحول السنة ١٩٠٠ كان في بغداد صناعات (يدوية) هامة: منها الاقمشة الحريرية التي كانت مشهورة بسبب دقة صنعها وجمال ألوانها؛ وهناك الاقمشة القطنية، ثم الاقمشة التي كانت خيوطها مزيجاً من الحرير والقطن. والأقمشة القطنية المقلّمة كانت تنفق في أسواق العراق وغيرها بكثرة. كما كانت الصباغة والدباغة صناعتين مشهورتين.

وكانت بعض أسواق بغداد مسقوفة بعقود، وخصوصاً سوق الصاغة وسوق الصفافير (النحاسين) وسوق الخفافين (صانعي الاحذية). وكان في المدينة في سنة ١٩٠٣ مثلاً ٤٠٠٠ حانوت و٢٨٥ مقهى و١٣٥ حديقة و١٤٥ جامعاً و٦ مدارس ابتدائية و٨ مدارس لغير المسلمين وثماني كنائس وتسع مصابغ ومصنع للصابون و١٢٩ مشغلاً للحياكة و٢٢ مصنعاً للأقمشة.

ويعود انشاء شارع الرشيد الى حوالى سنة ١٩٠٠. وقد ظل هذا شارع بغداد الرئيسي حتى أواسط الخمسينات من هذا القرن.

بغداد الحديثة

وتحديد هذه الفترة صعب. فهناك من يصر على قسمة الفترات الحديثة الى حديثة ومعاصرة. وكي لا ندخل في جدل حول ذلك فإنني أنوي التحدث عن بغداد الحديثة منذ نهاية الحرب العالمية الأولى الى اليوم!

وإن أنا أردت ان أتناول تاريخ بغداد والأحداث التي مرت بها، سياسياً وعسكرياً وحرباً وسلماً، طال بي المقال، وليس هنا موضع لذلك. ولذلك سأكتفي بتذكير القراء بأن الجيش البريطاني دخل بغداد في الحادي عشر من شهر آذار (مارس) ١٩١٧. وبسبب مخاوف العراقيين من البقاء تحت الحكم البريطاني طويلا ـ وكانت طبخة «الانتدابات» تعد في اوروبة على أيدي الدول المنتصرة في الحرب قامت ثورة عارمة (١٩٢٠)، وكان هذا ايذاناً للانكليز بأن يعرفوا «أن العراق لا يمكن اخضاعه بالقوة، فقرروا انشاء دولة عربية برئاسة عربي يختاره العراقيون».

وبعد مشاورات ومفاوضات وقع اختيار العراقيين على الأمير فيصل بن الحسين، فسمح له والده بتلبية الطلب. فوصل بغداد في صيف ١٩٢١، واحتفل بتتويجه ملكاً في ٢٣ آب (اغسطس) ١٩٢١.

وقد روى لي المرحوم الاستاذ أنيس صيداوي الذي كان يشغل يومها في بغداد منصباً رفيعاً، أنه كان من الضروري اعداد عرش بشكل مستعجل، فاستعمل النجارون أي قطع من الخشب كان يمكنهم الحصول عليها. والذين كانوا واعين في فترة العشرينات في المشرق العربي يذكرون ان الكاز كان ينقل من الشركات الى دكاكين الباعة في تنكات، وكل تنكتين كانتا توضعان في صندوق خشبي، وكان اسم الشركة يطبع على الصندوق الخشبي (بهذه المناسبة نحن كنا نبتاع الكاز من الدكان بالقنينة). وقد استعمل نجارو بغداد بعض أخشاب هذه الصناديق لصنع العرش، وكان اسم «شركة البترول الانكليزية ـ الايرانية» يظهر على هذه الاخشاب. فلما حُمِل العرش من حديقة قصر الزهور الى القاعة الكبرى في القصر، ظهر الاسم واضحاً. فكتب مراسل احدى الصحف الاميركية يصف حفلة التتويج وعنونَ رسالته «عرش فيصل يرتكز على البترول الانكليزي ـ الايراني».

وانصرف فيصل ومعه عدد من العراقيين الذين كانوا قد فروا من الجيش العثماني وانضموا الى الثورة العربية (١٩١٦)، والذين عادوا الآن الى بلادهم، الى الاهتمام بشؤون البلاد، مع قلة الموارد المالية (كان برميل البترول مردوده نحو خمسة شلنات فقط، أي ان كل عشرين برميل توفر للبلاد جنيهاً استرلينياً واحداً)، والمواقف السياسية المضطربة في أعقاب الحرب.

ومع ذلك فإن فيصل توفي في ٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٣. وبويع غازي نجله بالملك. لكن غازي الشاب قُتِلَ سنة ١٩٣٩. وكان فيصل الثاني دون السن القانونية لذلك عهد الى مجلس وصاية للاشراف على شؤون البلاد، وظل الأمر كذلك حتى سنة ١٩٥٢، إذ تولى فيصل الثاني سلطاته الدستورية. إلا ان ثورة ١٩٥٨ قضت على الملكية في العراق.

ومما وجهت حكومة فيصل الأول وغازي ومجلس الوصاية الاهتمام به هو المدارس، وفي ذلك يقول طه الراوي:

«ولما انشئت الحكومة الوطنية وجهت جل عنايتها الى الاكثار من هذه المدارس على اختلاف مراحلها من ابتدائية وثانوية وعالية. ففي سنة ١٩٤٢ ـ ٤٣ الدراسية بلغت مدارس الاحداث في بغداد ٢٥ مدرسة يقوم بالتعليم فيها ١٦٦ معلمة. وهذه المدارس تجمع بين جدرانها البنات والبنين، وبلغت المدارس الابتدائية في السنة نفسها عدا مدارس الاحداث ٩٥ مدرسة منها ٣١ مدرسة للإناث يقوم بالتعليم فيها ٧٠٧ من المعلمين والمعلمات. وبلغت المدارس المتوسطة والإعدادية عشرين مدرسة، ثمان منها للإناث. يقوم بالتدريس فيها ٢٠٠ مدرّس ومدرّسة. وفي العاصمة سبع من دور المعلمين والمعلمات، منها ثلاث للمعلمات وواحدة عالية يتألف طلابها من الجنسين، وهناك مدرسة للصنائع وأخرى للزراعة وأخرى للفنون البيتية. وفي بغداد من المدارس العالية ـ عدا دار المعلمين العالية ـ كلية للحقوق وكلية للطب وكلية للصيدلة وكلية للهندسة وكلية لتخريج الضباط تابعة للجيش. وقد وضع تصميم لإنشاء كلية عالية لتخريج ضباط الشرطة.

هذه هي المدارس التابعة لوزارة المعارف مباشرة. أما المدارس الاهلية الابتدائية فتبلغ ٤٢ مدرسة منها ١٩ للإناث يقوم على التعليم فيها ٣٤٤ معلماً ومعلمة، وبلغت المدارس المتوسطة والإعدادية الأهلية ١٦ مدرسة منها ٣ للإناث يقوم على التدريس فيها ١٠٧ من المدرسين والمدرسات، وفي بغداد مدرستان ابتدائيتان أجنبيتان وسبع متوسطات وإعداديات يقوم على التدريس فيها ٥٧ مدرساً ومدرسة.

ومجموع طلاب المدارس في العاصمة يبلغ زهاء ٣٠ ألف طالب وطالبة، ومجموع طلاب المدارس الرسمية في العراق لسنة ١٩٤٢ ـ ٤٣ زهاء ١٠٥ آلاف، ومجموع المدارس الرسمية ٨٦٣ مدرسة يقوم بالتدريس فيها ٤٦٤٧ مدرّساً.

وبلغت حصة المعارف في ميزانية الدولة لسنة ٩٤٣ ـ ٤٤، ١١٠. ٢,١٢٠٤ من الدنانير وهي أكثر من عُشر ميزانية الدولة».

على أن الذي نقلناه يعود الى قبل أربعين سنة. فما هو الوضع التعليمي اليوم؟

ليس من اليسير الحصول (في هذه الأيام) على أرقام تتعلق بالمدارس والطلاب في بغداد وحدها، ولذلك فإنني سأكتفي بالإشارة الى التعليم العالي فقط.

حتى سنة ١٩٥٧ كان في بغداد كليات تستقل كل منها في ادارة شؤونها. وكانت هذه الكليات تشمل دار المعلمين العالية وكلية الحقوق وكلية التجارة والاقتصاد وكلية الطب وكلية الصيدلة وكلية الهندسة وكلية الملكة عالية (للبنات). فضلاً عن معاهد أخرى على مستوى رفيع.

وقد ضمت هذه جميعها سنة ١٩٥٨ باسم جامعة بغداد، وأضيفت اليها الكليات

التي لم تكن موجودة قبلاً مثل كلية الآداب وكلية العلوم وغير ذلك، وأصبحت دار المعلمين العليا كلية التربية. وكانت جامعة بغداد تضم نيفاً وعشرين ألف طالب في العام الماضي، على ان في بغداد جامعتين أخريين ـ المستنصرية (إحياء للمدرسة القديمة) وفيها ما يزيد على أحد عشر ألف طالب، والجامعة التكنولوجية وفيها نحو ستة آلاف طالب. أما عدد المدرسين (على اختلاف رتيهم) الذين يعملون في هذه الجامعات الثلاث فيبلغ نحو ٢٥٠٠ مدرس.

وفي بغداد يقوم المجمع العلمي العراقي، وهو من أنشط المجامع العلمية العربية، كما ان الأقليتين اللغويتين الكبريين في العراق لكل مؤسستها: المجمع العلمي الكردي والهيئة العلمية السريانية.

ومن مفاخر بغداد المتحف العراقي ومكتبته.

كانت زيارتي الأولى لبغداد سنة ١٩٥٦، وقد انتقلت اليها من دمشق بالسيارة مع قافلة نيرن (Nairn). أردت ذلك لأنني رغبت في ان أقطع الصحراء لأشعر بوجودها وبعد ذلك زرت بغداد (وأنحاء أخرى من العراق) مرات. وفي كل مرة أرى تبدلاً. ففي المرة الأولى كان مركز وصول سيارات نيرن قريباً من المطار والاثنان يكادان يكونان في المدينة. ولكن بعد ذلك رأيت المطار يبتعد عن المدينة وتنتظم أموره، ويزخرف ويتسع.

وكان شارع الرشيد في زيارتي الأولى مركز الحركة ـ جميع أنواع الحركة ـ في بغداد. ولكن مع الوقت، ومع ازدياد واردات النفط، والانصراف الى الأمور العامة في البلاد، توزعت شوارع جديدة الحركة في بغداد. وفي أول زيارة (وفي الثانية والثالثة) أكلت المسقوف على شاطىء دجلة في مقهى بلدي، وكان مستوياً على الطريقة التي ألفها الناس قروناً (؟). ولكن فيما بعد افتقدت هذه المقاهي البلدية، وأصبح المسقوف يستوي (في الغالب) على نار غاز أو ما يشبه ذلك. والواقع ان السمك هو السمك، والماء الذي يعيش فيه السمك (أي ماء دجلة) لم يتغير. ولكنني افتقدت رائحة العشب وطعمه المحروق ممزوجاً بالمسقوف.

ليس من الصعب، في مدينة تنمو بسرعة ووراء نموها مال وفير، ان ترى فيها العمارات الضخمة، والشوارع الابونواسية والحدائق الجميلة والمطاعم الأنيقة والفنادق الفخمة. لكن الذي هو صعب ان تحصل عليه، الأماكن التي يقضي فيها عامة الناس أوقات فراغهم (ولو ان الكثير من أوقات الفراغ الآن يصرف في البيت بسبب التلفزيون). هذا عرفته من زيارتي للجايخانات وجلوسي فيها، وسيري على قدمي في مجاهل بغداد القديمة (القديمة نسبياً). وهذا السير هو الذي ذكرني بملاحظات بعض الرحالين الاوروبيين في القرن الماضي. لقد تنبهوا الى تنوع السجن واختلاف ألوان الوجوه والشعر وتعدد الازياء وكثرة اللغات. نعم هذا يلفت نظرك في بغداد (وزيارتي

الأخيرة لها لم تكن منذ زمن بعيد)، وتتنبه له أكثر كل مرة تزورها. المدينة الآن فيها بين ٢,١٠٠,٠٠٠ و٢,٣١٠,٠٠٠ نسمة. وليس هذا النمو طبيعياً. الريف العراقي، مثل الريف في المنطقة جمعاء، لا يغري بالبقاء فيه، فلا العمل متيسر ولا يسر الحياة موجود. لذلك فالريف يلفظ ابناءه، أو على الأصح، يهجره ابناؤه، فينتقل هؤلاء الى المدينة ـ وإلى بغداد في الدرجة الأولى. وهذا يزيد في مشكلات بغداد السكنية والمعاشية والأمنية والمواصلاتية. ولعلَّ الأمر تدخل فيه المشكلات الخلقية أيضاً. ولكن ماذا نصنع بهذا الجذب الى أنوار المدينة عندما تفتقد الشمعة الكبيرة.

كنت على وشك ان أتحدث عن مقاهي بغداد ودور الشاي فيها، حيث يقضي «الناس» أوقاتهم. لكنني عثرت في كتاب «الصناعات والحرف البغدادية» تأليف الشيخ جلال الحنفي (بغداد، دار الجمهورية، ١٩٦٦)، على فصل شفى غليلي، فآثرت نقل بعضه إذ إنه سيشفي غليل القراء أيضاً. وهو يتناول ذلك كله في فصل بعنوان «الترفيه الاجتماعي»، ويتحدث فيه عن المزيقجيّة (الموسيقيين) والكهوجيّة (القهوجية) والجايجية (سقاة الشاي) والمغنين. وها أنا أنقل هذه المختارات من الفصل المذكور.

المزيقجيّة: هم جماعة يحترفون حرفة العزف على أنماط من الآلات الموسيقية التي كانت تستعمل في الجيش العثماني سابقاً. وقد جرت عادة الناس في الأعراس وحفلات الختان ان يستدعوا جماعة المزيقجية للعزف في تلك الحفلات.. وكذلك يفعلون عند تشييع جنازة شاب او شابة حيث تسبقهم اليها جماعة المزيقجية بأناشيدهم التي يسمونها حزايني. وكانت معزوفات هؤلاء محدودة، غير أنهم بدأوا يعزفون عدداً من الأغاني الشائعة التي يعجب بها الناس وبذلك تطورت حرفتهم بعض التطور.

الكهوجية والجايجية: الكهوجية جمع كهوجي وهو من يكون صاحب كهوة ـ أي مقهى ـ وهي عبارة عن نار تصف فيه التخوت التي تعدّ للجلاس ويكون في المقهى أوجاغ لصنع القهوة والجاي والحامش. فإذا جلس الجليس على التخت جاءه الساقي وهو المسؤول عن الجاي فسأله عما يرغب في شربه من الاشربة الساخنة والمرطبة كأنواع الناملیتات والشرابت. ويدور صاحب المقهى على الجلاس بين فترة وأخرى وبيده جوزة القهوة يسقيهم بالفناجين رشفات قليلة. ولجليس المقهى ان يمكث جالساً ما شاء من الوقت حتى إذا قام ليغادر المقهى دفع لصاحب المقهى «كهاوية» أي أجور المقهى. ويجلس صاحب المقهى ويقال له الكهوجي كما يقال له «أبو الكهوة» في مدخل المقهى وبين يديه صينية تلقى عليها النقود. وكان قديماً يتخذ له مجلسه أمام المقهى وبيده كيس نقوده وهو يكثر من تنبيه الصنّاع الى واجباتهم ويكثر من استحثاثهم على خدمة المشتريّه.

ويحتفظ صاحب المقهى بعدد من النواركيل التي يقوم صانع خاص عنده

بإعدادها لمن يتعاطى تدخين النواركيل. وكذلك يعدّ للناس مجموعة من أدوات اللعب واللهو من نحو الطاولي والدومنه.

وعند ظهور الفنغراف كان بعض أصحاب المقاهي يضعون جهاز الفنغراف في مكان بارز من المقهى ومعه عددٌ من الاسطوانات المحتوية على الأغاني والمقامات العراقية.

وعندما ظهر التلفزيون في أيامنا هذه أصبح من الحاجات التي ينبغي تزويد المقاهي بها.

ومن القديم عرف في المقاهي اجتماع المغنين وأصحاب الآلات الموسيقية وقيامهم بالغناء والعزف، وإلى وقت قريب كان قرّاء المقام العراقي من أمثال رشيد القندرجي يغنون في بعض المقاهي على أجواق الجالي البغدادي ولا سيما في ليالي رمضان.

وكانت في كل محلة من محاليل بغداد قهوة واحدة أو أكثر تختص بسكانها، وقلما يجلس في هذه القهاوي أناس من ابناء المحلات الأخرى، والغالب على أصحاب المقاهي أن يكونوا أكثر معرفة بالناس من ساكني تلك المحلات.

وفي بغداد اليوم عدد كبير جداً من المقاهي والجايخانات تعد بالمئات، وكانت سنة ١٣٠١ هـ على ما جاء في سالنامة بغداد ١٨٤ مقهى.

وطريقة تخدير الشاي في المقاهي وتوزيعه على الجلاس هو أن توضع كمية من الجاي اليابس في القوري ويصب عليه الماء الساخن من سماورات خاصة فيمكث القوري قريباً من جمر الفحم فإذا مر عليه وقت فاسودَّ وخدر صبّوا منه في الاستكانات وقدموه لشاربيه. ويلبث القوري على النار يشربون منه حتى ينفد.

ويقال للجاي «سنكين» إذا كان قاتم اللون، وكذلك يقال له «طوخ» أيضاً.

وفي أوساط المقاهي تشيع الفاظ ومصطلحات خاصة، منها لفظة «والوير»، ومعناها ان يدفع أحد الجلاس أجور المقهى عن آخرين، وذلك بأن ينادي على صاحب المقهى عند جلبه الشاي الى شخص ما، قائلاً «وير» كناية عن ان حساب ذلك الشخص سيدفعه هو عنه، وهنا يرد عليه صاحب المقهى قائلاً «جبا». ولفظة وير كلمة تركية بمعنى أعط. وأما لفظة جبا فقد عرف استعمالها قديماً.

وعرفت في بغداد مجموعة من المقاهي المشهورة منها «كهوة الشط» التي لا تزال قائمة حتى اليوم في منطقة المصبغة، وكانت مجمع التجار ورجال الأدب والسياسة في أيام سلفت.. ومنها «كهوة البيروتي» في الكرخ وكانت تقع على شاطىء دجلة وقد هدمت هي وما حولها من المباني أوائل سنة ١٩٦٥ م، ومنها «كهوة الشابندر» وتقع في الاكمكخانة، وكهوة «حسن العجمي» في الحيدرخانة[١].

وتحمل بعض المحلات اسماً مقروناً بلفظة الكهوة، منها «كهوة شكر» في جهة

باب الشيخ و«كهاوي عكيل» في الكرخ، و«كهوة حوري»، في الجوبة و«كهوة حجي عزيز» قرب محلة المجارية.

أما الجايخانات فهي مقاهي صغيرة ولكنها لا تدار فيها القهوة، وإنما يكتفى فيها بتوزيع الجاي على الجلاس.

المغنون: يتعيش كثير من المغنين من أعمال وحرف يحترفونها، غير ان هناك من لا حرفة لهم سوى الغناء، وبعضهم يستعين بالغناء على تدبير أمر المعيشة كافة الى أعماله المعتادة.. ومن المغنين من ترك حرفته القديمة وأمسك بالغناء يتعيش منه، وكان من هؤلاء رشيد القندرجي مثلاً، فإنه كان يتعيش من قراءة المقام العراقي في حفلات الجالغي التي تقام في البيوت والمقاهي، ومن الغناء في الاذاعة العراقية، وتسجيل الاسطوانات لقاء أجور ومكافآت مالية، وهكذا القول على الآخرين من ممارسي صناعة الغناء.

ومن المواقع التي دبَّ إليها دبيب الغناء حفلات المولد النبوي إذ أصبح وجود المغني بين جماعة قراء المنقبة النبوية شيئاً مطلوباً، ففي خلال تلاوة المولد يتعين على المغني الموجود بينهم أن يغني شيئاً من المقامات العراقية بطريقة تختلف بعض الاختلاف عن الاسلوب الذي يتغنى به المقام في حفلات الجالغي. وفي بغداد اليوم قلة من مغنّي المقام العراقي يتعيشون من الغناء في الاذاعة وفي الحفلات الأخرى.

الى قبل نحو ثمانين عاماً، أي في مطلع القرن الحالي، لعلك كنت، إذا زرت بغداد تجد فيها شيئاً من بغداد الرشيد أو بغداد ألف ليلة وليلة، في حمام تنعم فيه بالراحة، أو في معنّى في مقهى ينتحي من دون الناس مكاناً قصياً في قبو معقود منذ قرون، أو عند طباخ يعطيك اللوزينج والفالوذج.

أما اليوم ـ فأنوار النيون تخطف الابصار بدل أنوار الشموع التي كانت تُخْفضُ الأبصار خفراً وحياء. وزعيق السيارات أكثر صمماً من صهيل الخيول التي كان الفرسان يتبخترون عليها. وحتى الشاي الذي كان يسقى في استكانات قد يُقدّم لك في استكانات من البلاستيك.

ومع ذلك زر بغداد، فبغداد حرية بأن تزار!

الهوامش

(١) هذه هي بعض المقاهي التي جلست فيها في زياراتي لبغداد.

القدس - تاريخ ووجدان

(١)

في سنة ٣٧٥ هـ/٩٨٥ م فرغ كبير الجغرافيين العرب في القرن العاشر، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء البشاري المُقدسيّ، من وضع كتابه المسمى «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم». وقد جاء فيه عن القدس ما يلي:

«بيت المقدس ليس في مدائن الكُوَر أكبر منها... لا شديدة البرد وليس بها حرّ، وقلّما يقع فيها ثلج. وسألني القاضي أبو القاسم ابن قاضي الحرمين عن الهواء بها فقلت سَجْسَج لا حرّ ولا برد شديد. قال هذا صفة الجنّة. بنيانهم حجر لا ترى أحسن منه ولا أتقن من بنائها، ولا أعفّ من أهلها ولا أطيب من العيش بها، ولا أنظف من أسواقها، ولا أكبر من مسجدها، ولا أكثر من مشاهدها. عنبها خطير وليس لمعنّقتها نظير. وفيها كل حاذق وطبيب، واليها قلب كل لبيب، ولا تخلو يوماً من غريب. وكنت يوماً في مجلس القاضي المختار أبي يحيى بن بَهرام بالبصرة فجرى ذكر مصر وغيرها. الى أن سئلتُ أي بلد أجل قلت بلدنا، قيل فأيها أطيب قلت بلدنا، قيل فأيّها أفضل قلت بلدنا، قيل فأيّها أحسن قلت بلدنا، قيل فأيّها أكثر خيرات قلت بلدنا، قيل فأيها أكبر قلت بلدنا. فتعجّب أهل المجلس من ذلك وقيل أنت رجل محصّل، وقد ادعيت ما لا يقبل منك، وما مثلك الا كصاحب الناقة مع الحجّاج. قلت أما قولي أجلّ فلأنّها بلدة جمعت الدنيا والآخرة فمن كان من ابناء الدنيا وأراد الآخرة وجد سوقها، ومن كان من ابناء الآخرة فدعته نفسه الى نعمة الدنيا وجدها. وأما طيب الهواء فإنه لا سمّ لبردها ولا أذى لحرها. وأما الحسن فلا ترى أحسن من بنيانها ولا أنظف منها ولا أنزه من مسجدها. وأما كثرة الخيرات فقد جمع الله تعالى فيها فواكه الأغوار والسهل والجبال، والأشياء المتضادّة كالأترج واللوز والرطب والجوز والتين والموز. وأما الفضل فلأنها عرصة القيامة ومنها المحشر واليها المنشر. وإنما فُضِّلت مكة والمدينة بالكعبة والنبي صلعم. ويوم القيامة تُزفّان اليها فتحوي الفضل كلّه. واما الكبر فالخلائق كلّهم يُحشرون اليها فأيّ أرض أوسع منها فاستحسنوا ذلك وأقرّوا به» (المقدسي، ص ١٦٥ ـ١٦٧).

الا ان المقدّسي لم يخف عيوب مدينته. فقد أضاف الى ما سبق قوله: «الا أنّ

لها عيوباً عدة. يقال إنّ في التوراة مكتوب «بيت المقدس طشت ذهب مُلىء عقارب». ثم لا ترى أقذر من حمّاماتها، ولا أثقل مؤونة. قليلة العلماء كثيرة النصارى، وفيهم (أهلها) جفاء على الرحبة والفنادق ضرائب ثقال على ما يباع على الأبواب. فلا يمكن أحد أن يبيع شيئاً مما يرتفق به الناس الا بها، مع قلة يسار، وليس للمظلوم أنصار. والمستور مهموم، والغنيّ محسود، والفقيه مهجور، والأديب غير مشهود. لا مجلس نظر ولا تدريس. قد غلب عليها النصارى واليهود، وخلا المسجد من الجماعات والمجالس». (المقدسي ص ١٦٧).

وكان ابن حوقل أبو القاسم النصيبي، صاحب «كتاب صورة الأرض»، الذي سبق المقدسي زمناً قد وصف القدس، في حديثه عن بلاد «الشام»، بقوله: «وفلسطين أزكى بلاد الشام ربوعاً ومدينتها العظمى هي الرملة، وبيت المقدس تليها في الكبر. وهي مدينة مرتفعة على جبال يصعد اليها من كلّ مكان يقصدها القاصد من فلسطين... وليس ببيت المقدس ماء جار سوى عيون لا تنتفع الزّروع بها، وعليها شجيرات. وهي من أخصب بلاد فلسطين على مرّ الأوقات... وبمسجدها لعامة الأنبياء آثار ومحاريب معروفة». (صورة الارض ص ١٥٨).

(٢)

في سنة ١٠٠٠ كانت القاهرة المعزّيّة لا تزال طفلة عمرًا، أما القدس فكانت قد بلغت من العمر قرابة أربعة آلاف سنة، وفي المكان نفسه! فليس من الغرابة ان يكون الكشف عن تاريخ هذه المدينة أمراً عسيراً.

والذي اتفق عليه الباحثون هو ان أول استقرار في القدس يعود الى سنة ٣٠٠٠ ق.م.، ولعل هؤلاء السكان الاوائل كانوا قبيلة كنعانية. وكان الاسم الذي عرفت به هو أورو سالم ومعنى الاسم هو: «بلد الله». وقد ورد اسمها على هذا الرسم، أو بخلاف بسيط، في «نصوص اللعنة» المصريّة التي تعود الى القرن التاسع عشر قبل الميلاد، وهي نصوص كانت تلقى فيها اللعنة على أماكن في جنوب بلاد الشام كي يتجنبها المصريون في دخولهم تلك المنطقة. كما وردت في رسائل (الواح) تل العَمارْنة في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، اذ طلب أميرها من تحطميس الاول العون ضد البدو الغزاة الذين كانوا يهاجمون فلسطين. وفي نهاية هذا القرن يصبح اسمها يبوس، نسبة الى قبيلة اليبوسيين التي كانت تحكمها.

وحري بالذكر ان الأبنية التي أقيمت لسكن أهلها كانت على سفوح التل المرتفع فقط، لأن هذه البقعة بالذات كانت مقراً للآلهة.

ان المؤرخين الذين حاولوا تدوين قصة القدس، وفلسطين بأكملها، بعد هذا التاريخ كانوا يعتمدون على العهد القديم من الكتاب المقدس اعتماد كلياً. ولكن منذ القرن التاسع عشر، وفي نصفه الثاني على الأخص، بدأت الدراسات التاريخية الأدق

تضرب صفحاً عن هذا المصدر، بعد ان تعرض لدراسات معمقة للنقد الداخلي، لغة ومادة وتاريخاً. ولما قامت أعمال التنقيب الاثري في فلسطين، في القدس وعدد كبير من آثار المدن القديمة في فلسطين، أخذ الباحثون يعتمدون مصادر أخرى وثائقية وآثارية جاءت من البلاد المجاورة. ومن ثم فإنه من الممكن القول ان تاريخ هذه الفترة لا يزال تحت المجهر. وقد يظل الباحثون مختلفين حول تطور تاريخ القدس وفلسطين لفترة طويلة.

ومن ثم فإننا ننتقل الآن الى الاشارة السريعة لأيام وفترات كانت القدس فيها معروفة التاريخ الى درجة كبيرة.

١ ـ في أيام هيرودس/حَدَد العربي الأدومي (٣٧ ـ ٤ ق.م) حظيت القدس بحاكم تؤيده رومة (التي كانت قد احتلت فلسطين سنة ٦٣ ق.م.)، وكان مغرماً بالبناء الفخم. فبنى في القدس هيكلاً كبيراً، عثر على بعض آثاره، وقصراً فخماً لسكناه وعمر أسوار المدينة. وهذا الهيكل تهدم لما احتل تيطس المدينة الثائرة على الرومان (٧٠ م).

٢ ـ في العقد الرابع من القرن الثاني الميلادي ثار سكان القدس، وكان أكثرهم من اليهود، على الرومان، فلما أخمد هدريان ثورتهم سنة ١٣٥ م، هدّم ما كان فيها من أماكن لعبادة اليهود، ومنعهم من سكناها، وبنى مستعمرة رومانية وسماها ايليا كابيتولينا. وكانت الخطة التي اتبعها هي التي عرفها الشرق في أيام الرومان. فتوسطت المدينة دارُ الندوة وتفرعت فيها الشوارع متعامدة على نحو ما كانت عليه المدن اليونانية ـ الرومانية، متأثرة بما عرف باسم الشبكة الهبدامية. وأقام هيكلاً لعبادة «رومة وأوغسطوس». وقد وُضِعَ في المدينة تمثال لهدريان لتزيينها. (أضيف فيما بعد تمثال ثان لخليفته انطونيوس بيوس). وقد كان هذان التمثالان قائمين حتى سنة ٣٣٣ م إذ وصفهما حاج بوردو الذي زار المدينة وكتب عن آثارها في تلك السنة.

٣ ـ في أيام الامبراطور البزنطي قسطنطين (٣٠٥ ـ ٣٣٧) حظيت القدس المسيحية بعنايته فشيد فيها أماكن هامة لعبادة المسيحيين (تحت).

٤ ـ بعد الفتح العربي الاسلامي للقدس كان من الطبيعي ان تنال هذه المدينة عناية خاصة من أولي الأمر. ومع ان عمر بن الخطاب بنى هناك مسجداً، فإن آثاره قد عفي عنها. لكن عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ/ ٦٨٥ ـ ٧٠٥ م) هو الذي يعود اليه جعل القدس مدينة مقدسة للمسلمين بالأبنية التي شادها هو وابنه الوليد (٨٦ ـ ٩٦ هـ/ ٧٠٥ ـ ٧١٥ م). (سنعالج هذه فيما بعد).

(٣)

ظلت القدس تحت السيادة الاسلامية منذ ان تسلّمها الخليفة عمر بن الخطاب من البطريرك صفرونيوس (١٧ هـ/٦٣٨ م)، فحكمها ولاة أو امراء أيام الخلفاء الراشدين (١١ ـ ٤٠ هـ/ ٦٣٢ ـ ٦٦١) والأمويين (٤١ ـ ١٣٢ هـ/ ٦٦١ ـ ٧٥٠ م)

والعباسيين (١٣٢ ـ ٣٥٨ هـ/ ٧٥٠ ـ ٩٦٩ م). وحري بالذكر ان معاوية بن أبي سفيان، الخليفة الأموي الأول، تمّت بيعته في القدس.

كان القرنان العاشر والحادي عشر زمن اضطراب سياسي في بلاد الشام. ذلك ان الخليفة العباسي كان قد فقد سلطته وسلطانه منذ سنة ٣٣٤ هـ/ ٩٤٥ م لما دخل أحمد البويهي بغداد، اذ استبد هذا بشوون الدولة، كما فعل خلفاؤه من بعده، الأمر الذي استمر حتى سنة ٤٤٧/ ١٠٥٥. ففي هذه السنة انتهت سلطة الدولة البويهية وخلفتها، في الاستبداد نفسه والسيطرة ذاتها، الدولة السلجوقية السنية. في هذه الفترة زاد التفسخ السياسي الذي أصاب الخلافة العباسية من قبل، وعصفت بأنحائها المختلفة وأرجائها الواسعة شؤون كان أذاها على البلاد والعباد، مركزاً وأطرافاً، كبيراً.

وفي واقع الأمر، فإن مصر وبلاد الشام كانتا قد خضعتا حتى من قبل الى حكم يعترف بالعباسيين اسمًا. اذ ان احمد بن طولون، الذي عين حاكماً على مصر (٢٥٤/ ٨٦٨)، كان قد أخذ نفسه بحكم البلاد حكماً مباشراً وضم اليه بعض أجزاء بلاد الشام، وأقام هناك أسرة حاكمة ظلت تقوم بالأمر حتى سنة ٢٩٢/ ٩٠٥).

وعلى نحو ما فعل أحمد بن طولون فعل محمد بن طغج، الذي عرف بالأخشيد. فقد اتخذ من تعيينه حاكماً على مصر من قبل الخليفة العباسي سنة ٣٢٣/ ٩٣٥ وسيلة للاستبداد بأمر البلاد، واحتل أجزاء من بلاد الشام، وأنشأ أسرة حاكمة ظلت في دست الحكم الى ان احتل الفاطميون مصر ٣٥٨/ ٩٦٩، فقضوا عليها.

أما في بلاد الشام نفسها فقد ظهرت دويلات وإمارات (وان كان بعض أصحاب السلطة فيها قلدوا نظراء لهم في النصف الشرقي من بلاد الخلافة فاتخذوا القاباً مثل سيف الدولة) هي الآتية:

١ ـ أنشأ الحمدانيون دولتهم في الموصل أصلاً (٢٩٣/ ٩٠٥) على أثر تعيين أبي الهيجا عبدالله حاكماً لها، فاستبد بالأمر، وظلت دولة الحمدانيين في الموصل حتى سنة ٣٨٩/٩٩١. على ان فرعاً انفصل عن الأصل وأقام دولة في حلب (٣٣٣/٩٤٥). وهذه كانت لها حروب وغزوات مع البزنطيين، كما كانت المعارك تنشب أحياناً مع العُقَيْليين. وأخيراً اغتال القائد لؤلؤ آخر امرائهم (٣٩٤/١٠٠٤).

وفي السنة نفسها احتل الفاطميون حلب.

ومن كبار حكام حلب الحمدانيين سيف الدولة (٣٣٣ ـ ٣٥٦/ ٩٤٥ ـ ٩٦٧) وهو صاحب المُتَنبّي، الشاعر الكبير.

ب ـ شغل العُقَيْليون، في تعدد اماراتهم، منطقة واسعة تشمل شمال بلاد الشام وجزيرة ابن عمر (الجزيرة الفراتية) وشمال أرض الرافدين بين سنتي ٣٨٠ و ٤٨٩/ و٤٨٩ ـ ١٠٩٦. إلا ان نفوذهم في شمال سورية كان مركزاً بين سنتي ٤٥٣/١٠٦١ و٤٧٨/١٠٨٥.

وقد انتهى أمر هذه الدولة ـ الامارات، لما استولى السلاجقة على بلاد الشام ح سنة ٤٨٩/ ح ١٠٩٦.

ج ـ أقام المرداسيون دولتهم في حلب وشمال بلاد الشام ٤١٤ ـ ٤٧٢/ ١٠٢٣ ـ ١٠٧٩.

وقد قضى العُقَيْليّون على دولتهم.

د ـ دولة السلاجقة قامت أصلاً في الجزء الشرقي من الخلافة العباسية، وهم أتراك عرقاً. أنشأ الدولة طفرل سنة ٤٢٩/ ١٠٣٨. وفي سنة ٤٤٧/١٠٥٥، كما ذكرنا سابقاً، دخل بغداد لحماية الخليفة العباسي من استبداد بني بويه. وفي أيام خليفتيه ألْب ـ أرْسلان وملك شاه (٤٥٥ ـ ٤٨٥/ ١٠٦٣ ـ ١٠٩٢) توسعت الأسرة وقويت. وفي سنة ٤٦٣/ ١٠٧١ تمكن اتسز السلجوقي من احتلال القدس وانتزاعها من الفاطميين، ولكن الفاطميين استعادوها سنة ٤٩١/ ١٠٩٨ نهائياً.

وقد أقام السلاجقة دولة لهم في حلب ودمشق (٤٧١ ـ ٥١١/ ١٠٧٨ ـ ١١١٦) كان لها شأن في الأحداث التي شهدتها بلاد الشام.

ان القرنين المذكورين، العاشر والحادي عشر، شهدا هجمة بدوية عارمة من الصحراء السورية. فالحمدانيون والعُقَيليون والمرداسيون كانوا من هذه القبائل العربية التي انتقلت الى بلاد الشام وأنشأت دويلات. وكان الى جانب هؤلاء القرامطة الذين قاموا بثورة في الأطراف الشرقية لبلاد الشام في البادية، لكنه قضي عليها سنة ٢٩٣/ ٩٠٦، ففيروا اتجاههم وأسسوا لهم دولة في البحرين.

د ـ هنا جاء دور الفاطميين لنوضح علاقتهم ببلاد الشام. قامت الخلافة الفاطمية في تونس على يد أول خلفائها، عبيد الله المهدي سنة ٢٩٧/٩٠٩. وفي سنة ٣٥٨/ ٩٦٩ دخلت جيوش الفاطميين مصر (وبعد ذلك انتقلت الخلافة الى القاهرة المعزية العاصمة الجديدة للخلافة). وفي السنة التالية نجح القائد الفاطمي جعفر بن فلاح الكتامي من التسلط على أكبر جزء من أرض فلسطين، بعد انتصاره في الرملة. ولعلّ من أسباب نجاحه الوجود الشيعي في بلاد الشام التي كان فيها عرب بدو من الشيعة، كما ان الدعاية الفاطمية كانت قد نشطت لا في هذه المنطقة فحسب، بل انها قد وصلت حتى الاجزاء الشرقية من بلاد الخلافة العباسية (السابقة) في خراسان وما اليها.

كان من اللازم علينا ان نضع أمام القارىء هذه الصورة لبلاد الشام في الفترة التي أشرنا اليها ليتضح له أهمية هذه الرقعة في التاريخ العربي الاسلامي. ونود ان نضع بين يديه ملاحظات اضافية لعلها تزيد في جلاء الفكرة.

لم يكن الطولونيون والاخشيديون والفاطميون الوحيدين من حكام مصر الذين اهتموا ببلاد الشام. ذلك ان كل دولة قوية قامت في مصر، من أيام تحطميس الثالث

في القرن الخامس عشر قبل الميلاد الى أيام محمد علي في القرن التاسع عشر بعد الميلاد، كانت حريصة على ضم بلاد الشام الى سلطانها. ويعود ذلك الى سببين رئيسيين: أولهما ان حدود مصر عن طريق سيناء مكشوفة ولا بد لحكام مصر من ان يحتلوا بلاد الشام حتى جبال طورس، الفاصلة بينها وبين أسية الصغرى. وعلى كل فما لا يُدرك كله لا يُترك جلّه. فلذا لم يُتح للقوة المصرية ان تحتل بلاد الشام بأجمعها فليكن احتلال جزء منها ـ حيث يستفاد من الجبال ـ للدفاع عن مصر. أما الأمر الثاني فهو ان بلاد الشام هي الطريق التجاري البري من البحر المتوسط الى الخليج العربي ـ ومن ثم الى المحيط الهندي. وهو مواز للطريق البحري ـ البحر الاحمر (ومن ثم الى المهيط الهندي). فالسيطرة على الطريقين تعني، بالنسبة الى الدولة المصرية، السيطرة التامة على المجال التجاري بكامله. وبهذه المناسبة فإن الدول القديمة بأجمعها التي قامت في أرض الرافدين كانت حريصة على ان تمتلك بلاد الشام للغرض نفسه.

ونحسب أن ما حمل دول مصر في القرنين العاشر والحادي عشر على الاهتمام الخاص ببلاد الشام، هو ان التجارة الايطالية كانت آخذة بالنشاط مع الموانىء الشامية، الأمر الذي كان يسيل له لعاب حكام مصر وسواهم.

وحري بالذكر انه حتى الدويلات التي قامت في بلاد الشام وما جاورها شمالاً في شرق كانت عواصمها المدن التجارية الكبرى في تلك الجهات: الموصل وجزيرة ابن عمر وحلب ودمشق، فضلاً عن دويلات أصغر حجماً، ضربناً صفحاً عنها، مثل امارة طرابلس وسواها.

فضلاً عن ذلك فإن طريق الحج الشامي كان قد أخذ بالنمو بسبب انتشار الاسلام في انحاء من أسية الصغرى، الأمر الذي كان موضع اهتمام الكثيرين من أصحاب السطوة والنفوذ، لأن قافلة الحجاج كانت قافلة تجارية أيضاً.

ولنضف الى ما ذكرنا ان مصر (وأرض الرافدين) كانت بحاجة الى بعض المواد التي تنتجها بلاد الشام ولم توجد عندها، وأهمها الأخشاب وزيت الزيتون.

(٤)

نود الآن ان نولي جنوب فلسطين بالتفاتة خاصة لارتباط تاريخ القدس به ارتباطاً مباشراً.

مرّ بنا ان جعفر بن فلاح الكتامي فرض سلطة الفاطميين على معظم أراضي فلسطين. لكن البدو الذين كان لهم نفوذ خسروه بهذه المناسبة، جربوا، وببعض النجاح، في ان يحالفوا خصوم الفاطميين في الشمال، وبذلك كانوا عاملاً في تعريض الحكم الجديد للتصدع. وهذه الحالة كانت سيئة لا بالنسبة للحكم فحسب بل الى قلقلة الحركة التجارية خاصة والاقتصادية عامة.

كان آل الجراح هم الذين يقومون بهذه الأعمال بشكل خاص، وهم من بني طيء، القبيلة العربية. وإذا أخذنا خلافة الحاكم بأمر الله الفاطمي (٣٨٩ ـ ٤٠٢/ ٩٩٨ ـ ١٠٢١) نقطة انطلاق للتحدث عن بني طيء وإمارتهم الطائية التي كانت سلطتها تدور حول الرملة، أحد المدن التجارية المهمة في فلسطين، والتي ترتبط، عن طريق غزة بمصر، وعن طريق طبرية بدمشق وما اليها وشمالها، نجد ان الطائيين بقيادة المفرّج بن دغفل، ثم بقيادة ابنه حسان، كانوا شوكة في خاصرة السلطة الفاطمية في فلسطين. فقد قامت لهم أكثر من ثورة في مطلع القرن الحادي عشر. ولم يقفوا عن ذلك حتى تمكن الخليفة من وضع حد لها بوسائل مختلفة.

لكن ذلك لم يكن فيه قضاء نهائي لا على الثورة ولا على الأطماع. ففي سنة ١٠٢٤/٤١٤ اتحدت القبائل بقيادة حسان الطائي، إذ كانت قبيلته صاحبة الجزء الأكبر من النفوذ والقوة، وأقام هذا القائد امارة في الرملة كانت القدس تابعة لها، وامتدت حتى الحدود المصرية ومدينة أيلة (العقبة). وكانت امارة نهّابة سلاّبة لم تعف تاجراً أو حاجاً من شرورها. وظل أمرها يتعاظم حتى سنة ١٠٦٦/٤٥٨ حين قضى عليها الفاطميون. لكن البدو عادوا الى الظهور والنفوذ، وانتزعوا من الفاطميين أكثر ما كان بأيديهم من فلسطين، بما في ذلك القدس سنة ١٠٧٠/٤٦٢. وفي السنة التالية وقعت القدس في أيدي السلاجقة.

لكن الحكم السلجوقي لم يثبت في جنوب فلسطين، كما لم يثبت في أماكن أخرى من بلاد الشام، إذ خرج الكثيرون عن طاعة السلاجقة وأعادوا الخطبة للخليفة الفاطمي وطُرِدَ أنصار الحكم السلجوقي من القدس. الا ان اتسز عاد الى غزو القدس وإعادتها الى الحكم السلجوقي سنة ١٠٧٧/٤٦٩. وعاد الفاطميون الى غزو القدس سنة ١٠٩٨/٤٩١، فضربوا أسوارها وخربوها واحتلوا المدينة. لكنهم بعد دخولهم اياها أصلحوا أسوارها. لكن القدس احتلها الصليبيون في السنة التالية. وبعد دخولهم المدينة أصبحت خالية من السكان الأصليين، ابناء القدس العربية، اذ ان السكان كانوا قد قتلوا أو أجلوا عنها[1].

وفي سنة ١١٨٧/٥٨٣ استعاد صلاح الدين القدس من الصليبيين. الا ان معاهدة عقدت بين الكامل وفردريك الثاني (سنة ٦٢٦/ ١٢٢٩) سمحت للصليبيين ان يعودوا الى القدس لمدة عقد من الزمان. لكن الحرم الشريف ظل في أيدي المسلمين. ومع ان الصليبيين ظلوا هناك مدة أطول، بسبب الخلافات التي قامت بين أهل الحكم من الأيوبيين في بلاد الشام ومصر، الا ان الناصر داود أمير الكرك استعادها سنة ١٢٣٩/٦٣٧. وقد جددت هذه المعاهدة سنة ٦٤١/ ١٢٤٤ حيث مُنح الصليبيون السيطرة على القدس بكاملها. الا ان قوة من الخوارزمية بقيادة بَرْكَه خان، وبتشجيع من سلطان مصر الأيوبي، هاجمت القدس واحتلتها، وكان ذلك بعد ستة شهور من

توقيع المعاهدة المذكورة. وقد تعرضت القدس وقتها للسلب والنهب. وبذلك انتهى أمر الصليبيين في القدس، وتبعت القدس بعدها للسلطان الصالح أيوب، سلطان مصر، كما ركز السلطان وجوده في أنحاء القدس، وجاء هذا باعتراف امراء الايوبيين في بلاد الشام.

كان المماليك خلفاء الأيوبيين، اذا استولوا على الحكم سنة ١٢٥٠/٦٤٨ في مصر أولاً ثم في بلاد الشام الداخلية قبل ان يقضوا على الوجود الصليبي على الساحل الشامي نهائياً سنة ١٢٩١/ ٦٩٠. فكانت سلطتهم، بطبيعة الحال، تشمل القدس.

وقد ظلوا سلاطين المنطقة المصرية ـ الشامية الى الاحتلال العثماني سنة ١٥٦٧/ ٩٢٢.

(٥)

هل هذا كل ما يقال عن القدس ـ شطحات تاريخية لا تفصيل فيها ولا تعليل!

لا. القدس مدينة مقدسة في اليهودية والمسيحية والاسلام. فهي بلا شك حرية بأن يصار الى توضيح دورها في الوجدان العالمي.

أشرنا من قبل الى ان العهد القديم من الكتاب المقدس فقد أهميته كمصدر تاريخي بعد البحوث والدراسات والاكتشافات الأثرية خاصة في القدس. وفي آخر كتاب «اركيولوجية القدس» تقول مؤلفته أنه ليس ثمة أثر لمدينة في القدس قبل القرن السابع قبل الميلاد.

لكننا عندما نقوم بعرض لسبب تقديس اليهودية للقدس، يتعين علينا ان نعود الى الطرح الكتابي الأصلي ونضع أمام القراء ما جاء فيه مما يعتبر الأسس والقواعد للتاريخ والشريعة والنبوءات في اليهودية. فالعهد القديم تقبله اليهودية بنصّه وفصّه على أنه تم وضعه بوصاية من الله؛ فهو كتابها المقدس.

ولن نعنى بالتفاصيل مهما كان نوعها، ولكننا نذكّر القراء بما قد يعرفونه، من نقاط أساسية أدت باليهودية الى اعتبار القدس مدينة مقدسة ساكنة في أعماق نفوس أتباعها.

هذه المراحل تشمل خروج اليهود من مصر بقيادة موسى، والتيه في سيناء أربعين سنة، تلقى خلالها موسى من الله الوصايا العشر. وكان عهد الله (؟) قد وضعه الاسرائيليون في «تابوت العهد» الذي كان يحمل أمام الخارجين (راجع سفر الخروج ٣٧: ١ ـ ٩ و١٥ ـ ٢٩). ولما وصل هؤلاء القوم الى أرض فلسطين وكان بينهم وبين سكان البلاد قتال، استولى الخصوم مرة عليه، لكنهم لم يروا الخير في ذلك، فأعادوه الى أصحابه. واعتبر هذا دليلاً على أن العهد هو لإسرائيل فقط، بل قديكون مؤذياً لغيرها لأنه يكون متعدياً ومعتدياً. ويمكن للقراء متابعة تاريخ تابوت العهد الديني في سفر صموئيل الاول (٤: ٢ ـ ٦: ١٩).

وبعد حروب ومعارك يميناً وشمالاً وأماماً وخلف تستقر اسرائيل في البلاد، وتبدأ بتنظيم شؤونها. ومن الطبيعي أن يكون الطرح الطبيعي للكتاب ان نظام الملكية الذي تتبعه هو هبة إلهية وتتم طقوس التولية على أسس دينية. فشاول، أول الملوك، «يُمسح قائداً على ميراث الرب» (سفر صموئيل الاول ١٠:١) ثم يتم توليته الملك (السفر نفسه ١٠: ١٧ ـ ٢٧).

لكن الملكية الحقيقية يمثلها داود. وهو أيضاً يُمسح ملكاً بالزيت المقدس مثل شاول سلفه والباقين ممن خلفوه (سفر صموئيل الاول ١٦: ١٣). إلا ان داود كان أول ملك تُوِّجَ أيضاً وفي بلدة الخليل (حبرون) (سفر صموئيل الثاني ٢: ١ ـ ٤، ٥: ١ ـ ٥).

ويحتل داود مدينة يبوس او اورشليم (وهي لم تكن أكثر من بلدة) (راجع سفر صموئيل الثاني ٥: ٦ ـ ١٢) التي يشار اليها بعد ذلك بمدينة داود (صموئيل الثاني ٦: ٩) لأنه بنى فيها مدينة وأسواراً حولها ومكاناً لسكنه. ونقل داود تابوت العهد اليها وأقام خيمة وضعه تحتها، (صموئيل الثاني ٦: ١ ـ ١٩). ونحسب أنه هذا هو التاريخ الذي بدأت فيه القدس سيرة القداسة في الديانة اليهودية. هذا ثم في العقود الاولى من القرن العاشر قبل الميلاد.

وجاء دور سليمان الحكيم، الذي ملك ٩٧٠ ـ ٩٣٣ ق.م.

سليمان بنى الهيكل، الذي يقول اليهود إنه كان يقوم حيث نجد الحرم الشريف اليوم. وقد كان هيكلاً فخماً كانت جوائزه من خشب الارز الذي زوده به معاصره حيرام ملك صور. وقد أعد سليمان الأمر إعداداً دقيقاً (سفر الملوك الاول ٥: ١٥ ـ ٢٢) واستخدم مهرة البنائين والصناع في إقامته (السفر نفسه ٦: ١ ـ ٣٦) وفصله على نحو يخدم جميع الخطوات الدينية المتبعة في اقامة الصلوات.

واحتفل بالفراغ من البناء وفي الوقت ذاته نقل تابوت العهد من الخيمة الى الهيكل (الملوك الاول ٨: ١ ـ ٢٩).

وبذلك تم لإسرائيل ما رواه العهد القديم (الذي دُوِّن بعد ذلك بفترات طويلة) من حيث ان الاله يَهْوَه قد اختار بني اسرائيل شعباً خاصاً به وهو إله خاص بهم، ومنح هذا الشعب أرضاً خاصة ليقيم فيها كيانه. وهذا الشعب يعبد يهوه دون سواه.

على ان سليمان الذي كان يكرِّم يهوه في هيكله لم يكن ليبخل على نفسه، فاستمتع بخيرات الدنيا ولذائذها وأحاط نفسه بالطيبين والطيبات والعازفين والعازفات. وكانت الملكية تقتضي ان يقوم في «مدينة داود؟» وإلى جانب الهيكل قصر عظيم للملك الذي يحافظ على يهوه وتعاليمه. ولم يقصر سليمان في زخرفة القصر وتزيينه بناءً وزخرفة وبضاعة.

في أيام الدولة العثمانية سمح لليهود ان يزوروا جداراً في القدس سموه «جدار المبكى» (أو حائط المبكى) وهو في الواقع جزء من سور الحرم الشرقي، كانوا يقولون

انه الجزء الذي تبقى من هيكل سليمان. هكذا تعود الرواية القديمة فتبرز في جدار عادي قديم. لأن الوعي الوجداني اليهودي كانت عنده للقدس مكانة. مع ان ما عثر عليه من حجارة ضخمة كانت أصلاً في الهيكل الذي بناه هيرودس (حَرَد العربي الادومي) الذي حكم القدس بين ٣٧ و٤ ق.م. وكان قد فعل ذلك إكراماً لرعاياه اليهود (وكيلاً عن رومة).

فمع ان التاريخ يقف حائراً متردداً أمام هذه الروايات، فإن تقديس المكان عند اليهود قديم وعميق ـ بناء على رواية العهد القديم وتفسيراته المختلفة.

وإذ انتهينا من توضيح قدسية «القدس» في اليهودية يجدر بنا ان نراعي حق الجوار. ففي مغارة المكفيلة في حبرون (الخليل) دفن ابرهيم وزوجته سارة وابنه اسحق وسواهم، لما احتاط ابرهيم لذلك فابتاع المغارة من صاحبها لتكون مقبرة له ولأسرته من بعده. وبحكم دور ابرهيم في تطور العقيدة الاسرائيلية ـ اليَهْويّة ومنزلته في العهد القديم، أصبحت الخليل أيضاً مدينة مقدسة. وهناك بعد جب يوسف وسوى ذلك. وكل واحد من هذه يربط اليهودية بناحية تُقدّس بسبب نبي. لكن تظل القدس هي القدس والقداسة.

(٧)

ولد المسيح في بيت لحم. وفي سنة ٣٠ م صلب بناء على حكم صدر ضده، ومات وقام في اليوم الثالث. وكان القبر الذي أنزل فيه مهيأ لشخص آخر. وقد كان هذا القبر خارج سور المدينة. لكن بعد عشر سنوات كانت القدس قد اتسعت في تلك الجهة، وبني سور جديد ليحتويها، فأصبح مكان القبر داخل الأسوار. والقبر أصلاً كان قريباً من موقع الصلب المعروف باسم الجُلْجُلَة (أو الجُلْجُثَة). وفي وقت تلا ذلك سوّى الرومان مكان الجلجلة والقبر ببقايا أبنية متهدمة. الا ان ذلك لم يمنع الناس، خلال القرون الثلاثة التي تلت صلب المسيح، من الاشارة الى مكان الجلجلة. وفي أيام هدريان بُلطت الأرض فوق مكان الجلجلة والقبر وبني فوقه هيكل روماني.

لما انعقد مجمع نيقية المسكوني (٣٢٥ م)، طلب مكاريوس الذي كان المسؤول الديني المسيحي عن المدينة (٣١٤ ـ ٣٣٣) من قسطنطين إذناً بهدم الهيكل الروماني، واسمه هيكل فينوس، تمهيداً للبحث عن قبر المسيح. وقد سمح الامبراطور بذلك، وتم الهدم وأزيلت الحجارة والتراب فظهرت الجلجلة.

وجاءت الملكة هيلانة، أم قسطنطين، لزيادة الأماكن المقدسة (٣٢٥ ـ ٣٢٦) وأثناء اقامتها في القدس تم دور آخر من الحفر في المكان وعثر على مكان القبر. وعلى خشبة الصليب. تم ذلك في ١٤ ايلول/ سبتمبر ٣٢٦، واحتفل بذلك، ولا تزال الكنائس المسيحية (باستثناء الانجيلية منها) تحتفل بهذا العيد الى يوم الناس هذا، ويسمى عيد الصليب. وقد روي ان الخبر أرسل الى القسطنطينية عبر إشعال النار

في رؤوس الجبال، ومن هنا يوقد المسيحيون الشموع والأنوار عند الاحتفال بهذا العيد. (وهناك رواية أخرى تقول ان ايقاد النيران يعود الى سنة ٦٢٩ لما استعاد هرقل خشب الصليب المقدس من الفرس الذين حملوه معهم لما احتلوا القدس سنة ٦١٤).

طلبت هيلانة من ابنها ان تقام كنيسة في ذلك المكان فتم لها ذلك وبنى قسطنطين «كنيسة القيامة» ذات القبة الكبيرة، وأقام تحتها بناء أنيقاً مزخرفاً هو القبر المقدس. (يجدر بنا ان نذكر ان الامبراطور بنى أيضاً «كنيسة المهد» في بيت لحم، مكان مولد المسيح). وقد احتفلت العاصمة البزنطية بالفراغ من بناء كنيسة القيامة سنة ٣٣٥، وكانت هذه المناسبة تتفق مع الاحتفال اليوبيلي الثلاثين لتولي قسطنطين عرش الامبراطورية.

وقد تخلخل بناء الكنيسة بسبب الزلازل. ولما دخل الفرس القدس سنة ٦١٤ م أحرقوا سقف القبة الكبرى وأماكن أخرى من الكنيسة. لكن الكنيسة أصلح شأنها حتى قبل ان يستعيد هرقل القدس سنة ٦٢٩، وتم اتمام الاصلاح وزخرفة الكنيسة في أيام هرقل.

وكان ان تسلم الخليفة عمر الخطاب مدينة القدس من البطريرك صفرونيوس، الدمشقي المولد، سنة ٦٣٨/١٧، فلم تصب أي من كنائس المسيحيين بأذى. بل ان عمر أعطى أهل ايلياء الأمان على ما جاء في العهدة العمرية، ونصها هو المقابل:

وقد ضرب الكنيسة زلزال قوي في القرن التاسع لكنها ثبتت في مكانها. لكن كنيسة القيامة هُدِّمت في أيام الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي (٣٨٦ ـ ٤١١/ ٩٩٦ ـ ١٠٢١). وقد أبلى المكلفون بذلك بلاء حسناً في الأمر. الا انه بعد نحو سنوات ثلاث سُمح ببناء كنيسة القيامة من جديد، ويبدو ان الذي سمح للمسيحيين بالقيام بذلك كان المُفَرِّج بن الجراح، الذي نجح، لبعض الوقت، في ان يستولي على الرملة ويتولى السلطة في القدس أيضاً. وقد تم الاصلاح والتزيين والزخرفة في سنة ٤١٣/ ١٠٢٣، أي بعد عشر سنوات من تدميرها. وفي سنة ١٠٢٠ سُمح للمسيحيين ان يقيموا قدّاسهم دون صعوبة في حدود الكنيسة (القيامة) وعلى أنقاضها (إذ لم يكن البناء قد تمّ بعد).

لما احتل الصليبيون القدس ١٠٩٩/٤٩٢، استولوا على الكنيسة الارثوذكسية، وألغوا وجودها وحولوا جميع كنائس القدس الى الكنيسة اللاتينية.

وهكذا نُفيت الكنيسة الارثوذكسية من مهدها، ولم تعد اليه الا بعد استعادة القدس من هؤلاء المغيرين.

(أما ما أصاب السكان عامة فقد ذكرناه من قبل).

وخلال الفترة التي كانت القدس تحت حكمهم اهتم ملوك الصليبيين، في النصف الثاني من سلطانهم، بزخرفة الكنيسة والقبر المقدس، بحيث انه في سنة ١١٨٧/٥٨٣

بلغ القبر المقدس خاصة أجمل ما عرف عنه. لكن في تلك السنة، وصلاح الدين يضيق الخناق على المدينة، نزع الحكام الغطاء الفضي عن القبر المقدس ليسكوا منه نقوداً لدفع ما يترتب عليهم للمدافعين عن المدينة.

ولما دخل صلاح الدين المدينة لم تمس لا كنيسة القيامة عامة، ولا القبر المقدس خاصة، بأذى. وهذا انجر على أكثر الكنائس الأخرى.

على ان كنيسة القيامة والقبر المقدس وكنائس أخرى، بل القدس في معظمها لقيت الأمرين على أيدي الخوارزميين الذين هاجموا المدينة في سنة/ ١٢٤٤، من حيث التقتيل وهدم قبة القبر المقدس.

وظل القبر المقدس مهملاً حتى سنة ١٥٥٥، لما عني بالأمر بونيفاس الذي عين سنة ١٥٥١ حارساً للأرض المقدسة، فأخذ على عاتقه بناءه من جديد، بحيث يمكن القول بأن الذي صُوِّر يومها وفيما بعد، والذي استعاد نفسه بعد حريق ١٨٠٨ هو بناء من عصر النهضة وليس ذلك الذي جمّله الصليبيون في أواسط القرن الثاني عشر. نقف عند هذا الحد لأن في هذا كفاية لتوضيح الرباط الروحي القوي بين المسيحية والقدس.

(٨)

ان الجماعات المسيحية الأولى كانت قد قبلت الايمان بإله خالق للسموات والأرض، وبابن له صلب ومات وقام فداء عن الجنس البشري الذي كان قد ورث الخطيئة الجدية أو الأصلية بسبب هذه التفاحة التي قدمتها حواء الى آدم، فسقطت عن المسيحيين هذه الخطيئة العامة. وكانوا يؤمنون بالروح القدس الذي أُنْزِل على تلاميذ المسيح بعد صعوده الى السماء. وكان القانون الاخلاقي الذي يربطهم أساسه المحبة وصنع الخير. لكن هذه المسيحية الأولى لم يكن لها طقوس ولا قوانين ولا أماكن للعبادة. فكان المسيحيون يجتمعون في أماكن مختلفة - من بيوت أو هياكل مهملة، أو حتى في المجاري (في رومة خاصة) في أيام الاضطهادات التي عانوها. وكان الرابط المادي الوحيد الذي تجمعوا حوله هو «طقس المحبة» حيث كانوا يتناولون الخبز وبعض الخمر، تقليداً للعشاء السرّي الأخير للمسيح مع تلاميذه.

لكن مثل هذا الأمر لا يمكن ان يستمر بعد ان انتشرت المسيحية في مناطق كثيرة. ومع مرور الزمن نشأت امور تنظيمية وطقسية منها، على سبيل المثال، بناء الكنائس وتعيين مسوؤلين عنها وترتيب اسلوب اقامة القداس فيها وما إلى ذلك .

وإلى جانب هذه الامور التي اقرتها الموؤسسات الرسمية والدينية نشأت مع الزمن اعياد ارتبطت بالأماكن المقدسة او بالأحداث المرتبطة بها. فكان ثمة عيد الميلاد (الذي جاء الاحتفال به متأخراً نسبياً) وعيد الفصح (او القيامة) وعيد الصليب. وعيد الفصح اصبح يحتفل به في ثلاثة ايام: يوم الجمعة الحزينة (او

العظيمة) يوم صلب المسيح، ويوم سبت النور (اذ يهبط النور من السماء فينير المصابيح المعلقة فوق قبر المسيح)، ويوم احد القيامة وهو اليوم الذي قام فيه المسيح من بين الأموات. وهناك أعياد أخرى للعذراء والقديسين. وهذه المناسبات تجذَّرت مع الزمن في ضمير المسيحيين، الأمر الذي زاد ارتباطهم بالقدس، بقطع النظر عن اماكن اقامتهم.

والمسحيون كانوا يرون لزاما عليهم ان يزوروا البلاد التي عاش فيها المسيح ويتبركوا بلمس ترابها ومشاهدة اثاره وأثار تلاميذه. ان الحج لم يفرض في المسيحية، ولكن مع مرور الزمن نشأت هذه الرغبة عند المسيحيين حتى في الاماكن القصيّة. وأول حاج زار فلسطين وخلَّف وصفا مقتضباً لعدد من الأماكن المقدسة هو حاج بوردو الذي زار فلسطين سنة ٣٣٣م. (لا يعرف اسمه ولكنه لأنه من بوردو في فرنسة أطلق هذا اللقب عليه). وقد عني هؤلاء الحجاج غالباً، ولو ليس دوماً، بوصف بعض الاحتفالات الدينية.

كانت سلفيا، فيما يُرجّح فرنسية من مقاطعة أكتين (لعلها كانت اسبانية على رأي آخر). قضت في القدس ثلاث سنوات حول سنة ٣٨٥م. وقد وصفت حفلة تقبيل الصليب يوم الجمعة الحزينة على ما شاهدت ذلك في (الجلجلة) قالت: «جلس المطران في مقعده الخاص ووضعت أمامه طاولة عليها صندوق فضي يحتوي خشب الصليب المقدس. فُتِح الصندوق ووُضِع ما فيه على الطاولة. فوضع المطران يده على الخشبة وتنبه الأساقفة المحيطون به للحراسة. وتقدم الناس واحداً واحداً فانحنوا ثم لمسوا الصليب بجباههم أولاً ثم بمحاجرهم ثم قبلوه مراراً ومروًا. والغاية من وجود الأساقفة هو المحافظة على خشب الصليب، اذ أنه حدث مرة ان اقترب أحد الناس لتقبيله فعضّ جزءاً منه للتبرك وهرب به». (نقولا زيادة، رواد الشرق العربي، ط ٢، بيروت ١٩٨٦ ص ٥٨).

ويحدثنا اركولف الذي كان مطراناً في بلاد الغال والذي زار القدس في القرن السابع، عن عيد الصليب، اذ يقول: «اعتاد الناس ان يفدوا الى القدس جماعات كبيرة في الخامس عشر من ايلول (سبتمبر) من كل سنة للاحتفاء بعيد الصليب المقدس، ولتبادل السلع والبضائع، حتى أنه كان من الصعب السير في شوارع المدينة لكثرة الأقذار المسببة عن الحيوانات التي يؤتى بها. لكن العناية الالهية كانت تبعث على أثر مغادرة الناس للمدينة بأمطار غزيرة تنظفها». (نقولا زيادة، المكان نفسه، ص ٦٢).

ومع ان الخبر التالي لا يتعلق بالقدس نفسها، فإن إيراده له دلالة على الأحوال التي كانت سائدة في تلك الديار في القرن الثاني/ الثامن.

«جاء وُلّيبولّد الانكليزي لزيارة الأراضي المقدسة. هبط من البحر في طرسوس وانتقل منها الى حمص. ولأن عدد رفاق وُلّيبولّد كان ثمانية، ولأن العرب كانوا

يخشون قدوم المتجسّسين من أراضي بيزنطة، فقد ألقي القبض عليهم وزجوا في السجن، الى ان حقق معهم ومثلوا أمام الخليفة يزيد الثاني (١٠١ ـ ١٠٥/ ٧٢٠ ـ ٧٢٤). فلما عرف بلادهم وغايتهم أطلق سراحهم وزودهم برسائل أمان تمكّنهم من التجول في البلاد، وأعفاهم من ضريبة الحج. واتخذوا المدينة المقدسة مركزاً لزياراتهم. وقد مروا، في احدى جولاتهم، بحمص ثانية، فزودهم حاكمها بكتاب لكل اثنين منهم، وأمرهم أن يسافروا اثنين اثنين،إذ قد لا يكون لهم سبيل للحصول على الزاد إذا كانوا مجتمعين (طبعاً في الأماكن الصغيرة)». (نقولا زيادة، المكان نفسه، ص ٦٣).

ولا شك ان فيض النور يوم السبت السابق لأحد الفصح، كان من أهم المناسبات بالنسبة لزوار المدينة المقدسة. وبما انه ثمة اشارات الى العيد من قبل فإن برنارد الحكيم من حجاج القرن التاسع الميلادي هو أول من خلّف لنا وصفاً لهذه المناسبة. قال الرجل: «يجد الداخل الى القبر قناديل كثيرة معلقة فوقه. فإذا كان صباح السبت السابق ليوم الفصح بدئت الصلاة في الصباح، حتى إذا انتهي منها، أنشد الجميع بصوت رخيم «استَجِب يا رب»، واستمروا في ذلك حتى ينزل الملاك وينير القناديل المذكورة، وعندها يتقدم البطريرك ويمنح كل مطران حصته من هذا النور المقدس (الحصة كانت عدداً من الشموع يتسق من أسقفية المطران من حيث المنزلة والسعة)، ثم يسمح للشعب ان ينير كل قنديله». (نقولا زيادة، المكان نفسه، ص ٦٥).

فضلاً عن هذه الأمور المرتبطة بالأماكن والأحداث المهمة التي تدور حول حياة المسيح في القدس، فقد نشأت أمور مشابهة حول بيت لحم، مهد المسيح، والناصرة، بلد العذراء. وكل واحد من هذه الأمور، مهما كانت درجته من الأهمية تتباين مع سواه، كان له أثر كبير في تعميق الشعور بقدسية القدس بالنسبة للمسيحيين أينما كانوا يقيمون. هذه هي الناحية الوجدانية المسيحية العميقة المرتبطة بالقدس، ممثلة بالأماكن والطقوس والأعياد. وتظل القداسة للمكان هي التي تؤثر في الوجدان.

(٩)

﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا أنه هو السميع البصير﴾ (الاسراء: ١).

لسنا هنا في معرض الحديث عما ورد من شروح وتفسيرات لهذه الآية الكريمة. ان الذي نعنى به ان هذه الآية ثبتت مكانة القدس في الضمير الاسلامي بما لا يقبل أي شك. فضلاً عن ذلك فإن القدس كانت القبلة الأولى للمسلمين في مكة ولبعض بعد الهجرة. لكن الآية هي التي كانت الأقوى في غرس أهمية المدينة المقدسة في وجدان المسلمين. فهي ليست قضية اسراء من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى، الذي في القدس، وهو أقصى مكان للعبادة، ولكن الاسراء رافقه المعراج الى سدرة المنتهى.

وثمة أمور أربعة يجب ان نذكرها متصلة بالاسراء والمعراج، على ما ذهب اليه المفسرون: أولها، ان النبي (ص) ناجاه الله تعالى لما وصل اليه. وثانيها، ان النبي في مسيرته في المعراج التقى الأنبياء كلهم. وثالثها، ان الصلوات الخمس فرضت اثناء المعراج، ورابعها، ان النبي (ص) أَمَّ الأنبياء في الصلاة، وهذا دليل على أنه خاتم الأنبياء والمرسلين.

عرّج النبي (ص) الى السماء من الصخرة المباركة، وروي أنه ربط البراق الذي حمله مسرياً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى في مكان حفظته الذاكرة بأنه حائط البراق، وهو الذي يدّعي اليهود أنه جزء من الهيكل السليماني، ولذلك فقد عرف عندهم باسم حائط المبكى.

ونحن نكتفي بهذا إذ ليس من قصدنا ان نتوقف عند هذه الآية وما جاء عنها عند المفسرين وسواهم، فذلك أمر لا يدخل في اطار هذا المقال.

ومن ثم فلن نجد الأمر غريباً ان يهتم الخليفة عمر بن الخطاب بالبحث عن المكان الذي ورد ذكره في سورة الاسراء، فلما أرشد اليه أقام هناك جامعاً، أو لعله أمر ببنائه. وتأكد عمر من مكان الصخرة التي عرج النبي (ص) منها. لكن المسجد الذي أقيم بأمر عمر لم يبق منه شيء الى الآن.

ذلك بأن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٦٨٥/٨٦ ـ ٧٠٥)، وقد رأى ما كان في البلاد، وفي القدس خاصة، من كنائس، وأكبرها كنيسة القيامة، أراد ان يكون للمسلمين أمكنة مقدسة تضاهي ما عند المسيحيين أو حتى تفوقها. فبنى قبة الصخرة (سنة ٦٩١/٧٢ ـ ٦٩٢).

«ان قبة الصخرة، وهي ثالث الأماكن المقدسة في الاسلام، ذات هندسة مستوحاة من الفن البزنطي الى حد بعيد. وبالفعل فإن تصميمها برواقيه المستديرين، ثم باستخدام الموزاييك الزجاجي، وهو من عمل فنانين بزنطيين، يدل بوضوح على اهتمام الخلفاء الأمويين على تعزيز سلطتهم، مستخدمين، لأجل ذلك، انجدية هندسية بزنطية أكثر نضجاً وخبرة مما لدى اسلام كان لا يزال طريّ العود وقتذاك. بيد ان ثيماث thèmes تزيينها تحمل «شارة» اسلامية. ففضلاً عن الرخام، وما يعنيه وجود الرخام من الابهة والرخاء، وفضلاً عن التيجان المذهبة في أعالي الاعمدة، والموزاييك الزجاجي المذهب كلياً، ثمة ظاهرة تزيينية جديدة فرضت نفسها وزادت الموجود جمالاً. ان تركيب هذه الظاهرة التي يغلب عليها الطابع النباتي، وتقتصر مواضيعها الرئيسة على الزخارف الشمعدانية اللولبية، نجده «متوجاً» بكتابات بالخط الكوفي، تشكل شريطاً دائرياً يبلغ طوله ٢٥٠ متراً داخل البناء، ويحمل التاريخ ٧٢ هـ (أي ٦٩١ م). ان هذا العنصر التزييني عنصر أصيل ومبتكر وذلك من ناحيتين اثنتين: هناك أولاً الرغبة في تخفيف تأثير تزيين عادي، لا وظيفة له سوى تزيين الجدر

(الجدران) لتجميلها، وذلك بواسطة اسلوب رمزي واضح، ثم الزخرفة الشمعدانية اللولبية حيث تنبت أوراق شوكة اليهود الدالة على الحياة والخصوبة، ثم هناك ثانياً ظهور النقش معلناً ولادة أسلوب جديد في الزخرفة لم يكن معروفاً من قبل، وأنه هو خاص بالفن الاسلامي. وهذا الفن الذي يسعى الى التأكيد على ارتباطه الوثيق والحميم بالدين الاسلامي وباللسان العربي في آن». (حيان صيداوي، الاسلام فئوية وتطور العمارة العربية، دار المتنبي، باريس ـ بيروت، ١٩٩٢، ص ٥٨ ـ ٥٩).

فصلنا الكلام على قبة الصخرة المباركة لأنها أقدم أثر ديني وصلنا محتفظاً الى حد بعيد بسلامة بنيانه باستثناء الهيكل الداخلي للقبة الذي قام الخليفة الفاطمي الظاهر (٤١١ ـ ٤٢٧/ ١٠٢١ ـ ١٠٣٦) بترميمه سنة ٤١٣/ ١٠٢٢، وباستثناء القبة ذاتها التي رممها السلطان العثماني سليمان الكبير (٩٢٦ ـ ٩٧٤/ ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) (المكان نفسه ص ٥٨).

ومع ان عبد الملك نفسه بدأ ببناء المسجد الأقصى، فإن المسجد الكبير يعود الى أيام الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦/ ٧٠٥ ـ ٧١٥) وهو الذي بنى الجامع الأموي بدمشق.

وعلى خلاف قبة الصخرة، فان المسجد الاقصى تعرّض للكثير من الاضافات والتعديل بسبب الاصابات الكثيرة التي ألمت به واقتضت بعض التغيير في البناء ، لكن الكيان الاساسي والتخطيط الاصلي حافظا، على الغالب، على الهيئة العامة لهذا المسجد الكريم.

فقبة الصخرة هي الموضع الحسي للمعراج، والمسجد الاقصى هو التمثيل الواقعي للاسراء، حسب الآية الكريمة. وهكذا فان ما تعمق في الوجدان الاسلامي وحيًا الى اهمية القدس، اصبح له شاهد عيني يراه المسلم كلما زار المكان او صلى فيه ودعا للمسلمين ونفسه.

وكان للمسلمين حرم آخر في الخليل، المدينة المقدسة الثانية عند المسلمين في فلسطين، وقد عني الامويون باتمام ما بدئ به قبلهم من العناية بالحرم الابراهيمي هناك. على ان اماكن اخرى في فلسطين مرتبطة بالضمير الاسلامي بسبب عدد الصحابة المدفونين في انحائها وما اقيم فوق ضروحهم، وضروح غيرهم، من المزارات والمشاهد، وحتى الزوايا في بعض الاحيان.

خضعت القدس، بعد انتهاء عهد الرومان، لنحو ثلاثة قرون لحكم مسيحي. ولكن القدس، بعد فتحها، ظلت، مثلها مثل بقية فلسطين، تابعة لحكم اسلامي، باستثناء اقل من قرن كانت ففيه تحت الحكم الصليبي. وكانت هذه فترة طويلة ثبتت، بالواقع، مدينة القدس في الضمير الاسلامي على نحو قد يصعب ادراكه او حتى وصفه. ولكنه عميق الجذور.

وقد مررنا مرورا سريعا بتاريخ المدينة المقدسة حتى اخراج صلاح الدين

الصليبيين منها. وبعد ذلك ظلت تابعة (الا لفترة قصيرة جدا) للأيوبين. ولما قامت دولة المماليك (٦٤٨/١٢٥٠) ضمت القدس اليها. وظلوا فيها الى سنة ٩٢٢/١٥١٦ لما استولى العثمانيون على المدينة.

(١٠)

لما استولى الصليبيون على القدس سنة ١١٧٨ غيّروا من معالم الحرم الشريف. كما اصبحت المنطقة التي تضم قبة الصخرة والمسجد الاقصى والفراغ المتسع الذي يحيط بهما تعرف يومها. وقد كان المسجد الاقصى مقرًا لملوك الصليبيين. وقد جعل المسجد كنيسة ووضع صليب على قبته، لما انشئت فرقة الفرسان الهيكليين واصبحت الفسحة كلها تابعة لها. وقبة الصخرة جعلت ايضا كنيسة ورفع صليب فوقها. وبني مذبح لاقامة القداس فوق الصخرة. لكن لان الحجاج من الغرب دأبوا على اقتطاع اجزاء من الصخرة نفسها، فقد غطيت بالرخام ووضعت شبكة من الحديد بين الاعمدة الداخلية والخارجية (ظلت هذه الشبكة قائمة حتى سنة ١٩٦٠ لما نزعت ونقلت الى متحف الحرم الشريف). وفي ايام بغدوين وخلفائه الأقربين اقيم بناء غربي المسجد الأقصى كان مجمّعاً للسلاح وللجند. هذا البناء اصبح، بعد استعادة القدس، جامعاً للنساء. ولما انشئ متحف الحرم الشريف وضعت الآثار والمخطوطات في جزء منه.

لما احتل الصليبيون القدس نظم القاضي مجد الدين الحنبلي، قاضي الطور (جبل الزيتون) البيتين التاليين.

مررت على القدس الشريف مسلّماً على مـــا تبـــقى من ربوع وأنجم
وفاضت عيون الدمع مني صبابة على ما تبقى من عصرنا المتقدم

لكن آلام القاضي وأمثاله لم تطل. ففي سنة ٥٨٣/ ١١٨٧ استعاد صلاح الدين القدس من أيدي الغاصبين.

ولعلّ من خير ما يمكن أن يروى، في مثل هذه المناسبة، ما قاله العماد الاصفهاني، مصوراً أهمية القدس بالنسبة للمسلمين، وعازياً كلماته الى صلاح الدين نفسه: «إنّ أسعدنا الله على اخراج أعدائه من بيت المقدس، فما أسعدنا، وأي يد له عندنا إذا أيّدنا. فإنه مكث في يد الكفر احدى وتسعين سنة، لم يتقبّل الله فيه من عابد حسنة، ودامت همم الملوك دونه متوسّنة وخلت القرون عنه متخليّة، وحلت الفرنج به متوليّة. فما ادّخر الله فضيلة فتحه الاّ لآل أيوب، ليجمع لهم بالقبول القلوب. وخصّ به عصر الإمام الناصر لدين الله ليفضله به على الأعصار، ولتفخر به مصر وعسكرها على سائر الأمطار. وكيف لا يُهتم بافتتاح بيت المقدس الأقوى، والمسجد الأقصى المؤسس على التقوى. وهو مقام الأنبياء وموقف الأولياء ومعبد الاتقياء ومزار إبدال الأرض وملائكة السماء. ومنه المحشر والمنشر، ويتوافد اليه من

أولياء الله بعد المعشر. وفيه الصخرة التي صينت جدة ابهاجها من الابهاج، ومنها منهاج المعراج، ولها القبة الشمّاء التي على رأسها كالتاج. وفيه ومض البارق ومضى البراق. وأضاءت ليلة الاسراء بحلول السراج المنير في الآفاق» (راجع كتاب هادية دجاني شكيل وبرهان الدجاني (محررين) «الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى» بيروت ١٩٩٤، ص ١).

فكان من الطبيعي، لما استعاد صلاح الدين القدس ان يعم السرور العالم الاسلامي، وان يصبح صلاح الدين البطل الذي لا يجارى، وان يتم له، في المستقبل، صورة البطل الأسطوري.

ولم يكن غريباً ان يضج المسلمون بالنصر، وان يعتبروا ذلك الأمر أعجوبة من أعاجيب الزمان. وكم كنا نحب ان نورد هنا نماذج من الشعر الذي قيل يومها في كل مكان نطق أهلوه بالعربية. فالقضية كانت قضية «المسلمين والناس عامة».

ولكن لا بد لنا من أن نورد هنا بضعة أبيات من قصيدة للجويني قال فيها:

جند السماء لهذا الملك أعوان ... من شك فيه فهذا الفتح برهان
متى رأى الناس ما نحكيه في زمن ... وقد مضت قبل أزمان وأزمان
هذي الفتوح فتوح الانبياء وما ... لها سوى الشكر بالأفعال أثمان
أضحت ملوك الفرنج الصيد في يده ... صيداً وما ضعفوا يوماً ولا هانوا
كم من فحول ملوك غودروا وهم ... خوف الفرنجة ولدان ونسوان
تسعون عامًا بلاد الله تصرخ ... والاسلام أنصاره صم وعميان
فالآن لبَّى صلاح الدين دعوتهم ... بأمر من هو للمعوان معوان
لو ان ذا الفتح في عصر النبي لقد ... تنزلت فيه آيات وقرآن

وقد تناول المرحوم الدكتور محمود ابرهيم، عميد كلية الآداب في الجامعة الاردنية (عمان) سابقاً، هذا الموضوع ببعض التفصيل والتحليل في كتاب «الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين، الذي أشرنا اليه آنفًا، اذ عقد فصلاً عنوانه «فلسطين في الأدب العربي زمن الحروب الصليبية» (ص ٣٤١ ـ ٣٩٣، ومنه اخترنا الأبيات السابقة).

على ان الدكتور محمود ابرهيم تناول الأمر بشكل واضح مفصل في كتابين له حول هذه القضية: الاول «فضائل بيت المقدس» في مخطوطات نشره معهد المخطوطات العربية، الكويت سنة ١٩٨٥؛ والثاني «حطين بين أخبار مؤرخيها وشعرائها ومعاصريها» نشرته دار البشير في عمان (الاردن) سنة ١٩٨٧:

«وأقبل صلاح الدين، بعد خروج المسيحيين، يعيد الى المدينة وجهها الاسلامي. فاسترجعت المساجد التي كان المسيحيون قد حولوها الى كنائس. وأُزيل الصليب

الذهبي الذي كان الصليبيون قد نصبوه في قمة قبة الصخرة، وأُزيل المذبح الذي كان يغطي الصخرة المقدسة (في الواقع لم يغطها ولكنه أُقيم الى جانبها ن.ز.) وكذلك أزيل بلاط المرمر (الذي كان يغطي الصخرة المقدسة ن.ز)، وغُسل البناء كله بماء الورد لتطهيره من تلويث المسيحيين. وغُسل أيضاً المسجد الأقصى، في جانب آخر من الهيكل، حيث أقام فرسان الهيكل مكان قيادتهم، ومد السجاد للصلاة، وعُلّقت الثريات، وعاد الناس يقرأون القرآن.

«... وجلس السلطان للهناء، للقاء الاكابر والأمراء، والمتصوفة والعلماء. وهو جالس على هيئة التواضع وهيبة الوقار، بين الفقهاء وأهل العلم جلسائه الأبرار. ووجهه بنور البشر سافر، وأمله بعز النجع وافر ظافر. وبابه مفتوح وردفه ممنوح. وحجابه مرفوع وخطابه مسموع. ونشاطه مقبل وبساطه مقبّل... والقراء جلوس يقرأون ويرشدون، والشعراء وقوف ينشدون ويُنشَدون. والأعلام تبرز لتنشر والاقلام تزبر لتبشر (عماد الدين)».

(راجع الصراع الاسلامي ـ الفرنجي، ص ١٢٦ ـ ١٢٧).

(١١)

ليس لدينا معلومات أكيدة عن وجود مدارس في القدس في عهودها المبكرة. والذي ورد عنها، يمكن اجماله بأنه بين القرن الرابع قبل الميلاد والقرن الأول بعده، كانت فيها مجالس للكهنة تتناول أسفار العهد القديم بإعادة النظر والإضافة والتحرير والتحوير. وانه بعد تيطس وهدريان (بين ٧٠ و١٣٥ م) أخرجت حتى هذه المجامع من القدس، وكان السنهدريم ينعقد في يبنا (على مقربة من يافا وفي طبرية). وكانت النتيجة النهائية تحرير التلمود الاوروشليمي (تمييزاً له عن التلمود البابلي المعاصر) الذي كان تفسيراً وتتمة للعهد القديم.

لم تقم لمدارس يونانية (هلينستية) أو رومانية قائمة في القدس. وفي الفترة التي كانت فيها القدس تحت حكم البزنطيين لم يكن فيها مدرسة مسيحية ذات أهمية، هذا ان وجدت. فالمدارس المسيحية كانت في الاسكندرية وقيصرية (فلسطين) وأنطاكية والرها (أورفة الحالية في تركية)، وكانت مدرسة القانون في بيروت.

ومن هنا فإن النشاط الأدبي والفكري الذي عرفته بلاد الشام عامة في الفترة الهلّنسية ـ الرومانية ـ البزنطية (من القرن الرابع قبل الميلاد الى الفتح العربي في العقود الاولى من القرن السابع بعده) لم تشارك فيه القدس، مع ما كان لها من الأهمية الدينية المسيحية منذ ميلاد المسيح.

لكن الأمر اختلف بعد الفتح العربي. ومع ان تقلقل الامور سياسياً منذ القرن الرابع قد أضعف الوضع العلمي وزحزحه عن موقعه، فقد ظلت هناك محاولات جدية لتعريف الناس بالإسلام قرآناً وحديثاً وفقهاً وشرعاً.

ولن نطيل الحديث عن القرون العربية الاولى، بل سنكتفي بالعودة الى ما نقلناه عن المقدّسي في مطلع هذا المقال ونلقي بعض الضوء على ما جاء فيه حول هذه الناحية، فهو أقرب إخباريينا عهداً بالسنة ١٠٠٠ التي يدور هذا المقال حولها.

يقول المقدّسي عن القدس انها قليلة العلماء وان الفقيه فيها مهجور والأديب غير مشهود، لا مجلس نظر ولا تدريس وخلا المسجد من الجماعات والمجالس (ص ١٦٧). والذي يمكن التوصل اليه من التمعن في هذا القول هو ان الامر حادث بالنسبة للقدس. فقد مر عليها وقت، على ما نفهم من قوله، انها لم تكن قليلة العلماء وان الفقهاء كانوا موضع اهتمام وعناية، وان المسجد كانت، من قبل، فيه جماعات ومجالس. وهذه المجالس والجماعات في المسجد كانت، ولا بد، تتعاطى أموراً علمية دينية القصد منها التعلم والتفقه في أمور الدين.

يضيف المقدسي (ص ١٨٠): «واليوم أكثر العمل فيه على مذهب الفاطمي». وهذا أمر طبيعي. فقد كانت القدس قد دخلت تحت حكم الخلفاء الفاطميين. لكن المقدسي يكتفي بالعمل ولا يشير الى مدارس. وهذا من طبيعة الامور. فالدعوة الاسماعيلية (الفاطمية) لم تكن لها مدارس مفتوحة، على نحو ما عرف عن المذاهب السنية. فالدعوة سرية، والاعداد لها سري، وحتى في القاهرة نفسها لم تكن ثمة مدارس اسماعيلية يتلقن فيها الناس قواعد الدعوة. فمثل هذا الامر كان مقصوراً على بيت (او دار) العلم والازهر في حدود مقننة معينة.

ويضيف (ص ١٨٢) ان لأصحاب أبي حنيفة مجلس ذكر بالمسجد الأقصى، وانهم يقرأون في دفتر. أما الكراميّة فإنهم كان لهم كذلك ـ مجلس ذكر ـ ولكن في خوانقهم.

والذي يمكن قوله هو ان المجالس كانت معروفة، والفقهاء كانوا موضع اهتمام، لكن الامر تبدل في أيام المقدسي.

وإذا تذكرنا ما مر بالقدس وسواها في القرن الذي عاش فيه صاحبنا، أدركنا معنى أقواله واستطعنا تعليل الحال الذي كانت عليه مدينة القدس في أواخر القرن الرابع/ العاشر.

لم تكن الحال في القرن الخامس/ الحادي عشر أفضل، ان لم تكن ساءت. والمدرسة لا تقوم الا في جو يضمن لها العمل والدوام. رسمياً كان هذا الجو، وهو ما غلب يومها على قيام المدارس والمجالس، أو خاصاً، وهو أمر بالكتاتيب أولى.

بعد ان زال الحكم الفاطمي عن القدس ورد عليها عدد من علماء السنّة. وكان في مقدمتهم الشيخ نصر بن ابرهيم النابلسي مولداً، الشافعي مذهباً (وكان ذلك بعيد سنة ٤١٠/١٠١٠). أقام هذا في القدس مدة طويلة وأسس المدرسة النصرية، التي ازدهرت بعد سنة ٤٦٠/ ١٠٧٨. (توفي في دمشق سنة ٤٩٠/ ١٠٩٦). وقد اعتكف في

هذه المدرسة الإمام الغزالي سنة ٤٨٨/ ١٠٩٥ فعرفت باسم الغزالية أيضاً. وأقيمت مدرسة للحنفية في الفترة المعاصرة للسابقة. لكن يبدو ان هاتين المدرستين وسواهما من أبنية لعلها كانت تقوم بخدمة للعلم، تهدمت لما خرّب الملك المعظم عيسى القدس وهدم أسوارها وشرّد أهلها سنة ٦١٦/ ١٢١٩ (كامل العسلي في «الصراع الاسلامي ـ الفرنجي على فلسطين» ص ٤٩٩ ـ ٥٠١).

كانت استعادة صلاح الدين للقدس باعثاً على الاهتمام الكبير بالبلد المقدس. وكان من أول أعمال صلاح الدين ان حوّل دير القديسة حنة (يعرف عادة باسم صند حنة تحريفا على سانت حنة) الى مدرسة هي المدرسة الصلاحية (٥٨٨/ ١١٩٢). وهي في الحقيقة رائدة المدرسة الاسلامية الصحيحة في القدس (فما قبلها كان من نوع بسيط). وقد ظلت هذه المدرسة قائمة على التعليم نحو ستة قرون.

وقف صلاح الدين على مدرسته كثيراً ومنتجاً من الأملاك الواسعة، واشترط ان تكون خاصة بالمشتغلين بالفقه الشافعي، على ان تكون مشيختها «لاعلام علماء الشافعية في بلاد العرب». وكان شيخ الصلاحية يُعيّن بتفويض من السلطان. اما في القدس فكان أحد ثلاثة أشخاص يتولون السلطة الفعلية ـ الى جانب نائب السلطان وناظر الحرمين الشريفين. وقد استمرت المدرسة الصلاحية تقوم بدورها، ولو ان بعض الشروط ألغاها الزمن فصارت مشيختها إرثا أو شبه ارث، سنة ١٨٥٦ اذ منحها السلطان عبد المجيد الثاني لنابليون الثالث، فأصبحت ديراً ومستشفى لكنه احتفظ بصلته بصلاح الدين فسمي دير الصلاحية (الصراع... ص ٥٠٣ ـ ٥٠٤). وقد كان هذا المستشفى لا يزال قائماً بشهادة حاجين هما تيودوريتش ورتزبورغ من القرن الثالث عشر. (زيادة، رواد... ص ١٦٣).

بنى صلاح الدين الخانقاه الصلاحية، وهو بناء كان يوقف على الصوفية. وقد جاء في الوقفية (٥٨٥/ ١١٨٩) انما وقفت على «السادة المشايخ الصوفية الشيوخ والكهول والشبان البالغين المتأهلين والمجردين من العرب والعجم». ومن المناسب ان نشير هنا الى ان شيخ الصوفية كان يعين بمرسوم من السلطان، وكان له منزلة رفيعة في مدينة القدس.

وعلى نحو ما أنشأ صلاح الدين مدرسة وخانقاه كبيرتين (وزاوية) فإنه أنشأ البيمارستان (المستشفى) في الوقت نفسه. وعهد بإدارته الى بهاء الدين بن شداد، الذي كان شيخ الصلاحية أيضاً.

ويبدو انه كان ثمة بيمارستان في القدس في أيام الفاطميين، وكان ممن عمل فيه طبيباً وصيدنانيا وباحثاً أبو عبدالله التميمي ويوسف النصراني بطريرك بيت المقدس والكحال (طبيب العيون) عمار بن علي الموصلي.

لكن البيمارستان الصلاحي الذي كان ضخماً وكانت فيه قاعة للجراحين (دار الشفاء) وقاعة الكحالين لطب العيون وقاعة للمجانين.

وقد وقف صلاح الدين على البيمارستان أوقافاً كثيرة، زاد عليها خلفاؤه.

وكان من الاطباء الذين أشرفوا على البيمارستان وعملوا فيه يعقوب بن صقلاب (يعقوب بن سقلاب) ورشيد الدين الصوري وهبة الله المقدسي. («المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام. المجلد الثاني/ فلسطين»، عمان ١٩٨٣، ص ٣ ـ ٢٦/ سامي خلف حمارنة. والصراع... ص ٥٠٥ ـ ٥٠٧/ كامل جميل العسلي).

واستمر خلفاء صلاح الدين في بناء المدارس. فبنيت في أيامهم سبع مدارس تعليمية منظمة وثلاث زوايا تعليمية وعدد من الخانقاهات.

في أيام المماليك (٦٤٨/ ١٢٥٠ ـ ٩٢٣/ ١٥١٧) نالت القدس حظها من مؤسسات العلم. فقد كانت، في معظم هذه الفترة عاصمة نيابة القدس، فلقيت اهتماماً خاصاً. وقد نقل كامل جميل العسلي ان المماليك بنوا زهاء خمسين مدرسة منها ثلاث بنتها نساء. وكان في القدس نحو مئة بيت للصوفية (خانقاه او زاوية او رباط).

صحيح ان نشاط السلاطين في بناء المدارس قل بعض الشيء، لكن ذلك لا يعني ان المدارس التي بنيت قبلاً توقف العمل بها. ولسنا ننوي ان نعدد المدارس التي بنيت في أيام المماليك، فهذا يبعدنا كثيراً عن «سنة ١٠٠٠» وهي المقصودة أصلاً في هذا المقال. لكن لا شيء في الحياة يتوقف عند سنة معينة. فاستمرار الحياة، علواً وخفضاً، سنة العالم.

ويمكن القول اجمالاً ان الانشطة العلمية في القدس دارت حول علوم القرآن الكريم وهي القراءات والتفسير وشؤون الحديث والفقه والتصوف، والأدب وعلوم اللغة على تنوعها. وعرف من العلماء المشتغلين بعلوم الرياضيات ابن الهاتم شيخ الصلاحية في آخر خمس سنوات من عمره، وقد توفي سنة ٨١٥/ ١٤١٢.

ذهب الدكتور عبد الجليل عبد المهدي الى ان المسجد الاقصى كان جامعة للعلوم الدينية واللسانية في أيام الايوبيين والمماليك (المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام «فلسطين»/ المجلد الاول (القدس)، عمان، ١٩٨٣ ص ١٤١ ـ ٢٠٣ وسعيد عبد الفتاح عاشور ص ٨٠ ـ ١٢٧). والذي يتفق عليه الباحثون هو ان النشاط العلمي في المسجد الاقصى استقطب ثمانين عالماً جاءوا من عشرين قطراً من جميع انحاء العالم الاسلامي بين القرن الخامس والقرن التاسع للهجرة.

وفيما نحن نتحدث عن النواحي المعرفية في القدس في الفترة التي أشرنا اليها، نود ان نلفت القراء الى فصل من نوع خاص كتبه الدكتور أحمد يوسف الحسن عن التقانة في فلسطين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ونشر في «الصراع ... ص ٥٣٠ ـ ٥٧٩.

(١٢)

يقول المقدسي ان بيوت بيت المقدس من حجر، وان أسواقها نظيفة. وقد ظل الحجر هو الغالب على بنيان القدس. ذكر ذلك تيو دوريتش الذي زارها بين سنتي ١١٦٠ و١١٧٠ م فقال عنها:"يغلب على شوارعها انها مبلطة بالواح كبيرة من الحجارة وانها مسقوفة بعقود حجرية فيها نوافذ يدخل منها النور، وبيوتها مبنية من الحجر الجميل النقش، وأسطحتها مستوية، وليست كأسطحة بيوتنا المنتهية بمخروط." (زياده، رواد، ص ١٦٣). ويقول سيغولي (من زوار ١٤٨٣) ان جرم المدينة يتألف من بيوت جميلة جداً وقديمة وان فيها شوارع جميلة جداً لأصحاب الحِرف وهؤلاء يحافظون على دكاكينهم نظيفة جداً يطيب النظر إليها... والشوارع كلها، او في معظمها، مسقوفة او مقببة وذات نوافذ تنفذ الضوء.» (الصراع... ص ٤٣٩).

ونظافة اسواق القدس التي يشير اليها المقدسي شهد بها، كما رأينا تيو دوريتش وسيغولي وسواهما. وفي شهادة فابري، كما يرى القارئ، ما يؤكد ذلك.

يقول المقدسي ان القدس غلب عليها النصارى واليهود. ويعلق احسان عباس على ذلك بقوله: «وأغلب الظن ان هذه الغلبة لم تكن عددية وانما تعني السيطرة على مقاليد الأمور، لأن النصارى كانوا قد استولوا على وظائف هامة اذ كانوا الكتبة في جميع ارجاء البلاد (ما عدا طبرية) كما كان منهم الأطباء. فاذا وصفهم المقدسي بالكثرة فتلك الكثرة كانت ايضاً نسبية لأنها في اغلب الظن لم تكن تروقه. اما اليهود فكانوا هم المستولين على بعض الصناعات الحيوية كالصيرفة والصباغة والجهبذة. كذلك كانت للنصاري غلبة من نوع آخر وصل أثرها الى الريف، فاتسمت بعض شؤون الحياة بطابع نصراني، إذ كانت اعيادهم كالفصح والعنصرة والبربارة هي التي تقر بها الفصول ومواعيد القطاف والحصاد (علي مايقول المقدسي نفسه من١٨١ـ١٨٢)». ويضيف احسان عباس: «ومن اللافت للنظر ان تظل القدس ومنطقتها حتى مجيء ابن العربي إلى فلسطين (٤٨٧/ ١٠٩٤) حاملة لهذه الصبغة، إذ يقول في وصف الحال: «وكانت البلاد لهم يأكرون ضياعها ويلتزمون اديارها ويعمرون كنائسها.»(الصراع... ص٣٥٣ـ٣٥٤)

وكان المسلمون كما يحدثنا المقدسي اهل سنّة وجماعة ولو انه يقول وعندما استولى الفاطميون على معظم البلاد، اصبح اكثر العمل على المذهب الفاطمي (ص ١٨٠). ويرى احسان عباس ان «العمل» هنا تعني القضاء واجراء الاحكام.(الصراع... ص ٣٥٤).

ومع ان القدس كانت لها صبغة مسيحية قوية ايام الصليبيين، فانها عادت اليها صفتها الاسلامية بعد الفتح الصلاحي، واستمرت هذه الصفة تتقوى وخاصة في ايام المماليك. وليس من شك في امر عودة المدينة الى حظيرة الاسلام شجع الكثيرين

القادمين من اقطار اخرى على الزيارة، بل والاقامة فيها. ولعلّ وجود زاوية المغاربة وحي المغاربة دليل واحد من ادلة كثيرة على ذلك.

وقد جرّب البعض ان يقدر عدد سكان القدس، فلم تسعف الحال. لكن الباحثين يكادون يتفقون بان عشرة آلاف شخص هو الحد الأعلى لسكان المدينة حول السنة ١٠٠٠؛ صحيح ان ناصري خسرو يقدر انه كان فيها ٢٠,٠٠٠ رجل، لكن ليس لتقديره أي مبرر.

إلا ان المدينة اتسعت في أيام ازدهارها في عصر المماليك لنحو عشرين ألف نسمة.

(١٣)

الحديث عن مدينة في سنة معينة لا يعني التقيد بثلاثمئة وخمسة وستين يوماً، اذ لا بد من ان يُنظر الى أيام قبل وأيام بعد وإلى امتداد الى اليمين وإلى اليسار في المكان. ومن هنا كان ان أخذنا المقدسي نقطة انطلاق أملاً في ان نوضح دور القدس في مرحلة جد خطيرة في التاريخ ـ بكل اتجاهاته. والذي نأمله هو ان نكون قد استطعنا ان نظهر الوجه الروحي، ووجدان القدس «القدسي» للمدينة.

الهوامش

(١) M.H. Burgoyne, *Mamluk Jerusalem*, London, 1987, 47.

بخارى

(١)

كان ذلك في شهر نيسان /ابريل سنة ١٩٧٥.

كان الصباح قد ارتفعت شمسه، لما وقفت، وصحبًا لي، على نشز صخري مرتفع الى جانب ما تبقى، مما عفا عليه الزمن، من قلعة قَهِنْدز بخارى.

أجلت نظري فيما حولي، وكان مجال امتداد النظر واسعاً، فرأيت حقولاً خضراء، يداعب نسيم الصباح ما نما فيها من صغار الزروع وأوراق ما كبر من الشجر. انتعشت وانقبضت لما بعثته النظرة والتأمل في حواسي من آيات الجمال. وانقبضت نفسي اذ رأيتني تحيط بي بقايا ـ مهشّمة ـ من شيء كان عظيماً ـ كان عظيماً اذ كان جزءاً من الحضارة العربية الإسلامية العميقة الجذور الواسعة الانتشار الكبيرة الأثر هنا وهناك وهنالك.

ولما عدت، وقد احتفظت لنفسي وفي نفسي بالشعور المنعش والانقباض، قررت ان أتعرف الى ما كانت عليه بخارى قبل نحو ألف سنة من وقوفي فوق انقاضها.

وكان أول ما فعلت ان عدت الى ابن حوقل، صاحب «صورة الأرض»، الجغرافي الرحالة الذي زار بخارى في أواسط القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي. فأنا منذ مدّة أعود الى هؤلاء الجغرافيين الرحالة لأستطلع ما عندهم من معرفة. فماذا قال ابن حوقل، وكان قد وقّع على كتاب الإصطخري الذي سبقه ببعض الوقت، فأفاد منه وأضاف إليه. قال ابن حوقل:

«ولم أر ولم أسمع في الإسلام بظاهر بلد احسن من ظاهر بجارا. لأنك إذ علوت قَهِنْدَزَها (قلعتها) لم يقع بصرك من جميع النواحي إلا على خضرة تتصل خضرتها بلون السماء، وكأن السماء مكبة زرقاء على بساط اخضر؛ تلوح القصور مما بين ذلك..... كالكواكب العلوية بياضاً ونوراً بين أراضي ضياع مقوّمة بالإستواء مُهَنْدَمة كوجه المرآة بغاية الهندسة. وليس بما وراء النهر (أي وراء نهر جَيْحون) من البلاد ولا غيرها من البلدان أحسن قياما بالعمارة للضياع منهم، مع كثرة متنّزهات في سعة المسافة وفسحة المساحة من ارضهم.....

«ويحيط ببخارا وقراها ومزارعها سور قطره اثنا عشر فرسخاً في مثلها، كلها عامرة زاهرة ناضرة».

لكن وصف الرحالة وتقرير الجغرافي هو، في غالب الأحوال، آنّي، أي أنّه يدوّن الخبر في حينه، فهو اشبه بتقرير لفترة معيّنة.

فكان لا بدّ من العودة الى التاريخ لاستطلاع الأخبار، لعلّنا نصل الى خبر موثوق به لهذه المدينة الّتي وصفها البعض، ممن عاصر ايام ازدهارها، بأنّها كانت «قبة الإسلام» في الشرق تشبيهًا لها ببقية مدن الإسلام الأصلية (في الغرب) اي بغداد.

(٢)

المنقبون عن الآثار، برفشهم ومعولهم قبلاً، وبالأساليب التكنولوجية حديثاً، لا يألون جهداً في سبيل الكشف عن مآتي الانسان في بقاع الأرض المختلفة، سعياً وراء اكتشاف بيت أو سور أو معبد أو قطعة فنية أو حجر منقوش عليه صورة إله قديم أو بشر يعمل في الأرض أو يتلقى الشريعة من إله مدينته. والمؤرخ طلعة في عمله، فهو يتقصى المصادر ويلاحق الوثائق ويستنطق الأدب أملاً في ان يصور فترة زمنية في بلد أو رقعة، كبيرة أو صغيرة. ونحن، الذين يهمنا أن نعرف أخبار الأولين وتطور الشعوب وقيام الدول وانحطاطها وصور الحياة في الريف والمدينة وإنجازات أهل الفكر والفن والمعمار، نتلقف ما يكشفه لنا الفريقان بكثير من الشوق. ومن الطبيعي، والدنيا واسعة والوسائل متعددة والنظرات متنوعة، ان تكون النتائج التي يتوصل اليها الفريقان ـ المنقبون والمؤرخون ـ ليست كلها واحدة في النظرة والرأي. وقد يحدث ان يكشف عن تل في مكان ما، فتكون الآثار واللقى والنقوش سبباً في تبدل الكثير مما كنا نعرف. ولنضرب على ذلك مثلاً تل مردوخ (ابلا) الواقع الى الجنوب من حلب في سورية. فإن الكشف الأثري فيه حمل عدداً من الباحثين على تبديل آرائهم في تاريخ المنطقة في الألف الثاني قبل الميلاد.

والمنطقة الممتدة من حدود إيران الغربية حتى الصين، بلاد فيها صحار متسعة، تنقّطها واحات متعددة. وبقدر ما كانت هذه الواحات مراكز للزراعة والتجارة والحكم والادارة بحيث تقوم فيها عناصر حضارية مهمة، فإنها كانت معرضة لغزوات البدو أهل المنطقة القفراء الذين يقصدون الواحات للحصول على خيراتها إشباعاً لجوعهم وطمعاً في الاستقرار فيها.

والمنطقة التي أشرنا اليها كانت في تاريخها الطويل تقطعها قوافل التجار ناقلة بضائع الشرق الى الغرب ومنتجات الغرب الى الشرق. وكانت الواحات محطات لهذه القوافل: فيها يقيل التجار دوابهم وينعمون بقسط من الراحة ويتبادلون سلعهم ويضمنون الحصول على سلع جديدة تأتي من الشمال أو الجنوب. وقد حفظ لنا التاريخ اسماء عشرات من هذه الواحات التي كانت تقوم وتثري ثم تضعف وتعفو عليها الرمال، وقد تُبعث ثانية، أما اهتدت اليها القوافل من جديد أو قام فيها حاكم قوي يعيد الى الارض رونقها إذا أحسن توصيل الماء ـ إذا غزر ـ الى الارض، فتنتج ثماراً

وخضاراً وتكثر فيها الماشية. وقد تصنع من الأصواف أقمشة تغزو الأسواق حتى النائية منها.

لم تكن المنطقة، على أنها بعيدة، بمنأى عن طمع الفاتحين يأتونها من كل صوب. فالامبراطورية الايرانية الأولى (القرن السادس قبل الميلاد) توسعت شرقاً فاحتلت من أواسط تلك المنطقة رقعة لا يستهان بها. والاسكندر وصل في فتوحاته (القرن الرابع قبل الميلاد) تلك المنطقة واجتازها شرقاً. وأقام خلفاؤه السلوقيون دويلات فيها نكهة يونانية قوية في بكتريا (الصغد) وما سواها. والساسانيون الذين أسسوا ملكهم في القرن الثالث للميلاد كانت لهم هناك غزوات واحتلال. وكانت جماعات تأتي من الشرق في الفترات نفسها وقبلها فتقيم ملكاً تطول مدته أو تقصر.

ومع هذه الجيوش والغزاة كانت تصل المنطقة أساطير وقصص وأفكار وآراء دينية مختلفة ولغات متباينة مع ما تضمه من أدب وسواه. فكان ان عرفت المنطقة في حياتها أديان الشرق القصي وعباداته، ووصلتها، في القرنين الرابع والخامس للميلاد المسيحية آتية من أجزاء الدولة البزنطية الشرقية لما أُخرِج النساطرة من رقعة هذه الدولة، فاتجهوا شرقاً ووصلوا براً الى الهند.

فالمسافات الشاسعة وصعوبات التنقل لم تمنع الحضارات التي نمت وتطورت في حمى الدول الفاتحة أو الغازية أو المتاجرة من أن تجد لها في كثير من تلك الواحات مقراً ومستقراً يكتشف آثاره المنقبون والمؤرخون ويتعرفون الى جزيآته، الفينة بعد الفينة، وننعم نحن بهذه الثروة المعرفية.

من هذه الواحات بخارى (بخارا) التي تقع شرقي نهر جيحون (أمودايا أو أكْسوس) فيما سماه العرب، بعد فتحهم البلاد، «ما وراء النهر».

(٣)

ظهرت أهمية بخارى للمرة الاولى في أواخر القرن الخامس أو أوائل القرن السادس للميلاد. وقد ورد اسمها هذا للمرة الأولى في مدونة رحالة صيني اسمه هْزُوان ـ تْسانْغ الذي مر بها حوالى سنة ٦٣٠ م.

وفي هذه الفترة كانت بخارى وواحتها يدور بهما سور طوله ٢٥٠ كلم منعاً للرمال من الطغيان عليها ودفعا لغزوات الطامعين. أما المدينة بالذات فكان لها سور داخلي وكانت فيها قلعة للحاكم ومساعديه وجنده. وكانت أسرة ارستقراطية تسمى «بخار خُدَه» تدير شؤون المدينة.

كانت الواحة تفيد من مياه نهر يمر على مقربة منها اسمه زَرْفَشان (قديماً عرف باسم السغد) وقد حفرت القني المتعددة كي يصل الماء الى كل بقعة في الواحة.

بعد ان قضى العرب على الدولة الساسانية (٦٥١ م) هاجمت جماعات مختلفة عربية مناطق في الرقعة الشرقية، الا انه حتى ولا حملات أمية بن عبدالله (٧٣ ـ ٧٨/

٦٩٢ ـ ٦٩٧) لم تؤسس للعرب موقعاً قوياً في «ما وراء النهر». لكن لما عهد الحجاج ابن يوسف، والي خراسان، الى قتيبة بن مسلم بالأمر تبدل الوضع. فاحتل بخارى (٧٠٩/٩٠) وسمرقند بعيد ذلك. هنا بدأ العرب حملاتهم التي أوصلتهم حتى الى شمال الهند من جهة وإلى فَرْغانة وما وراءها من جهة ثانية.

وانتهى أمر الخلافة الأموية، وقامت خلافة العباسيين واستمر توطيد السلطة العربية الاسلامية في هذه المناطق النائية. لكن المنطقة كانت واسعة جداً وكانت تضاريسها ـ الصحراوية والجبلية ـ متعبة، كما كان سكانها القبليون مزعجين. لذلك نجد أنه حتى، والدولة العباسية لها قوة وزخم، لم يكن من اليسير على بغداد ان تدير أمور هذه المنطقة الا عن طريق حكام اقوياء لا يلبث الواحد منهم ان يقيم أسرة حاكمة ويستبد بالأمر، على ما حدث لما عين المأمون طاهر بن الحسين عاملاً على فارس وما الى الشرق منها (٢٠٥/ ٨٢١) فكان ان قطع الخطبة عن الخليفة. ومع ذلك فلم يجد الخليفة بُدّاً من تعيين ابنه خليفة له. وظلت الأسرة الطاهرية تحكم وتتحكم في المشرق مستقلة عملياً حتى انتهى أمرها (٢٥٩/ ٨٧٣). ومثلها الدولة الصفارية (٨٦٧/٢٥٣) التي قامت في سجستان (سِيسْتان).

كان الاسلام ينتشر في المناطق التي يستولي عليها العرب، ولو ان انتشاره لم يكن متساوقاً في أجزاء هذه المنطقة الواسعة. ولكن يمكن القول بأن «ما وراء النهر» كانت قد قبلت الاسلام في أكثر انحائها مع نهاية القرن الثالث هـ/ التاسع م.

والاسلام هو الذي ربط تلك المناطق النائية بأقطاره الغربية ـ أرض الرافدين وما بعدها. والاسلام أعطى تلك الرقعة الرابطة الروحية والثقافية التي بدّلت الكثير من شؤونها. لكن الاسلام في تلك الديار كانت له صيغة فيها بعض ما كان القوم هناك قد اقتبسوه في التاريخ السابق الطويل. فالطبقات الجيولوجية الاجتماعية التحتية لا تفقد جميع مقوماتها بسبب تكون طبقة جيولوجية اجتماعية حضارية دينية جديدة. ومثل هذا الامر كان واحداً من أسباب تكوّن حضارة عربية اسلامية متميزة فيما تلا من القرون.

لما ولّي طاهر بن الحسين أمر الرقعة الواسعة في المشرق كانت خراسان «وما وراء النهر» جزءًا منها. ويبدو انه بدءاً من سنة ٢٠٥/٨٢١ أصبح لبخارى ادارة مستقلة عن بقية ما وراء النهر. وهذا الاستقلال الاداري أفادت منه المدينة فبدأت نشاطاتها الصناعية والتجارية تتسع، وأقامت الجماعة الارستقراطية فيها ـ الدهاقنة ـ دورًا وقصوراً خارج المدينة. وقد عرف ان الاقمشة الصوفية والحريرية التي صنعتها بخارى يومها كانت تحمل الى الهند والعراق. بل ان بغداد نفسها كانت تتقاضى جزيتها من بخارى قماشاً.

كان سامان دهقاناً من منطقة تقع في شمال افغانستان الحالية، وكان قد اعتنق

الاسلام وقامت أسرته، ممثلة بأحفاده الاربعة، على خدمة المأمون عسكرياً، فولاهم على مناطق «ما وراء النهر» وما اليها. وكان شأن الطاهريين قد تضعضع في مناطق حكمهم، ونال بخارى من ذلك أذى، فطلبت جماعة من دهاقينها من نصر بن أحمد بن سامان، الذي كان الخليفة العباسي قد أوكل اليه أمر المنطقة سنة ٢٦٣/ ٨٧٥ (وكانت عاصمته سمرقند) ان يبعث اليهم من يمكن ان يتدبر أمر المدينة. فبعث اليهم باخيه اسماعيل (بن أحمد)، الذي يعتبر مؤسس الدولة السامانية في بخارى. وكان دخوله المدينة حوالى سنة ٢٦٢/ ٨٧٦. وفي السنة نفسها عين الخليفة العباسي الأخ الأكبر نصر والياً على «ما وراء النهر». وقد كان اسما الاخوين يذكران الى جانب اسم الخليفة في خطبة الجمعة على منابر المنطقة. ولما توفي نصر أصبح اسماعيل والي المنطقة وسلطانها، وتوسع غرباً في خراسان وشرقاً وشمالاً في غرب بحيث أصبحت الدولة واسعة واستطاع اسمعيل ان يحمي ذمارها وينظم شؤونها، وهما أمران حريان بالعناية، لكن المجال لا يتسع لهما هنا. وقد امتد حكم اسماعيل السلطان من سنة ٢٧٩/ ٨٩٢ الى سنة ٢٩٥/٩٠٧.

في أيام اسماعيل بدأت بخارى تستقطب لا كبار التجار وجهابذة الصيارفة فحسب، بل أخذت تجذب اليها العلماء والأدباء والشعراء الذين أمّوها من نيسابور والشاش (على مقربة من طشقند الحديثة) وحتى من بغداد. وقد اتسع نطاق قصادها فيما بعد بحيث وصلها علماء أندلسيون.

(٤)

نمت بخارى وكبر شأنها مع السامانيين، كما ان السامانيين عظم أمرهم بنمو بخارى. ففي العقود الأولى من القرن العاشر، حكم بخارى اسماعيل وابنه أحمد ونصر (ابن أحمد) ونوح بن نصر (٢٧٩ ـ ٣٤٣/ ٨٩٢ ـ ٩٥٤)، وكانت هذه فترة العز الاقتصادي والسياسي للاثنين. فقد كانت الواحة وسواها من الاجزاء الداخلة في حكم السامانيين تنتج القمح والحبوب الاخرى والارز وأنواعاً مختلفة من القطن وترتع في ربوعها الاغنام والماعز وتربّى فيها الخيول. وكان نهر زَرَفْشان يزود الارض بحاجاتها من المياه عبر قني حفرت منذ القديم وحوفظ عليها وأصلحت باستمرار. وكان الكاغد (الورق) يصنع في سمرقند وفي بخارى (قلة) كما ان الفحم الحجري كان يستخرج من الارض في فرغانة وسواها. وكانت بخارى مركزاً تجارياً كبيراً، يحمل اليها من شرق أوروبة الفراء والعنبر والعسل والجلود، وهذه تبادلها بخارى بالحرير الممتاز والأقطان والأواني الفضية والنحاسية والأسلحة والمجوهرات. وقد ازدهر طريق الحرير أيام السامانيين فكان التجار يحملون من الصين الحرير والافاويه والقيشاني، وينقلون الى الصين الخيول والزجاج. وكانت الخانات تقوم على الطرق الرئيسة بحيث يجد التاجر مكاناً لإقامته والتحفظ على تجارته والعناية بدوابه. وقد كانت القوافل يبلغ عدد

المشاركين فيها الآلاف، فإن مثل هذا العدد، الذي قد يكون معه حماة وحراس، للسلامة أقرب وللنظام أدعى.

وليس أدل على اتساع النطاق الذي وصلته تجارة بخارى من كثرة النقود السامانية الفضية التي عثر عليها في المناطق الاوروبية الشرقية وما بينها وبين بخارى من بلاد وعباد.

ولنذكر ان الاسلام كان قد ثبتت في «ما وراء النهر» أصوله في القرن الثالث/ التاسع، وكانت المدن القائمة في المنطقة تزود المسلمين بحاجتهم ممن يرشدهم في أمور دينهم. لكن بخارى كانت الأكبر أثراً من هذه الناحية. فإن اقبال العلماء عليها الذي أشرنا اليه أيام اسماعيل زاد كثيراً في أيام نصر. وكان الملوك السامانيون ذوي صلة قوية برجال الدين، شديدي الاكبار لهم. فقد كان الرجل الديني الاول في بلاط اسماعيل مثلاً يلقب بـ «الاستاذ»، وقد كان نفوذه يتجاوز الشؤون الدينية. وكان بين علماء عصر اسماعيل خَوَاجَه إمام أبو حفص (توفى ح ٣٦٤/ ٨٧٧) الذي يعزى اليه التأسيس لتفوق الفقه الحنفي في بخارى، والذي كان يدعو علماء الحنفية لاستيطان المدينة. وبهذه المناسبة فقد كان ثمة عالم يسمى برهان ظلت أسرته تتمتع بمنزلة كبيرة أيام السامانيين وان أحفاده كانوا سدنة الفقه الحنفي في بخارى حتى بعد زوال الملك الساماني لمدة طويلة.

وحري بالذكر ان التشيع كان له، منذ انتشار العرب والاسلام في أواسط أسية، أتباع كانت قوتهم وانتشارهم يتوقفان على عوامل مختلفة، ليس هنا مجال التحدث عنها. وكان قيام دولة بني بُوَيْه (٣٢٠ ـ ٤٥٤/ ٩٤٢ ـ ١٠٦٢) الشيعية في أجزاء من خراسان، فيه تقوية للحركات الشيعية المختلفة. لكن الأهم من ذلك هو ان قيام الخلافة الفاطمية في المهدية/ تونس سنة ٢٩٧/٩٠٩ قوّى الدعوة الاسماعيلية على أيدي «دعاتها» الكبار في تلك المناطق. فكانت تقوم بين الفئات والدول هناك خلافات وثورات وحروب، اذ ان السنة الممثلة أصلاً بالخلافة العباسية، كان الامراء المنتمون اليها شديدي الاهتمام بالمحافظة على مواقعهم.

ان الحركة العلمية في بخارى، التي بدأت أيام اسماعيل وجدت ظروفاً ملائمة لها في أيام نصر بن أحمد (٣٠١ ـ ٣٣١/ ٩١٤ ـ ٩٤٣).

فالثروة ومصادرها كثيرة، وثمة تقليد لدعوة العلماء وتشجيعهم على الاستيطان في بخارى. وكان الوزيران اللذان أعاناه على الحكم، الجيهاني والبلعمي، حريصين على استزادة العلماء في بخارى لأنهما كانا من العلماء. فالجيهاني كان معنياً بالجغرافية وقد وضع كتاباً لم يصلنا، لكنه قد استقى منه فريق الجغرافيين في القرن الرابع/ العاشر، وخاصة فيما يتعلق بالبلاد النائية الاسلامية.

في أيام وزارة الجيهاني زار ابن فضلان بخارى، وكان في بعثة كبيرة (قوامها على

ما روي خمسة آلاف جندي وثلاثة آلاف من الخيل). هذه البعثة أرسلها الخليفة العباسي المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠/ ٩٠٨ ـ ٩٣٢) الى ملك البلغار بناء على طلبه. كان البلغار قد اعتنقوا الاسلام وأقاموا لهم دولة على أطراف نهر الفولغا (الأتل عند جغرافيي العرب)، لكنهم كانوا يتعرضون للأذى من مملكة الخزر، وملوكها يهود. فأرسل مليكهم... يطلب من أمير المؤمنين المقتدر بالله ان يرسل اليه بعثة من قبله، تفقهه في الدين وتعرفه شرائع الاسلام، وتبني له مسجداً، وتنصب له منبراً يقيم عليه الدعوة للخليفة في جميع مملكته. وسأله الى ذلك ان يبني له حصناً يتحصن فيه من الملوك المخالفين له. فكان ان أرسل الخليفة البعثة وكانت رئاستها، على ما يرى المرحوم الدكتور سامي الدهان، لابن فضلان العالم بالشريعة الاسلامية.

رحلت البعثة من «دار السلام» في صفر سنة ٣٠٩/ حزيران (يونيو) ٩٢١، متجهة شرقاً مع ميل الى الشمال حتى دخلت بخارى. يقول ابن فضلان: «... ثم دخلنا بخارا وصرنا الى الجيهاني، وهو كاتب أمير خراسان وهو يدعى بخراسان الشيخ العميد، فتقدم بأخذ دار لنا، وأقام لنا رجلاً يقضي حوائجنا ويزيح عللنا في كل ما نريد. فأقمنا أياماً. ثم استأذن لنا على نصر بن أحمد، فدخلنا اليه وهو غلام أمرد (كانت سنه يومها نحو الخامسة عشرة). فسلمنا عليه بالأمرة وأمرنا بالجلوس. فكان أول ما بَدَأنا به ان قال: «كيف خلفتم مولاي أمير المؤمنين. أطال الله بقاءه وسلامته في نفسه وفتيانه وأوليائه». فقلنا: «بخير» قال «زاده الله خيراً». وأقمنا ببخارا ثمانية وعشرين يوماً... ولما سمعت كلام بن باشتو وكلام غيره يحذرونني من هجوم الشتاء، رحلنا من بخارا راجعين الى النهر (جَيْحون) فتكارَينا سفينة الى خُوارِزْم (خِيوَه اليوم)».

من المؤسف ان ابن فضلان، وكان كاتباً بارعاً ووصافاً ماهراً، لم يهتم ببخارى على نحو ما عني بسواها؛ فلم يترك لنا وصفاً يرضي رغبتنا، مع أنه أقام فيها ثمانية وعشرين يوماً. وكل ما نجده عنده عنها قوله: «ورأيت الدراهم ببخارا ألواناً شتى. منها دراهم يقال لها الغِطْريفية وهي نحاس وشبه (النحاس الاصفر) وصفر، يؤخذ منها عدد بلا وزن، مئة منها بدرهم فضة. وإذا شروطهم في مهور نسائهم: تزوج فلان ابن فلان فلانة بنت فلان على كذا وكذا ألف درهم غطريفية. وكذلك أيضاً شراء عقارهم وشراء عبيدهم، لا يذكرون غيرها من الدراهم. ولهم دراهم اخر صفر وحده: أربعون منها بدانق. ولهم أيضاً دراهم صفر يقال لها السمرقندية ستة منها بدانق» (راجع رسالة ابن فضلان/ تحقيق سامي الدهان/ ط ٣، بيروت ١٩٩٣، ص ٢٢ و٢٤ و٧٣ و٧٦ و٧٨ و٧٩، ٨٠).

وما دمنا قد أشرنا الى ابن فضلان، فلنذكر أبا دُلَف، «وهو مسعر بن مهلهل. كان شاعراً وأديباً ورحالة. اتصل بالأمير الساماني نصر بن أحمد. وأوفده هذا الامير الى الصين حول سنة ٣٣١/٩٤٢ مع بعثة صينية كان أحد الامراء الصينيين قد أرسلها الى

البلاط الساماني ليخطب ابنة أمير بخارى [رغبة في تحسين العلاقات بين البلاطين. ويبدو ان الأمير الساماني قبل ذلك، وان ايفاد أبي دلف كان لإتمام الاتفاق. وقد دوّن أبو دلف أخبار رحلته لكن نصها لم يصلنا. الا ان بعض أخباره تسربت الى خلفائه من الجغرافيين مثل ياقوت]. وكان أبو دلف دقيق الملاحظة. وحسبنا مثلاً أنه فطن الى أن الخزف الصيني كان يُقلّد في بعض البلاد الأخرى ولا سيما في إيران وملبار، ولكن الأواني الصينية كانت تُفَضَّل في الأسواق على كل ما يصنع تقليداً لها». (راجع زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٤٥، ص ٣٢ ـ ٣٣).

(٥)

تولى الوزارة البلعمي خلفًا للجيهاني، وكان مثله حريصاً على ان يكون لبخارى دور في الحياة العلمية كبير. ان بغداد ظلت، منذ القرن الثالث /التاسع المركز الاول للحياة الفكرية على تشعباتها. لكن مدن الأقاليم، التي كانت عواصم الامارات والدويلات، كانت تسعى لأن يكون لها حياتها الثقافية أيضاً. ولم تكن أي من هذه العواصم ترقى الى درجة بخارى. ولم تقتصر الحياة العلمية والأدبية في بخارى على البلاط، فقد كانت المدينة تحوي من الوراقين عدداً كبيراً. ودور الوراقة لم تكن أماكن لبيع الكتب فحسب بل كانت مجالس لأهل الفكر والأدب. فقد كان أصحابها أنفسهم ممن يتصلون بالحركة الفكرية اتصالاً وثيقاً، كما كان بعضهم من العلماء والادباء والشعراء.

تساءل ريتشارد فراي عن الاماكن التي كان الطلاب يتلقون بذور المعرفة ويتابعون دراساتهم فيها، وارتأى ان دور الوراقة كانت على الراجح هي التي تقوم بذلك. ذلك بأن المتعارف عليه ان المدرسة «الرسمية» هي المدرسة النظامية التي انشأها نظام الملك وزير السلطان السلجوقي الب ارسلان (٤٥٥ ـ ٤٦٥/ ١٠٦٣ ـ ١٠٧٢) وابنه ملكشاه (٤٦٥ ـ ٤٨٥/١٠٧٢ ـ ١٠٩٢). الا أنه يجب ان نذكر ان المساجد كانت تقام فيها حلقات للعلوم الدينية المختلفة. فضلاً عن ذلك فإن ناجي معروف قد بيّن في كتابه «المدارس قبل النظامية» (بغداد ١٩٧٣) ان المنطقة الشرقية من العالم الاسلامي عرفت مدارس تدرّس فيها العلوم الدينية قبل أيام نظام الملك. أما العلوم الاخرى، مثل الفلك والتنجيم وسواهما، وكانت هذه موضع اهتمام السامانيين، وخاصة نصر بن أحمد بالذات، كانت تعلّم عن طريق الصحبة (سنتحدث عن هذه عندما نصل الى ابن سينا)، كما أنها كانت تراجع في المكتبات. وكانت مكتبة بخارى في مقدمة مكتبات العالم الاسلامي الشرقي.

ولعل مما يلفت هو جمهرة العلماء الذين كانوا يقيمون في بخارى. وقد وصف هذا الوضع أبو منصور الثعالبي (النيسابوري) بقوله ان بخارى كانت، أيام السامانيين، مكان التقاء ممتاز لأهل العلم في ذلك الوقت، ومطمع أهل الأدب، ومركزاً لجماعة الفكر.

كان للشعر مقام كبير في بخارى. وقد نظم الشعر بالعربية والفارسية، وهناك من نظم في اللغتين. لكن من المهم ان نذكر ان الكثير من الشعر العربي المبكر قد نقل الى الفارسية، وكان الفرزدق وابن الروميّ عزيزين على قلوب المترجمين. على ان النثر العلمي العربي نقل الى الفارسية. ففي أيام منصور بن نوح (٣٥٠ ـ ٣٦٥/ ٩٦١ ـ ٩٧٦) نقل تفسير الطبري وتاريخه الى الفارسية.

وقد كان في هذا العمل وسواه إثراء للغة الفارسية الحديثة (مقابلة بالفلهوية التي تعود الى أيام الساسانيين). ويعتبر رودكي، معاصر نصر بن أحمد، أكبر الشعراء بالفارسية، وكان سيد القصيدة الغنائية الغزلية، وكان قدوة الشعراء الذين تلوه لمدة طويلة. وقد وضعت كتب في الشؤون الدينية بالفارسية، منها ما يختص بتفسير القرآن الكريم من وجهة النظر الاسماعيلية.

أما في النواحي العلمية فقد ظهر في بخارى علماء في الرياضيات والفلك والعلوم، لكنهم كان يغلب عليهم الناحية النظرية، أما النواحي التجريبية فقد كانت قليلة الاهمية عندهم. الا ان شؤون الري، من حفر القني وتنظيم توزيع الماء فقد كانت أموراً عملية برع فيها البخاريون.

وكان من الطبيعي، وقد ضمت بخارى نخبة كبيرة من أهل المعرفة في التفسير والحديث ورجال الاعتزال والصوفيين، ان تثار قضايا خلافية حول هذه القضايا وما يتفرع عنها.

وعلى نحو ما احتوت بخارى على عناصر العلم والمعرفة المتنوعة وعملت على الافادة منها، فقد قبست العناصر والأساليب الفنية التي عرفتها المناطق المجاورة والتي انتقلت اليها وأصابت هناك موطناً من مواطن انصهارها لتخرج منها منظومة فنية متقنة جميلة أنيقة. فكان ثمة الاثر الكوشاني (الهندي الذي حمل من الجنوب). وكان هناك العنصر الذي جاء من شرق ايران ومعه النموذج الاسلامي العباسي المتمثل بما كانت عليه الفنون في سامراء. وبما ان الكثير الكثير من أبنية بخارى كان يستعمل الخشب فيه، فقد كانت تتعرض للحرائق ولذلك لم يبق الكثير منها.

لكن ثمة تربة الامير اسماعيل، وهي لا تزال قائمة آثارها: مخططها أساسه معابد النيران المربعة، القاعدة تعلوها قبة منخفضة جميلة مزخرفة الألوان. وهذه الألوان المتمازجة على نحو غاية في الجمال، ومثلها في آثار «ما وراء النهر» متعدد، تبين التمازج الفني بين الالوان الصفراء، على تنوع قوتها، والزرقاء على تعدد أصبغتها. وأحسب ان هذا الفن يمثل اقتباس اللون الاصفر من الصين ومزجه بالأزرق الذي تكثر آثاره في ايران الشرقية.

ومن بخارى والمدن الأخرى «الما وراء نهرية» جاءت آثار للخشب المحفور التي

توجد في المتاحف الروسية والتي تتميز بأشكالها الزهرية. ولعل من أهمها الأبواب المحفورة على هذا النحو.

ويبدو الزخرف بشكل خاص في المساجد والمآذن. وجدر (جدران) الأولى كانت تزخرف من الداخل بالخزف الساماني المزين بكتابة كوفيّة المنوع الأشكال والزخارف والألوان؛ وكان ذلك ينطبق على جدر بعض المآذن الخارجية. وقد اتقنت فنون الخط الى مدى بعيد.

وقد غنى المغنون ولعب الناس على الآلات الموسيقية ـ العود وسواه، وكانت لهم في الموسيقى آراء نظرية لا تطبيقات عملية فحسب، ولنذكر ان الفارابي كتب في الموسيقى العربية.

(٦)

في أواسط القرن الرابع/العاشر تعثرت شؤون بخارى السياسية والمالية بسبب اضطراب البلاط ومن حوله وأوقف البويهيون تجارة السامانيين مع الغرب. ويلاحظ الباحثون ان السلطة انتقلت تدريجاً الى أيدي العسكريين وكانوا من الاتراك. وبسبب قيام قوى جديدة الى الشرق والجنوب من السامانيين التي أخذ أصحابها ينتزعون من المملكة السامانية أجزاء منها الواحد تلو الآخر، بحيث ان الحكم الساماني بالكاد أصبح يسيطر على ما وراء النهر؛ وحتى هنا على كثير من الضعف. وفي أواخر القرن الرابع/ العاشر كان السامانيون على وشك الخروج من التاريخ.

لكن مع ذلك، كان ثمة تطورات أدبية وعلمية مهمة في بخارى وخوارزم وسمرقند وسواها. ففي أيام منصور بن نوح (٣٥٠ ـ ٣٦٥/ ٩٦١ ـ ٩٧٧)، تولى الوزارة العُتبي والبلعمي، ابن البلعمي الذي كان وزيراً في أيام نصر بن أحمد، والجيهاني، حفيد الجيهاني الذي وزر لنصر بن أحمد أيضاً. ومع أنهما كانا مهتمين بشؤون العلم والفكر، فإنهما لم يكونا في مستوى الوزيرين السابقين، ولا كانت الأحوال على ما كانت عليه أيام القديمين. كان من شعراء البلاط يومها أحمد دقيقي الذي دعاه منصور الى وضع تاريخ شعري (اسطوري) لإيران قبل الاسلام. ومع أنه بدأ العمل فقد قتل (٣٦٧/ ٩٧٣)، وظل أمر وضع هذه الملحمة الشعرية للفردوسي. ولد أبو القاسم الفردوسي في طوس (أو في ضواحيها) بين سنتي ٣٢١ و٣٢٥/ ٩٣٢ و٩٣٦. ويبدو انه كان من سلالة دهقانية. وهو الذي وضع ملحمة شَهْرنَامَة (كتاب الملوك) وفيه عرض لتاريخ ايران البطولي من أقدم الأزمنة. وليست أهمية شَهْرنامة في القصة والحبكة، بل في أنها وضعت باللغة الفارسية الحديثة التي كانت تترعرع في البلاط الساماني وعلى أيدي علمائه ولغوييه وشعرائه ومترجميه وموظفيه. وقد توفي الفردوسي سنة ٤١١ أو ٤١٦/ ١٠٢٠ أو ١٠٢٥.

ليس المهم ان الفردوسي وضع الملحمة بل ان المهم ان الباحثين في التاريخ

والحضارة واللغة في إيران قبل الاسلام وبعده مجمعون على ان الملحمة تمثل «التصالح» الثقافي بين القديم والاسلامي، بحيث تبدو وحدة ايرانية شرقية. ويلاحظ الدارسون ان اللغة العربية أصبح مجالها هناك للعلم الديني والعلوم الأخرى والادارة (الى حد ما) لكن الادب، وشعره على الاخص، كان التعبير عنه يتم بالفارسية الحديثة.

وحري بالذكر ان عناية السامانيين بفروع المعرفة، يسر السبيل لوضع كتب في الطب والعقاقير. ولم يقتصر هذا على بخارى بل ان خوارزم وسمرقند وسواهما كانت تشترك في العملية.

ولنذكر على سبيل المثال أن موسى بن محمد الخوارزمي (تو ٣٨٧/ ٩٩٧) كان يعمل في بلاط السامانيين، وهو كما يعرف القراء واضع أسس علم الجبر ومبادىء اللوغريثم، وهو مولود في خوارزم (خيوه اليوم). ومع ان البيروني ولد في طوس (٣٦٢/ ٩٧٣) فإنه أقام في خوارزم مدة في بلاط خوارزم شاه المأمون. والمحدث البخاري (١٩٤ ـ ٢٥٦/ ٨١٠ ـ ٨٧٠) صاحب «الصحيح» ثقة من ثقات الحديث. على ان نجم بخارى هو ابن سينا (راجع فيما بعد).

قطعت أوصال أملاك السامانيين تدريجاً خلال النصف الثاني من القرن الرابع/ العاشر، بين انتزاع اجزاء منها على يد الجيران الاقوياء أو اقتطاع اجزاء أخرى على أيدي حكام محليين يستبدون بالأمر دون السلطة المركزية. فمن هذه قيام الخوارزشاهيين في خوارزم (٣٠٥ ـ ٣٨٥/ ٩٢٦ ـ ٩٩٥) أي من داخل الاملاك السامانية، واستيلاء الألك خانات (٣٨٢ ـ ٦٠٧/ ٩٩٢ ـ ١٢١١) رسمياً على أملاك السامانيين سنة قيام دولتهم لكنهم حافظوا على وجود الملك السامانى نظرياً حتى سنة ٣٨٩/٩٩٩، لما تولّى اسماعيل الملك، وقد قضى سنواته مشرداً حتى قتل سنة ٣٩٥/١٠٠٥.

يبدو لنا كأن بخارى التي تطورت ونمت وتوسعت وقوي نفوذ أهلها وقامت بأدوارها الادبية والعلمية خلال القرن العاشر، قد انتظرت سنة ٩٩٩ كي تقفل دفتر المجد وكتاب العلم وديوان الشعر وتودع سنة ١٠٠٠ في حزن وأسى!

(٧)

كان لا يزال في بخارى، وفي المدن التي قامت حولها ومعها، روح فيه ما تعطيه. وقد أتيح لها ذلك على يد الالكخانات الذين حكموا ما وراء النهر وتركستان الشرقية (٣٨٢ ـ ٦٠٧/ ٩٩٢ ـ ١٢١١).

صحيح ان الشعر دالت دولته الى درجة كبيرة، لكن النثر أصبح موضع الاهتمام في البلاط. وممن ظهر في ذلك الوقت محمد عوفي مؤلف «لباب الألباب» وهو مجموعة شعرية، و«جواهر الحكايات» وهو مجموعة قصص. كما عاش في بخارى محمد بن عمر الرادوياني الذي وضع ترجمان البلاغة. ونقل كتاب النرسخي في تاريخ بخارى الى اللغة الفارسية. فالعصر كان عصر جمع وترجمة. ومما يلاحظ في هذه

الفترة هجرة أهل العلم من بخارى الى الغرب (مثل ابن سينا) وإلى الهند مثل الزمخشري النحوي (تو ٥٣٩/ ١١٤٤) بعد ان عاد الى بخارى.

وفي أيام ارسلان خان (٤٩٥ ـ ؟ ٥٢٣/١١٠٢ ـ ؟ ١١٣٠)، الذي كان تحت أمرة السلاجقة فعلياً، قامت في بخارى حركة بناء كبيرة. فقد عمرت منارة بخارى الكبرى، وهي التي شاهدناها لما زرنا المدينة، كما أنه أعاد تعمير المسجد الكبير وإيوان الصلاة خاصة، وبنى حمامات وقصوراً وعني بإعادة عمارة أسوار المدينة.

كان الالكخانيون بدوًا أصلاً، فلم يمكنهم ان يتولوا شأن ادارة المدينة بلهَ المنطقة، لذلك فقد قام رجال الدين مكانهم لملء الفراغ السياسي والاداري. وهنا كان لآل الصدر، وهي الاسرة المتحدرة من العالم الحنفي برهان، سيطرة كانت قوية حتى كأنهم كانوا القائمين على الادارة. فقد كان ثمة آلاف من طلبة الفقه تحت رعايتهم المباشرة. وقد روي ان برهان الدين آل الصدر، وهو من كبار الاسرة، كان يملك في مطلع القرن الثالث عشر من الارضين الواسعة والثروات الكبيرة بحيث انه وزع الأموال الطائلة لما حج (٦٠٤/ ١٢٠٧) على سكان مكة المكرمة.

وكما أشرنا من قبل فإن الجند التركي كان القوة المهيمنة على الشؤون الأساسية في بخارى.

ويمكن ان نلخص الوضع العام في المنطقة التي كنا نتحدث عنها في أيام الالكخانات في الامور التالية: (١) أصبحت ما وراء النهر وما إليها جزءاً من أسية الوسطى، وصارت جزءاً من العالم التركي الاسلامي. وبعد ان كانت تتصل ببغداد وما اليها، اتجهت نحو كَشْغَر. (٢) دخلت اللغة التركية الى المنطقة، الى جانب الفارسية، لغة محكية ومكتوبة جزئياً. وظهر مع ذلك أدب اسلامي تركي حلبته المنافسة مع اللغة الفارسية. ومن أمثلة ذلك كتب «مرآة الامراء». (٣) ظلت اللغة العربية لغة العلوم الدينية والعلوم عامة، والكثير من كتب الفقه والشرع والمنطق والفلسفة. (٤) قامت في بخارى أقدم مدرسة، ولعلها كانت النموذج الذي اتبعه نظام الملك، الوزير السلجوقي، لما أنشأ ما عرف باسم المدرسة النظامية. (٥) أصبحت بخارى في هذه الفترة ملتقى ثلاث ثقافات: ثقافة ايران الغربية وثقافة تركستان الشرقية والثقافة العربية الاسلامية التي رفدت الثقافتين الاخريين بما كانت قد بلغته من الرفعة والنضج والتجديد.

في سنة ٦١٧/ ١٢٢٠ اجتاحت جيوش جنكيز خان المنطقة، وكان ان أحرقت أكثر أجزاء المدينة، قبل ان تصل مع ورثته الى بغداد وتهدمها سنة ٦٥٦/ ١٢٥٨.

يقول ريتشارد فراي عن هذه السنة وما جرى فيها: «ان احتلال المغول لبخارى كان نهاية عصر. ان بخارى نفسها التقطت أنفاسها بعد ذلك بمدة قصيرة، لكن الدمار الذي حمله المغول خلَّف ندوبا عميقة ثابتة في المنطقة التي تضم أسية الوسطى

وإيران... وبالنسبة لبخارى بالذات فقد انتهى دورها الأساسي على أنها انجاز من العصور الوسطى».

حري بالذكر، ونحن نصل في قصتنا الى ما يشبه النهاية، ان نشير الى ان تيمور لما أقام اسرة جديدة في «ما وراء النهر» (٧٧١ ـ ٩١٢/ ١٣٧٠ ـ ١٥٠٦) واتخذ من سمرقند عاصمة له. قام هو وخلفاؤه لا بجعل سمرقند وحدها مدينة كبيرة، بل عنوا ببخارى أيضاً. فبنوا فيها الكثير وأحيوا من شوونها المدرسية والعلمية ما يذكر لهم بالخير. وكان حفيده اولوغ بك، الذي حكم «ما وراء النهر» (٨١٢ ـ ٨٥٠/ ١٤٠٩ ـ ١٤٤٦)، عالماً في الفلك، الذي كان يعلّمه أيضاً، وأنشأ في سمرقند مرصدا كبيراً. وقد شاهدنا آلة السدس الكبيرة للمرصد الذي أنشأه لما زرنا المنطقة.

(٧)

اثناء حديثنا عن بلاط السامانيين ذكرنا أهم الشعراء الذين ظهروا في بخارى، ذلك بأن الشعر كان، من قبل على الاقل، بحاجة الى رعاية أهل البلاط. لذلك تحدثنا عن دقيقي وردكي والفردوسي. وكان البلاط الساماني حريصاً على الاهتمام بعلماء الشرع والفقه، فلمع من هؤلاء جماعة في ذلك البلاط.

لكن ثمة فئة من أهل العلم والفكر وحتى من الشعراء كان ظهورهم وكانت أعمالهم نتيجة العمل الفردي. ونحسب انه آن الأوان للتحدث عن بعض هؤلاء لتتم الصورة البخارية والما وراء النهرية.

أول من نريد التحدث عنه هو محمد بن اسماعيل أبو عبدالله الجعفي صاحب جامع الصحيح المعروف بـ «صحيح البخاري»، والمعروف هو بالبخاري.

ولد البخاري في بخارى سنة ١٩٤/ ٨١٠ وتوفي فيها سنة ٢٥٦/ ٨٧٠. بدأت عنايته بالحديث دارسًا له وهو في الحادية عشرة من عمره، ولما بلغ السادسة عشرة أدى فريضة الحج حيث سمع عن كبار محدثي مكة المكرمة والمدينة المنورة. ثم زار مصر وبعدها قضى ست عشرة سنة متنقلاً في طلب الحديث، كانت حصة البصرة وحدها منها خمس سنوات، وما تبقى كان تنقلاً وسفراً في أقطار اسيوية.

بعد هذه الجولات التي زودته بكم كبير من الأحاديث عاد الى موطنه وانكب على درس هذه الاحاديث محاولاً التأكد من صحتها على أسس سليمة الاسلوب واضحة الطريقة. ولم يكن الامر سهلاً، لكنه أتم عمله قبل وفاته بإخراج «جامع الصحيح» المعروف باسم «صحيح البخاري». وقد نظّم الاحاديث حسب نواحي الفقه المقبولة. ومع أنه لم يتمكن، على ما يقول الباحثون في الصحيح، من العثور على أحاديث صحيحة لجميع مناحي الفقه والشريعة، فقد بذل الجهد الكبير الذي حفظه له السلف، بحيث أصبح «صحيح البخاري» الكتاب الذي يتبرك بقراءته في الملمات، مثل بدء حملة عسكرية وسوى ذلك.

نسخة جامع الصحيح الذي يعتمد اليوم هي التي أعدّها علي بن محمد اليونيني (تو ٧٠١/ ١٣٠٢) وقد أعانه في ذلك اللغوي العالم ابن مالك (تو ٦٧٢/ ١٢٧٣)، وهو صاحب ألفية ابن مالك في اللغة.

وحري بالذكر ان المستشرقين الفرنسيين أ. هو داس و و. مارسية قد نقلا صحيح البخاري الى الفرنسية (نشر في باريس في أربعة مجلدات سنة ١٩٠٣).

ولنسمح لأنفسنا ان نخرج قليلاً عن بخارى لنتحدث عن أديب نيسابوري. فقد كانت نيسابور جزءاً من أملاك الدولة السامانية. وكانت نيسابور، في القرن الرابع/ العاشر مركز اقتصاد رائج وعلم كبير. في هذا الجو ولد أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي (٣٥٠ ـ ٣٩٥/ ٩٦١ ـ ١٠٣٨).

تلقى الثعالبي العلم عن أهل نيسابور ثم التحق ببلاط مأمون خوارزمشاه (٣٩٩ ـ ٤٠٨/ ١٠٠٩ ـ ١٠١٧) في الجرجانية (في شمال ما وراء النهر ومقلب بحر خوارزم او آرال). وكان مأمون كثير الرعاية لأهل العلم والأدب، فقد كان هو نفسه عالماً (وممن أمَّ بلاطه ابن سينا والبيروني).

ولما زال خوارزمشاه (٤٠٨/ ١٠١٧) عاد الثعالبي الى نيسابور حيث انصرف الى التعليم حتى وفاته.

والثعالبي واحد من الاعلام في تاريخ الادب العربي، فهو مؤلف «يتيمة الدهر». وكأني به قد حمل لواء الثقافة العربية عالياً في الشرق الاسلامي، في الوقت الذي كان ثمة اتجاه وعمل على احياء اللغة الفارسية وأنعاشها على أيدي رُدكي والفردوسي. وفي الجيل الذي تلا ذلك كانت ثمة محاولة لجعل اللغة التركية على الاقل لغة البلاط.

كان الثعالبي لغوياً أصلاً، لكنه كان، على عادة أهل تلك العصور، يكتب في موضوعات مختلفة بقصد الافادة. هذا الرجل كان من النوع الذي نسميه أديباً، وعمله كان، في الدرجة الاولى، «أدباً».

وإلى جانب الكتاب الكبير، يتيمة الدهر، الذي وضع للمتفرغين للأدب أو الذين تغلب عليهم القراءة للدرس، وضع الثعالبي كتاباً صغيراً سماه «لطائف المعارف» توجه به الى من يحب ان يستمتع ويفيد. وقد قسمه (وهو دون الـ ١٥٠ من الصفحات) الى عشرة أبواب في مختار الشعر وسائر الالقاب والنوادر والمُلَح وخصائص المدن الخ.

وللتسلية، ننقل من لطائف المعارف نبذتين، الاولى (من باب الالقاب): نِفْطَوَيْه ـ هو أبو عبدالله بن محمد بن عَرَفة النحوي. ولقب بذلك تشبيهاً له بالنفط (الفحم الحجري) لدمامته. وقُدِّر اللقب على مثال سيبويه لأنه كان ينسب في النحو اليه، ويجري على طريقه ويدرّس شرح كتابه. وفيه يقول الشاعر

لو نزل الوحي على نِفْطَوَيْه ... لصار ذلك الوحي ويحاً عليه
أحرقه الله بنصف اسمه ... وجعل الباقي وَيْهاً عليه

والثانية، امرأة حجّت لم يحج مثلها في اقامة المروءة لا ملك ولا ملكة. هي جميلة بنت ناصر الدولة الحمداني (في الموصل ٣١٧ ـ ٣٥٨/ ٩٢٩ ـ ٩٦٩). حجت سنة ٣٦٦/٩٧٦ فصار عام حجتها مثلاً وتاريخاً. وذلك انها أقامت من المروءة وفرقت من الأموال وأظهرت من المحاسن ونشرت من المكارم ما لا يوصف بعضه عن زبيدة وغيرها من حاجّات بنات الخلافة والملك، ولا عن الخلفاء والملوك الحاجّين. فأخبرني الثقات انها سقت جميع أهل الموسم السويق بالسكر والثلج. وكانت استصحبت البقول المزروعة في مراكن الخزف على الجمال، فضلاً عما سواها. وأعدت خمسمئة راحلة للمنقطعين من رجّالة الحاج. ونثرت على الكعبة عشرة آلاف دينار. واستصبحت فيها بشموع العنبر في مدة مقامها بمكة. وأعتقت ثلثمائة عبد ومائتي جارية. وأغنت المجاورين بالصلات الجزيلة. وخلعت على طبقات الناس خمسين ألف ثوب. وكان معها أربعمائة عمارية مدبجة لا يدري في أيها كانت.

ونقول نحن: ومن دفع هذه الاموال للهبة وشراء الحاجات! (راجع: نقولا زيادة، مشرقيات، رياض الريس للكتب، بيروت، ١٩٩٨، ص ١٥٢ ـ ١٥٦).

(٨)

على ان النجم الساطع الذي ظهر في بخارى في أيام السامانيين هو الرئيس ابن سينا.

حياة ابن سينا في بخارى

هو أبو علي الحسن بن عبدالله بن علي بن سينا. كان أبوه عبدالله من أهل بلخ. وقد تولى عملاً للدولة السامانية، وعاصمتها بخارى، إلاّ أنه أقام في قرية يقال لها خَرْمَيْثن ومعناها بالفارسية «أرض الشمس». وكان بقربها قرية يقال لها أَفْشَنَة وتزوج أبوه ستارة، ومعناها النجم بالفارسية، وهي من هذه القرية. وفي خَرْميثن ولد ابن سينا سنة ٣٧٠/ ٩٨٠.

وانتقلت الأسرة فيما بعد الى بخارى. وهناك جيء بمعلم للقرآن وآخر للأدب للعناية بالطفل. ولما أتمّ العشرة من عمره كان قد حفظ القرآن وأتى على كثير من الأدب، حتى كان يُقضى منه العجب.

وكان أبوه ممن أجاب داعي المصريين (الفاطميين) وكان يعد من الإسماعيلية. ويبدو أن أخاه، وهو الاصغر من الابنين الوحيدين لعبدالله بن علي، كان قد استجاب لهذه الدعوة أيضاً. وكان الجميع ـ الداعية والابن ـ يتناقشون في شؤون الاسماعيلية على مسمع من ابن سينا. وكان هو يتابع مذكراتهم، لكن نفسه لم تقبل هذه التعاليم. ثم دعاه أبوه وأخوه للسير معهما لكنه لم يقبل.

وكان هؤلاد يجرون على ألسنتهم ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند. وأراد

أبوه أن يعلمه حساب الهند هذا، فوجهه الى رجل كان يبيع البقل ويقوم بحساب الهند كي يتعلمه منه.

واشتغل ابن سينا بالفقه وتردد على إسماعيل الزاهد وكان من أجود السالكين. وفي هذا التردد ألِفَ الفتى طرق المطالبة ووجوه الجدل والنقاش وأساليب الاعتراض على المجيب على النحو الذي جرت به عادة القوم من أهل الشريعة والكلام.

وهبط بخارى أبو عبدالله الناتلي، وكان يُدعى المتفلسف. وأراد الوالد ان يتعلم ابنه من الناتلي هذا فأنزله دَارَهم.

وهنا بدأت دراسات الفلسفة عند ابن سينا.

كان «الإيساغوغي» أول ما بدأ به مع الناتلي. وأثناء قراءة هذا الكتاب ذكر الناتلي أن «حد الجنس» إما هو المقول على كثيرين مختلفين بالنوع، وأن ذلك إنما هو جواب على السؤال: ما هو. فلما اتضح هذا الحد لابن سينا أخذ في تحقيق هذا بما لم يسمع الناتلي بمثله. وتعجب من معرفته كل العجب. ذلك ان معرفة ابن سينا بطرق الجدل التي أتقنها من قبل، وإدراكه الآن ظواهر المنطق، يسّرا له السير قدماً في هذه التحقيقات المتعلقة بحد الجنس على أنواع مختلفة من المعرفة. ويبدو من الذي عرفناه من ترجمة ابن سينا أن معلمه لم يكن يستطيع مجاراة تلميذه الذكي النشيط الذهن.

ولذلك فإن ما تعلمه ابن سينا من الناتلي في شؤون المنطق كان في الظواهر. إذ يبدو ان المعلم لم تكن له خبرة بدقائق المنطق وما تخفيه.

وعلى كل فإن هذه التجربة الاولى مع كتاب الإيساغوغي ومع الناتلي في المنطق حفزت الفتى على السير قدماً في قراءة الكتب على نفسه، وأخذ يطالع الشروح حتى أحكم علم المنطق. وعندها انتقل الى الهندسة. وكان الكتاب الذي يُعتمد عليه في ذلك هو الأصول لإقليدس في ترجمته العربية. وقد بدأ ذلك مع الناتلي. فقرأ معه من أول الكتاب خمسة أشكال أو ستة. والمقصود هنا بالأشكال نظريات إقليدس. ثم انصرف الفتى الى قراءة بقية الكتاب وحلّ أشكاله بأسرها.

انتقل ابن سينا بعد ذلك الى المجسطي. وهذا هو ترجمة لكتاب بطليموس القلوذي في الجغرافيا والفلك فقرأ على الناتلي مقدمات الكتاب الأولى. فلما انتهى الى الأشكال الهندسية أي الفلكية نصحه الناتلي ان يتولى قراءتها بنفسه ويهتم بحلها على أن يعرضها فيما بعد عليه ليبين له الصواب من الخطأ. ويبدو أن الفتى أدرك من هذا ان الناتلي ما كان يقوم بالكتاب أي أنه لم يقدر عليه.

وانصرف ابن سينا الى حل ما في الكتاب من أشكال. وكانت ثمة أشكال كثيرة لم يكن المعلم يعرفها، الى أن كان التلميذ يعرضها عليه ويفهمه إياها.

وغادر الناتلي بخارى متوجهاً الى غورغانج (أي الجرجانية).

وكان الفتى قد مرّن على القراءة في الكتب الصعبة وحذق أساليب فهمها وحل ألغازها ورموزها. فلم يُقعده عن العمل انعدام «المعلم». فاشتغل بتحصيل المعرفة من النصوص والشروح مباشرة معتمداً على نفسه. فكانت كتب العلم الطبيعي والإلهي في جملة ما أتقنه. وصارت أبواب العلم تنفتح عليه.

ورغب ابن سينا في علم الطب، فأخذ يقرأ المصنفات فيه. ولم يجد في ذلك صعوبة قط. إذ إنه برز فيه بحيث ان فضلاء الطب أخذوا يقرأون عليه علم الطب. وتعهد المرضى فأتاح له ذلك تجربة فريدة للتعرف الى أبواب من المعالجات العملية ما كانت تتاح لغيره.

على ابن سينا لم ينقطع عن مجالس الفقه. فكان يناظر فيها الأقران من أهل البلد أو القادمين.

بلغ ابن سينا هذا وهو فتى يافع من أبناء ست عشرة سنة.

وأراد الشاب النابه أن يتأكد من سيطرته لا على جزئيات المعرفة فحسب، بل على القواعد الضابطة لها. لذلك عاد الى التوفر على العلم والقراءة، وقضى عاماً ونصف العام في ذلك. فأعاد قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة. وفي خلال ذلك لم ينم ليلة واحدة بطولها، ولم يشتغل في النهار بغير العلم.

ونحن عندما نتمعن في الذي فعله ابن سينا خلال هذه السنة ونصف السنة، نجد أنه كان يعمد الى كل حجة، في أي من أنواع المعرفة هذه، فيثبت لها مقدمات قياسية يرتبها في الظهور التي يجمعها بين يديه. ثم ينظر فيما عسى أن ينتج عنها. فكان يراعي شروط المقدمات بحيث تحقق له الحقيقة في المسألة المعروضة.

وقد نقل مترجمو ابن سينا أن الشاب كان كلما تحيّر في مسألة ولم يظفر فيها بالحد الاوسط، أي الأساس، يذهب الى الجامع فيصلي ويبتهل الى مبدع الكل، حتى يُفتح له المنغلق ويُيَسَّر المتعسّر.

وكذلك روي عنه أنه كان يعود بالليل الى داره فيضع السراج بين يديه ويشتغل بالقراءة والكتابة، فمهما غلبه النوم أو شعر بضعف كان يعدل الى شرب قدح من الشراب. فإذا عادت اليه قوته رجع الى القراءة. ويبدو أن انشغال ذهن ابن سينا بالقضايا والمسائل وسهره المستمر ولجوئه الى الصلاة؛ جميع هذه كانت أموراً نفسية كانت تسمح للمسائل بأن تظل موضع عناية العقل. وكثيراً ما كانت الحقيقة تتكشّف له في حلم.

إلى هنا، وابن سينا لم يبلغ الثامنة عشرة من حياته، أصبح صاحب درجة متميزة في العلم والمعرفة، فاستحكمت معه العلوم جمعاء، مدركاً إياها بحسب الإمكان الإنساني.

ولما أحس ابن سينا أنه أحكم على علم المنطق وعلى العلم الطبيعي والرياضي،

انتقل الى العلم الإلهي، أو كما كان يسمى أحياناً، ما وراء الطبيعة. ووقع له كتاب أرسطو فيما وراء الطبيعة. وقد روى ابن سينا فيما بعد ما تأتى له مع هذا الكتاب قال: «وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة. فما كنت أفهم ما فيه، والتبس عليَّ غرض واضعه. حتى أعدت قراءته أربعين مرة وصار لي محفوظاً. وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا المقصود به. وأيست من نفسي وقلت: هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه. وإذا أنا في يوم من الأيام حضرت وقت العصر في الوراقين، وبيد دلاّل مجلد ينادي عليه. فعرضه عليَّ فرددته رد متبرم، معتقداً أن لا فائدة من هذا العلم. فقال لي الدلال: اشتر مني هذا فإنه رخيص أبيعكه بثلاثة دراهم، وصاحبه محتاج الى ثمنه. وأشتريته فإذا به كتاب لأبي نصر الفارابي: في أغراض ما بعد الطبيعة. ورجعت الى بيتي وأسرعت في قراءته. فانفتح عليَّ في الوقت أغراض ذلك الكتاب (أي كتاب أرسطو) بسبب أنه كان لي محفوظاً على ظهر القلب. وفرحت بذلك وتصدقت في ثاني يوم بشيء كثير على الفقراء، شكراً لله تعالى».

خطر لنا ان نرى ما الذي أفاده ابن سينا من كتاب الفارابي. فهذا الكتاب صغير لا يشرح ما كتبه أرسطو في كتاب ما بعد الطبيعة، ولعله لم يكن أكثر من فهرسة مرتبة لكتاب أرسطو. والذي نراه هو أن هذا هو الذي كان ابن سينا يتفقده في الكتاب الأصلي المترجم عن أرسطو. فابن سينا كان قد عوّد نفسه، في الفترة التي أعاد فيها قراءة المنطق والفلسفة في أجزائها الطبيعية والرياضية، على أن تنتظم الأمور والمسائل والمشكلات أمامه فيما يصح أن نسميه مخطّطات منطقية. فلما علق ابن سينا بكتاب الفارابي وجد فيه ضالته، أي هذا الترتيب الذي كان ينشده. وعندها وضع الاجزاء في المحال الخاصة بها، فاستوعبها.

كان ابن سينا، منذ ان حذق الطب، يتولى علاج المرضى. ويقول المؤرخون إنه كان يعالجهم «تأدُّباً لا تكَسُّباً، أي أنه لم يكن يتقاضى منهم أجراً. على أننا نود أن نضيف تفسيراً آخر لكلمة تأدّباً ـ لعل ابن سينا كان يؤدّب نفسه في صناعة الطب بمعالجة هؤلاء المرضى، ومن ثم فهو يتعلم ولكنه لا يتكسّب.

واتفق أن مرض أمير بخارى يومها، نوح بن منصور، وحار الأطباء في مرضه. ولما كان اسم ابن سينا قد اشتهر بين هؤلاء الأطباء، أجروا ذكره بين يدي الامير، فأحضر بين يديه، وشاركهم في مداواته. وأعجب الأمير بالطبيب فضمه الى حاشيته.

وكانت لدى أمراء بخارى خزانة كتب ضخمة، تعتبر من خير ما وجد في المدن العربية الإسلامية. فطلب ابن سينا الإذن بدخول دار الكتب هذه. وقد وصف ابن سينا في وقت لاحق ما شاهده هناك قال: «فسألته (الامير) يوماً في الإذن في دخول دار كتبهم ومطالعتها وقراءة ما فيها من كتب الطب. فأذن لي. فدخلت داراً ذات بيوت

كثيرة في كل بيت صناديق منضدة بعضها على بعض. في بيت منها كتب العربية والشعر، وفي آخر الفقه وكذلك في كل بيت كتب علم بمفرده.

«فطالعت فهرست كتب الأوائل وطلبت ما احتجب منها. ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه الى كثير من الناس قط. وما كنت رأيته من قبل، ولا رأيته أيضاً من بعد. فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها، وعرفت مرتبة كل رجل في علمه».

يخيّل إلينا أن ابن سينا أصبح بعد هذا كله على استعداد لأن يتنقل من درجة التعلّم الى دور التعليم. وقد جرب ذلك في الطب. لكن بخارى لم يكن فيها مؤسسة لتبادل الرأي على نحو ما عرفت بغداد في بيت حكمتها والقاهرة في دار علمها. والمكتبة التي وصفها ابن سينا كانت للاستعمال الخاص المقصور على أشخاص معينين. وحتى هذه المكتبة شبت بها النيران وجاءت على كل ما فيها من الكتب. بل يجب أن نذكر أيضاً أن الاجتماعات الفكرية الخاصة كانت موضع شبهة على نحو ما مرّ بنا من اجتماع والد ابن سينا وأخيه مع الداعية الإسماعيلي.

لذلك لما طلب جار لابن سينا أن يكتب له شيئاً، لبّى طلبه حالاً. وهذا الجار الذي كان، على ما يبدو، أول من تقدم من ابن سينا بمثل هذا الطلب، هو أبو الحسين العروضي. وقد طلب منه ان يصنف له كتاباً جامعاً في هذة لعلم (أي علم الطبيعة والرياضيات وما بعد الطبيعة) فوضع له كتاباً في سائر العلوم سوى العلم الرياضي. وصنّف ابن سينا كتابه «المجموع» وسماه باسمه. وكان سن ابن سينا يومها إحدى وعشرين سنة.

وجاء دور الجار الثاني، وهو أبو بكر البرقي المولود في خوارزم، وكان فقيه النفس (أي فقيهاً في أعماق ذاته) متوحداً في الفقه والتفسير والزهد، وكان يميل الى هذه العلوم. هذا الجار طلب من ابن سينا شرح الكتب له. فوضع كتاب «الحاصل والمحصول» في قريب من عشرين مجلدة. ثم صنّف له كتاباً في الاخلاق سماه «كتاب البر والاثم» ولم يصنع لا ابن سينا ولا أبو بكر نسخاً من هذين الكتابين.

ومات والد ابن سينا، وتولى هو شيئاً من أعمال السلطان، لكنه لم يجد بداً من الخروج من بخارى.

ابن سينا بعد بخارى

خرج ابن سينا من بخارى وهو في أوائل العقد الثالث من عمره، فذهب الى الجرجانية قاصداً بلاط علي بن مأمون من امراء خوارزمشاه الذي تولى الامارة ٣٨٧ ـ ٣٩٩/ ٩٩٧ ـ ١٠٠٩. وتركها بعد عشر سنوات قضاها موضع رعاية. خرج قاصداً جرجان لكنه عرف ان صاحبها توفي يومها فعرج الى دهستان، لكن مرضاً أصابه هناك فعاد الى جرجان (حوالي سنة ٤٠٢/ ١٠١٢) حيث احتضنه أبو محمد الشيرازي وهو رجل ثريّ يحب العلوم فاشترى له داراً أنزله فيها. هنا نعم ابن سينا بحياة علمية هادئة.

وانتقل بعد ذلك الى الري في أيام فخر الدولة البويهي (٣٦٦ ـ ٣٨٧/ ٩٧٧ ـ ٩٩٧)، الا ان هذا توفي قبل وصول ابن سينا الري، وتولّى الأمر بعده ابنه مجد الدولة (٣٨٧ ـ ٤٢٠/ ٩٩٧ ـ ١٠٢٩)، وكان صغيراً يصاب بالسوداء فعالجه ابن سينا.

وانتقل بعدها الى همذان، في أيام شمس الدولة (٣٨٠ ـ ٣٨٨/ ٩٩٠ ـ ٩٩٨) وهو أخو مجد الدولة صاحب الري من البويهيين. وقد وزر ابن سينا لشمس الدولة. وهنا عالج شمس الدولة من قولنج كان ينتابه. وعندنا وصف للجوزجاني، تلميذ ابن سينا ورفيقه عن مجالس العلم التي كانت تعقد في دار ابن سينا أيام كان وزيراً جاء فيه قوله: «وكان يجتمع كل ليلة في داره طلبة العلم. وكنت أقرأ من «الشفاء» وغيري يقرأ من «القانون» نوبة. فإذا فرغنا حضر المغنون على اختلاف طبقاتهم وهيء المجلس للسرور. وكان التدريس بالليل لعدم الفراغ بالنهار خدمة للأمير. فقضينا على ذلك زمناً». وأضاف في مكان آخر: «كان [ابن سينا] يصحو يومياً قبل الفجر فيكتب بضع صفحات من «الشفا»، ثم يدعو طلابه ويقرأ معهم بعض ما كتبه بقطع النظر عن زمنه. فإذا حان موعد خروجه من داره يكون جميع الذين يريدون مقابلته قد تجمعوا خارجها. فكان يسير في مقدمتهم (على ظهر حصانه) الى ديوانه، حيث ينظر في جماع قضاياهم وقضايا الدولة الى الظهر. عندها يعود الى الدار حيث يتناول طعام الغداء في صحبة عدد كبير من الضيوف. فإذا فرغ من ذلك واستراح، كان يذهب الى البلاط حيث يخلو بالأمير للبحث في شؤون الدولة والبلاد».

وانتقل بعدها الى اصفهان.

بعد أربع عشرة سنة في اصفهان لم يشغل فيها منصباً رسمياً في البلاط، لكنه كان دائم الصلة بعلاء الدولة. وهنا انصرف الى العمل في اتمام الكتب التي بدأها أو التي انشأها من جديد. أتم «الشفاء» ووضع «النجاة» وراجع «القانون» وسوى ذلك.

وفي سنة ٤٢٨/ ١٠٣٧ توفي ابن سينا في اصفهان.

ولما مات ابن سينا من القولنج قال فيه بعض أهل زمانه:

رأيت ابن سينا يعادي الرجال ... وبالحبس مات أخس الممات

فلم يشف ما ناله بالشفا ... ولم ينج من موته بالنجاة

(الحَبْس ـ انحباس البطن بسبب القولنج. الشفا ـ كتاب ألفه ابن سينا. النجاة ـ هو أيضاً من مؤلفات ابن سينا).

ابن سينا بعد ابن سينا

أثر ابن سينا كان كبيراً بين الذين جاءوا بعده في دنيا العرب والإسلام، كما كان أثره كبيراً جداً في أوروبا العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة.

كان لابن سينا تلاميذ بررة أخذوا بآرائه وفلسفته وحاولوا توضيحها. لكن الذي

يبدو من استعراض الأجواء السياسية والثقافية والفكرية التي شغلت الناس في الفترة التي عقبت ابن سينا، هو ان الفلسفة، من حيث أنها فلسفة، فقدت سوقها في المشرق.

وابن سينا لقي العنت على أيدي المتصوفة والفقهاء والكلاميين. فالأول اتهموه بأنه لم يدرك التصوف لا مبنى ولا معنى، وأن شطحاته كثيرة. أما الفريق الثاني فقد تصدر له مناقشاً فيما سماه علة الوجود. فقد خالف ابن سينا القواعد الإلهية، في الوحي والحديث، في محاولته التوفيق بين الشريعة والحكمة.

وكان أشد خصومه، وأقدرهم على مقارعته، وأعندهم وأكثرهم صموداً له (ولمن سبقه) الغزالي (توفي ١١١١/٥٠٥). وذلك في كتابه «تهافت الفلاسفة». وقد كانت الأجواء تيسر لتهافت الفلاسفة أن يسير قدماً وأن يقبل أساساً للجدل (طبعاً للغزالي كتب أخرى أهمها إحياء علوم الدين، لكن تهافت الفلاسفة كان تفنيداً منطقياً لابن سينا).

وحتى لما قام ابن رشد (توفي ١١٩٨/٥٩٤) في المغرب وانتصر للفلسفة ورد على الغزالي في كتابه «تهافت التهافت»، لم يجد عمله صدى له في المشرق. كان الناس قد فقدوا ثقتهم بالفلسفة أسلوباً لحل المشكلات.

نود ان نشير هنا الى كتاب «القانون في الطب». بالنسبة للمشارقة كان له دور كبير. صحيح أنه لم يكن وحيداً في الميدان، فالحاوي للرازي والملكي لعلي عباس وغيرهما من الكتب الأصغر حجماً كان لها دور أيضاً. لكن الذي نود ان نقوله هو أنه يوجد في الهند وباكستان الى الآن مدارس للطب (هي جزء من الجامعات) تدرس الطب العربي، وإن كانوا يسمونه «طب يوناني» ويحصل الطلاب على شهادات رسمية ويمارسون التطبيب ممارسة قانونية. والذي يحمل شهادة من هذه الكليات يسمى حكيمًا. والذي أعرفه هو أن أكثر الذين يتعلمون هذا النوع من الطب هم من المسلمين وقد زرت كلية طبية في جامعة عليكره بالهند وفي جامعة كراتشي في الباكستان. وهولاء «الحكماء» لا يعتمدون العلاجات الكيماوية أساساً للمعالجة، بل يعتمدون على أدوية مفردة ومركبة من الأعشاب والحيوان والمعادن، يقومون هم بإعدادها (عن طريق مؤسسات تجارية خاصة).

أما في الغرب الأوروبي فقد كان لكتاب القانون في الطب دور كبير جداً. ومع أن الغرب قد عرف «الحاوي» للرازي و«الملكي» لعباس علي، فقد سبق «القانون» كليهما. ترجم القانون الى اللاتينية على يد جيرار الكريموني الذي قضى سنوات طويلة من حياته في طليطلة في القرن الثاني عشر (توفي ١١٨٧). وحظي القانون بترجمة ثانية، كانت، مثل الأولى، إلى اللاتينية، وذلك على يد أندريا الباغو andrea alpago (توفي ١٥٢٠) . والمعروف أن القانون أصبح المتن الطبي الرئيس في مدارس الطب مثل

بولونيا ومونبليه، بحيث إنه طبع ست عشرة طبعة (منها واحدة بالعبرية) قبل نهاية القرن الخامس عشر وطبع على الأقل عشرين مرة في القرن السادس عشر. وقد ظل «القانون» المتن الطبي الأول الى سنة ١٦٥٠ على التأكيد، ولعله ظل في أماكن أخرى الى ما بعد ذلك. وهذه الطبعات هي للترجمة اللاتينية، وهي تشمل إما الكتاب بكامله أو تقتصر على أكثره. لكن كانت هناك طبعات متعددة لأجزاء منه. فضلاً عن ان أعمالاً طبية أخرى لابن سنيا قد ترجمت وطبعت.

لكن الشيء الذي يدعو الى الاهتمام هو ان القانون قد طبع (أو في أجزاء كبيرة منه) باللغة العربية في روما قبل نهاية القرن السادس عشر.

وقد كان الاهتمام بترجمة القانون وكتب ابن سينا الطبية كبيراً بحيث أنه حجب، لبعض الوقت، ما كان من أثر لابن سينا في المجال الفلسفي عند العالم الغربي. ومع ان بعضًا من كتب ابن سينا الفلسفية، مثل اجزاء من «الشفاء» ومن كتاب «النجاة» وجدت طريقها الى الغرب، لكن ترجمة ابن رشد الى اللاتينية شغلت الغربيين عن سواه من الفلاسفة المسلمين لبعض الوقت. الا ان الباحثين أخذوا يتعرفون إلى آثار ابن سينا وعنوا بها العناية التي تستحقها. وقد كان لها تأثير في تطور الفكر اللاهوتي. ويعتبر ان توما الاكويني، زعيم الفكر اللاهوتي في القرن الثالث عشر، تأثر بآراء ابن سينا. وكذلك عرف روجر بيكون (تو حوالى ١٢٩٤) الكثيرمن آراء ابن سينا وعنها.

(عن ابن سينا راجع: نقولا زيادة، مشرقيات، رياض الريس للكتب، بيروت ١٩٩٨، ص ٢١٥ ـ ٢٥٠).

مدينة الجزائر

في البدء

مدينة تعتمد الى تلال تكلأها، وتلقي عليها غاباتها ظلالها، وتطل عليها حنواً وعطفاً. فإذا اطمأنت المدينة الى المنعة والحنو والعطف اتخذت من البحر لها قبلة ووجهة، فاتسعت آفاقها باتساعه، وعمق شعورها بعمقه، وامتدت آمالها بامتداده، وهدأت أحلامها بهدوئه، وثارت ثائرتها بعصفه، وجاشت خواطرها بثورته. ذلك كان شأنها يوم وضع الإنسان الحجر الأول في مدينة الجزائر، ولا يزال شأنها كذلك الى يوم الناس هذا. عرفناها كذلك وأواسط يومها يقيظ، وعرفناها وأمسيتها تنعش، وعرفناها وليلها يقلقك برده.

أقام الإنسان أول مأوى له فيها قبل آلاف من السنين، وبلغت القمة في تاريخها غير مرة. عرفت الرفعة والثراء، وخبرت الضعة والفقر. لكنها، في كل حال، ظلت مرفوعة الرأس، منتصبة القامة، تؤثر الشرف على الاستكانة.

على أن هذه الحماية من البر، وصعوبة الوصول إليها من البحر، أعاقا الاعتراف بقيمتها. وكان الفينيقيون أول من أدرك الفائدة من اعتمادها مرفأ صغيراً تلجأ إليه سفنهم. ذلك أنَّهم لما خاضوا عباب يم البحر المتوسط، وتعرفوا تدريجا على ثروات الأقطار المختلفة منه، وتقدم تجارهم غرباً للشراء والبيع وتبادل السلع، كانوا بحاجة الى محطات على شاطىء البحر الجنوبي، يريح فيها البحارة، وتلجأ إليها السفن، على أن لا تكون هذه المحطات متباعدة الواحدة عن الأخرى. والباحثون في تاريخ الانتشار الفينيقي التجاري في تلك الأصقاع لاحظوا أن هؤلاء البحارة كانوا يختارون «ملاجئهم البحرية» بحيث لا يبعد الواحد عن الآخر أكثر من إبحار يوم واحد. فكانت البقعة التي تقوم عليها الجزائر اليوم محطة لهم، ويبدو ان الاسم الذي أطلق عليها هو إيكوسين. وهذا هو الاسم الذي عرفت به في الأساطير اليونانية. ومن هنا نسبتها هذه الاسطورة لنفسها، ولو أن الأسطورة دوَّنها صولين الروماني. وتتلخص الحكاية في أن هرقل الإله اليوناني الجبار صحبه في إحدى سفراته عشرون نفراً، بقصد الوصول الى الغرب ليفصل بين شبه جزيرة إيبريا والمغرب، وكان القسمان متصلين. ولما وصل هرقل الى مكان الجزائر للإراحة مع صحبه «العشرين»، أعجب الصحب بالمكان، فانفصلوا عن

هرقل وظلوا هناك. أما هو فقد سار غرباً حتى فصل البر عن البر (ومن هنا تسمية مضيق جبل طارق قديماً بأعمدة هرقل). والنفر العشرون الذين انفصلوا عنه أسّسوا على البر بلدة سميت مدينة العشرين كي لا يستأثر واحد منهم بإطلاق اسمه على المدينة. وقد كان تعليل صولين لهذه الاسطورة هو أن اسمها القديم إيكوسين، يعني الجزء الأول منه (إيكوسي) العشرين باليونانية.

ولا شك في ان الأسطورة جميلة، لكنها لا تثبت أمام الحقيقة التاريخية التي أثبتتها الأدلّة الاثرية من تماثيل لبعل حمون وملكارت وضريح فينيقي الأصل ونقود فينيقية رصاصية وبرونزية (عثر على ١٥٨ قطعة نقدية)، والدراسة التاريخية. وقد يكون لليونان فيما بعد في المكان نصيب، لكنه لم يبلغ حد التأسيس. ولعلّ تأسيس «محطة» دائمة فينيقية يعود الى القرن السابع ق.م. إن لم يسبق ذلك بقليل. وهكذا جمعت إيكوسين بين نشاط الفينيقي التاجر وسكان البلاد، فكان تعامل وتزاوج وامتزاج. ونقل الفينيقيون معهم ما كان عندهم من عادات وتقاليد ومتاجر ودين، فقبل السكان الأصليون من ذلك الكثير. وجمع التاجر الفينيقي في إيكوسين وفي غيرها ما استطاع من البضائع المحلية كالصوف والجلود، أو المستوردة (ولعلّ الذهب الافريقي كان أحدها). والماء في إيكوسين غزير، والسهل المحيط بها يوفّر المواد الغذائية اللازمة، والعنصر البشري الأصلي يبتاع من الفينيقيين بعض ما يحملونه معهم من أمشاط وآنية زجاجية للزخرفة كالمكاحل وقماش جميل متين. وظل هؤلاء على الساحل الضيق، ذلك بأن العدد لم يزدد بحيث يتسلّقون الهضبة الى الداخل، كما حدث فيما بعد.

ونعم الفينيقيون، كما نعم خلفاؤهم فيما بعد، بمناخ الجزائر اللطيف، الذي وصفه الدكتور حليمي عبد القادر علي بقوله: «إن مناخ مدينة الجزائر وضواحيها بحري بالدرجة الأولى ومعتدل للغاية وأقرب الى الدفء منه الى البرودة في فصل الشتاء، حيث ان مقياس الحرارة في هذا الفصل لا ينزل الى ما دون الصفر إلا نادراً. بل لا ينزل بالمرة على الشاطىء. وفصل الصيف تغلب عليه الحرارة التي يمكن تحملها بارتياح، نظراً للرطوبة الجوية المنخفضة وهبوب نسيم البحر الذي يلطف الطقس.

«والرياح التي تهب في فصل الشتاء في الغالب من الشمال أو الغرب أو الشمال الغربي، تجلب السحب والأمطار الغزيرة، على عكس الرياح التي تهب في فصل الصيف، وتكون في الغالب من الشرق أو الجنوب الشرقي، وهي رياح جافة تحمل السحب في بعض الأحيان لكنها لا تسبب الأمطار. والضغط الجوّي معتدل في المدينة وضواحيها.

«والأمطار متوفرة، يبلغ متوسطها السنوي ٧١٨ مم، وهي كمية يمكن ان يتجاوزها المعدل الى ١٣٤٢ مم، أو يقل عنها، ولكن دائماً في حدود تتجاوز ٤٠٠مم، ويبدأ فصل

المطر عادة في أواخر ايلول/ سبتمبر لينتهي في أواخر أيار/ مايو ويشتد في شهر كانون الاول/ ديسمبر. وقليلاً ما كانت الأمطار مصحوبة بالرعود. كما تقل الامطار السيلية التي تحفر الأخاديد وتجرف التربة وتعوق المرور.

«وعدد الأيام الممطرة قليلة بالنسبة لكمية الأمطار التي تهطل بغزارة. ولا تحجب الغيوم الا جزءاً من سماء المدينة. والغمام يندر فيما بين شهري أيار/ مايو وتشرين الأول/ اكتوبر وهي فترة الجو النقي الصافي اللماع الذي تكون شفافيته شديدة ومتجانسة ليلاً نهاراً. ويشتد في هذا الفصل السطوع ولا تظهر الأبخرة البيضاء إلاَّ صباحاً فوق البحر بالخصوص، لكنها أبخرة زائلة إذ سرعان ما تبددها الأشعة الشمسية ونسيم البحر، ثم تعود للجو صفاوته ونقاوته ويحس الانسان كأنه في فصل الربيع.

«والفصول تتوالى من غير أن يشعر بها الإنسان، لكن الطبيعة لا تغفل عن الإخبار بتناوب الفصول وذلك باخضرار الحشائش، وسرور الأطيار كعلامة لدخول فصل الربيع. وعلى العكس فصل الصيف الذي تنام فيه الطبيعة ثم تزيل رداءها في فصل الخريف لتستيقظ في فصل الشتاء مستعدة لاستقبال فصل الربيع بأزهاره اليانعة. ما أجمل طبيعة الجزائر وما أطيب مناخها!».

وحري بالذكر هو أنه لما قامت امبراطورية قرطاجة وتوسعت شرقاً وغرباً، حافظت على المحطات هذه، التي كان يفصل بين الواحدة منها والأخرى إبحار يوم. فكانت منها الجزائر وتيباسا وشرشل (يول القديمة) وغيرها.

وجاء يوم فقدت فيه قرطاجة امبراطوريتها سنة ١٤٦ ق.م. وحلّت رومة مكانها. وبدّل الرومان اسم المكان من ايكوسين الى ايكسويوم، أي رَوْمَنوه بعد ان كان يونانياً. لكنهم لم تلفتهم المدينة أو البلدة بشكل خاص، انما احتفظوا بها «محطة» عسكرية على ما يبدو. وإذا صح هذا فإن هذا يوضح لنا تسلقهم أطراف التل. ولا تزال آثار التخطيط المتعامد للمدينة الرومانية ماثلة في الاجزاء الشاطئية من المدينة.

وجاء العرب

لما احتل العرب بلاد المغرب، وأقاموا لهم فيها دولة، لم تدخل إيكسويوم في حسابهم. فهم الى البر أميل، ومن ثم فقد بنوا القيروان، التي كانت مراحاً للجيوش وعاصمة للمنطقة بأجملها، وسوقاً لما يحمل من الداخل، و«عكاظاً» لأهل العلم والقلم، فقهاء كانوا أم رواة أم كتاباً أم شعراء. ولكن قبيلة بني مَزْغَنَّة، التي اعتنقت الاسلام، أدركت أهمية الاستقرار في الجزائر وضواحيها، فأقامت فيها أول مدينة ثانية وميناء - فكانت أول مستقر في الجزائر. وأصبحت ايكسويوم تسمى جزائر بني مَزْغَنَّة. ولم يطل أمر هذه القبيلة، ولكن يبدو أنه حتى في أيامها انتشرت بعض المنازل على كعوب التل بالذات.

قامت الخلافة الفاطمية في المهدية (تونس) في السنة ٢٩٧ هـ/٩٠٩ م. ووضعت بعض المغرب العربي تحت نفوذها. لكن الإمارة الأموية في الأندلس كانت تطمع هي الأخرى في نفوذ في المغرب العربي. وكان بين الفريقين خصومة شديدة. ولما انتقل الفاطميون الى مصر في أيام المعز، عهد هذا الى بُلُّقين بن زيري بولاية افريقية. وتوسع هذا في الولاية غرباً الى مدينة سبتة. واستقل الزيريون عن الفاطميين بعد مدة، ثم انقسموا زيريين في الشرق وحماديين في الغرب وعاصمتهم قلعة بني حماد. وكانت الجزائر في نطاق هذا القسم.

كان بُلُّقين بن زيري قد حصّن ثلاث مدن وقواها هي: الجزائر ومليانة والميدية. فضمنت هذه المدن الطرق البحرية الشمالية عن طريق الجزائر الميناء، وحرست الميدية ومليانة طريقي التل والسهوب، وقامت في الجزائر «القصبة» الأولى. ومدينة بُلُّقين، والذين جاءوا بعده، تخطت المناطق الأولى التي عني بها العرب، وتسلقت الهضبة الى ارتفاع يتراوح بين ٢٠ و٨٠ متراً عن سطح البحر. وكان هذا هو بدء الزمن الذي ازدهرت فيه الجزائر. فقد أصبحت معقلاً يصعب التغلب عليه. حتى أن الحملات المختلفة التي دمرت العديد من المدن المغربية لم تَطَلْ الجزائر ـ لقد كانت حصينة وبعيدة عن خط النار. والغزوة ـ أو الهجرة ـ الهلالية (أواسط القرن الخامس/ الحادي عشر) التي دمرت القيروان وغيرها، لم تشعر الجزائر بها الا لماماً (ولو كان يومها مذياع لقلنا «لم تشعر بها الا من نشرات الأخبار»). وحتى حملة يوسف بن تاشفين المرابطي (٤٧٥هـ ـ /١٠٨٢ م) لم تستطع الاستيلاء على الجزائر.

وما دمنا نتحدث عن المدينة فلنذكر أمراً على غاية الأهمية بالنسبة الى خطط المدينة. فقد كان تطور المدينة اعتباطياً، لا تخطيط فيه. يزداد عدد السكان، فتزيد الحاجة الى المنازل، فتبنى هذه كما اتفق. فسارت الشوارع «على امتداد بطون الشعاب مرة، والاذرع مرة»، و«اتبعت في سيرها ... خطوط الأرداف أولاً، أي أصبحت تتقاطع وخطوط الكونتور (خطوط الارتفاعات المتساوية) بدلاً من سيرها مع خطوط الكونتور». ذلك «ان العشوائية والحاجات الفردية كانت لها اليد العليا في بناء المنازل ومد الشوارع، من دون مراعاة للنمو العمراني». فزال المخطط المتعمد الروماني، إلا النادر منه.

وعندنا وصف للجزائر يعود الى القرن الرابع/ العاشر من قلم ابن حوقل الجغرافي الرحالة إذ يقول: «وجزائر بني مَزْغَنَّاي مدينة عليها سور على سيف البحر أيضاً. وفيها أسواق كثيرة، ولها عيون على البحر طيبة وشربهم منها. ولها بادية كبيرة وجبال فيها من البربر كثرة. وأكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم سائمة في الجبال. ولهم من العسل ما يُجَهَّز عنهم والسَّمن والتين ما يُجَهَّز ويُجْلب الى القيروان

وغيرها. ولها جزيرة في البحر، على رمية سهم منها تحاذيها. فإذا نزل بهم عدو لجأوا اليها فكانوا في منعة وأمن ممن يحذرونه ويخافونه».

وقد سيطر بنو غانية على الجزائر وأرباضها في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل الثالث عشر م، وأقاموا لهم امارة عمادها المدن الثلاث التي اتخذ منها بُلُّقين منطلق حكمه.

لسنا نريد ان نفصِّل تاريخ المنطقة ولكن لا بد من الاشارة الى ان دولة الموحدين ٥٢٤ ـ ٦٦٧/١١٣٠ ـ ١٢٦٩، التي شملت مدينة الجزائر فيما حكمته، آل أمرها الى الضعف والإنحلال، ثم عرف المغرب في القرن الثالث عشر والقرن الذي تلاه صراعاً في منطقة المغرب العربي انتهى بقيام دولة بني مرين في المغرب (فاس) والزيانيين (أو بني عبد الواد) في المغرب الأوسط (تلمسان) والحفصين في افريقية (تونس). وفي فترة ساد فيها توازن سياسي بين هذه الدول ظلت الجزائر بمنأى عن الصراعات.

وفي القرن الرابع عشر كانت الجزائر في وضع تمارس فيه حكماً ذاتياً يقوم على رأسه جماعة التجار. وهذه المدينة كانت تحميها قبيلة الثعالبة العربية، التي أفادت من تجربة بُلُّقين وبني غانية، فاتخذت المثلث الواقع بين الجزائر ومليانة والميدية قاعدة لها. وظل الأمر على ذلك الى أن دخل عروج مدينة الجزائر سنة ١٥١٦.

نقلنا من قبل وصف ابن حوقل (القرن الرابع/ العاشر) للجزائر، وها نحن أولاء نضع بين أيدي القراء ما قاله كل من البكري (أواخر القرن الخامس/ الحادي عشر) والإدريسي (القرن السادس/ الثاني عشر).

كان البكري يتحدث عن الطريق من مدينة أشير (وهي من بناء الزيانيين) الى الجزائر، فقال: «ومنها الى مدينة جزاير بني مَزْغَنّى وهي مدينة جليلة قديمة البنيان، فيها آثار للأوَل، وأزاج محكمة تدل على أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم، وصحن دار الملعب فيها قد فُرِشَ بحجارة ملونة صغار مثل الفسيفساء، فيها صور الحيوان، بأحكم عمل وأبدع صناعة، لم يغيرها تقادم الزمان ولا تعاقب القرون. ولها أسواق ومسجد جامع... ومرساها مأمون له عين عذبة يقصد اليه أهل السفن من افريقية والأندلس وغيرهما».

ويقول الادريسي، بعد ذلك بأقل من قرن: «ومدينة الجزائر على ضفة البحر. وشرب أهلها من عيون على البحر عذبة ومن آبار. وهي عامرة آهلة وتجارتها مربحة وأسوارها قائمة، وصناعاتها نافقة، ولها بادية كبيرة وجبال فيها قبائل من البربر. وزراعتهم الحنطة والشعير، وأكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم، ويتخذون النحل كثيراً، فلذلك العسل والسمن في بلادهم كثير. وربما يُتجَهَّز بهما الى سائر البلاد والأقطار المجاورة لهم والمتباعدة عنهم. وأهلها قبائل ولهم حرمة مانعة».

ونقف في رحلة البلوي (القرن الثامن/ الرابع عشر) على ما يدل على ان العمران عاد الى المدينة، وأن تجارتها رائجة.

وقد كانت العلاقات التجارية بين موانىء المغرب العربي والموانىء الأوروبية تخضع لقيود وقوانين نشأت مع الوقت، وكانت لمصلحة التجار جميعهم. مثلاً كان الرسم الجمركي على ما ينقل الى المغرب هو نحو ١٠٪ يضاف اليه ٥٪ رسوم ميناء. لكن كانت هناك بضائع معفاة من الرسم الجمركي منها المجوهرات والحجارة الكريمة التي كانت تباع في البلاد للحكام. وجميع ما كان يستورد باسم الحاكم كان معفى من الرسم الجمركي، لكنه لم يُعْفَ من رسم الميناء (أي ٥٪). وهذه جميعها كان يطبقها أصحاب الأمر في الجزائر. فكانت الواردات من اوروبة (لا الى مدينة الجزائر وحدها) تشمل طيور القنص مثل الصقور، والأخشاب الخام والمشغولة، والنحاس والمعادن المستعملة في صنع الحلي، والأقمشة الحريرية والصوفية والقطنية حملت من أوروبة الى المغرب. وقد كانت الأسر المغربية الثرية تستعمل في المنازل الدنتلا البرغندية والستائر الفرنسية والأقمشة الايطالية الرفيعة وأقمشة الكتان والمخمل (القطيفة) والحرير والتفتة الانكليزية. وكانت مدينة الجزائر تستورد أصبغة خاصة من المدن الاوروبية.

أما مدينة الجزائر وجوارها فكانت تُصَدِّر الى اوروبة الرقيق الأسود والخيول والسمك المملح والجلود الخام والمصنوعة والملح والشمع (شمع العسل) والأصبغة النباتية والمرجان وزيت الزيتون، والعسل المنقول من غرب موريتانيا الحالية.

ويرى الباحثون ان السفن كانت تلقي بمراسيها في ميناء الجزائر بشكل منتظم بسبب هذه التجارة. فسفن البندقية كانت تفد في تموز/ يوليو، وهكذا. وكانت كل مدينة اوروبية تبعث الى الجزائر بما يتراوح بين ٤ و٦ سفن في العام الواحد.

كم يحب الباحث في تاريخ مدينة الجزائر ان يتعرف الى عدد سكانها في هذه الحقبة الطويلة! ولكن ليس في المصادر التي بين أيدينا ما يمكِّننا من ذلك. أما فيما يتعلق بالفترة السابقة للوجود العربي فالحصول على أيّ أرقام ضرب من المستحيل. وقد أخرج الدكتور حليمي عبد القادر علي ان سكان المدينة، في مطلع العهود العربية الاسلامية، كان في حدود ٥,٠٠٠ نسمة جلهم من الأهالي الاصليين. ولكن بعد ان تولى الأمر بُلُّقين ونظّم أمر المنطقة وبنى القصبة الاولى في المدينة فقد أصبح عدد السكان، في رأي الدكتور علي، نحو ٣٠,٠٠٠ نسمة. وقدّر مارمول وكارت، وقبل الدكتور علي ذلك، الجماعات الهلالية التي وصلت الى المغرب العربي بما يزيد على المليون، وكانت حصة القطر الجزائري من هذا الرقم نحو خمسة، ولكن هذه تقديرات يصعب قبولها في الواقع.

والثعالبة، وهم من بني معقل، من الجماعات التي وصلت تلك الديار في أواسط

القرن الخامس/ الحادي عشر. وقدر عددهم بنحو ٤٤,٠٠٠ نسمة كان نحو ربعهم يقطن مدينة الجزائر، هذا بالاضافة الى من كان فيها.

لكننا، ونحن نضع هذه الأرقام أمام القارىء، نعود الى التذكير بأن هذا التقدير هو من قبيل التخمين.

الاتراك في الجزائر

بين سقوط القسطنطينية بيد الأتراك العثمانيين (١٤٥٣) واستيلاء عروج على الجزائر (١٥١٦) تبدلت الأحوال في غرب البحر المتوسط الى درجة كبيرة. فالتساوق التجاري الذي كان الفريقان ـ المغربي والأوروبي ـ يدعمانه، اضطرب بسبب استيلاء الاسبان على غرناطة (١٤٩٢) ونشاط اسبانية، بدءاً من أوائل القرن السادس عشر، في الاستيلاء على موانىء في شمال المغرب العربي، وإخراج أعداد كبيرة من العرب المسلمين ومن اليهود من اسبانية، وتوسع أعمال القرصنة في تلك المنطقة.

المهم، بالنسبة الى مدينة الجزائر انها أصبحت، منذ سنة ١٥١٦ تابعة لتركية. ولما تم الاستيلاء على البينون (وهي الجزيرة المقابلة للمدينة التي كانت فيها حصون اسبانية قوية) على يد خير الدين بربروسا (١٥٢٩) تمت السيطرة التركية على المدينة، وامتد الفتح الى الساحل الجزائري تدريجاً (ثم تبعت طرابلس سنة ١٥٥١ وتونس سنة ١٥٧٤).

ومما يعنينا في هذه المناسبة أمور ثلاثة على غاية الأهمية وهي: (١) ان المدينة أصبحت، لأول مرة في تاريخها، عاصمة للقطر الجزائري. (٢) ان جماعات من المهاجرين الأندلسيين هبطوا الشمال الافريقي واستقر عدد منهم في المدينة، وهؤلاء «نقلوا اليها... ما وصلوا اليه من تطور حضاري في العمارة والتنظيم العمراني... ومن الهجرات التي جاءت مدينة الجزائر هجرة اليهود»، وذلك بعد ان قضى عروج على دولة الثعالبة (١٥١٦). (٣) ان الجزائر، مدينة وموانىء، اتجهت نحو البحر لتنمية ثروتها ـ اذ ان القرصنة وصلت حدوداً كبيرة.

وقد أصبح من الضروري أن يضاف الى سكان الجزائر، القدم والجدد، اللفيف الأجنبي الذي يشمل «اولئك العبيد المسيحيين الذين جُمعُوا عن طريق القرصنة، وهي حرفة ضرب فيها الأتراك بسهم وافر، حيث جمعوا من الاسبان والايطاليين والانكليز والبرتغاليين والالمان وغيرهم من الدول الاوروبية المسيحية أعداداً كبيرة من البشر، حوّلوهم الى عبيد، ولم يطلقوا سراحهم الا بعد الفداء من ذويهم أو من المؤسسات المسيحية» التي انشئت لتحقيق ذلك.

وكان الأثر الأول لهذه التطورات ان ازداد عدد السكان في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وقدر الحسن الوزان (ليون الافريقي) أنه كان في الجزائر في مطلع القرن السادس عشر (١٥١٦) ٤,٠٠٠ موقد. فإذا قُدر لكل موقد (أي بيت) نحو خمسة

أشخاص، كان عدد السكان الأصليين، وأكثرهم من الثعالبة والعرب الآخرين، عشرين ألفاً.

إلا ان عروج قضى على عدد كبير من الثعالبة، فتناقص عدد السكان. لكن هجرة الأتراك وهجرة الأندلسيين عوّضتا عن ذلك.

خلّف هايدو، الذي كان أسيراً بمدينة الجزائر (١٥٧٨ ـ ١٥٨١) احصاء يتعلق بالفترة هذه يمكن تلخيصه بأن ديار المدينة كانت ١٢,٢٠٠ داراً. ويتخذ من ذلك أساساً للقول بأن السكان الجزائريين أصلاً كانوا نحو ٥٠,٠٠٠ نسمة، ثم يضيف هايدو الى ذلك ٢٥,٠٠٠ من العبيد والأسارى المسيحيين. وهؤلاء هم الذين ظلوا على دينهم، اذ ان هايدو يقدر ان نحو ١٠,٠٠٠ أسير من المسيحيين اعتنقوا الاسلام، وبذلك أصبحوا، مع الباقين من سكان أصليين ومهاجرة أندلسيين ويهود، جزائريين.

وقد اقتضى ازدياد عدد السكان توسع رقعة المدينة، فأتمت الأبنية تسلق مرتفعات التل، وانتشرت فوقه. وقد أدرك عروج ان المدينة أصبحت بحاجة الى حصون مشرفة، فاتخذ من قمة التل موقعاً لقصبته، ذلك بأن قصبة بُلُّقين لم تعد صالحة. وفيما كانت المنازل الجديدة تتمتع بالشمس والهواء، ولو نسبياً، فإن الشوارع والطرق الأصلية تحولت الى ممرات ضيقة.

على أنه مع الزمن، وازدياد التوسع في الجزء الساحلي وفي السفوح، اختلطت الأمور الى درجة كبيرة. فكان الزائر يجد، داخل أسوار المدينة حمامات جميلة وأبنية متسعة. وقد أجمل الدكتور مليحي عبد القادر على وصف العمران داخل أسوار المدينة في العهد التركي الى أواسط القرن الثامن عشر بما يلي:

«كانت المباني المتنوعة تزدحم داخل أسوار مدينة الجزائر، منها الحمامات الجميلة المبنية بالرخام الابيض، والمزدانة بالفسيفساء، وأغلبها كان يتألف من طابقين وسطح أفقي، والطابق الأول يسمى بالسفلي تكثر بداخله السواري الاسطوانية الشكل، والمنحوتة من الرخام أو الحجر الجيري. ويدخل الساكن الى داره من باب متين مقوس الجزء العلوي ومستطيل الجزء السفلي، ومثبت في رف من رخام بالجدار يعلوه افريز أو طنف من القرميد. وبالباب فتحة مسيّجة بالحديد تساعد على الرؤية نحو الخارج. ومصرع الباب مرصّع بالمسامير ليزيدها متانة، وبحلقة حديدية لدق الباب، وداخل الباب اقفال ومغاليق ومصدم لتوفيق حركة الباب السريعة. والطابق الاول لاستقبال الضيوف، توجد به السقيفة، وغرف عديدة تفتح كلها نحو وسط الدار أو ساحة المنزل، تعلو أبوابها الاقواس، وتكثر بها الاروقة. وفي هذه الساحة المفروشة بالبلاط بئر لمد اصحاب الدار بالمياه اللازمة للشراب والغسل، وفوارة تنبجس منها المياه العذبة لتلطيف حرارة جو الدار في فصل الصيف، وتجميل الساحة في فصل الشتاء. وأغلب الديار خالية من الشبابيك الواسعة، وان وجدت فهي ضيقة للغاية،

ونادراً ما تفتح للأنهج، وغالباً ما تفتح نحو الساحة. والطابق الثاني مخصص للنوم. فيه تستتر النسوة داخل غرف جدرانها مرصعة بالفسيفساء، وتوجد بهذه الغرف الخزائن المملوءة بالألبسة والستائر، وغرف تعرف واحدتها بالمقصورة مفروشة بالزرابي وبها الارائك والأسرة ولوازم غرف المبيت. ومن الطابق الثاني تتصاعد أدراج سلم من الرخام الابيض او من البلاط او من الحجر الجيري الى سطح الدار المخصص للمسامرة في ليالي الصيف. ومنه تتصل الجارة بالجارة لمبادلة الحديث والاستماع الى أخبار بعضهن البعض أو لنشر الالبسة المغسولة. والطابق الثاني أوسع من الطابق الاسفل ويتركز جزء منه على أخشاب من السرو. ونظراً لازدحام الديار ببعضها فكانت سطوحها مماسة الى درجة انها تمثل من بعيد سطحًا واحدًا، ويمكن التنقل عن طريق هذه السطوح من دار الى أخرى بدون مشقة، بدلاً من الانهج التي أصبحت بعد ازدحامٍ المباني عبارة عن أنفاق مظلمة وملتوية تحت السطوح أطلق عليها في بعض الأحيان السباط. وجدران الديار مبنية بالأجور او الحجارة المنحوتة. وكان عدد الديار داخل أسوار المدينة نحو الخمسة آلاف دار وقدرت قبل الحملة الفرنسية (١٨٢٩) بحوالي ٨,٠٠٠ دار. وهي ديار متشابهة مطلية كلها بالجير الابيض أو الجبس.

«ولقد اعتنى سكان مدينة الجزائر بتجميل منازلهم داخلياً بالخصوص. أما خارج المنزل فقد اكتفوا بتبييضها في أغلب الأحيان. ولم تكن هناك علاقة بين النهج والمنزل. فقد ترك الأتراك للباني حرية البناء كيف شاء، دون ان تضبط الادارة الحد بين اتساع وارتفاع المنزل واتساع النهج. ولذلك طغت الديار على الانهج فكانت بذلك الأنهج ضيقة خالية من الارصفة والنور. والديار متشابهة بحيث ان الواحدة منها تعطي صورة صادقة وعينة مألوفة لغيرها من حيث الشكل والديكور. وكانت مدينة الجزائر في العهد التركي تنقسم الى احياء سكنية: منها حي البحرية الذي تركزت به الطبقة الارستقراطية من الاتراك بالخصوص والمصالح التجارية البحرية؛ وحي باب الوادي تركز به اليهود التجار؛ وحي باب عزّون للأجانب وأصحاب التجارة من الأهالي؛ ثم حي القصبة القديمة للعرب. أما حي القصبة الجديدة أو العليا فللانكشارية والدايات وأصحاب المناصب في الدولة. وتتخلل معظم هذه الاحياء أسواق متنوعة من أهمها سوق باب عزّون وسوق باب الوادي ورَحْبة السمن بالقرب من جامع سيدي رمضان، وسوق السردين بالقرب من باب الديوانة، وسوق اللوح (الخشب) بالقرب من بابا عزّون، وبجانبه سوق القمح. ثم الفنادق لإيواء المسافرين، منها خمسة فنادق كانت توجد في حي باب عَزّون».

ولنضف الى هذا الوصف الحديث ما رواه التَمَغْروتي الذي زار الجزائر سنة ١٠٠٣ للهجرة (١٥٩٥ للميلاد) قال:

«الجزائر عامرة كثيرة الأسواق، كثيرة الجند حصينة، لها أبواب ثلاثة وفيها

المسجد الجامع واسع إمامه مالكي المذهب. وفيها ثلاث خطب أحدها للترك إمامهم حنفي المذهب. ومرساها عامر بالسفن. ورياسها (أي رؤساء البحر) موصوفون بالشجاعة وقوة الجأش ونفوذ البصيرة في البحر، يقهرون النصارى في بلادهم. فهم أفضل من رياس القسطنطينية بكثير، وأعظم هيأة وأكثر رعباً في قلوب العدو. فبلادهم لذلك أفضل من جميع بلاد افريقية وأعمر وأكثر تجاراً وفضلاً وأنفذ أسواقاً وأوجد سلعة ومتاعاً حتى أنهم يسمونها «اصطنبول الصغرى». وطلبة العلم فيها لا بأس بهم، الا ان حب الدنيا وإيثار العاجلة والافتتان بها غلب عليهم كثيراً».

هذا التعميم الذي أورده التمغروتي عن الأسواق نجد تفصيلاً له عند هايدو الذي كان في الجزائر قبل ذلك بنحو خمس عشرة سنة، اذ يقول:

«ان السفن القادمة من انكلترا تحمل الى الجزائر الحديد والرصاص والقصدير والنحاس والبارود والأقمشة من كل نوع. والمراكب الواردة من اسبانيا ـ وخاصة من كاتالونيا (قطلونية) وبلنسية ـ فتحمل الملح والعطور والجواهر والذهب والفضة.. ومراكب مرسيليا والموانىء الأخرى لفرنسا فإنها تأتي بجميع أنواع أدوات البِزازة والقطن والحديد والفولاذ والمسامير وملح البارود والشب والكبريت وحتى الزيت عندما يقل في المغرب... وحتى شحنات من البندق والقسطل. ومن جنوة ونابلي وصقلية تحمل السفن الحرير المنسوج ومن كل لون، ومنسوجات الدمقس، كما تبعث البندقية بالنحاسيات والصناديق والصابون الابيض. ويستورد التجار الاتراك من القسطنطينية المجاذيف والقماش للعمائم والأحزمة والزرابي والمعالق المنقوشة والأواني الفخارية. والصحون والأكواب المرصعة تأتي من الاسكندرية. ويستقدم التجار العرب من جزيرة جربة التوابل والتمر. ومن تونس زيت الزيتون الجيد والصابون الابيض».

مر بنا من قبل أكثر من اشارة الى الأسرى الاوروبيين الذين كانوا يقعون في أيدي رجال البحر الجزائريين، وقد كانت السنوات الاخيرة من القرن الذي يليه هي الفترة التي بلغ فيها عدد هؤلاء الاسرى الذروة. وقد أورد وليام سبنسر جدولاً للهجمات التي شنها القرصان على كالابريا واسبانيا وذكر فيه عدد السفن التي ألقي القبض عليها والأسرى الذين وقعوا في أيدي رؤساء البحر. ومن هذا الجدول (للسنوات ١٦٠٧ ـ ١٦١٨) يتضح لنا ان عدد السفن التي ألقي القبض عليها هو ٢٥١ سفينة كان فيها (وهم الذين أُسِروا) ٧٠٣٥ شخصاً، يضاف الى هذا ثلاث هجمات على كالابرية وعدد من الهجمات على اسبانيا حمل بنتيجتها ٥٢٠٤ أسرى، فيكون مجموع الذين وقعوا بيد القرصان ١٢,٢٣٩ شخصاً.

وهذه الأعداد تمثل اولئك الذين افتُدُوا ومن ثم أمكن التأكد منها. أما الذين لم يُفْتدوا، أو لم يرغبوا في العودة الى بلادهم، فأعدادهم أكبر من ذلك بكثير. وقد مرّ

بنا ان هايدو ذكر بين سكان الجزائر عشرة آلاف اوروبي كانوا قد اعتنقوا الإسلام ونحو ٢٥,٠٠٠ لم يسلموا ولم يُفتدوا وظلوا يعملون عبيداً في المدينة.

ولسنا نريد ان نتعرض هنا للتاريخ الإداري أو السياسي لمدينة الجزائر في هذه الفترة. إلا أننا نريد ان نقف أولاً، عند تطور عدد السكان في المدينة منذ أواخر القرن السابع عشر الى سنة الاحتلال الفرنسي (١٨٣٠)، وثايناً عند التطور التجاري بشكل عام، وثالثاً الاهتمام بالمجتمع الجزائري بشكل عام.

وقد قُدِّر عدد سكان المدينة سنة ١٧٢٥ بنحو ١٠٠,٠٠٠ نسمة، وبنحو ١٥٠,٠٠٠ لسنة ١٧٣١، ويعود التقدير الى ١٠٠,٠٠٠ في سنة ١٧٥٥.

وحتى لو قبلنا ١٠٠,٠٠٠ فقط، فإن هذا يدل على فترة استقرار في عدد السكان. ولكن هذا العدد يأخذ بالتناقص بسرعة كبيرة منذ منتصف القرن الثامن عشر. فلا يصل الزمن بنا الى سنة ١٧٨٩ حتى نجد ان عدد السكان يقدّر بخمسين ألفاً، أي نصف ما كان عليه قبل أقل من نصف قرن. ومع ان تقدير سنة ١٨٠٨ هو ٦٣,٠٠٠ (وهو رقم مشكوك فيه أصلاً) فإن العدد يصل الى ٥٠,٠٠٠ سنة ١٨٢٢ وإلى ٣٠,٠٠٠ سنة ١٨٣٠. ويشرّد الاحتلال الفرنسي السكان فيظل في المدينة ١٦,٠٠٠ في نهاية سنة ١٨٣٠.

وليس من ريب في أن ضعف الاسطول الجزائري وتحطيم جزء كبير منه في القرن الثامن عشر (من ٦٠٠ سفينة في ١٦٨٩، الى خمس سفن سنة ١٧٣٦ مثلاً) حد من النشاط الاقتصادي للمدينة، وحال دونها ودون الحصول على أسرى يفتديهم ذووهم، أو المؤسسات الخيرية المسيحية، بمبالغ كبيرة. يضاف الى هذا ما كان يقع بين رجال الحكم من خصومات ومنازعات. ولم تترك الأوبئة والأمراض والزلازل الجزائر، فزارتها أكثر من مرة، وأدى ذلك الى نقص في السكان، وهجرة الآخرين خوفاً منها.

وقد لجأ الحكام الى احتكار التجارة للحصول على الأموال اللازمة لهم. والاحتكار عطل العمل والنشاط. ولم تكن الحكومة قد وجهت اهتماماً الى الأرض أو إلى الصناعة، فلما عجز البحر عن إشباع أطماع هؤلاء الحكام، وقع الحيف على الأهالي.

وباعتبار ما عندنا من المعلومات فإننا نجد ان الجزائر صدّرت، سنة ١٧٥٥، الى أوروبة، الأصواف والجلود والشمع وريش النعام والنحاس والزرابي والمناديل المطرزة والخرم الحريرية والتّمور. واستوردت المنسوجات والتوابل والصفائح المعدنية والكبريت والافيون والارز والسكر والفواكه المجففة والعطور والأمشاط والورق والصابون. وهذه جميعها، مستوردات ومصدرات، هي على سبيل المثال لا الحصر.

ولأن الحكم كان يحتكر التجارة الخارجية فقد كانت مواد كثيرة تستورد عن طريق أوروبة (بواسطة المؤسسات التجارية الاحتكارية) بدل ان تستورد من مظانّها الأصلية.

وقد قُدِّر ما استوردته الجزائر لسنة ١٧٨٩ بما قيمته ٢,١٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني.

وتمثل موازنة مدينة الجزائر التي توصل وليام شالر (سفير الولايات المتحدة في الجزائر ١٨١٥ ـ ١٨٢٦) الى حسابها للعام ١٨٢٢: المصروفات بما يقرب من ٨٦٠,٠٠٠ دولار اسباني، والواردات بنحو ٤٣٥,٠٠٠ دولار اسباني. ومعنى هذا ان العجز كان قرابة ٤٢٥,٠٠٠ دولار اسباني. فمن أين يأتي سداد هذا المبلغ؟

والجواب: القروض الخارجية. وهذا كان من أسس انهيار الوضع في البلاد.

الحالة الاجتماعية في العهد التركي

يلاحظ الباحثون في الجزائر في العصر التركي ان المجتمع كان يغلب عليه الذكور، وذلك بسبب العناصر المهاجرة الى مدينة الجزائر. فالأتراك الذين كانت تبعث بهم الدولة العثمانية من الأناضول الى مدينة الجزائر كانوا من الذكور، وكان الغالب على الأسرى المسيحيين أن يكونوا من الذكور. يضاف الى هذا أن المهاجرين من الداخل نحو المدينة كانوا من الرجال الذين كانوا يتركون أسرهم في قراهم الأصلية. والأتراك، بشكل خاص، كانوا يحافظون على العزوبية، لأن زواجهم معناه قطع المعونة العينية من الجيش عنهم.

كانت الحياة في الجزائر في العهد التركي تقوم على أساس طبقي. فالأتراك هم طبقة الأسياد إذ كانوا أصحاب السيادة في المدينة. ومن ثم فقد كان لهم الحصة الكبرى والأولى في ثروة البلاد. وكانت أكثر الأراضي في سهل متيجة الخصب ملكاً للدايات. ويلي ذلك طبقة المهاجرين الاندلسيين ثم تأتي عائلات الأشراف. وكان اليهود أصحاب ثروة كبيرة، ومع أنهم كمجموع كانوا يلون الاتراك في الثراء، فقد كان بينهم أفراد تفوق ثروتهم ثروة الاتراك أنفسهم. وكان لليهود أمين منهم، يعينه الدَّاي، يتولى شؤونهم وهو الذي يجمع الجزية منهم ليوصلها الى الداي.

والمهاجرون من الداخل كانوا يؤلفون طبقة البرّاني، وهم أصحاب دخل محدود. وكان العبيد، سواء في ذلك الزنوج الافارقة أو البيض الأوروبيون، يكوِّنون آخر طبقة في السلم الاجتماعي.

ويحدثنا الدكتور حليمي علي عن التركيب الحرفي لسكان مدينة الجزائر فيقول: «كان سكان مدينة الجزائر في العهد التركي ينقسمون حسب حرفهم الى عدة طوائف. وكان لكل حرفة أمينها الخاص وهو رئيس الطائفة. فالمزابيّون حرفتهم الأساسية إدارة المطاحن، وبيدهم أغلب حمامات المدينة ومخابزها وكانوا يقومون بالتجارة بين

تمبكتو ومدينة الجزائر، وكانوا يسلكون في ذلك طريق غدامس بليبيا، او تافيلالت بالمغرب. وكانت لهم عقود ومعاهدات أبرموها مع حكومة الدايات لحماية أنفسهم وتجارتهم من الحكم التركي، إذ ان المزابيّين كانوا من الجماعات المستقلة عن حكومة الأتراك بالجزائر التي أوكلت اليهم تصدير بضائع افريقيا الزنجية من تبر وريش النعام وتمور وعبيد، وساعدتهم على الإقامة في مدينة الجزائر للقيام بالتجارة داخل المدينة وخارجها. وللبساكرة حرفة حمل المياه ونقلها الى البيوت، وترويض الحيوانات والقيام بالخدمات العامة، ومنهم الخبازون والقصابون. ومنهم من كانت حرفته تنقية المجاري المائية والآبار وحفرها، ومنهم حراس الليل، ومراقبة أبواب المدينة وإيقاف الذين لا يحملون مصباحاً موقوداً بالليل أو لا يمتثلون لقانون المرور الذي ينص على أن من واجب المسلم حمل مصباح ليلاً، وان من واجب اليهودي حمل شمعة إن أراد التنقل ليلاً. وللزنوج العبيد الخدمات المنزلية. وللأغواطين حرفة استخلاص الزيوت، وللزواوي التجارة في الزيوت والقيام بالخدمات العامة لدى القناصل الأجانب، وللمهاجرين الأندلسيين والأهالي الصناعات المتنوعة للأقمشة والجلود والصباغة. وللعبيد المسيحيين العمل في الحقول أو في المنازل مثل الطهو وحراسة الأطفال أو في ورش صناعة السفن أو في الحانات. وللأتراك القرصنة والجيش والإدارة، إذ منهم الداي ورجال الديوان وكل أصحاب المناصب العالية. أما اليهود فلهم احتكار التجارة في الداخل والخارج، ومنهم الصرافون والأمناء، وتركزت حرفتهم الرئيسة حول كل ما كان يدور حول النقود، وما فيه رائحة الذهب. فهم الذين أوكل اليهم الدايات صك النقود وتغييرها.

«وفي الحديث عن الحرفة تعوزنا الارقام التي تدل على نسبة المشتغلين في كل حرفة. ويظهر ان الذين كانوا يعملون في حرفة التجارة كانوا يمثلون أكبر نسبة وربما ٧٠٪. أما حرفة الصناعة فكانت بسيطة للغاية لذلك كانت نسبة المشتغلين فيها منخفضة جداً، وربما كانت تدور حول ١٥٪ لذلك كانت المدينة تجارية أكثر منها صناعية، وتكثر بها البطالة المقنعة».

ويلفت الدكتور أبو القاسم سعدالله، في كتابه القيّم «تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر الى الرابع عشر الهجري»[١] الى العوامل الخارجية التي أثّرت في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية خلال العهد العثماني ويعيدها الى هجرة الاندلسيين ووجود العثمانيين والوجود المسيحي واليهودي.

يقول عن الأندلسيين وهجرتهم: «كانت الاندلس الى آخر عهدها، رغم ضعفها السياسي، هي المرحلة الراقية من تطور الحضارة العربية الاسلامية. فارتقت بوجودهم في الجزائر العمارة وصناعة الطب والموسيقى والزراعة والصنائع والحرف

والتجارة والتعليم والخط والوراقة وصناعة الكتاب. وقد كان على الاندلسيين في بادىء الأمر (وقد هاجروا بنسائهم وأطفالهم) أن يواجهوا مشاكل اجتماعية جمة أهمها الفقر. لذلك أنشأوا لهم أحباساً خاصة تعرف بأوقاف الاندلس يستفيد منها فقراؤهم ويأوي اليها مهاجرهم الضعيف والبائس والغريب والعاجز، ورصد أغنياؤهم لهذه الأوقاف كثيراً من أموالهم».

ويرى ان العثمانيين كان لهم أثر كبير أيضاً: «وأثّر العثمانيون بدورهم في الحياة الاجتماعية والاقتصادية للجزائر، وأول هذا التأثير هو ربط المجتمع الجزائري بالمجتمع الشرقي. فقد جاء العثمانيون بوسائل حضارية شرقية الى الجزائر من مآكل وملابس ومشارب وألقاب وصنائع وتقاليد. ولم تكن نساؤهم تأتي بكثرة (ونحن هنا نتكلم عن كبار المسؤولين وليس عن الجنود الذين كانوا يأتون بالضرورة عزاباً)، ولكن القليل منهم قد نشرن اشياء لا عهد للمجتمع الجزائري بها. كما أن العثمانيين قد أدخلوا المذهب الحنفي الحنفي الى الجزائر وجاؤوا معهم بطرق صوفية لم تكن معروفة أو على الاقل لم تكن منتشرة بين السكان. ومن جهة أخرى أثّروا في العمارة كالمساجد والأضرحة، وفي الموسيقى والخط، والمنشآت العسكرية والبحرية، وفي اللغة والملابس ونحو ذلك».

كانت بين الجزائريين والأوروبيين حروب طويلة، تعرّف الجزائريون عن طريقها التجارب والمهارات العسكرية كالصنائع البحرية وبناء السفن وطرق البحر وحماية المراسي وتحصينها. لكن الأثر الاوروبي جاء عن طريق الأوروبيين الذين أقاموا في الجزائر تجاراً وأسرى. وفي ذلك يقول الدكتور سعدالله: «وهناك صنف آخر من الاوروبيين عرفهم المجتمع الجزائري عندئذ، وهم التجار. وكانت لهؤلاء محاكم ومستشفيات وكنائس وفنادق ومخازن وعملات يتعاملون بها وبضائع يتاجرون بها، وملابس يظهرون بها ولغة يتخاطبون بها مع السكان وعمال من الجزائريين يعملون عندهم في بيوتهم وإداراتهم. ونفس الشيء يقال عن القناصل الذين كان لهم أيضاً عمال جزائريون كتراجمة مرافقين أو مقيمين معهم في أماكن العمل. وإلى هؤلاء وأولئك يمكننا أن نضيف الأسرى المسيحيين الذين كانوا أحياناً يقدرون بالآلاف، وفيهم النساء والأطفال وأصحاب المهارات والأدباء. وكان هؤلاء الأسرى يعملون، في انتظار فديتهم، في شتى أنواع العمل كالزراعة والبناء والنظافة والطب. وكثير من هؤلاء الأسرى قد اعتنقوا الاسلام وأصبحوا أتراكاً (عثمانيين) لغة وجنسية وارتقوا الى مراكز النفوذ».

وقد رُوِيَ أن حسن باشا بن خير الدين (أحد باشاوات الجزائر) غادر الجزائر سنة ١٥٦٧ وترك عدداً من المسيحيين والعبيد من بينهم عدد كبير من الفنانين المجيدين في مختلف الأنواع النافعة.

وكان من الطبيعي أن تنشأ في مجتمع الجزائر عادات ومناسبات للاحتفال بالأعياد وللتسلية. وهنا نستميح القراء العذر إذا نحن نقلنا جزءاً طويلاً عن الدكتور سعدالله، ذلك لأنّه قد اتقن الوصف وتحرّى الدقة فيه. يقول:

«ومن عادات شهر رمضان ختم صحيح البخاري في المساجد وإضاءة الشموع فيها وفي غيرها. وأهم ظاهرة اجتماعية في هذا الشهر هي ان المدينة تسهر خلافاً لسائر الشهور. فقد جرت العادة ان لا يخرج أحد من داره من سقوط الظلام الى شروق الشمس. وكانت المدينة تغلق أبوابها فلا ترى أحداً يمشي في الشارع ليلاً. أما في رمضان فالجميع يخرجون ويسهرون، حتى النساء اللواتي كن يخرجن سافرات متخذات من الليل حجابا. ومن الواضح ان المرأة لا تخرج وحدها في هذه المناسبة. وهناك ألعاب كانت تجري يوم عيد الأضحى على الخصوص. من ذلك الألعاب البهلوانية التي تشبه المصارعة والتي كانت تجري يوم الجمعة أيضاً. وهي لعبة لم تكن خاصة بمدينة الجزائر بل كان يمارسها الناس، وخصوصاً الأتراك، في معظم مدن القطر. أما في العاصمة فقد كان يحضرها يوم عيد الاضحى الباشا وكبار رجال الدولة في المكان المعد لها وهو خارج باب الواد، وكانت هذه الرياضة المفضلة عندهم.

«وخلاصتها ان أشهر اللاعبين يتقدمون زوجين زوجين في حوالي عشرة أزواج ويصعدون هذه الحلبة المعدة لذلك. ويجلس الباشا وأعوانه على زرابي حول الحلبة، ثم يشرع اللاعبون في مصارعتهم القائمة على خفة الحركة والمهارة في الغلبة واظهار القوة، كل اثنين يأخذان فترة من الوقت. وهكذا، الى ان ينتهي مجموع اللاعبين، وبعد ذلك يمنح الباشا بعض النقود لكل واحد منها.

«وهناك لعبة أخرى تجري في هذه المناسبة أيضاً، وتسمى لعبة العصي، وهي لعبة يشترك فيها الباشا أيضاً. فقد كان الفرسان (الصبايحية) يسيرون الواحد تلو الآخر ويرمون عصيهم التي تشبه الرماح على بعضهم البعض. والفائز هو الذي يصيب صاحبه. وفي نهايتها يركب الباشا أيضاً فرسه ويسير خلف احد الفرسان ويحاول إصابته بعصاه. والفارس المحظوظ هو الذي يصيبه الباشا بعصاه، لأنه عندئذ ينزل عن فرسه ويتقدم من الباشا الذي يعطيه الدراهم، وهكذا. وقد كانت هذه مناسبة رسمية وشعبية. فالعامة كانوا يكتفون بالتفرج، أما الخاصة فقد كانوا يتراجعون الى حيث نصبت خيمة الباشا ويقضون بعد ظهر ذلك اليوم في الأكل والشراب واحتساء القهوة. وهذا هو ما يشبه اليوم حفلة الاستقبال الرسمية.

«ولم تكن اللعبة البهلوانية أو لعبة المصارعة خاصة بيوم عيد الأضحى بل كانت تجري كل يوم جمعة. غير ان الباشا لا يحضرها إلا في المناسبة الأولى. وكانت تجري يوم الجمعة بنفس الطريقة في نفس المكان أيضاً، غير أن أشهر اللاعبين لا يلعبون الا

في عيد الأضحى. وكان ليوم الجمعة مظهره الخاص. ففيه تغلق المدينة أبوابها عند الصلاة كما تغلق جميع الدكاكين نوافذها، ومعظم التجار لا يعودون لفتح الدكاكين بعد الصلاة بل يذهبون في نزهات خاصة مع أهلهم أو يخرجون من بساتينهم القريبة أو يزورون بعضهم البعض. أما النساء فقد كنَّ يتوجهن منذ الصباح الباكر الى المقابر لزيارة موتاهن.

«وقد كانت هناك حفلات أخرى تسلي الناس وتدفع عنهم الضجر مثل مسرح القراقوز (أو خيال الظل) الذي أدخله الاتراك. ومن ذلك أيضاً حلقات إنشاد الشعر الشعبي حيث يقوم المدّاحون بقص السير والأخبار ومغامرات الأبطال والفرسان. وقد شاع في الجزائر عندئذ شرب القهوة بكثرة ومضغ الدخان وتدخينه في السبسي أو الغليون واستعمال النشوق ونحو ذلك. ولم يكن شرب الخمر شائعاً عند الطبقات العالية ولا ذوي الشأن والعلم لأنه حرام ولأنه لا يليق بالمقام. أما الجنود والشباب الترك بصفة عامة فالوثائق تتحدث على أنهم كانوا يشربون بكثرة.

«ويبدو أن التعليم كان منتشراً في المدينة على مستوى الكتّاب والدروس التي تلقى في الجوامع إما باستمرار أو موسمية (مثل أيام رمضان). ومؤسسة التعليم الابتدائي هذه كانت تخضع في سير العمل فيها لرغبة الواقفين. ولم يكن هناك تعليم تكرّسه الدولة، بل كانت العملية التعليمية بأجمعها أمراً يتوقف على الهبات والأوقاف. وكانت تعني، في نهاية المطاف «بتحفيظ القرآن الكريم وتعليم مبادىء القراءة والكتابة وأوليات العلوم لأطفال المسلمين الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة والرابعة عشرة سنة».

كانت مدينة الجزائر، على نحو ما نعرف، كثيرة الكتب، وكانت على قول التَمَغروتي لا يضاهيها بلد من بلدان افريقية في كثرة الكتب.

أما عندما نبحث عن معهد عالٍ للدراسة، فإننا، على حد قول الدكتور سعدالله، نجد ان الجامع الكبير في العاصمة هو مبتغانا. يقول: «ويكاد الجامع الكبير بالعاصمة ومدرسته العليا يشكلان نواة لجامعة في الجزائر. ففي الجامع كانت الدروس كثيرة يقوم بها أبرز العلماء، وكانت حلقات الدروس فيه تصل الى الاثني عشرة حلقة. وقد كان من أشهر مدرسيه سعيد قدورة وعلي الأنصاري وأحمد بن عمار ومحمد قدورة وعلي بن الامين ومحمد بن الشاهد. كما كان ضيوف العلماء المسلمين يلقون فيه الدروس ويتتلمذون فيه على علماء الجزائر. وكانت للجامع الكبير أوقاف ضخمة تمكّن بها المفتي سعيد قدورة من إنشاء مدرسة عليا أيضاً تابعة للجامع، وكذلك زاوية لسكنى الطلبة وغرباء العلماء. وقد كلف هذا المشروع خمسة عشر ألف دينار جزائري بعملة ذلك الوقت، وكلها قد دفعت من أوقاف الجامع. وكان عدد الأساتذة الذين يلقون الدروس بالجامع والمدرسة تسعة عشر استاذاً، بالإضافة الى عدد من المسمِّعين (أو

المساعدين) ونحوهم. وهذا بدون الأساتذة الذين يقرأون صحيح البخاري. ورغم القيمة العلمية للمدرسة والزاوية فإن سلطات الاحتلال الفرنسي قد أعطتهما سنة ١٢٤٩ (١٨٣٣) الى أحد الأوروبيين فحوّلهما الى حمّام فرنسي».

السنة ١٨٣٠

سنة ١٨٣٠ هي سنة نكبة الجزائر، مدينة وقطراً، إذ احتل الفرنسيون المدينة، وساروا فيما بعد يحتلون البلاد بكاملها. ولسنا نريد ان نتحدث عما أصاب القطر على أيدي الفرنسيين ولا عن صفحات الاستعمار الفرنسي هناك، لكننا نريد ان نتوقف قليلاً فيما أصاب مدينة الجزائر بالذات خلال ربع القرن من الاحتلال الفرنسي. ولعلّ خير ما يمكن أن يُفْعَل، في سبيل ذلك، هو أن ننقل بعض ما رواه الرحالون الأوروبيون الذين زاروا المدينة ووصفوا أوضاعها في تلك الفترة. وقد يسّر لنا الدكتور أبو العيد دودو ذلك فيما درس أو ترجم لبعض الرحالة الألمان. ونختار من هؤلاء ثلاثة: أولهم هو فيلهلم شيمبر الذي زار البلاد سنة ١٨٣١ والثاني موريتس فاغنر الذي زارها في سنوات ١٨٣٥ الى ١٨٣٨ والثالث هاينريش فون مالتسان الذي أقام في الجزائر مدة، وجاءها وكان يحسن العربية، وتعلم هناك اللهجة الجزائرية. والذي سننقله عنه كُتِبَ سنة ١٨٥٢.

على أننا قبل أن ننتقل الى الرحالين أنفسهم نودّ أن ننقل هنا بضع ملاحظات للدكتور دودو تتعلق بالرحالة أنفسهم.

ينبهنا الدكتور دودو الى ان الرحالة الألمان «لم يضعوا كتبهم عن الجزائر حبّاً بها أو دفاعاً عن حقوقها، وإنما وضعوا أكثرها، ولا سيما في الفترة الاولى، لتكون دليلاً لمن أراد من مواطنيهم الهجرة الى الجزائر لإنشاء المستعمرات والإقامة بها إقامة دائمة تحت ظل الاحتلال الأجنبي وحماية حكومته».

يقول الدكتور دودو عن شيمبر ما يلي:

«ويتطرق شيمبر الى الحديث عن التربية والتعليم فيذكر ان الأطفال يذهبون الى المدارس وهي موجودة بكثرة، في السادسة من العمر، يتعلمون فيها القراءة والكتابة والحساب وحفظ القرآن ثم يواصلون تعليمهم عن العلماء والفقهاء. ويسافر الكثير منهم فيما بعد الى تونس والاسكندرية والقاهرة إمّا لإتمام دراستهم أو لتعلم الحرف وفنون التجارة. كما يذهب البعض منهم الى «ليفورنو» لدراسة الطب واكتساب المعارف الاوروبية في مختلف الميادين. وإلى جانب هذا، هناك من سافر منهم سابقاً الى فرنسا وانجلترا. وينوه المؤلف بشاب جزائري عرفه عن قرب، ويقول عنه دون أن يذكر اسمه إنه طاف بأوروبة كلها تقريباً وعرف أحوالها وتقاليدها معرفة جيدة، وشاهد مسارحها وآثارها في كل مكان أتيحت له رؤيته، كما زار عدداً من البلدان الافريقية وأنهى رحلاته بالحج الى مكة. وكان يتكلم، إلى جانب العربية، الانكليزية والفرنسية

والإسبانية والإيطالية واليونانية. ثم يؤكد المؤلف ان الحضر على العموم يقومون بسفرات كثيرة ويجوبون الأقطار المختلفة ويعودون بعد ذلك الى وطنهم مزودين بمعارف عدة.. لكنهم لا يحاولون إتقان أي شيء ولا يتعلمون أي لغة قديمة!».

بعد ذلك يقرر شيمبر ما يلي: «لقد بحثت قصداً عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة، غير أني لم أعثر عليه في حين أني وجدت ذلك في بلدان جنوب أوروبة، فقلما يصادف المرء هناك من يستطيع القراءة من بين أفراد الشعب. ومن الإنصاف أن نقول إن الجزائريين يتكلمون الفرنسية بطلاقة، وذلك ما دعا الحكومة الفرنسية الى استخدامهم في بعض الوظائف العمومية».

وفاغنر الذي نشر كتابه سنة ١٨٤٢ بعد زيارات للجزائر في السنوات ١٨٣٥ ـ ١٨٣٨، ينقل عنه الدكتور دودو وصفه للأسواق والمقاهي.

الأسواق

«وتوجد في الجزائر بعض الأسواق، يعرض فيها الغرباء عن المدينة بضائعهم، وهي لا تشبه تلك الأسواق الضخمة التي كانت موجودة قديماً في بغداد، والتي تحدث عنها المؤرخون العرب. إن أسواق الجزائر لا يمكن أن تقارن حتى بأسواق إزمير أو القسطنطينية، مع أن هذه ليست لها أيضاً تلك الفخامة التي عرفتها الاسواق القديمة والتي تمثلت في المنتوجات الشرقية الرائعة. فأسواق الجزائر فقيرة بجانب تلك الاسواق. وهي عبارة عن دور تشبه الدور العربية، مع فارق واحد وهو ان جانبي الفناء يحتويان على حجرات، الواحدة منها منفصلة عن الأخرى. ولكل سوق طابقان أو ثلاثة طوابق وغرف كثيرة.

«والعادة المتبعة منذ القديم هي ان الأجنبي أو الجزائري أو اليهودي يكتري في السوق محلاً أو محلات عدة محلات بمجرد حصوله على رخصة بذلك، ويعرض في أبوابها بضاعته. ولم يكن يعدم من يزور محله، إلا أن زواره كانوا يكتفون بتقليب البضائع، وقلما يشترون شيئاً منها. فالتجارة لم تكن في يوم ما بالجزائر مربحة، ولم تزدهر أبداً مثل ازدهارها في بقية العواصم الأخرى. فقد كان الثراء في الجزائر بمثابة الحكم بالإعدام. وكانت للجزائر أسواق تحتوي على أكثر من أربعين محلاً إلا أن القسم الأكبر منها، بل أجملها وأجدرها بالاعتبار قد هدم، وقامت في مكانها محلات ودكاكين لتجار أوروبيين. وتوجد منها الآن دكاكين لا تقل جمالاً عن دكاكين مدن من الدرجة الثانية مثل طولون ونيس.

«أما دكاكين التجار من الأهالي، وهي تقع خارج هذه الاسواق، فإنها صغيرة تافهة. فليس فيها تنوع في البضائع، ولا تلفت الأنظار إليها إلا بشكلها الغريب، هذه الدكاكين عبارة عن ثقوب مربعة، تغلق في الليل بباب خشبي مهترىء، ولا تستثنى منها

إلا الدكاكين الموجودة في شارع الديوان، لأن بضائعها متنوعة ومنظمة بصورة تدل على ذوق أصحابها، وهم في الغالب من الكراغلة. وبضائعها على العموم من الصناعات المطرزة بالذهب، مثل الخفاف والمحافظ وأدوات الزينة الخاصة بالأسلحة وغيرها، وهي مصنوعة في الغالب من القطيفة (المخمل) الخضراء والحمراء، ويغطيها طلاء ذهبي كثيف، تبهر العين بفخامتها أكثر مما تبهره بجمالها.

«أما بقية البضائع فتتكون في أغلب الأحيان من الروائح والعطور المستخرجة من الورد والياسمين، ومن المصنوعات القطنية المحلية التي تدل على ما بذل في نسجها من جهد، وهي باعتبارها مصنوعات يدوية لا تضاهي طبعاً المنسوجات الاوروبية الآلية في جمالها ولا في أسعارها. وكثير من الاشياء المصنوعة من خيوط الصبر، مثل أكياس الصيد، وزكائب السيدات، وأحذية الأطفال وغيرها تهم الإنسان لغرابة المادة التي صنعت منها. وأصحاب هذه الدكاكين من الكراغلة والحضر اثرياء في أغلب الأحيان، ويقومون بشراء هذه المصنوعات من الطرازين ومن بعض الحضريات. وتجد بضائعهم هذه أسواقاً رائجة في أوروبة، فلم يحدث أبداً أن سافر عسكري فرنسي الى بلاده دون أن يأخذ لأصدقائه ومعارفه أشياء كثيرة من الصناعات الأهلية، التي تروق العين بروعة أشكالها وألوانها».

المقاهي

«وينصح فاغنر المسافرين بزيارة المقاهي العربية، التي يزيد عددها في القسم الأعلى من المدينة فقط عن الستين، ويذكر أنه كان يقضي كل أمسية في واحدة منها دون أن يندم على الوقت الذي قضاه فيها أبداً. ويعتبر المقاهي من الأماكن التي تتيح للأجنبي أن يتعرف على الشعب، ويتعلم لغته، بل لا يوجد بالنسبة له مكان يتعلم فيه التعابير الشعبية مثلما يتعلمها في المقاهي.

«ويشير الى أن الأهالي لا يتحدثون فيها كثيراً، إلا أن الحضر أكثر استعداداً للحديث منهم في أي مكان آخر، وفي أي وقت آخر من أوقات النهار. ومن هنا يستطيع الإنسان أن يدرس ملامح روّاد المقاهي، وهم جالسون على بسط فوق الأرض. فيرى الحضري الهادىء جالساً قرب التركي في لباسه الفخم. ويليه زنجي أسود كالقار، يرتدي نفس اللباس، وبعده عربي من البادية، طويل القامة، جميل المظهر، وقد لوحت الشمس بشرته، يغطي عضلاته الفولاذية برداء طويل أبيض، وفوق رأسه عمامة، يلتف بها حبل من شعر الجمل (العقال). وغير بعيد منه قبائلي بقامته القصيرة ونظراته الثاقبة. ثم ميزابي من الصحراء، وبسكري من بلاد الجريد، وبينهم فرنسي في لباسه الرسمي، وقد تعوّد على حضور جميع الحفلات، وأخذ يظهر جوانب من مزاجه المرح في كل مكان».

يقع أجمل مقهى عربي في شارع البحرية، وبه قاعة مقسمة الى مقصورات،

تستند على أعمدة، وتتسع لعدد كبير من الزوار. ويضيف فاغنر أنه شاهد مقهى من هذا النوع في أواخر سنة ١٨٣٦، ولكنه أضيق، وكان يقع في شارع لالاهم، وقد أصبح كلاهما أثراً بعد عين. فقد اشتراهما الاوروبيون وأقاموا مكانهما بنايات على الطراز الفرنسي، وقضوا في مقابل ذلك على جانب كبير من الأصالة الشرقية، فليس هناك اليوم مقهى واحد يشبه المقاهي القديمة.

«إن مقاهي اليوم مظلمة مستطيلة الشكل، ولا تحتوي الا على عرصة واحدة، وبها صفّان من المقاعد الحجرية، تغطيها حصائر من سعف النخيل، ويجلس فوقها الرواد على الطريقة الشرقية. ويقع المطبخ في منخفض بمؤخرة القبو، وتقدم القهوة في فناجين مصنوعة من الخزف فوق صحون من الصفيح، ويوضع فيها مسحوق السكر، وهي قوية الطعم الى حد ما، ولكنها لذيذة، وتكاد رواسب البن تملأ نصف الفنجان. ويقدم للمرء معها غليون أحمر ذو قصبة طويلة، وتبغ من النوع الممتاز، وثمن ذلك كله سنتيم واحد، ولا يتصور المرء ان هناك متعة أقل ثمناً من هذه.

«ويجلس صاحب المقهى عند المدخل في وقار، دون ان يهتم بمحله الكبير، ويستقبل الزائر الاوروبي قائلاً: «مساء الخير» ويحيّي أخاه في الدين «وعليكم السلام» ثم ينادي في اتجاه القبو «جب قهو ـ جب سبسي!». والطباخ من السود عادة. اما النُدُل فهم من ابناء الحضر، ووجوههم شديدة البياض موردة، وفوق رؤوسهم الحليقة قلانس حمر. ألبستهم في الأماكن التي يكثر فيها الرواد نظيفة وفاخرة في بعض الأحيان، ولا تتجاوز أعمارهم السادسة عشرة، وقد تركت الأعمال اليدوية أثرها على ملامح البعض منهم.

«ولا تخلو المقاهي الكبيرة من الموسيقى في أي يوم من أيام الاسبوع. ومكان الجوقة في العادة قرب المطبخ، مما يجعل اعضاءها ينظرون الى القدور التي يتصاعد منها البخار ويستمدون منها الحماس. وتتكون الآلات التي يستعملها الفنانون الجزائريون من الرباب والنايات والقيثارات المختلفة والطر، غير أن الأخير يستعمل في الحفلات التي تقام في الهواء الطلق أكثر مما يستعمل في المقاهي. وتخلو هذه كذلك من الطنبور ذي الموسيقى الصاخبة الخاصة بالأعراس وحفلات شهر رمضان. فرواد المقاهي يفضلون الاستماع الى الموسيقى الرتيبة الهادئة التي تدغدغ حواسهم، وتناسب الأحلام التي يستسلمون إليها في لذة، وينفرون من الأنغام القوية التي تذكّرهم بقعقعات السلاح وببطولات الأجداد.

«ويقع أكثر المقاهي العربية رواداً في شارع الديوان قرب الكنيسة الكاثوليكية، ويتردد عليه كثير من الاوروبيين. فالقهوة فيه ممتازة، والمجلس شيق، والجوقة كبيرة، وقائد الفرقة عربي عجوز، وهو عازف بارع على الربابة، يشد الأنظار اليه بغرابة تمثيله الصامت، واهتزازات رأسه، وحركاته الرزينة الرتيبة. وكان في الماضي أحد

اعضاء الفرقة الخاصة بالداي الأخير، ويمارس العزف في الأعراس الجزائرية منذ ستين سنة، ولذلك فهو يتمتع باحترام لدى جميع الأسر الجزائرية، التي تفتح له أبوابها باستمرار فيسمعها أنغامه اللطيفة في كل الظروف والأحوال. فيعزف في حفلات الختان، ويمدهم بالأنغام الراقصة في الأعراس، معتصراً من ربابته أنغاماً حزينة بهيجة في الوقت نفسه».

اما مالستان فقد ترجم الدكتور دودو كتابه «ثلاث سنوات في شمال غرب افريقيا» بكامله، ونشره في جزأين (١٩٧٦). والواقع، ان هذا الكتاب ممتع في التفاصيل التي يوردها عن المنطقة التي تنقّل فيها. والذي ننقله هنا هو وصفه لحانوت خياط جزائري ولبعض الذين كانوا يؤمّونه. من هذه المقتطفات، ومن غيرها التي لا يتسع هذا المقال لها، نستطيع أن ندرك الكثير عما آلت إليه المدينة على أيدي المحتلين الفرنسيين. يقول:

«كانت حرفة صديق الحاج، كما ذكرت آنفاً، الخياطة، إلا أنه لم يعد يمارس هذه المهنة الجميلة لأن تهيئة الملابس العربية لم تعد مجدية، بحيث أنها لا توفر القوت للخياط إلا بمشقة كبيرة، فالخياطون من عرب الجزائر لا يبيعون صناعتهم إلا لأبناء المدينة نفسها. أما الأعراب والقبائل فإنهم لا يرتدون السراويل ولا البدعية ولا القطفان، وإنما يكتفون فقط بالرداء والبرنوس من صنع زوجاتهم. واليهود لهم خياطوهم الخاصون بهم. وكان الأتراك أحسن زبائن اولئك الخياطين من عرب المدينة، ولكنهم لم يعد لهم وجود في الجزائر. ثم إن الجزائريين قد وصلوا الى درجة من الفقر، أرغمتهم على الاكتفاء بارتداء الألبسة الوطنية البالية. ولهذا لا يوجد اليوم بالمدينة كلها إلا ثلاثة «معلمين» من الخياطين العرب!

«لم يكن للحاج آنئذ عمل يقوم به، فقصر اهتمامه على دراسة نارجيلته، التي تظل مشتعلة أبداً، وتصدر عنها قرقرة كانصباب مياه النافورة، فيكون لنغمتها الفاترة تأثير منوم على الأمزجة البسيطة. إلا أن الرجل الأنيس لم تكن له رغبة في تدخين النارجيلة بمفرده، وفي النهار لا يطأ عتبة دويرته أحد، فقد كانت حفلات السمر لا تقام الا في المساء، فأين يمكنه إذن أن يستسلم لمتعته المفضلة؟ لا يزال بعد هناك المقهى، ليس المقهى الفرنسي، فهو محتقر مرذول، وإنما المقهى العربي. إلا أن المقهى العربي، للأسف، يختلف اليه جمع من الأنذال لا حصر له، بحيث لا يدخله عربي مهذب، كان من المدينة نفسها أو غيرها. وكان الإنسان يرى بين الحين والآخر بين أولئك الأوباش سائحاً ما، في صورة إنجليزي معتوه، جالساً بينهم، وفي زعمه أنه يستطيع أن يتوصل الى معرفة عادات عرب الجزائر وتقاليدهم العربية في مكان لا يرتاده سوى انذال هم خيار أسوأ الطبقات الجزائرية. إذن فالمقهى لا فائدة منه، إلا أن هناك أيضاً حانوت الحلاقة. حانوت الحلاقة، ذلك هو ملتقى ذوي الشأن من عرب

المدينة وغيرها، الذين يضعون رؤوسهم المبجّلة تحت موسى الحلاق المنتصر مرة في الاسبوع على الاقل. غير ان حانوت الحلاق لا يعجب الحاج ايضاً، ذلك أن «الحفّاف» (الحلاق أو المزين) أحسن طفيلي يمكن تصوره. فهو يتقرب الى ذلك الغني، الذي يدفع فرنكاً ثمناً لحلاقة الرأس، ويحدثه عن أحسن الحكايات الجديدة وأجملها، ويسمعه أغنية عربية أو ينشده أشعار شاعر مشهور، ويدعوه دائماً الى استراحة للهضم في حانوته، ويجاذبه أطراف الحديث والمسارّة. وكثيراً ما كان يجلس في حانوته دستة من وجهاء المدينة، الذين ساعدوه بما لشخصياتهم من وزن على شهرته.

«ونظراً الى أن الحاج لم يكن غنياً، فإنه لم يكن يحلق رأسه المحترمة إلا نادراً، وذلك بثمن لا يزيد عن خمسة صورديات.. لذلك لم يدر بخلد الحلاق أن يتملقه. والحق أنه كان في مقدوره أن يجلس في حانوت الحفّاف، لأن عربي المدينة لا يمنع أحداً، ولو كان أجنبياً، من الجلوس في حانوته بلا ثمن. ولكن الحاج إنسان له كرامته، فكان يمقت التطفل، مع أنه كان يعرف ان في الجزائر حوانيت كثيرة، هو فيها ضيف عزيز، ثم إخوته لم يكن عددهم يقل عن خمسة، وكانت لهم حوانيتهم الخاصة، فكان في إمكانه أن يجلس فيها ويستسلم لنارجيلته وفق هواه، ويتحدث ما شاء له الحديث ومتى أراد. غير أن إخوته كانوا يقومون بأعمال وصناعات لم تكن تهمه هو في قليل أو كثير. لقد كان مرة يمارس مهنة الخياطة، فعاوده الحنين بفعل قوة المكوى المغنطيسية القاهرة الى حانوت الخياطة.

«كان يعرف جميع خياطي الجزائر ومعاونيهم، كما أنه كان قد رأى أغلبهم وهم يكبرون وشاهد غرزات إبرهم الأولى، فكانوا كلهم يحبونه ويجلونه، وقد ساعد على هذا الحب والإجلال أن الرجل العجوز الطيب كان يدعو دائماً زواره الى شرب القهوة أو تعاطي نارجيلة التبغ، بل كان يساعدهم بالمال على سبيل القرض كلما احتاجوا اليه. وكانت الحرب سجالاً بين الخياطين الثلاثة، فكان كل واحد منهم يريد ان يحظى حانوته بجلوس الزميل القديم. فلم يكن على الحاج أحمد القادري إذن إلا أن يختار حانوتاً من حوانيت الخياطة، لينعم عليه بزيارته وجلوسه فيه. وبالتالي قرر ان يلتحق بحانوت صديقي المعلم سيدي حمود، أصغر مفصّلي الثياب في الجزائر وأمهرهم. فتفصيل الثياب لا يتم إلا على يد «المعلمين»، أما المعاونون فلا يعرفون شيئاً من ذلك.

«وهكذا اتخذ الحاج حانوت حمود حانوتاً له أو مكاناً لإقامته. والحانوت في الجزائر يلعب دوراً كبيراً في حياة الناس، ولهذا لا بدَّ من أن نعرض له ها هنا.

«إن الحانوت بالنسبة لعربي المدينة كل شيء في واحد، فهو يجد فيه كل ما يجده الأوروبي في بيته، في مكتبه، في ناديه، في قهوته، في قاعة تدخينه، وفي كل محل يختاره بصورة عامة ليقيم فيه خلال ساعات مختلفة. إن معنى الحانوت الحرفي هو الدكان، وهو محل للتاجر وورشة للصانع. ومع أن نصف عرب مدينة الجزائر ليس لهم

دكان، كما أنهم لا يعملون فيه، فإن لكل واحد منهم حانوته الخاص، بمعنى أن في إمكانه أن يستعمل دكان صديقه متى شاء وأراد، فيجلس فيه حسب رغبته، ويطلب فيه قهوته من أقرب مقهى، ويدخن نارجيلته، وينام إن كان تعباً، ويتناول طعامه فيه إذا لم تكن له رغبة في الذهاب الى البيت لتناول طعام الغذاء. كل عربي من عرب مدينة الجزائر له، بشرط ألا يكون سافلاً نذلاً، حانوت معين، هذا إن لم يكن له حانوته الخاص، يقضي فيه وقتاً من نهاره.

«ولما كانت العادة تقضي بأن تُتْرَكَ الدار في النهار للنساء، فإن العربي المتزوج لا يمر الى بيته إلا ليأكل أو ينام. أما الأعزب فلا يذهب اليه إلا في أوقات النوم. وقد نتج عن هذه العادة الصارمة، التي تحول بين الرجل وبين رجوعه الى البيت في اثناء النهار، أن أصبح من الضروري ان يحصل كل رجل على حانوت يكون مفتوحاً له ويرحب به كضيف. وأحياناً ينمو الإحساس بهذه الحاجة الملحة الى درجة أن الرجل يتفق مع صديقه على دفع قسم من أجرة حانوته، وذلك حتى يكون له الحق في الجلوس فيه باستمرار، دون أن يكون لصديقه عليه فضل! والحانوت الى هذا كله عنوان عرب المدينة، فلا أحد منهم يستلم رسائله في الدار، لأن ساعي البريد قد يتعرض لخطر النظر الى ابنة المرسل اليه أو زوجته.

«كان حانوت المعلم حمود اكتشافاً ثميناً بالنسبة لي. فكم كانت هناك من فرصة لدراسة الحياة العربية في أمزجة تلك الرؤوس الأصيلة الكثيرة، التي كانت تملأ جوانبه كعمال أو زوار.. جماعة غريبة الأشكال والأطوار وصور طبق الأصل، استطعت بعد ثلاثة أيام أن أعد قصصها على أصابعي.

«فكان هناك أولاً سيدي حبيبي، وهو رجل في السبعين من عمره، له ما لطفل في الثانية عشرة من خلق وطيش ومهارة. وكان فقيراً كفأر الكنيسة! وقد أصبح غير قادر على الكسب، لأن عينيه كانتا قد تخلتا عنه الى حد كبير، ولكنه كان نشطاً مستعداً للعمل في أي لحظة، أشبه بالخادم في تلبية ما يطلب منه، فكان العمال، الذين هم أحسن حالة منه، يجودون عليه لذلك ببعض الصورديات. وكان سيدي حبيب أحد أولئك العزّاب الأشقياء ـ وقد تحدثت عنهم سابقاً ـ الذين لا يقيمون في منازلهم إلا فيما بين غروب الشمس وطلوع النهار، ومن ثم كان لا غنى له عن هذا الحانوت. وقد رأيته يتناول طعام غذائه البسيط في حانوته، وكان طعامه عبارة عن خبز جاف لا غير. إن فقر هذا العجوز المسكين وتحمله لمعاكسات الآخرين قد أثارا نخوة صديقي الحاج، فقام بدور المدافع عنه، وكان يطلب له القهوة ست مرات في اليوم، ويدفع ثمنها من جيبه، ولو أنه لم يكن يتجاوز ثلاثة صورديات، إذ أن ثمن القهوة بلا سكّر في المقاهي العربية هو نصف صوردي، وسيدي حبيبي لم يكن يعبأ بالسكّر!.

«أما جار سيدي حبيبي من حيث الجلوس في حانوت الخياط فكان الحاج أحمد

الطويل، رجل في الخمسين من عمره، جادت عليه الطبيعة بمزاج مرح، وهذا المزاج المرح في مزاج عرب مدينة الجزائر كلهم تقريباً. وقد استحق لقب الحاج دون أن يسعى اليه نفسه سعياً، فقد زار مكة من غير ان يخطو خطوة واحدة. فقد حجَّت أمه قبل ولادته بأشهر، فضمن هذا لقب الحاج الذي لم يكن قد ولد بعد!.

«وكان الطويل عضواً في طريقة من طرق «لخوان» (الطرق الصوفية) المنتشرة في الجزائر بكثرة، وأشهرها وأكثرها انتشاراً هي طريقة إخوان سيدي الطيب وسيدي عبد القادر وعيساوة[٢]. والأول أرفعهم مقاماً، أما طريقة عيساوة فأعضاؤها ينتمون الى الطبقات الفقيرة. وبينما يجتمع اعضاء طريقتي سيدي الطيب وسيدي عبد القادر لتلاوة بعض المدائح الدينية المعينة أو لتناول الطعام مع بعضهم بعضاً، يقدم عيساوة كثيراً من الشعوذة والحركات البهلوانية كبلع النار وأكل العقارب والثعابين وقطع المسامير بالأسنان المجردة وغير ذلك. ويدّعون أنهم قد استمدوا من رئيسهم ومؤسس طريقتهم سيدي عيسى موهبة التمتع بالسم دون أن يلحقهم منه سوء. وقد شاهدت كثيراً من حفلاتهم الليلية في الجزائر، ورأيت شعوذتهم الغريبة. إلا أن الحفلات التي شاهدتها في المغرب لأصحاب الطريقة نفسها كانت أحسن بكثير وأروع من هذه.

«كان هناك أيضاً احد اعضاء عيساوة، يتعلم الخياطة في الحانوت، في الثلاثين من عمره، ضخم الجثة، كروي الشكل، يدعى بن شاقور، وكان أجهل الموجودين في الحانوت! وقد أصبح بن شاقور عيساوياً من وجبات الكسكسي لا غير، إذ كثيراً ما كانت تتصدق بها عليهم أيد، تعلق أصحابها بالخرافات والأوهام. وكان مغرماً بالعراك مع طالب، يدعى مصطفى وخّي كان يتعلم الخياطة أيضاً، لأن علمه لم يكن يدرّ عليه إلا القليل. وكانت تنقصه الفطنة التي كانت لابن شاقور، فكان الحضور يضحكون عليه عادة خلال عراكه معه.

«وثمة نموذج آخر يمثل المسلم العنيد أحسن تمثيل. من النادر العثور على أمثاله الآن في الجزائر، وهو بابا حسن. كان مدفعياً في عهد الأتراك، وكان يتمنى من كل قلبه عودة تلك السيادة التي عمّت فيها الفوضى. فقد كان الأتراك بالنسبة له مثالاً للخير والنبل، ولهذا كان يكره الرومي (أي الأوروبي) حتى الموت. ولا شك أنه كان قد أخذ على نفسه يميناً مغلظة ألا يكلم رومياً أبداً. فكان، من بين الحضور في الحانوت، الوحيد الذي لم يتبادل معي قط كلمة واحدة»!.

تطوير ميناء الجزائر

قررت فرنسة، بعد تردد، أن تحتل الجزائر بأجمعها، وأن تبقى فيها، فأخذت تعمل كأنها باقية هناك الى الأبد.

كان الميناء أول ما اهتمت به، أولاً من حيث تحصينه، وهو الأمر الذي كان

الفرنسيون يطورونه حسب تقدم وسائل الهجوم والدفاع من البحر والبر والجو. والأمر الآخر هو جعل الميناء صالحاً لاستقبال السفن التجارية الكبرى. وقد قاموا، أول الأمر، بتوسيعه في الجهة الجنوبية الشرقية. لكن التفكير بتوسيعه جذرياً بدأ سنة ١٨٤٠. غير أن البرنامج لم يوضع موضع التنفيذ إلا سنة ١٨٤٨. أما «شخصية» ميناء الجزائر كما هي عليه الآن فتعود الى سنة ١٨٦٠. ولسنا نريد ان نتتبع التطورات بالتفصيل، ولكن ميناء الجزائر تمكن سنة ١٩١٣، أي في السنة السابقة لاندلاع نيران الحرب العالمية الأولى، من استقبال ١٣,٠٠٠ سفينة. وكانت المتاجر التي مرت به في تلك السنة نحو ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ (عشرين مليون) طن. وكان ثاني ميناء تحت الراية الفرنسية بعد مرسيليا (٢٢ مليون طن). أما الميناء الذي كان يليه في تبادل السلع (من الموانىء الواقعة تحت الراية الفرنسية) فهو ميناء الهافر (١١ مليون طن). وبالنسبة الى الموانىء العالمية (سنة ١٩١٣) فقد جاء ترتيبه الثامن (بعد نيويورك وهامبورغ وانتورب ولندن وليفربول ومرسيليا وهونغ كونغ).

أمّا ما كان يُصَدَّر من ميناء الجزائر فيدخل في عداده الخمور والكحول والحبوب والخضار والفواكه والأغنام والصّوف والجلود والفلين والزيتون والمعادن. أما ما كان يُستَوْرَد عن طريق هذا الميناء فالمواد اللازمة للبناء والآلات والحديد والمستحضرات الكيميائية والمواد الغذائية والأقمشة.

على أن أهمية الميناء كانت، كما ذكرنا قبلاً، حربية أيضاً. فقد كانت تقيم فيه، بصورة دائمة (سنة ١٩١٣) ستّون قطعة حربية، من جميع الأشكال والأصناف. كما أن الميناء وما حوله، كان مصدراً كبيراً لصيد الأسماك.

تأخرت تجارة ميناء الجزائر اثناء الحرب العالمية الأولى، ثم أخذت تعود الى نشاطها بدءاً من سنة ١٩٢٠. واستمر الميناء للتجارة والحرب اثناء وجود الفرنسيّين.

ويعتبر ميناء الجزائر الآن أكبر ميناء في المغرب العربي على البحر المتوسط.

مدينة الجزائر - بالأمس القريب

قصة مدينة الجزائر قصة طويلة، حتى لو اقتصرنا على المئة سنة الأخيرة. ولكن لن أطيل على القراء في ذلك.

زرت الجزائر للمرة الأولى سنة ١٩٥١ وقضيت فيها نحو ثلاثة أسابيع. ولأنني أعتقد دوماً أن المشي هو السبيل الوحيد للتعرف إلى المكان، فقد سرت فيها كثيراً.

وصلتها مساءً وكنت قادماً في القطار من قسنطينة. وخرجت بعد راحة قصيرة أسير في أقرب شارع الى الفندق. وكان، مثل غيره من شوارع المدينة، عريضاً منظماً (كان اسمه يومها شارع دسلي).

حملت معي الى المدينة رسالة من المرحوم الأستاذ عامر بن عامر المحامي في

بنغازي بليبيا الى رجلين في مدينة الجزائر الشيخ محمد بن زكري، مدير المدرسة الثعالبية (تغمده الله برحمته) والأستاذ أحمد توفيق المدني (أطال الله عمره).

وقد رافقني الأول بضعة أيام ودلني على الكثير من معالم المدينة (ثم غادر المدينة الى المصايف). كان مديراً للمدرسة الثعالبية. وهذه المدرسة، التي كان الفرنسيون يطلقون عليها هذا الاسم تمييزاً لها عن المدرسة الفرنسية المعروفة بالليسه، هي مدرسة رسمية كان الطلاب يتعلمون فيها، بالإضافة الى الفرنسية وآدابها وتاريخ فرنسة وجغرافيتها، اللغة العربية وآدابها والدين الاسلامي مع اهتمام بالشريعة. ذلك ان خريجيها كانوا يوظفون في دوائر القضاء الفرنسي ليقوموا بترجمة الأحكام التي تصدر عن القضاة الى الفرنسية. لأن أحكام القضاة كان يجب أن يوافق عليها الموظف الفرنسي المسؤول قبل تنفيذها. (كان في القطر الجزائري ثلاث من هذه الثعالبية، واحدة في مدينة الجزائر وأخرى في قسنطينة وثالثة في تلمسان ـ وكان عدد الطلاب فيها كلها سنة ١٩٥٠ نحو ٣٥٠ طالباً).

سألني الشيخ محمد بن زكري يوماً فيما إذا كنت أرغب في زيارة الحاكم العام، فأجبت بالإيجاب، واشترطت عليه أن يرافقني ليكون واسطة الترجمة. ورأيت في الأمر مناسبة أن ألتقي الشخص المسؤول عن القطر بكامله.

كان الحاكم العام غائباً في إجازة، فتمّ الموعد مع نائبه. وذهبنا الى مكتبه وكانت الساعة الثانية عشرة ظهراً. وشكرته لإتاحة هذه الفرصة لي، فكان جوابه أنه قلما يزوره أستاذ جامعي، ولذلك فقد خصص لي ساعة كاملة، وسألني فيما إذا كنت قد زرت مدينة أخرى في القطر الجزائري قبل العاصمة، فذكرت أنني كنت في قسنطينة. فقال: «لقد احتفظنا بالطابع الوطني لمدينة قسنطينة، لتكون نوعاً من متحف فني معماري فولكلوري!». وكنت قد رأيت في تلك المدينة من انعدام النظافة ما تقززت له نفسي، فأجبته: «كان من الممكن أن تحتفظوا بها متحفاً نظيفاً».

انتفض الرجل كمن لُدِغ. ونظر إلى ساعته، وقال إنه تذكر أن لديه موعداً آخر. وكان هذا إيذاناً بانتهاء المقابلة. فمن الساعة الكاملة التي كان قد خصصها لي حصلت على ست دقائق بالضبط!.

رأيت في الجزائر يومها ما يسمى بالمدينة الجديدة (وبهذه المناسبة فقد كان مقابل كل مدينة هامة في المغرب العربي أيام الفرنسيين حيٌّ أو ضاحية تسمى المدينة الجديدة). والمدينة الجديدة هذه كانت للفرنسيين فقط. حتى الدخول اليها، بالنسبة للسكان الوطنيين، لم يكن مستحباً. أما السكنى فكانت ممنوعة إلا لمن رضي عنه المستعمر. وكم شعرت بشيء من السرور لما زرت الجزائر لأول مرة بعد الاستقلال ورأيت أن المدينة الجديدة عادت جزائرية وزالت عنها فرنسيتها!.

رأيت في وسط الجزائر، في الميدان الرئيسي، الجامع الكبير وقد أصبح كاتدرائية. (ولم يكن هذا الوحيد، ولكن هذا كان أكثر إيلاماً للجزائري. فهو الجامع الكبير لعاصمته). وقد عاد هذا جامعاً بعد الاستقلال.

ورأيت على أعلى بقعة في التل الذي تسلقته مدينة الجزائر في تاريخها الطويل، كنيسة كبيرة للسيدة العذراء سميت نوتردام افريقية Notre Dame d'Afrique، إشارة الى ما كان الكاردينال لافيجري وجماعته يرون في وجودهم في افريقية الشمالية. وقد أهمل البناء مؤخراً إهمالا تاماً.

وسألت عن جامعة الجزائر، فقيل لي إنها أنشئت سنة ١٨٧٩، وأعيد تنظيمها سنة ١٩٠٩ وكان فيها في تلك السنة ٢٨٢ طالباً وطالبة (٢٥١ طالباً و٣١ طالبة) من الجزائريين، أما البقية الباقية التي تبلغ نحو خمسة أضعاف هذا العدد، فقد كانوا فرنسيين.

وحملت رسالة التعريف الثانية الى الأستاذ أحمد توفيق المدني الى مكتبه. كانت الساعة الرابعة زوالية (وهذا وقت مبكر في الجزائر بالنسبة الى شهر آب/ أغسطس). لما دخلت المكتب اعتذر أنه عين موعداً مبكراً إذ إن اجتماعاً سيعقد في مكتبه في الساعة الخامسة لفئة من العاملين في حقل السياسة الجزائرية. وحدثني الأستاذ المدني بما عرف عنه من علم ومعرفة وإخلاص واوضح لي حقيقة الاستعمار الفرنسي للجزائر. وأخذالرجال يتوافدون، وهممت بالخروج إلا أنه قيل لي ان أبقى الى أن يكتمل الجمع، فبقيت. ولما اكتمل الجمع قيل لي إنه ليس في الذي يفعلونه شيء سيِّىء، فلماذا لا أشاركهم. وهكذا بقيت معهم الى منتصف الساعة الثامنة. ذكرت هذا لأقول إن هذا الاجتماع كان للبحث في إنشاء الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحريات الديمقراطية، وهي جبهة ضمت ممثلين عن جميع المنظمات الجزائرية السياسية من أقصى اليمين الى أبعد اليسار! وكان هذا الاجتماع، وما قيل فيه، من توافق وتناقض وتبادل في الرأي أمراً لم أكن أطمع في أكثر منه في مثل تلك الظروف.

على أن الأمر الآخر الذي تم لي - عن طريق الأستاذ المدني - هو التعرف الى المرحوم الشيخ الطيب العقبي، أحد رجال الإصلاح في المغرب العربي، ولولب نادي الترقي في العاصمة. زرته في النادي وزرته في بيته. وكان النادي أصلاً يعنى بالأمور السياسية بالإضافة الى الشؤون الثقافية. لكن لما زرت الجزائر (١٩٥١) كانت الحكومة الفرنسية قد حرمت على الأندية والجمعيات العمل السياسي، فاقتصر نادي الترقي على نشاط ثقافي محدود.

ثم تعرفت - عن طريق الأستاد المدني - الى المرحوم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، رئيس جمعية العلماء المسلمين في الجزائر يومها. وبعد عودتي الى بيروت كتبت عن الجمعية ومؤسسها، ابن باديس، وعن الجزائر مقالاً نشر في

«الأبحاث» (مجلة الجامعة الاميركية في بيروت) في العدد الأول من السنة الخامسة (آذار ـ مارس ـ ١٩٥٢) جاء فيه:

«وقد آن لنا أن نولي هذه الجمعية بعض العناية لأنها، كما عرفنا ولمسنا وأحسسنا، تقوم بدور كبير في حياة الجزائر الحديثة.

«في عام ١٩٢٩ أنشأ الشيخ عبد الحميد بن باديس، بالمشاركة مع إخوانه وأبنائه من المشتغلين بالحركة العلمية في القطر الجزائري، «جمعية العلماء المسلمين بالجزائر». والشيخ ابن باديس عربي الأصل صميمه، جزائري النبت كريمه، زيتوني النهج قويمه، كان رحمه الله ثابت الجنان، ناصع البيان، قوي الإيمان، اجتمع له من هذا كله، ومن نظره الثاقب، ورأيه الصائب، ما جعله رجل الجزائر تدفع به المصائب، وتجتلي في طلعته جميل المناقب. ما كان أول جزائري فكر بأمر بلاده، ولا كان أول من لبَّى داعي جهاده، ولكنه يمثل في حياته وعمله، وعلمه ومثله، خلاصة أماني الأمة الجزائرية وصفوة القائلين بالدعوة الإسلامية. دعا الناس الى العودة الى صحيح الإسلام، وحملهم على «سلفية» تلك الأيام. أسر الناس بفضله، وكسبهم برحابة عقله. عمل لأمته، فوحَّد جهود العاملين معه، وكان لهم نبراساً.

«دعا الى نبذ الخرافات والعودة بالدين الى جوهره، وأهاب بالناس أن يذكروا اللغة العربية بالخير، وكان في صميم هاتين الدعوتين تقوية للشعور بالشخصية الجزائرية. وهذه الدعوة روحية اجتماعية في وسائلها، لكنها في صميم الحياة السياسية هناك. ذلك أنها تتعارض تماماً مع وجهة النظر الرسمية للسياسة الفرنسية. ومن هنا جاءت نقمة السلطات على جمعية العلماء المسلمين. ولكن بن باديس وصحبه وحملة لوائه من بعده يحاولون أن يكون اتصالهم بالشؤون السياسية اتصالاً فردياً شخصياً، فيصيبهم الأذى في نفوسهم، وتظل المؤسسة قائمة. ومع ذلك فلم تفت القضية السلطات. فما أكثر ما حاولت أن تضع للجمعية حداً. لكن هذه الجمعية التي فرضت نفسها بادىء الأمر على الناس فرضاً، لم تلبث أن أصبحت لحركتهم رمزاً، ولحياتهم ركزاً، ولذلك فإنهم لا يسمحون أن يقضى عليها.

«وكانت «الشهاب» الأسبوعية جريدة ابن باديس والجمعية، تنطق بلسانهم وقلوبهم، وقد نقلنا من قبل عبارة كتبها ابن باديس في عام ١٩٣٦ مبيناً فيها عقيدة الجمعية التي تعمل من أجلها، ولا تزال هذه عقيدتها.

«وقد مرت الجمعية في الجزائر بثلاثة أدوار: الأول قارعت فيه ضعفة المسلمين وأتباع الخرافات، فبينت خطأهم. وجاء الدور الثاني دور بناء وتشييد فبدأ عام ١٩٣٩، لكن نكسة الحرب أوقفته حتى جاء الدور الثالث وهو الذي بدأ بعيد الحرب والذي لا تزال الجمعية تسير فيه وتقوم فيه بخدمة جلى، هو دور العودة الى إنشاء المدارس

والعناية بالتعليم. ومع ذلك فليس هذا وحده هو الذي توليه الجمعية اهتمامها، ولكن هذا أبرز نواحي جهادها.

«وقد أتيحت لنا فرصة الاجتماع برئيس الجمعية الفاضل الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، الذي خلف المغفور له ابن باديس عام ١٩٤١، لما لبّى الأخير نداء ربه، والتقينا بعدد من رجالها الأبرار في مدينة الجزائر وتلمسان ووهران، فوجدنا فيهم، كبيرهم وصغيرهم، شيخهم وشابهم، غنيهم وفقيرهم، عالمهم وطالبهم، تفانياً في العمل، وإخلاصاً للمبدأ، وثقة في النفس، ورغبة في الخدمة، وفوق هذا كله تعطشاً للإفادة، وتطلعاً الى النمو. وهذه خصال ما اجتمعت لمؤسسة إلا ضمنت لها النجاح.

«وأمامنا الساعة، ونحن نكتب هذا المقال، العدد ١٧٣/١٧٢ من السنة الرابعة «من البصائر» (تاريخ ١٥ تشرين الأول/ اكتوبر، ١٩٥١) وفيه تقرير الرئيس عن عمل الجمعية في نواحيه المختلفة في سنوات خمس. وها نحن أولاء نقتطف منه هذه المعلومات»:

(١) للجمعية من المدارس الابتدائية ١٢٥ مدرسة (باستثناء المعطلة إدارياً) فيها من الطلاب ١٦,٢٨٦ طالباً نهارياً و٢٠,٠٠٠ طالب مسائي. فالأولون يلازمون المدارس بانتظام ويتعلمون فيها اللغة العربية والإسلام ومبادىء الحساب والعلوم. أما الفريق الثاني فهم ممن يذهبون الى المدارس الرسمية بانتظام لكنهم يأتون مدارس الجمعية مساءً لتعلم العربية والدين، وهذه المدارس يعمل فيها ٢٧٥ معلماً. وتبلغ موازنتها نحو ٤٠,٠٠٠ جنيه استرليني.

(٢) هذه المدارس ابتدائية. وقد أنشأت الجمعية معهد ابن باديس في قسنطينة، وهو معهد تجهيزي يتناول الطلاب من الخامسة الابتدائية فيعدهم إعداداً ثانوياً تمهيداً للحاقهم بجامع الزيتونة بتونس. وما كاد المعهد الباديسي يقوم حتى احتضنه الشيخ الفاضل الطاهر بن عاشور شيخ الجامع الزيتوني، واعتبره فرعاً من فروع المؤسسة الكبرى.

(٣) هذه المؤسسات جميعها تقوم على هبات يقدمها مؤازرو الجمعية، وأكرم بهم من مؤازرين!

(٤) تصدر الجمعية جريدة «البصائر» الأسبوعية، وهي في ثماني صفحات تعنى بالجانب الفكري والأدبي، وشرح حقوق الجزائريين وتوضيح العقيدة الاسلامية، وتعنى بالسياسة العالمية والوطنية. ولسنا نريد ان نذكر اسماء الأدباء الذين يساهمون في تحريرها خشية أن نزل، ولكن لا بدَّ لنا من الإشارة الى هذه الديباجة المشرقة والأسلوب الحي الرصين الذي ينمق به الشيخ محمد البشير الابراهيمي رئيس الجمعية مقالاته، وإلى العمق والمعرفة اللذين يعالج بهما الأستاذ أحمد توفيق المدني

القضايا السياسية العالمية. ومما توجه الجمعية اهتمامها نحوه، وخاصة عن طريق «البصائر»، الجزائريون المقيمون في فرنسة.

(٥) بلغت مالية الجمعية (عام ١٩٥١) نحو ٧٥,٠٠٠ جنيه استرليني.

(٦) للجمعية فروع في أكثر مدن القطر الجزائري، وإن كانت أكثر فروعها في مدينة قسنطينة. والفروع تشرف على المدارس، وتقيم حلقات الوعظ والإرشاد، وتعقد الجلسات الأدبية، ويتطارح الحضور فيها الأدب والشعر.

(٧) والجمعية تهيب برجال العالم العربي أن يوطدوا العلاقات معها، وأن يقدموا لها آراءهم واختبارهم. فرجالها يعرفون أنهم لا يقفون وحدهم في جهادهم، ويدركون أن قوتهم من قوة إخوانهم.

البصائر هي الجريدة العربية الوحيدة في الجزائر، وهي اسبوعية تصدر في صفحات ثمان. وثمة جريدة أخرى، نصف أسبوعية، تصدر في قسنطينة في وجهين، إسمها «النجاح». وعدا هذا فالقارىء، إذا أراد الاطلاع على الشؤون السياسية والقضايا العالمية والأمور العلمية، اضطر الى الرجوع الى الصحافة الفرنسية، أو الجزائرية المكتوبة بالفرنسية. وبعض هذه تصدرها الأحزاب السياسية العربية، لكن القضية هي قضية لغة وواسطة عقلية.

وفي الجزائر هيئات أدبية تعنى بالمحاضرات والجلسات الأدبية، لكنها محدودة النشاط مقيدته. وفي مقدمة هذه نادي الترقي الذي يشرف عليه ويدير حركته الأستاذ الفاضل الشيخ الطيب العقبي.

واليوم

زرت الجزائر بعد الاستقلال أكثر من مرة كانت آخرها في شهر تموز/ يوليو ١٩٧٨.

المدينة التي زرتها لأول مرة سنة ١٩٥١ قد اتسعت كثيراً، لكن اتساعها لم يتناسب مع ازدياد عدد السكان فيها. فالمدينة تضم اليوم أكثر من ثلاثة ملايين نسمة، جاؤوا، في الغالب، من الريف سعياً وراء الرزق في العاصمة. لذلك فهي مزدحمة ازدحاماً كبيراً قد لا يعدله في هذه الأيام، بين المدن العربية التي أعرفها سوى القاهرة وبيروت (على اختلاف في عدد السكان بين المدن الثلاث). وهذا الازدحام طبع المدينة بطابع خاص من حيث العنصر السكاني.

والمدينة التي كانت تصدر فيها صحف محدودة، بسبب المضايقة الفرنسية، أصبحت الآن تصدر فيها صحف بالعربية والفرنسية. والمدينة التي لم تعرف يومها مجلة عربية (سوى البصائر) فيها الآن «الأصالة» و«الثقافة» وغيرهما. والمدينة التي لم تطبع كتباً بالعربية تستحق العناية، أصبحت الآن تنشر العشرات من الكتب العربية في الشهر الواحد. والمدينة التي كان في جامعتها سنة ١٩٥٠ أقل من ٣٠٠ طالب

وطالبة جزائريين، أصبحت جامعة الجزائر الآن تضم ١٨,٠٠٠ طالب وطالبة جزائريين. هذا بالإضافة الى جامعة «أبو مدين العلمية والتكنولوجية» التي تضم نحو ٩,٠٠٠ طالب وطالبة. ويعمل في الجامعتين نحو ٢٥٠٠ أستاذ ومدرس جامعيين. هذا الى معاهد للدراسة والبحث العلمي مستقلة عن الجامعتين، وفي مقدمتها المعهد الوطني للدراسات التاريخية. والمدينة التي كانت عاصمة لقطر فقير أو على الأصح فُقّر سكانه لينعم الأجنبي بثروته، أصبحت الآن عاصمة لقطر غني بسبب النفط والغاز الطبيعي.

كانت مدينة الجزائر سنة ١٩٥١ تقارع الاستعمار الفرنسي، ثم قاتلته البلاد بأجمعها (١٩٥٤ ـ ١٩٦٢)، وهي اليوم عاصمة القطر المستقل الذي يقارع مشكلات السكان والعمل والإصلاح الاجتماعي والتعريب والتعليم العالي.

وهكذا فالجزائر، كما قلت في مفتتح هذاالحديث، «عرفت الرفعة والثراء، وخبرت الضّعة والفقر. لكنها، في كل حال، ظلت مرفوعة الرأس منتصبة القامة تؤثر الشرف على الاستكانة».

(١٩٨٣)

الهوامش

(١) نشر هذا الكتاب في جزءين، الأول سنة ١٩٨١ والثاني سنة ١٩٨٢، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ولم يصدر الجزء الثالث.

(٢) هذه هي الطرق المعروفة بالقادرية أو الجيلانية نسبة الى عبد القادر الجيلاني، والطيبية والعيساوية.

بيروت بين الأسطورة والتاريخ

كتبتُ قبل سنوات عن بيروت ما يلي:

أَقبِلْ على بيروت من البحر، والشمس بعدُ تطلّ فوق صنين تَرَ منظراً عجباً بحيث يبدو لك كأن أهلها وبيوتها وأشجارها اتجهت نحو الشمس تسبّح الخالق. أو أشرفْ عليها من الطائرة، مشرِّقاً نحوها أو مغرِّباً، يبدُ لك منظر رائع، حيث ينحني الجبل محيياً البحر، ويرفع البحر جبهته ليقبّله البر، وحيث يمتزج اللون الأزرق باللون الأخضر، وقد يفصل بينهما خط رقيق من لون رمال الشاطىء.

هذه بيروت تبهرك من البحر أو من الجو، فإذا دخلتها وتحدثت الى أرضها وسمائها روت عجباً من التاريخ البالغ من العمر نحو خمسة وثلاثين قرناً ان لم يزد عن ذلك.

ولا أزال، بعد هذه السنوات الطوال، وبعد ما أصاب بيروت في السنوات العجاف، أشعر بهذا الشعور نحو هذه المدينة. وبيروت من أقدم المدن الفينيقية في لبنان، على ما اتضح من أعمال التنقيب الأثري الذي قامت به ادارة الآثار اللبنانية في منطقة الأوزاعي وخلدة قبل بضعة أعوام، وقد ورد اسمها في رسائل تل العمارنة التي ترجع الى القرن الخامس عشر ق.م. والتي تذمر فيها امراء بلاد الشام من سوء الأحوال في الرسائل التي بعثوا بها الى الملك المصري.

ولعلّ أزهى عصر في تاريخها القديم هو العصر الروماني. فقد أدرك الرومان ما تستحقه المدينة من الرعاية فأكرموها. وقد حدّثنا الراوي عن بيروت في ذلك الوقت قال:

«لما صار الأمر لأغسطس قيصر خصّ بيروت بألطاف وهبات لم ينعم بها على غيرها. فولّى عليها القائد أغريبا بعد أن أزوجه بإبنته جوليا. وكان صهره مولعاً بالأبنية الفخمة، فلما تقلّد ولاية بيروت شملها بسوابغ النعم وجعلها من المدن الأولية الراقية، واستدعى إليها فرقتين من الجيوش الرومانية اقامتا فيها. فأضحى لها ذلك ميزة على بقية المدن الساحلية. ثم منحها أغسطس امتيازات المستعمرات الرومانية، وخوّل أهلها حقوق الوطنية وكان ذلك سنة ١٥ ق.م. وسماها باسم ابنته جوليا. وضرب باسمها نقوداً بيروتية».

«ولما رأى هيرودس الكبير.. محبّة اغسطس سعى هو أيضاً الى تحسنيها. فشيدّ

في بيروت النوادي الواسعة والأروقة الرحبة والهياكل والأسواق الفاخرة والحمّامات والمخازن التجارية. فتقاطر الى بيروت كثير من الرومانيين والأجانب فاستوطنوها وزادت بهم حسناً وعمراناً. وفي مجلس بيروت جمع هيرودس محفلاً من الفقهاء والأعيان لمحاكمة ولديه».

استمر هذا الاهتمام بالمدينة في العصر التالي، أيام اغريبا الأول، بحيث قال المؤرخ يوسيفوس عنها: «ان هذا الملك بالغ في إكرام أهل بيروت فشيّد لهم مسرحاً كان يفوق مسارح مدن كثيرة بجماله وفخامته، وكذلك بنى لهم ميداناً فخماً وملعباً للحيوانات ومعاهد أخرى لم يدّخر في بهائها شيئاً من ماله ليبلغها من المحاسن أجلها. وبعد إنجازها دعا الأهلين الى تدشينها فأقام لذلك مواسم وأعياداً بهجة أنفق في ترويجها المبالغ الوافرة. فمثلوا في المسرح المشاهد المختلفة وتعدّدت فيه الملاهي وعزفت أصناف الآلات المطربة. وتفكيهاً للحضور حكم على ١٤٠٠ من أصحاب الجنايات بأن ينقسموا قسمين يقاتل بعضهم بعضاً ففعلوا حتى قتلوا على بكرة أبيهم. وتم ذلك في الميدان الذي أعده لتلك المبارزات القبيحة، والمظنون ان موضع هذاالمشهد كان على شاطىء البحر».

اشتهرت بيروت أيام الرومان بمدرستها الفقهية التي أنشئت في أواخر القرن الثاني الميلادي. وقد قيل فيها سنة ٢٣٩ للميلاد: «إن بيروت جامعة لتعليم جميع الشرائع الرومانية». وبعد ذلك بقرن واحد قال كاتب لاتيني عن بيروت: «انها المدينة الوافية الكمال موقعاً وحضارة. وفيها مدارس لدرس الحقوق حسب الدستور الروماني وإليها يتوارد الطلاب أفواجاً من كل صقع ومنها يخرج المحامون القانونيون لمحاكم العالم كله». وكان فيها مجال لدراسة العلوم الأدبية بفروعها والفلسفة.

هؤلاء الطلاب، «كانوا أحراراً يتفقون في الغالب مع الأهلين فيسكنون في بيوتهم ويبيتون عندهم ليلاً ثم يترددون الى المدارس في ساعات التعليم. ولا يخفى أن تزاحم الشبان المطلقي الحرية في حركاتهم وسكناتهم كثيراً ما يقودهم الى ردغات المآثم حتى ولو كانوا من أهل الصلاح... فإن الكتبة المعاصرين يدعون بيروت «مصيدة النفوس البارة». فإن هواءها الطيب وحدائقها وحماماتها ومقاصفها وملاعبها كانت مدعاة الى اللهو وارتكاب المحرمات. وقد شبهها غريغوريوس العجائبي بساحرة تفتن عقول الأحداث وتهوي بهم الى قعر الفساد».

ويبدو من ملاحظات الكتّاب الذين زاروا المدينة في القرن الخامس وأوائل السادس «ان المدينة كانت تنعم بعيش رغد ورفاهية ومجالي الابهة. وانها كانت مركزاً لتجار الحرير والأشغال الحريرية، ولم يزاحمها في ذلك إلا صور. وان غلاتها كانت كثيرة وأشجارها متنوعة وان مياهها المنقولة اليها من نبع العرعار في قناة لطيفة كانت متعة الشاربين.

وذر قرن الشر على بيروت في القرن السادس للميلاد. فالزلازل والحرائق تهدمها وتهد حيلها. قال ميخائيل الكبير يصف زلزال سنة ٥٥١ للميلاد:

«لما حدث الزلزال في بيروت ومدن فينيقية اندحرت المياه بإذن الله الى مسافة ميلين فانكشفت أعماق البحر وظهرت فيه سفن مشحونة بالبضائع ومال كثير فحمل الطمع الأهلين ولم يردّهم الخوف فتقاطروا ليحرزوا تلك الكنوز فحملوها راجعين بسرعة الى دورهم، وإذا بالمياه عادت بغتة فأغرقتهم جميعاً. أما الذين كانوا على الساحل فهربوا لينجوا بنفسهم من الغرق، الا ان جدران الأبنية المتساقطة بفعل الزلزال قتلتهم فماتوا تحت الردم، وانتشر الحريق في المدينة بعد خرابها مدة شهرين فحوّل مبانيها الى رماد وحجارتها الى كلس».

ونزل بها حريق بعد ذلك بقليل فصرخ أحد المعاصرين لذلك يرثي بيروت وكأنه يتكلم بلسانها:

«ويلاه! أنا اشأم المدن حظاً وأسوأها حالاً. رأت عيني جثث ابنائي متراكمة في ساحاتي دفعتين في ظرف تسع سنين. رماني فولكان (اله النار) بسهامه المتّقدة بعد ان صدمني نبتون (اله البحر) بتياره الهائل. وأسفي على بهائي السابق.. طمسه الدهر فأحالني الى رماد. فيا عابري الطريق ابكوا لسوء طالعي واندبوا بيروت المضمحلّة».

ظلت بيروت على ذلك بعض الوقت إذ وصفها السائح انطونين الشهيد في أواخر القرن السادس فقال عنها:

«وصلنا الى المدينة الفائقة الجمال بيروت التي كانت فيها من قبل المدرسة الحقوقية الذائعة الصيت. وقد استولى عليها الخراب الآن».

هذه هي الصفحة الأولى من تاريخ بيروت، ولكن المدينة كان لها حظ من الاسطورة أيضاً. فقد أورد صالح بن يحيى هذه الحكاية، قال:

«وقد زعم النصارى ان في القدم خرج في بيروت تنّين عظيم فقرر أهل بيروت له في كل عام بنتاً يخرجونها اليه اكتفاء لشرّه، فوقعت القرعة في سنة من السنين على صاحب بيروت. فأخرج ابنته ليلاً الى مكان موعد التنين فتوسّلت بالدعاء الى الله فتصوّر لها مار جرجس القديس. فلمّا جاء التنين خرج عليه مار جرجس فقتله فعمّر صاحب بيروت في المكان كنيسة بالقرب من النهر. والنصارى تصوّر هذه الكائنة في سائر كنائس بلادهم، وقلَّ ما يخلو منها كنيسة. ويزعم النصارى ان مار جرجس من لدّ قتله ملك عبدة الأصنام بحوران وله عيد مشهور عندهم في سائر البلاد. وأهل بيروت المسلمين والنصارى يخرجون في ذلك العيد الى نهر بيروت ويسمى عيد النهر».

فتح العرب بيروت وفي أواخر القرن الأول للهجرة ـ السابع للميلاد خرج منها الأوزاعي «وهو أبوعمرو عبد الرحمن بن عمرو إمام أهل الشام وعالمهم. قيل انه أجاب في سبعين ألف مسألة وصار يعمل بمذهبه في الشام... وعمل أهل الاندلس به

أيضاً... وكان الأوزاعي عظيم الشأن بالشام، وكان أمره فيهم أعز من أمر السلطان. أسند عن جماعة من التابعين وأسند عنه من العلماء جم غفير... وكان مولده ببعلبك... سنة ٩٣ (٧١٢) ومنشأه بالبقاع. ونقلته أمه الى بيروت فرابط فيها الى ان مات سنة ١٥٧ (٧٧٤)... وقبره لا يزال الى اليوم على الشاطىء جنوبي مدينة بيروت».

وهكذا، بسبب من الاسطورة والتاريخ ظفرت بيروت بحارسين: القديس جورج يحرسها من الشمال، والأوزاعي يحرسها من الجنوب.

على أنه لمّا ضربت بيروت خلال الحرب الأهلية التي لم تكن أهلية (١٩٧٥ ـ ١٩٩١) لم يستطع القديس جورجيوس ان يحمي منطقته من الخراب، ولما سقطت على المدينة قذائف الاسرائيليين من البحر والجو (١٩٨٢) كانت منطقة الأوزاعي من المناطق التي نالها ضُرٌّ كبير.

في العصور الوسطى

وأخذت بيروت تبدو للزمن شيئاً فشيئاً، وتبرز ثانية. فمعاوية يتخذ منها دار صناعة وبها عمّر المراكب وجهز فيها الجيش الى قبرص. وها نحن نجد ان جغرافيي القرن الرابع للهجرة يتحدثون عنها. فابن حوقل يقول «بيروت على ساحل بحر الروم وبها يرابط أهل الشام وسائر جندها وإليها ينفرون عند استنفارهم. وليسوا كأهل دمشق... وفيهم من إذا دعي الى الخير أجاب، وإذا أيقظه الداعي أناب. وببيروت هذه كان مقام الأوزاعي. وهي ذات نخيل وقصب سكر وغلات متوفرة. وتجارات البحر عليها دائرة، وسابلتها غير منقطعة. خصيبة حصينة متينة السور، رخيصة الأسعار جيدة الأهل مع منعة فيهم من عدوهم وصلاح في عامة أمورهم».

وجاء الصليبيون وأصاب بيروت (١١١٠) ما أصاب غيرها من تبادل الأيدي وتناوب الحكم. ويبدو ان الافرنج حرصوا على تحصينها وتزيينها. فإن «استحكاماتها استوجبت أشغالاً طويلة، فكان يحرسها شمالاً من جهة البحر صخور عالية، ومن الجانب الغربي كانت تحميها خنادق مبلطة تحت حراسة سورين حريزين تدعمهما عدّة أبراج في المتانة لا تقوى عليهما كل قوّات العدّو. وكان يزينها من الداخل أبنية حسنة الهندسة بديعة النقوش. وقد وصف السائح ولبرندي اولدنبرغ بعض قصورها فقال عن احدى غرفاته: «إنها كانت مرصوفة بالفسيفساء وهي تمثل مياهاً جارية يمرّ عليها النسيم فتتجعدّ بهبوبه. وفي أسفلها رمل ناعم فيتعجّب الماشي فوقها كيف لا تغوص رجله في أعماقه. وكانت جدران الغرفة مزدانة بقطع من الرخام المنقوش على صورة تأخذ بمجامع الأبصار يظللها قبّة تمثل بصبغها الأزرق شكل السماء. وفي وسط الغرفة حوض من الرخام الصقيل الملون ينفذ اليها نسيم عليل من نوافذها فيرطب حرارتها».

في هذه الفترة كانت بيروت، على ما وصفها الرحالة الأجانب «مدينة غنية

وحصينة وكبيرة ومزدحمة بالسكان. ومينأؤها جميل أتقنته يد الصانع الماهر، يحيط بالمدينة كالهلال يقوم في كل من طرفيه برج تسحب بينهما سلسلة تحمي السفن الموجودة في الميناء في الليل».

على ان المماليك أخرجوا الافرنج من الديار كلها (١٢٩١) وعادت بيروت مركزاً للتجارة. وقد أوضح صالح بن يحيى أهمية المدينة في أوائل العصر المملوكي، قال:

«ثم بعد ذلك صارت بعض مراكب الفرنج تتردّد اليها بالمتاجر قليلاً قليلاً. وكانت مراكب البنادقة تحضر الى قبرس فيرسل صاحب قبرس بضائعهم في شونتين كانتا له الى بيروت نقلة بعد أخرى. وكان للقبارسة كنس ببيروت وجماعة من التجار يسكنون فيها ولهم خانات وحمامات. ثم بطل ذلك وتكاثر حضور مراكب طوائف الفرنج. كانت ضرائب الواردات والصادرات تؤخذ ببيروت وهي تبلغ جملة مستكثرة. وكان على باب الميناء دواوين وعامل وناظر ومُشارف».

«وكانت تعطي وظائف للعمال فتحصل جامكية للمتولي وجوامك للقاضي والخطيب ولأربعين قرا غلام بخيول وعشرين مشاة وطبلخانات وكوسات وانفرة وزمر ومناظرية للبحر ورهجيّة وحَمَام بطاقة مدرج الى دمشق وبريد. وقرّروا أيضاً أعلاماً نارية تصل الى دمشق في ليلة. فكانوا يشعلونها من ظاهر بيروت فتجاوبها نار في رأس بيروت العتيقة. ومنه الى جبل بوارش ومنه الى جبل يبوس ومنه الى جبل الصالحية ومنه الى قلعة دمشق فكانت النار للحوادث في الليل وحَمَام البطاق للحوادث في النهار والبريد للأخبار».

«ولما جدد الأمير بيدمر نائب الشام سور بيروت على جانب البحر جعل أوّله من عند الحارة التي لنا على البحر واصلاً الى تحت البرج الصغير العتيق عمارة تنكز... المعروفة ببرج البعلبكية وجعل بين هذا السور وبين البرج المذكور باباً وركب عليه سلسلة تمنع المراكب الصغار من الدخول والخروج فسمّي باب السلسلة».

في أواخر القرن السابع (الثالث عشر) استقر بنو بحتر امراء منطقة الغرب اللبنانية على بيروت وكان لهم تسعون فارساً وانقسموا ثلاثة أبدال في كل شهر بدل يقيم في بيروت ثلاثون فارساً.

وقد وصلنا وصف لبيروت من قلم رحالة اوروبي من أهل القرن التاسع (الخامس عشر) اسمه برتران دولا بروكييه يمكن تلخيصه بما يلي: «ميناء بيروت جيد صالح للتجارة. لقيت في بيروت تاجراً بندقياً اسمه جاك برفيزين الذي نصحني بالسفر الى دمشق حيث ألقى من التجار والقناصل الأوروبيين الكثيرين الذين يرشدونني الى خير الطرق للعود براً الى أوروبة.

«وشهدت إحتفال المسلمين بأحد أعيادهم في بيروت. بدأ الاحتفال مساء فكانت الجماعات تسير في الشوارع فرحة طربة، والمدافع تطلق من القلعة احتفاء بالعيد،

وأطلقت السواريخ [الصواريخ] التي بلغت ارتفاعاً كبيراً... وقد استطعت أن أتعرّف الى سرّ هذه السواريخ، وحملت معي الى فرنسا طريقة صنعها ونماذج منها. ذلك لأن هذه متى صنعت على مقياس كبير أمكن استعمالها لحرق السفن في البحر. وهذا ما بلغني اثناء اقامتي في الشرق.

«وقد نزلت اثناء اقامتي في بيروت في دار تاجر بندقي هو بول بريريكو... وهذا دبّر لي مكاراً يحملني الى الناصرة ويعيدني الى دمشق ويعود الى بول بوثيقة مني تعرّفه جملة أخباري وسلامتي. وقد أشار علي المكار ان أرتدي ثياباً شرقية ففعلت».

قلنا ان بني بحتر امراء الغرب استقروا في بيروت، ولعلّ أبرزهم ذكراً بالنسبة لبيروت خاصة هو ناصر الدين الحسين من أهل القرن الثامن (الرابع عشر). ويبدو ان أيامه كانت أيام خير على المدينة وما اليها. والذي خلفه مؤرخ بيروت صالح بن يحيى دليل على ذلك. قال صالح عن ناصر الدين الحسين وأيامه:

«كان سيداً من السادات المعدودين، نال الرتبة العالية في قومه وشيّد البيت وولي رئاسته وسياسته، وكانت أيامه غرر الأيام وزمانه رائد الابتسام، عاش في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون وتنكز نائبه بالشام. وكان الزمان ساكناً بأهله راقداً عن الحوادث، وكانت سيرته أحسن سيرة من إسداء المعروف وإغاثة الملهوف، شكره الناس ولحظوه بعين الوقار. وكانت كتابته مليحة مع بلاغة وفصاحة. وكان يحب سماع الشعر وحفظه. قيل إنه كان يحفظ أغلب ديوان شعر المتنبي. وكان يسأل أصحابه عن نسخ ديوانه القديمة فيحضرونها له. وقد وجد بين كتبه أربع نسخ من ديوان هذا الشاعر وهي من أقدم النسخ وأعتقها. ونظم الشعر الرقيق ورغب في جمع الكتب وحصّل منها شيئاً كثيراً أغلبها دواوين شعر وتواريخ. وكان قد اشتهر اسمه فقصده الناس ومدحه الشعراء.

«والذي بلغنا ان بني بحتر عامة، وناصر الدين بصفة خاصة، بنوا في بيروت كثيراً، فمن ذلك قصره الذي أراده أن يكون مجاوراً للبحر. فلما سكن ناصر الدين داره الجديدة قال جمال الدين حجي من قصيدة:

آنستم الدار الجديدة مغرباً ... ووحشتم الدار القديمة مشرقا
ما أبصرت عيناي بحراً جامعاً ... في جامع من فوق بحر أزرقا

«كان ناصر الدين الحسين مقصداً للوارد والصادر ذا مكارم ورياسة وسياسة. شاد البيت وساده ورغب في حسن الكتابة والبلاغة فجمع الكتب فائتم به أهل بيته فحسنوا كتابتهم وبلاغتهم وتزايدت محاسنهم ونظرهم في العلوم واتقان الصنائع. ولذلك لا نستغرب أن يقيم في بلاطه العلماء مثل البعلبكي الطبيب المشهور، وان يمدحه الشعراء».

والظاهر ان بني بحتر لم يحذقوا الحكم والشعر والأدب فحسب، بل كانوا ماهرين

في الصنائع. فعز الدين جواد كان يتوفر على صنع المينا على الحلي والسيوف واللجم الفضية. والأمير ناصر الدين محمد، على رواية صالح بن يحيى:

«كان ذا عقل ومعرفة وحسن رأي وتدبير عيش محسناً في تصريف أموره جيّد السياسة لنفسه حاسباً للعاقبة جازماً لرأيه متفكراً في أحواله متذكراً لأخبار الأقدمين قبله عنده خبرة بأخبار السلف ومعرفة لأنسابهم وتقلباتهم بالدول وما كان من حوادث الأيام السالفة. ومع هذا كان حسن الطريقة مشكور البصيرة محباً لأهل الخير يعرف مقادير الناس. وكان له نظر وبصيرة في الهندسة والصنائع حاذقاً بعدّة صنائع. فصياغته حسنة ولم يروا في زمانه أحسن ضرباً منه بالمطرقة وأحذق في النجارة والخراطة وعلم الكرالك. وكان إذا وضع يده في شيء اتقنه. وكتابته حسنة وبالجملة كان عنده دربة وخبرة في ما يعنى به».

في التاريخ الحديث والمعاصر

لم تفد بيروت كثيراً من الفتح العثماني (١٥١٦) ولا من الفترة الأولى منه. فالامارة المعنية (في القرنين السادس والسابع عشر) كانت تعنى بصيدا. ومع ان الأمير بشير الكبير كان قريباً من بيروت فإن اهتمامه بالجبل كان أكبر.

لكن القرن التاسع عشر كان بدء تاريخ بيروت الحديث. وقد كثر تردد الزوار الأجانب، قناصل وتجاراً وسواحاً، الى بيروت، لذلك فإننا نجد مادة خصبة فيما دوّنه هؤلاء. ولنذكر ان بيروت، مثل بلاد الشام بأجمعها، خضعت للحكم المصري (١٨٣١ ـ ١٨٤٠) ونالها الكثير مما نال المدن الأخرى من خير وشرّ.

كان من أوائل الذين كتبوا عن بيروت في القرن التاسع عشر هنري غيز، الذي عرف بيروت لأول مرة سنة ١٨٠٣، والذي امتدت معرفته بها سنوات طويلة، في زيارات وإقامات متفاوتة المدة، كان أطولها عشر سنوات. وشغل هنري غيز منصب قنصل فرنسا في بيروت. لذلك كانت له صلات قوية ومعرفة وثيقة بالناس والمكان. وفي سنة ١٨٤٧ نشر غيز كتابه عن تجاربه واختباراته (وقد نشرت ترجمة عربية بقلم مارون عبود سنة ١٩٤٩ ـ طبعة ثانية).

ولسنا ننوي حتى تلخيص هذا الكتاب، ولكننا سنختار بعض المعلومات التي فيها فائدة للقارىء. وفي الفصل (الخامس) الذي عقده المؤلف لوصف بيروت وضواحيها يقول:

«ولن أختم وصفي لضواحي بيروت دون أن أذكر المحجر الصحي (الكرنتينا) الذي لا يبعد الا قليلاً عن جامع الخضر. فهذا المحجر قد قام بإنشائه القناصل، عام ١٨٣٤، بما تيسر لهم. فاستطاع أن يقي سوريا طوال خمسة عشر شهراً من الطاعون الذي كان متفشياً في القسطنطينية وأزمير وقبرص ومصر. وهذه البلدان كانت تفد منها دائماً سفن مشحونة بضائع وركاباً... [وقد] اضطر القناصل ان يقوموا بدفع

النفقات من جيبهم الخاص. فسرعة الحوادث والاصابات لم تكن تمكننا من انتظار وصول المال الذي طلبناه من السلطة [المصرية]».

ويصف هنري غيز الأكواخ التي أقيمت في الكرنتينا لرياء القادمين وإيداع البضائع، والجهد الذي بذله القناصل (قناصل فرنسا والدانمرك واسبانيا واليونان). ويضيف... «ولم يمت غير مئة وستة وعشرين مصاباً في الكرنتينا».

ويقول غيز ان محصول بيروت المهم هو الحرير «ويمكننا الجزم بأنه يبلغ في السنة العادية الاربعمئة والخمسين قنطاراً، أي ١٠١,١٢٥ كيلوغراماً... وتحول الى ألف وثمانماية بالة» تصدّر الى مصر براً وبحراً وافريقية الشمالية ومرسيليا ودمشق وحلب. ويظل للاستهلاك المحلي مئتا بالة.

ويعطينا غيز جدولاً طويلاً بأسعار المواد الأساسية، الغذائية والصناعية، في بيروت سنة ١٨٣٤. وأبرز ما جاء في هذا الجدول ان أُقة الخبز كان ثمنها حول ١,٢٥ قرشاً، والعشر بيضات بقرش وربع القرش، والشعير (الكيلو) بأقل من قرش. وكان الحصان العادي يباع بـ ٥٠٠ قرش، وزوج البقر بـ ٨٠٠ قرش والعنزة بـ ٢٥ قرشاً والخروف بمئة قرش وجلد البقرة بثمانين قرشاً وجلد الخروف بثلاثة قروش. وكان لحم الغنم يساوي سعر وحدته أكثر من ثلاثة أمثال سعر لحم البقر.

ويقول غيز في موضع آخر «وأستطيع القول، بعد ما رأيت من السعة التي ظهرت في اسكلة [ميناء] بيروت، عندما ازدهرت فيها الأعمال التجارية، انها بوجه نسبي، أكثر ثراء من دمشق وحلب. اننا لا نجد اليوم شخصاً بيروتياً مرموقاً لا يملك، على الاقل، بيتاً في الجبل».

ويقول أيضاً: «تتمتع مدينة بيروت في الخارج بشهرة تجارية حازتها بحق. فهي اليوم أكثر المدن الشامية انتاجاً للمنتوجات الصالحة للأعمال التجارية». ويتحدث عن التجارة البيروتية بكثير من التفصيل. ويعزو نجاح المدينة التجاري الى موقعها ومناخها، ودفع تجار بيروت سنداتهم حين الاستحقاق، وانتاج الحرير في بيروت (نحو مليوني فرنك)، وإقبال شركات التأمين على كفالة سلامة البضائع حتى دخولها بيروت، وعدد سكان بيروت الكبير، إذ كانوا يبلغون بين ١٥ و١٦ ألفاً.

وفي سنة ١٨٥١ عاد الى بيروت رستم باز الذي كان قد رافق الامير بشير الكبير في منفاه، وقضى معه الوقت الأخير من حياته في استانبول. ورغب باز في الاتجار بالحرير بين بيروت واستانبول. ويحدثنا عن الاستبضاع أي شراء البضاعة لشحنها من بيروت فيقول، (لم نبدّل في كتابة رستم شيئاً): «ثم رجعنا الى الدير (دير القمر)، وجدنا أخونا اشترى ماية وعشرين طاقة قماش صورّته ٦٠ وبرسلي ٦٠ والثمن بضهر بعضهم قوّم ٦٢. ودفع قدر ثلثي الثمن، وما بقي الى ثلاثة أشهر. فأخذناه ونزلنا الى بيروت. ووضعناه في بيتنا برأس النبع... واشترينا زنار طرابلسي ثلاثون أقة، والزنار

كان ثلاث فجات: دودة وأصفر وأبيض. وزن الزنار لا يقل عن ماية وعشرين درهم الى المايتين درهم. وهذا كان مطلوب السياس والعربجية ومرغوب بالأناضول، وفي الروملّي للبشناق والخوطة. وشراريب حرير للعساكر شغل بيروت، الأقة ٢٥٠، وشرابه شغل صيدا بقصب ومرجان ومنهم بلا ذلك الأقة ٣٠٠ الى ٤٠٠، وكنادر وأكياس خداديات شغل الزوق (زوق مصبح). وزنار أسود حرير الى اكليروس الروم والأرمن»!

الأسواق والطرق الخارجية

في سنتي ١٨٥٦ و١٨٥٧ كان يقيم في بيروت بريطاني اسمه ج. لويس فارلي. وقد وضع هذا كتاباً بعنوان «سنتان في سورية» (نشر في لندن ١٨٥٩). يقول فارلي ان أسواق بيروت يتوفر فيها جميع ما يحتاجه الأوروبي من مواد غذائية وفواكه. ويذكر ان أئمة التجارة الأجنبية في بيروت هم من الافرنسيين. ويأتي بعدهم في المكانة التجار البريطانيون. وكان وكلاء الشركة التجارية الهندية الشرقية (الانكليزية) في بيروت هم ميوسن وشركاؤهم Mason and Co.

ولننقل بعض فقرات من كتاب فارلي إذ يقول «مع انه حول سنة ١٨٤١، أي بعد خروج ابراهيم باشا وجيشه من بلاد الشام، لم يكن يُرى في ميناء بيروت أكثر من سفينة واحدة، فإنه في سنة ١٨٥٦ أو السنة التي تلتها، كان تجتمع ست أو سبع من السفن معاً في الميناء.

«وكان البريد يخرج مرة كل اسبوع في يوم الجمعة من لندن الى بيروت ويمر عبر مرسيليا. كما أنه كان ثمة خط بحري منتظم بين بيروت ولفربول في بريطانيا.

«ولم تكن الصحافة موجودة قبل أول كانون الثاني سنة ١٨٥٦ في المدينة. لذلك فإن أسعار العملات الأجنبية كانت أمراً يعرفه التجار من اتصالاتهم وعبر أعمالهم. يضاف الى هذا ان أنواع العملات الأجنبية كان أقل بكثير (من اليوم) والواقع ان سوق بيروت كانت تتعامل بنوعين من النقد هما الجنيه الاسترليني والفرنك الفرنسي، وكان الجنيه يحسب بـ ١٢٠ قرشاً. الا ان هذا السعر كان يتقلب قليلاً، ومدى التقلب كان بين ١١٧ و١٢١ قرشاً. أما الفرنك الفرنسي فقد كان يساوي أقل من خمسة قروش بقليل.

«كانت العملة الرسمية في البلاد هي نقد الدولة العثمانية وأساسه الليرة العثمانية، والليرة العثمانية الذهب طبعاً. وهذه الليرة كانت تقسم الى مئة قرش أو غرش. وما دمنا بسبيل الحديث عن ذلك فإن القرش أصبح يقسم فيما بعد الى أربعين بارة. فإذا قلنا ان الجنيه الانكيزي كان يساوي ١٢٠ قرشاً، فمعنى هذا ان الجنيه الانكليزي كان فيه من الذهب أكثر مما في الجنيه العثماني».

ومما لفتني في أقوال فارلي تأكيده على ان المدينة كانت تتمتع بدرجة كبيرة من الأمن يومها. فالحياة والمال لا خطر عليهما. ويضيف ان القتل والسرقة وغيرهما من

الاجرام، التي تكثر في بعض المدن الأوروبية، نادرة في هذه المدينة، أي بيروت. والمرء يمكنه أن يتنقل في المدينة وضواحيها متنزهاً، مشياً أو على صهوة حصان ، دون الإحساس بالخطر قط.

هل تذكر، أيها البيروتي فندق بسّول القديم في بيروت؟ الفندق الذي كان يقوم على مقربة من السان جورج، ويشرف على الخليج وتطل عليه الجبال اللبنانية القريبة من بيروت قبل أن تقوم هذه الأبنية الكثيرة؟ يقول فارلي، فندق بسّول، لصاحبه يومها نقولا بسّول، كان موجوداً في بيروت سنة ١٨٥٦. واذ أنه كان معروفاً ومشهوراً يومها، فلا بد انه كان قد مرّ عليه بعض الوقت. فندق بسّول هذا كان يقصده السواح من الانكليز والأمريكيين والفرنسيين. ونقولا بسّول مؤسس هذا الفندق، كان يعمل أصلاً دليلاً للسواح. وكان الدليل يسمّى ترجمان. [ولكن الأجانب درجوا على لفظها دراغُمان dragoman، ولذلك فإن الكلمة ترد في أكثر الكتابات التي وصلت من القرن الماضي بهذا الشكل] ثم ترك عمله كدليل أو ترجمان وفتح هذا الفندق. لكنه لم يترك أمر الاهتمام بالسواح. ذلك بأنه كان ينظم لهم رحلاتهم الى دمشق والقدس، بالاتفاق مع شركة طوماس كوك التي كانت تعنى بزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين ومصر بشكل خاص.

ان الذي يسمع عن أسعار الفنادق في بيروت اليوم، اذ تصل أجرة الغرفة الواحدة مئات آلاف الليرات اللبنانية للنوم فقط، يرى في أسعار فندق بسول في أواسط القرن الماضي شيئاً رخيصاً جداً، إذ يقول فارلي: «ان عشرة فرنكات كان يدفعها الشخص الواحد في فندق بسّول لقاء غرفة للنوم وطعام وخدمة. والشيء الوحيد الذي لا يدخل في هذا المبلغ الزهيد هو الخمور. فهذه يدفع المقيم ثمنها منفردة». ويضيف الكاتب الى أنه من الممكن الحصول على أسعار أقل للإقامة الطويلة.

ولعل مما يثير دهشة القارىء أكثر من أسعار الغرف في الفنادق، هو ايجار المنازل. لم تكن يومها عشرات الآلاف من الليرات تدفع ايجاراً لمنزل متواضع، كما هو الحال في بيروت اليوم، فإن منزلاً متسعاً صالحاً لأسرة معتدلة العدد كان يمكن الحصول عليه لقاء مبلغ يتراوح بين ثلاثة آلاف وستة الاف قرش سنوياً. وهذا المبلغ يساوي ما بين خمسة وعشرين وخمسين جنيهاً انكليزياً. وكانت أجرة الخادم الماهر أو الخادمة الماهرة. لا تتجاوز مئة وخمسين قرشاً في الشهر.

في كتاب فارلي احصاءات عن تجارة بيروت للسنوات ١٨٥٣ و١٨٥٦ و١٨٥٧. ولسنا ننوي ان ننقل جميع أرقامه وإحصاءاته هنا، ولكن نود أن نشير الى أن بيروت استوردت سنة ١٨٥٣، ما قيمته ٧٢٥,٠٠٠ جنيه استرليني، ولكن المبلغ ارتفع الى مليون وثلاثمئة وخمسين ألفاً سنة ١٨٥٧، أي بعد أربع سنوات. يقابل هذا ان ما صدّر

من بيروت كان يساوي ٦٢٥,٠٠٠ في سنة ١٨٥٣ فارتفع الى نحو المليون بعد أربع سنوات. وبعض هذه المتاجر كانت للنقل الى الداخل.

وبيروت كانت دوماً تسير على هذاالمنوال، تستورد من البحر، الذي يصلها بالخارج، وتبعث بما يأتيها الى الداخل الشامي. ولم تكن بيروت وحدها في هذا الأمر بلبنان، فطرابلس وصيدا وصور كانت تقوم بمثل هذا الشيء أيضاً. لكن بيروت كانت الأهم والأكبر. ومثل ذلك يقال في صادراتها، فمن بيروت كانت ترسل اشياء كثيرة، مصنوعة وخاماً، بعد ان تكون هذه قد وصلتها من الداخل ـ من المدن اللبنانية ومن دمشق وحتى من الاردن.

كانت بيروت تستورد الأقمشة القطنية والحريرية والصوفية والحبوب والارز والخمور والسكر والبن والمصنوعات المعدنية والنحاس والرصاص والفحم الحجري والأدوية. ولنأخذ مثلاً الأقمشة على اختلاف أنواعها، فقد بلغ ما دفعته بيروت ثمناً لها سنة ١٨٥٧ ما يزيد على ثلاثة أرباع المليون من الجنيهات الاسترلينية. ومن الطبيعي ان قسماً كبيراً، أو القسم الأكبر على الأصح، كان ينقل الى الداخل ـ القريب والبعيد ـ ليُباع في أسواقه. أما ما كانت تصدره بيروت عن طريق مينائها فيدخل في عداده الحرير والشرانق والمنسوجات القطنية والحريرية والتبغ والصوف الخام. وواضح ان التبغ الذي كان يصدر من ميناء بيروت كان ينقل اليها من مزارع التبغ في المناطق اللبنانية مثلاً. وكانت قيمة الحرير والشرانق الصادرة من بيروت تقرب من ثلث مليون جنيه استرليني.

وقد يخطر في بالنا السؤال عن واسطة التفاهم بين تجار بيروت والتجار الأجانب. وفارلي يجيب عن ذلك بقوله: «ان أكثر التجار المعتبرين في بيروت يتكلمون إما الفرنسية أو الايطالية، وهناك من يستطيع حتى التكلم بالانكليزية».

ومثل هذا النمو التجاري كان يقتضي وجود مصرف يسهّل الاتصال بين تجار بيروت والخارج. وقد كان أول مصرف فتح في بيروت هو فرع للبنك العثماني. وقد فتح في ١٦ تشرين الأول (اكتوبر) ١٨٥٦. وهو بنك بريطاني. وقد كان صاحبنا فارلي رئيس قسم المحاسبة في المصرف.

قدّر غيز سكان بيروت بنحو ١٥ ـ ١٦ ألف نسمة، واعتبر ذلك عاملاً من عوامل تنشيط التجارة. أما في خمسينات وستينات القرن الماضي فقد كان عدد سكان بيروت يتراوح بين ٤٠ و٥٠ ألفاً. ومع ان ميناء بيروت كان ممتازاً، وموقعه كان متوسطاً بالنسبة للساحل كله، فقد كان تجارها يلاقون الأمرّين في سبيل الاتصال بالداخل، الى دمشق مثلاً، حيث كان يقيم نحو مئة ألف نسمة كانوا يحتاجون الى ما تستورده أسواق بيروت من متاجر. اذ لم يكن سوى الدواب ـ الحمار والبغل والجمل ـ وسيلة لنقل الركاب والبضائع.

انتقال الناس كانت فيه صعوبة، وقد يمكن للمسافر ان يستريح. لكن نقل البضائع كان فيه صعوبة إضافية. ذلك أن صناديق البضائع الكبيرة، والرزم التجارية البالغة الضخامة كانت يجب ان تفكك في بيروت كي تنقل محتوياتها على ظهور الدواب، وكم كانت تتعرض البضائع للضياع، أو للكسر بسبب تعثّر البغل مثلاً.

يضاف الى هذا ان الطريق الجبلي بين بيروت ودمشق كان الثلج يكسو النقاط المرتفعة فيه أياماً طويلة في الشتاء. وعندها كانت الدواب توضع في الاسطبل، ويأوي المكارة أو المكاريه الى البيوت يصطلون قرب النار.

وفي الأحوال العادية كانت السفرة من بيروت الى دمشق تحتاج الى أربعة أيام، وإلى أربعة أخرى من دمشق الى بيروت. والسوّاح الذين كانوا ينتقلون من بيروت الى دمشق كانوا يحتاجون ثلاثة أيام، ذلك بأنهم كانوا يعطون خيلاً قوية، ويدفعون أجرها ما يتناسب مع ذلك. وكان الطريق المتّبع، غالباً، هو من بيروت الى دير القمر في اليوم الأول. وفي اليوم الثاني كان السوّاح ينتقلون منها الى جب جنين في البقاع الغربي. ويصرفون اليوم الثالث في طريقهم من هذه الأخيرة الى دمشق. وبهذه المناسبة كان السوّاح غالباً ما يعودون عن طريق بعلبك، ولذلك كانوا يحتاجون أربعة أيام في الطريق. والمحطات هي الزبداني، بعلبك، زحلة.

وليس لدينا أيّ معلومات عن أجرة الدابّة ـ بغلاً أو جملاً ـ في قيامها بنقل حمل من المتاع أو المتاجر من بيروت الى دمشق. لكن لدينا نسخة عن اتفاقية هي رسالة موجهة من شخص اسمه ميشيل مرجان الى كل سائح يبيّن فيها ما يتوجب عليه نحو هذا السائح في نقله من بيروت الى دمشق وإعادته منها بطريق بعلبك، وذلك لقاء مبلغ خمسة وعشرين فرنكاً، أي ما يعادل جنيهاً استرلينياً لليوم الواحد.

والرسالة التي كان يوجهها ميشيل مرجان هذا نصها:

«أنا ـ ميشيل مرجان ـ أتعهد بأن أنقل السيد ـ من بيروت الى دمشق في أيام ثلاثة، وأن أعيده إليها في أربعة أيام مع التوقف في بعلبك بطريق العودة، وذلك مقابل خمسة وعشرين فرنكاً لليوم الواحد. وأتعهد بتقديم خير الخيول التي يمكن الحصول عليها للسيد ـ، وأن أزوده بحاجاته من المواد الغذائية والفراش والخيمة والسكاكين والشوك والملاعق والأواني اللازمة والكراسي. وأتعهد للسيد ـ بأن أنزله في أفضل فندق في دمشق وأن أدفع عنه جميع نفقاته هناك، وفي أي مكان آخر في الطريق، ولا يترتب على السيد ـ أن يدفع أي نفقات إضافية قط».

على ان انتقال الأشخاص ونقل البضائع على ظهور الدواب كان لا بد من أن يتبدلا. فإذا لم تقم الحكومة بذلك، وإذا كان أهل البلاد لا يملكون المؤهلات ولا المال، فهناك من كان يتطلع، بنظرة الكسب، الى تغيير الحال. وقد نشرت جريدة ديلي نيوز

اللندنية في ٣ اذار (مارس) ١٨٥٨ رسالة من بيروت (مؤرخة في ١٦ شباط/ فبراير، أي بعد كتابتها بأسبوعين)، أعلنت فيها ان بيروت، الميناء الرئيسي في شرق المتوسط، ستتصل قريباً بدمشق بطريق عربات وذلك بهمة ونشاط برتوي وحذقه المالي واهتمامه التجاري.

هو الكونت ادمون دو برتوي Perthui أحد ضباط الأسطول الفرنسي المتقاعدين. وكان برتوي يقيم في بيروت، وهو صاحب فكرة إنشاء طريق عربات بين دمشق وبيروت. وبهذه المناسبة فاسم هذا الرجل أُطْلِقَ على شارع صغير في بيروت يبدأ أمام مدخل الجامعة الامريكية قبالة المستشفى، ويدور مع خط الترام القديم متجهاً نحو المدينة، ويصل الى شارع الداعوق، ولعلّ طوله لا يزيد على مئتي متر.

برتوي طلب امتيازاً من الدولة العثمانية، ولاحقَ الطلب في استانبول، وأخيراً حصل عليه في صيف ١٨٥٧. والامتياز منح شركة برتوي حق استثمار الطريق لخمسين سنة، على أن تتقاضى من العربات، على اختلاف أنواعها، رسوماً لإفادتها من الطريق. أما المكارة أو المكارية فقد حوفظ على حقهم في استعمال الطريق دون أن يدفعوا أيّ رسوم. وباشرت الشركة، بعد تأمين ثلاثة ملايين ونصف المليون من الفرنكات من رؤوس أموال من القطاع الخاص، العمل في الطريق في اليوم الثالث من كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٥٩، إذ ضرب يومها المعول الأول. وبعد أربع سنوات تماماً وصلت الشحنة الأولى من البضائع المنقولة على عربات الى دمشق، وكان ذلك في الثالث من كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٦٣.

قامت بعد ذلك خدمات بعربات الدلجانس التي كان يجرها ستة خيول أو بغال، وهي لنقل الركاب، كما وضعت الكارّات المختلفة لنقل البضائع. وكانت الشركة تستورد جميع حاجاتها لإصلاح العربات وغيرها من فرنسا. لكنها لم تلبث أن أنشأت في بيروت مصنعاً لصنع المسامير والبراغي وما ليها.

وأصبحت الرحلة، وطولها من بيروت الى دمشق ١١١ كيلومتراً، تستغرق ثلاث عشرة ساعة. ولما انتظمت خدمات الدلجانس اليومية،كانت تلتقي في شتورا (الآتية من دمشق والآتية من بيروت).

على أن النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان عصر البخار والسفن البخارية والسكك الحديدية. فلم تعد حتى العربات والكارات والدلجانس تكفي. يضاف الى هذا ان المنطقة التي تشمل العراق وسورية ولبنان وفلسطين والاردن أصبحت، تدريجياً، منطقة تتنافس الدول الكبرى على توطيد نفوذها فيها. فالمدرسة والصحيفة وشركات استثمار الموانىء وبناء الطرق وسائل للتسرب أولاً، ثم للتوطيد. والسكك الحديدية كانت موضع اهتمام إما الحكومات أو الشركات شبه الرسمية، أو الرسمية بين ١٨٩٠

و١٩١٤. ويكفي ان يتذكر الواحد منّا المحاولات التي تمت للحصول على امتيازات لبناء السكك الحديدية.

ولم يكن الأمر يتعلق بفشل طريق العربات أو تقصيره. فالطريق كان جيداً، وكانت العناية به تامة ومستمرة. وقد شهدت بذلك السائحة الانكليزية اللادي برتن Lady Burton التي أطرته كثيراً. وكانت الأعمال أيضاً مربحة بالنسبة للشركة. ولكن الزمن تغير. والسكة الحديدية كانت قادمة!

ولنذكر أيضاً ان امتيازاً لتوسيع ميناء بيروت مُنِحَ سنة ١٨٨٨ لجوزيف مطران من بعلبك، وهو الامتياز الذي كان أساساً لشركة ميناء وأحواض بيروت. فالأمور كانت تتغير وتتبدل. وكان هناك حاجة ماسّة، في الواقع، لزيادة وسائل النقل لازدياد البضائع التي أصبحت ترِد عن طريق ميناء بيروت. وشركة طريق العربات لم تكن تستطيع أن تزيد عدد دواب النقل التي لديها، وكان عددها ألفاً، كما أنها لم تكن تستطيع استعمال عربات وكارات أكثر عدداً.

كان في البلاد امتياز لبناء سكة حديدية تصل دمشق بحيفا، وكان الامتياز لشركة بريطانية، وكان العمل قد بدأ، وأقيمت عشرة كيلو مترات أو ما يقارب ذلك. ومثل هذا العمل يزاحم طريق دمشق بيروت ويتغلب عليه، وقد يؤدي ذلك الى نقل مركز الثقل التجاري الى حيفا. لذلك كان لا بد من العمل السريع. ومن ثم فإن شركة طريق العربات نفسها أصبحت حريصة على انشاء سكة حديدية، لتحافظ على أرباحها وامتيازاتها. فالشركة نفسها هي التي كلفت جماعة لدرس مشروع إنشاء طريق، وهي التي أصبحت، في مطلع سنة ١٨٩١ «الشركة العثمانية لسكة حديد بيروت ـ دمشق». ويبدو أن الخبراء كانت لهم وجهات نظر مختلفة في سير الطريق وعرض السكة وما الى ذلك. ولكن الذي دفع بالمشروع بزخم في النهاية هو الرغبة في تحقيق بناء السكة الحديدية قبل إتمام مشروع دمشق ـ حيفا، إذ إن هذا المشروع يخطف تجارة بيروت! وتقرر أن يكون رأس مال المشروع أربعة عشر مليوناً من الفرنكات.

حصل حسن بيهم، أحد وجهاء بيروت، على الامتياز في ٧ حزيران (يونيو) ١٨٩١، وبدىء العمل الذي استمر ثلاث سنين بحيث أمكن البدء باستغلال الخط في ٣ آب (اغسطس) ١٨٩٥. وكان طول السكة الحديدية ١٤٧ كيلومتراً، وكان القطار يقطعها في تسع ساعات.

وهكذا من أربعة أيام على الدواب، الى ثلاث عشرة ساعة في العربة، الى تسع ساعات في القطار ـ هذا هو أثر التكنولوجيا بين سنتي ١٨٦٣ و١٨٩٥ بالنسبة الى التنقل بين بيروت ودمشق. فضلاً عن أن عربات السكة الحديدية أوسع وأصلح لنقل الكميات الكبيرة والصناديق الضخمة.

طالت سكة الحديد لأنها اضطرت الى متابعة عدوات الأودية وسفوح التلال

والجبال. واستعمل الخط المسنن في المناطق الشديدة الانحدار، وذلك محافظة على الركاب وغيرهم. ويجب ان نذكر ان سكة الحديد هذه ارتفعت الى ١٤٨٧ متراً عند ظهر البيدر، وأن الانحدار الى جانبي سلسلة جبال لبنان الغربية، نحو الساحل غرباً ونحو البقاع شرقاً، وهو شديد. والجزء المسنن من الخط، وهو على جانبي ظهر البيدر، يبلغ طوله ٣٢ كيلومتراً. وتجتاز السكة أربعة أنفاق، أطولها هو ٣٥٠ متراً.

يجدر بنا أن نتذكر أن النشاط التجاري لبيروت جاء في أعقاب حملة محمد علي باشا على بلاد الشام وخروجه منها، على ما اتّضح لنا من روايات غيز وفارلي على الأقل. ومع أن حوادث سنة ١٨٦٠ كان لها أثر في توقف دولاب العمل في المدينة الجميلة، فإنها استطاعت أن تعود الى نشاطها الذي استمر حتى الحرب العالمية الأولى.

النشاط التعليمي والثقافي

كانت بيروت تعرف، شأنها في ذلك شأن المناطق المجاورة والمدن الشبيهة بها، المدرسة المرتبطة بالكنيسة والكتاب. وكانت مادة التعليم في كلتا المؤسستين محدودة: فالقرآن الكريم، حفظاً مع بعض الكتابة، الأساس في الكتاب. وقراءة المزامير مع بعض الكتابة الأساس في المدرسة الأولى. يضاف شيء من الحساب في كلتا الحالتين.

لكن الوضع تغير في القرن التاسع العشر. فقد هبطت لبنان وفلسطين فئات من المُبشّرين فتحت المدارس في مناطق مختلفة فيها، ونالت بيروت حصتها. فالمدرستان العاليتان اللتان أنشأهما المُبشرون الأمريكان في عبيه، واليسوعيون في غزير، نقلتا الى بيروت. ثم توّجت كلٌ من هاتين الفئتين جهودها بإنشاء الكلية السورية الانجيلية (١٨٦٦، وهي الجامعة الامريكية اليوم) وكلية القديس يوسف (١٨٧٥، وهي جامعة القديس يوسف اليوم).

كان ثمة ردة فعل لهذه المحاولات التعليمية الأجنبية. فأنشئت في بيروت المدارس «الوطنية»، من حيث ان تمويلها وإدارتها والإشراف عليها كان بأيدي أبناء المدينة، وإن كانت هذه المدارس «طائفية» و«محلية»، كأنها افتتحت لأبناء «الأحياء الخاصة». وكانت المدرسة الأولى التي اقيمت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر هي «المدرسة الوطنية»، التي أنشأها المعلم بطرس البستاني سنة ١٨٦٣. وهذه كانت وطنية ولجميع ابناء المذاهب والطوائف. وكان الطلبة يؤمونها من سورية ولبنان ومصر والعراق واليونان الخ. وهذه المدرسة كانت ردّة فعل البستاني لحوادث ١٨٦٠ المشؤومة.

أما المدارس الباقية التي استطعنا أن نستطلع أخبارها فهي: الثلاثة أقمار (١٨٦٦) والأهلية (١٨٨٠) وزهرة الإحسان (١٨٨٢) ـ والمدرستان الأخيرتان كانتا

للبنات. هذه المدارس الثلاث كانت تابعة لطائفة الروم الأرثوذكس. وفي سنة ١٨٦٥ أُنشئت الكلية البطريركية للروم الكاثوليك. وأنشأ المطران يوسف الدبس مدرسة الحكمة (المارونية) سنة ١٨٧٥، وقد افتتحت في غُرة تشرين الثاني (نوفمبر) وكان فيها ٧٢ تلميذاً، فارتفع العدد الى ٢٨٠ وإلى ٣٨٤ في سنة ١٩١٤.

وفي سنة ١٨٦٣ أنشأ حسن البنّا المدرسة الرشيدية (أو الرشيدية؟)، كما أنشأ أحمد عباس الأزهري سنة ١٨٩٥ المدرسة العثمانية (التي غيّر اسمها فيما بعد الى الكلية الاسلامية)، وكانت من خير المدارس التي عرفتها بيروت في السنوات التي عاشت فيها المدرسة، وهي زُهاء عشرين عاماً.

ثم جاء الحدث الكبير في تطور التعليم في بيروت لما أُنشئت جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية (١٨٧٨) ففتحت مدرسة للبنات في السنة ذاتها، ثم مدرسة ثانية للبنات في سنة ١٨٧٩، ثم عملت على نشر المدارس.

وقد عثرت على إحصاءات تتعلق بعدد المدارس والمعلمين (والمعلمات) والتلاميذ (والتلميذات) في بيروت لسنة ١٨٨٢، يمكن تلخيصها فيما يلي: كانت المدارس «الوطنية»، على اختلاف الطوائف التي تنتمي اليها، ٣٩ مدرسة للصبيان و٧ مدارس للبنات يعمل فيها ١٦٥ معلماً و٢٥ معلمة يقومون بتعليم ٤٧٥٠ تلميذاً و١٠٠٧ تلميذات. الى جانب هذه كان ثمة مدارس تابعة للإرساليات الأجنبية هي ١٩ مدرسة للصبيان و٢٨ مدرسة للبنات، يعمل فيها ١٢٦ معلماً و١٧٤ معلمة يقومون بتعليم ١٥٦١ تلميذاً و ٤٤٧٤ تلميذة. ومع ان هذه المدارس كانت تابعة لمؤسسات أجنبية فإن التلاميذ فيها كانوا من أبناء بيروت وبناتها، والمعلمون والمعلمات كانت أكثريتهم من أبناء البلاد. فإذا أخذنا هذا بعين الاعتبار كانت بيروت (١٨٨٢) فيها ٩٣ مدرسة يعمل فيها ٤٩٠ معلماً ومعلمة ويتعلم فيها ١١,٧٨٢ تلميذاً وتلميذة.

وهذه المدارس الحديثة كان لا بد لها أن تراعي ما أصاب التعليم من تطوير، وما أصاب الحياة من تبدّل. فبالإضافة الى تعليم الجغرافية والتاريخ ومبادىء العلوم، كان على هذه المدارس أن تعنى باللغات. فالعربية لغة أبناء البلاد، والتركية لغة حكام البلاد. وكل مدرسة تعلمهما. يضاف الى هاتين اللغتين تعليم لغتين من بين الفرنسية أو الانكليزية أو اللاتينية أو اليونانية. وهكذا كان هناك هذا الاهتمام الوثيق بالتطور الاجتماعي والاقتصادي في بيروت.

وقد ظهرت في بيروت، في القرن التاسع عشر، جمعيات ثقافية علمية. وفي طليعتها الجمعية السورية (١٨٤٧ ـ ١٨٥٢)، ثم تجددت ثانية سنة ١٨٦٨. وكان لها أثر في تعرّف النخبة البيروتية الى اعضاء الجمعية الأجانب، وإلى تعارف أفراد النخبة فيما بينهم.

وظهرت الصحافة في ذلك القرن. وأول جريدة صدرت في بيروت (ومن ثم في

لبنان) هي حديقة الأخبار (١ كانون الثاني ـ يناير ـ ١٨٥٨) لصاحبها خليل الخوري. وقد صدر في لبنان ١٦٠ جريدة حتى سنة ١٩١٤ كان أكثرها في بيروت. ومثل ذلك يقال عن المجلات. فقد صدر في بيروت من الصحف حديقة الأخبار (١٨٥٨) ونفير سوريا (١٨٦٠/ لبطرس البستاني) وثمرات الفنون لعبد القادر القباني (١٨٧٥) ولسان الحال لخليل سركيس (١٨٧٦).

أما المجلات فأقدمها المقتطف (١٨٧٦) ليعقوب صرّوف وفارس نمر، وقد نقلت الى القاهرة سنة ١٨٨٢. ومن المجلات الصادرة في بيروت الصفاء (علي ناصر الدين ١٨٨٦). وهذه نماذج من الصحف والمجلات التي نعم بها القرّاء يومها.

وقامت في بيروت أول مطبعتين: المطبعة الامريكية، التي نقلت من مالطة سنة ١٨٣٤، والمطبعة الكاثوليكية (١٨٤٧).

ولا بد من الإشارة هنا الى أن بيروت أصبحت، منذ سنة ١٨٨٨، عاصمة لولاية بيروت، وهذا مركز هام بالنسبة لما كانت عليه المدينة قبلاً. (كانت ولاية بيروت تتكون من متصرفيات (محافظات): اللاذقية وطرابلس وعكا ونابلس، ومدينة بيروت بالذات). ومعنى هذا أن بيروت أصبحت تتطلب أن يقيم فيها إداريون وموظفون كانوا يأتون من الخارج (استانبول)، كما أصبح الشباب البيروتي يجد في وظائف الحكومة مجالاً للعمل لا في المدينة وحسب، بل في المراكز الأخرى التابعة لولاية بيروت. ومن هنا نجد هذا العدد الكبير من الزواج بين أُسر بيروتية وأُسر أخرى في متصرفتي عكا ونابلس.

على أننا يجب أن نذكّر أن مدينة بيروت، إدارياً، كانت تمتد من الجناح الى نهر بيروت سيراً مع الشاطىء، ومن النقطة الأولى الى فرن الشباك ومن النقطة الثانية كان يمتد خط الى فرن الشباك محيطاً بالأشرفية (الأجزاء الأخرى التي يعتبرها البيروتيون الآن جزءاً من مدينتهم كانت تابعة لمتصرفية جبل لبنان. ولا تزال هذه الأجزاء تتبع الى الآن إدارياً محافظة جبل لبنان. فالمطار الدولي لا يقع تحت إشراف محافظ مدينة بيروت، ولا تحت إمرة قوى الأمن الداخلي البيروتية، بل يتبع محافظة جبل لبنان).

والمهم أن نذكر أن قيام الجامعتين الأجنبيتين في بيروت أدى تدريجياً الى قيام منطقتين ثقافيتين متباينتين في المدينة. فالكلية السورية الانجيلية (الجامعة الامريكية) التي بدأت تعلّم جميع مواد الدراسة باللغة العربية، انتقلت الى اللغة الانكليزية، وأصبح خرّيجوها وطلاّبها والدائرون حولها لجميع الأسباب، ينهجون نحو الثقافة الانكلو ـ امريكية؛ أما كلية القديس يوسف (جامعة القديس يوسف) فقد كانت اللغة الفرنسية سبيل التدريس والبحث والعمل فيها.

ولما كانت وسائل النقل الوحيدة في بيروت هي الدواب، وامتلاك هذه ليس أمراً يسيراً، كان ثمة نوع من التكتل ـ إن لم نقل التقوقع ـ في الاحياء. فالمقاهي هي أمور

خاصة بالأحياء، والاجتماعات هي سهرات في البيوت وتقتصر على الأحياء الأصغر. وعلى كل، فإن بيروت أوائل القرن العشرين لم تكن تنتشر أبعد من أول أبنية الجامعة الامريكية غرباً، وجنوباً الى درج الأربعين والبسطة وشرقاً الى الأشرفية. ولم يقم اتصال إلا في الأسواق التجارية التي نشأت حول ساحة البرج (ساحة الشهداء)، وحول منطقة الميناء (ومحطة سكة الحديد كانت قريبة منه). إلا أن إدخال الترامواي لبيروت حول منقلب القرن التاسع عشر الى العشرين يسّر للناس التنقل والتعرّف إلى الأجزاء المختلفة. وتدريجاً أصبحت خطوط الترام تمتد من فرن الشباك الى رأس بيروت ومن البسطة الى النهر، وكان هناك خط يصل الى أول الميناء. أما نقطة التقاطع الرئيسية لهذه الخطوط بأجمعها فقد كانت ساحة البرج.

كانت بيروت ـ عاصمة الولاية وميناء الداخل، والمرتبطة بطريق عربات وسكة حديدية مع دمشق، ومركز القناصل، وأم جامعتين، ومركز الثقافة والصحافة والطباعة الرئيسي ـ بيروت هذه كان يعوزها حرية. لكن أيام عبد الحميد (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) لم تتح لها ذلك. إلا أن إحياء الدستور سنة ١٩٠٨ وخلع عبد الحميد (١٩٠٩)، أنعش الآمال فأخذ الناس يكتبون ويتحدثون بحرية، بعد أن كان كل شيء يجري في الخفاء. فالجمعيات السرية ظهرت، وقامت الجمعية الاصلاحية (١٩١٢) للمطالبة بالإصلاحات الدستورية للولايات العربية على أساس الحكم اللامركزي الذي من شأنه أن يحافظ على شخصية العرب في إطار الدولة العثمانية.

بيروت أصابتها نكسة جانبية سنة ١٨٦٠، لكن النكسة الكبيرة كانت اثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨). لعلنا إذا احتجنا الى كلمة واحدة لوصف ما أصاب هذه المدينة في تلك السنوات، بفضل بطش جمال باشا، فالكلمة هي بيروت «جاعت»، جاعت بكل ما في الكلمة من معنى. وقد حدثني الصديق السيد جبران بخعازي (مساعد مدير مكتبة الجامعة الامريكية سابقاً) وهو بيروتي أصيل عن المناظر التي شهدها في تلك الاثناء من أُناس يفتشون في القمامة لعلهم يعثرون ـ بالمصادفة ـ على كسرة خبز أو قشرة بطيخة يسدون بها الرمق. وعندما تجوع بيروت فمعنى ذلك أن السبل سُدَّت في وجهها من كل جهة. فالبحر المتوسط طريق مقفل، ومعنى ذلك أن التجارة البحرية متوقفة. وطرق الداخل، التي تحمل القوافل والسكة الحديدية عليها قمح حوران وخضار البقاع، وما الى ذلك، يعرقل جمال باشا العمل عليها.

سنوات عِجاف ولا شك؛ ولكنها انتهت وجاء فتح الطرق لينشّط السوق ويُعيد الى التاجر ما كان له من همة وعزيمة. وأصبحت بيروت سنة ١٩٢٠ عاصمة «دولة لبنان الكبير» (وحدوده حدود الجمهورية اللبنانية حالياً). إلا أنها في الواقع كانت مركزاً إدارياً كبيراً لولاية هي جزء من الامبراطورية الفرنسية. كان للبنان منذ سنة ١٩٢٦ دستور ورئيس جمهورية ومجلس وزراء، لكن كان حاكم بيروت الفرنسي هو الذي يدير

شؤونها (كما كان المفوض السامي الفرنسي يقبض على الصغيرة والكبيرة من شؤون البلاد).

ومع ذلك فقد نشطت المدينة، وعاد اليها دورها مركزاً لتجارة العبور (الترانزيت) مع اتّساع الرقعة الخلفية، وربطت مع بغداد بشركة نقل منظمة هي نيرن Nairn. ولمدة طويلة بين الحربين كان التاجر الفلسطيني أو العراقي يؤم أسواق بيروت «ليَتَبضَّع». أما المواطن العادي فكان يأتي هذه الأسواق ليكسو نفسه وعائلته.

ولعلّ من الأمور التي يجب أن تذكر عن بيروت في فترة ما بين الحربين ان دخلت الفتاة التعليم الجامعي، وكان ذلك في أوائل العشرينات، إذ قُبلت الطالبات لأول مرة في الجامعة الامريكية. صحيح أنه في حوالى الوقت ذاته أنشئت «الجونيور كولج» في بيروت كمؤسسة فوق التعليم الثانوي وخاصة بالطالبات، لكن الذي قصدته هو أن الفتاة دخلت الجامعة مشتركة مع الطلاب. والأمر الآخر الخاص بالمرأة هو أن صدرت في بيروت مجلة «المرأة الجديدة» لجوليا طعمة دمشقية، وكانت مجلة جيدة في إخراجها ومحتواها. والأمر الثالث هو بدء التنظيم لشؤون المرأة في بيروت: الجمعيات المختلفة من جهة، والإسهام، عن طريق تمثيل الجمعيات في المؤتمرات النسائية العربية.

استقطبت بيروت في هذه الفترة عدداً من أهل القلم والفكر من لبنان ومن سورية ومن مصر، زيارة وإقامة وإسهاماً في الأعمال الثقافية المختلفة. وبسبب قيام الجامعة المصرية (جامعة القاهرة ١٩٢٥) لم يعد الطلاب المصريون يأتون الجامعة الامريكية للدراسة، لكن عدد الطلاب من فلسطين والسودان والعراق وإيران تضاعف، كما أن فئة قليلة جاءت الجامعة الامريكية من أقطار الخليج العربي.

أما جامعة القديس يوسف فقد كان معظم طلابها من لبنان وفلسطين وسورية.

والواقع أن بيروت في فترة ما بين الحربين نهضت نهضة كبيرة، وبدأت بعض الصناعات تقوم في أرباضها. واتّسع المرفأ بحوضين جديدين، ووصلت العاصمة بالمناطق بطرق جيدة (بنيت أصلاً لأغراض عسكرية لمصلحة جيش الشرق الافرنسي).

لما زار غليوم قيصر المانيا الامبراطورية العثمانية في أواخر القرن الماضي، ووصل الى بيروت (١٨٩٨) قال عنها، إذ أشرف عليها من البحر، «انها أثمن درة في تاج آل عثمان». والواقع أن هذا هو الانطباع الذي كانت بيروت تتركه في نفس القادم إليها. صغيرة، منتشرة على الشاطىء، مرتكزة على نشز من الأرض، لها بيوت جميلة، كثيرمنها مسقوف بالقرميد الأحمر، ويكتشف الواحد، حتى من السفينة، حدائق صغيرة تحيط ببعض البيوت.

والذي أذكره جيداً أنني إذ وصلت بيروت لأول مرة عن طريق البحر (١٩٤٩)، وقد وصلت سفينتنا حوالى الساعة السادسة صباحاً، صعدت الى مقدم السفينة مع ابني،

ورأيت فعلاً منظراً جميلاً. تذكرت يومها قول غليوم. كانت لا تزال تعطيك الشيء الكثير من المنظر الذي يعود الى قبل نصف قرن.

على كلٍّ، ليس في نيتي أن أتابع قصة بيروت سنة فسنة، ولا حتى عقداً عقداً، خلال الاربعين سنة الماضية. فذلك أمر يطول. ولكن لا بد من ذكر بعض الأمور. سقطت فرنسا سنة ١٩٤٠، وأصبحت بيروت (مثل دمشق) تحت إدارة حكومة فيشي. وجاءت بيروت لجنتان للهدنة: الواحدة المانية والثانية إيطالية. أقامت اللجنة الالمانية في الفندق الالماني (مكانه حيث الجزء الشرقي من مجمع ستاركو التجاري الكبير) وأقامت اللجنة الايطالية في فندق نورماندي. وكانت الاتصالات الرسمية تتم بين اعضاء اللجنة والهيئات الحكومية المحلية في المكاتب. لكن يبدو ان بعض اعضاء اللجنة الالمانية كان يحب أن يتصل بزعماء محليين (أو لعله كان مكلفاً بذلك)، ولم يكن الاجتماع العلني مناسباً، لذلك كان يدخل هؤلاء الى حانوت خلف ساحة البرج (في الجهة الغربية) لشراء الحاجات، ومنه يدلفون الى الداخل، حيث كانت هناك غرفة تتصل بدورها بباب آخر هو مدخل مقهى تُدَخَّن فيه النارجيلة. وفي الغرفة بين الحانوت والمقهى كان يتم الجتماع. «ولا حدا شاف ولا حدا سمِع». ولما دخل الجيش البريطاني مع قوة فرنسا الحرّة (بقيادة ديغول) سنة ١٩٤١، خرجت اللجنتان على جناح السرعة من العاصمة.

بيروت عاصمة الجمهورية اللبنانية

المهم أنه في تشرين الثاني ١٩٤٣ أعلن لبنان استقلاله، وبعد لأيٍ اعْتُرِفَ له به. وأصبحت بيروت عاصمة الجمهورية اللبنانية «المستقلة». وسارت بيروت وئيداً أثناءَ سِنيّ الحرب، ثم خرجت منها القوات الأجنبية جمعاء.

وجاء بعد الحرب، وخاصة منذ سنة ١٩٤٨، دور جديد كان على بيروت أن تلعبه. فهي كعاصمة لدولة مستقلة أصبحت تضم العشرات من رؤساء البعثات الدبلوماسية والقنصلية ومئات الموظفين في هذه البعثات. وهذا مكّن للبيروتي أن يكثّف اتصاله بهؤلاء القوم بشكل فعّال. واختيرت بيروت أكثر من مرة لعقد مؤتمرات عالمية وإقليمية. فقد عقد فيها مؤتمر الاونسكو سنة ١٩٤٨. كما أصبحت المكان المفضل لعدد من اجتماعات جامعة الدول العربية الفنية والعلمية.

والمؤسسة الرسمية التي اتخذت من بيروت مركزاً لها هي وكالة غوث اللاجئين، التي كانت إدارتها العامة مسؤولة عن شؤون اللاجئين الفلسطينيين في لبنان وسورية والاردن (بشقيه الى سنة ١٩٦٧).

ولا يخفى أن نفط دول الخليج العربي كان لبيروت منه حصة. فقد عمل البيروتيون في المجالات المختلفة في تلك الديار (كما عمل غيرهم طبعاً)، وجاءوا بمدخراتهم الى بيروت ليعمّروا فيها. وابتاع أثرياء النفط وامراؤه المنازل في بيروت -

فأصاب البلد ازدهار غير طبيعي. فقد كنّا نحن نسكن في شارع جاندارك (في رأس بيروت) منذ سنة ١٩٥٠ الى ١٩٧٣. وفي السنوات الأولى كنّا نذهب الى أرض الجيران (على بعد ١٠٠ متر) لنبتاع الفجل والبصل الأخضر والفول الأخضر والنعناع والملوخية وغيرها من الخضار من الأرض. أما إذا سرنا نحو مئتي متر أو ثلاثمائة من الأمتار، فإننا كنّا نستطيع أن نبتاع التين والصبر (الصبير) والدجاج. وما كان مستغرباً شراء عنز أو خروف من عند رجل كان يملك بيتاً في شارع الحمراء وحوله قطعة أرض كان يربي فيها عنزات وخرفاناً للبيع.

ولكن مع الوقت أخذت بساتين الخضار والتين والصبر تزول وتحل محلها أبنية من عدة طبقات. كما أخذت منطقة الروشة والجناح والرملة البيضاء (على الساحل) والأشرفية والطريق الجديدة وغيرها تتباهى بما فيها من أبنية مرتفعة. وكثرت السيارات، وازدحمت الشوارع بها، ولا تزال (١٩٨٣).

ومن المباني الكبيرة، الفنادق الفخمة الكبيرة التي كادت بيروت أن تغص بها. ومما يسّرَ للناس القدوم الى بيروت إنشاء شبكات النقل الجوي، التي اتخذت من بيروت (عن طريق مطارها الدولي ١٩٥١) نقطة التقاء وافتراق.

وفي المجال العلمي زادت المدارس الرسمية كثيراً، لكن المدارس الخاصة ارتفع عددها، كما ارتفعت أسعار التعليم فيها، وكأني بهذه المدارس الخاصة، أو أكثرها على الأقل، اعتبرها أصحابها «دكاكين» تبيع تعليماً، ويجب أن يكون ربحها مثل بيع الخضار أو الأدوية.

ولكن بيروت تنوع فيها التعليم العالي في السنوات العشرين الأخيرة. فقد أنشئت الجامعة اللبنانية (١٩٥١). بدأت بدار المعلمين العالية، ثم بكلية آداب (فيها دار المعلمين) وتطورت تدريجاً بحيث أصبح فيها كليات ومعاهد للعلوم الاجتماعية والعلوم السياسية وإدارة الأعمال والعلوم الاجتماعية والتربية والفنون الجميلة والهندسة والطب. وفي سنة ١٩٦٠ افتتحت جامعة بيروت العربية (وهي علمياً فرع لجامعة الاسكندرية)، بكلية آداب ثم كلية حقوق وأخرى للتجارة والاقتصاد وغيرها للهندسة المعمارية. وجامعة بيروت العربية تقبل الطلاب انتساباً. ورفع مستوى الجونيوركولج وأصبحت كلية بيروت الجامعية، وخرجت عن كونها معهداً للبنات فقط، وأصبح معهداً مختلطاً. وأنشىء مؤخراً معهد الدراسات الاسلامية العليا (جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية). وهكذا فقد أصبح في بيروت الآن، على ترتيب إنشائها زمنياً، الجامعات والمعاهد العليا التالية: الجامعة الامريكية (آداب، علوم طب وصحة، زراعة، هندسة)، القديس يوسف (آداب، علوم، قانون، طب، هندسة، طب أسنان، صيدلة)، كلية بيروت الجامعية (يعود إنشاؤها الى سنة ١٩٢٦) وهي من مستوى كلية تمنح البكلوريوس أو الإجازة في تخصصات محدودة متعددة المناهج، والجامعة اللبنانية وجامعة بيروت

العربية ومعهد الدراسات الاسلامية العالية. ويقدّر عدد الطلاب في معاهد الدراسة العليا هذه بنحو خمسين ألفاً. (في لبنان جامعات أخرى هي الروح القدس ـ الكسليك والمعهد الانطوني ببعبدا).

وأصبحت بيروت مركزاً كبيراً للنشر في العالم العربي. وحتى في أيام الناس هذه يوجد في بيروت ٢١٦ داراً للنشر.

وصارت بيروت المركز المالي للشرق الأوسط. ففي المدينة ١٢١ مصرفاً (وبعضها له فرعان أو ثلاثة في العاصمة بالذات). وتقدر الودائع الموجودة في هذه المصارف بنحو ٦١ مليار ليرة لبنانية (نحو ١٥ مليار دولار)، وهذا كان في ٣١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٢.

والقصة طويلة. وبيروت التي اغتنت لم تكن بيروت الجميلة. فالأبنية طفت واحدها على الآخر، وانحرفت فجرفت معها جزءاً من الرصيف أو بقعة من السماء. وكان لا بد من أن ندفع نحن، سكان بيروت، ثمن الرخاء الذي لفّ المدينة في الخمسينات والستينات والسبعينات متلاحقة.

وأخيراً أُصيبت بيروت بنكبة. بعد اعتداءات متوالية من اسرائيل على جنوب لبنان، وعلى أماكن معينة من بيروت، اجتاحت الجيوش الاسرائيلية (حزيران ـ يونيو ـ ١٩٨٢) لبنان وقصفت بيروت من الجو والبحر والبر، فهدّمت قواتها وخرّبت وقتلت وشلّت الناس عن العمل ـ بل دخلت قواتها مدينة بيروت.

بيروت شهدت لمدة سنتين (١٩٧٥ ـ ١٩٧٦) حرباً أهلية، وهي ليست أهلية. وفي السنتين التاليتين داعب بيروت الرعب والقتل والضرب. وبين ١٩٧٨ و١٩٨٢ كان التراشق والقصف يصيب انحاء المدينة، من مراكز مختلفة، بكل أنواع التدمير.

فبيروت كما يقول العامّة «قَضَّت، وقضّت كتير». فهل انتهى الفصل المأسوي الذي كُتب لها مع السيناريو؟ أم ان الإخراج (بالنسبة الى بيروت وإلى لبنان) لا بد أن يتعثّر حتى يألف الناس ما هم فيه وعليه؟

لست أدري، ولست أعرف من يدري. ولكن الذي قلته عن بيروت قبل نحو عشرين سنة أختُم به هذا الحديث عن العاصمة الصامدة الشهيدة. «وقد تغيرت في تاريخها كثيراً ـ فما أكثر ما أنهكتها الزلازل والحروب. ولكنها كانت دوماً تنهض وترتفع. وكيف يُستَغرَب هذا من مدينة ترتكز الى جبال لبنان الشمّاء التي تمدّها بالقوة، وتتجه نحو البحر الذي يوسّع آفاقها».

بيروت هذه التي تحدثت عنها، قضيت فيها أربعاً وثلاثين سنة، ومن ثم فأنا أشعر بالغربة إن ابتعدت عنها. وأحسب أن بيروت تبادلني هذا الشعور، فإنها تشعر معي بغربتي إن أنا ابتعدت عنها.

واليوم يتحدّث الناس عن «بيروت الكبرى» التي وضعت أُسسها وأُطرها موضع

التنفيذ قبل أسابيع. ولكن المدينة، أي مدينة، مهما اتّسعت وتشعبت يظل لها «قرمية» (أصل الشجرة) هي الأصل. والمهم ان تتغلب «القرميّة» على ما أصابها.

أنا واحد من نصف مليون، ثلاثة أرباع المليون، أربعمئة ألف، تسعمئة ألف ـ هم سكان بيروت. فالأعداد هي دوماً ـ كما قالوا لنا صغاراً ـ بيد الله (الأعمار والأسعار بيد الله). وبالنسبة لبيروت، وخاصة خلال السنوات العشر الأخيرة، لا بد أن تكون الأعداد (أعداد السكان) بيد الله.

ولكننا نغدو ونعود ونخرج وندخل ونحن جميعاً نتذمر من الازدحام (بالسيارات والمناكب) ونشكو من غير الزحام في الطريق. ولكن بيروت تسير. الى الأفضل؟

(١٩٨٣)

تونس الحاضرة

انتصبت تونس على شاطىء البحر تعارك الزمن ويعاركها، تأخذ وتعطي. مر بها العبدري في القرن السابع (الثالث عشر) فقال يصفها:

«ثم وصلنا الى مدينة تونس مطمح الآمال ومصب كل برق، ومحط الرجال في الغرب والشرق؛ وملتقى الركاب والفلك، وناظمة فضائل البرين في سلك. فإن شئت أصحرت في موكب، وان شئت أبحرت في مركب. كأنها ملك والأرباض لها إكليل، وأرجاؤها روضة باكرتها ريح بليل، وان وردت مواردها نقعت غليلاً، وإن رددت فرائدها شفيت حشا عليلاً. جليت بها عروس الغروس، وحليت بها على ممر الدهر الطروس... فاقت بحسن معانيها وإتقان مغانيها غيرها من المدن وطالت، وسطت بنخوتها وانتخت بسطوتها على قواعد الشرق والغرب وصالت. وترجم حسنها البهيج وعرفها الأريج عن معناها. ولو نطقت لقالت:

أنَا الغادةُ الحسناءُ فاقَ جمالُها ... فآلتْ يميناً: لاَ خُطِبْتُ على زَوْجِ
إذَا الغانياتُ ارتَدْنَ وَصْلَ بُعُولةٍ ... فمالي، ولا فَخْرُ، الى الزَّوْجِ من حَوْجِ
أعُادِي اذَا ما شئتُ ظَبْياً بقَفْرةٍ ... وأطرقُ نوءَ اليمِّ في ظُلَمِ المَوْجِ
وفيَّ لمكدودِ الحجيجِ استراحة ... فهُمْ يَردُوني ـ الدَّهر ـ فَوْجاً على فَوْجِ
وإنّي الى البيتِ العتيقِ كَسُلَّمٍ ... به يَرْتَقِي مَنْ في الحضيضِ الى الأوجِ

«وقد أينعت رياضها وامتلأت أسواقها وامتدت أرباضها وأُترعت متاجرها، فعرف أهلها الخير والنعمة. ودهمها الشر غيرمرة فأقفرت أرضها، وفرغت حوانيتها وهدمت أسوارها، لكنها كانت في كل مرة تعود مرفوعة الرأس موفورة الكرامة».

التاريخ المبكر

فتحت افريقية أيام الأمويين[1]، وصارت المنطقة التي تدور في فلك مدينة تونس اليوم نقطة انطلاق للفتح والعلم والأدب. وتركز ذلك أيام الولاة والأغالبة في القيروان. لكن تونس، وهي مشرعة على البحر، كانت رئة افريقية العربية ان كانت القيروان قلبها. ففي تونس كانت دار صناعة أنشأها حسان بن النعمان ووسعها ابن الحبَّاب فيما بعد. ودار الصناعة هذه هي التي مكّنت للأغالبة من الحصول على أسطول يفتح لهم

صقلية وما اليها. على ان ابن الحبّاب قام بعمل آخر لم يدر يومها انه سيكون له أثر كبير في حياة تونس والمغرب الافريقي. ذلك بأنه بنى جامع الزيتونة سنة ١١٤ (٧٣٢).

ويرى عبدالعزيز الدولاتلي أن: عاصمة تونس القديمة تتمثّل في مدينة متوسطة يحيط بها شمالاً وجنوباً ربضان كبيران: الربض الشمالي وهو ربض باب سويقة والربض الجنوبي وهو ربض باب الجزيرة، بينما تشرف عليها غرباً القصبة وتحدّها شرقاً البحيرة المطلة على البحر.

والمدينة المتوسطة تمثل النواة التاريخية التي جمعت حولها الاحياء الجديدة والأرباض، والتي نجد بقلبها الجامع الأعظم وهو جامع الزيتونة المعروف الذي يلتقي في مستواه شارعان رئيسيان: شارع ذو اتجاه شمالي جنوبي وشارع شرقي غربي. فتقع بواسطة هذين الشارعين الصلة بين الأبواب الأربعة الرئيسية: باب سويقة، باب البحر، باب الجزيرة وباب المنارة (سابقاً باب أرطة) التي نضيف اليها باباً خامساً وهو باب قرطاجة. والغالب على الظن أن المدينة المتوسطة بأبوابها الخمسة وأنهجها الرئيسية وجامعها الكبير يرجع عهدها على أقل تقدير الى القرن الثالث هجري (التاسع م).

أما الربضان فلم يظهرا للعيان إلا منذ القرن السادس هجري (الثاني عشر ميلادي) في أيام دولة بني خراسان. وكان يطغى عليهما الطابع الريفي بينما نجدهما أيام الدولة الحفصية أكثر عمراناً وأعمق تمدناً. والسبب في هذا التطور واضح إذ إن مدينة تونس انتقلت منذ سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م من طور المصر الصغير الى طور العاصمة، وذلك على يدي الخليفة الموحدي عبد المؤمن الذي عين بها أول والٍ على افريقية. وعندما استبد الحفصيون بالحكم جعلوها عاصمة ملكهم فعرفت نهضة لم تشهدها سابقاً. ولهذا السبب حرصنا على دراسة هاته الظاهرة العمرانية فقسمنا دراستنا الى قسمين: أولاً من حيث تعمير الأرباض تعميراً حضرياً متقدماً، وثانياً من حيث تعزيز المعالم الحضرية داخل المدينة الوسطى.

والأرباض المحيطة بتونس (المدينة القديمة) تطورت من حالة نصف البداوة، أي الرعي والزراعة، الى حالة العمران الحضاري. ويمكن التعرف إلى هذا التطور بدراسة المعالم الأثرية البارزة وبعض ما رواه التاريخ. وقد ركز عبد العزيز الدولاتلي بحثه على الربط بين الحركة المعمارية والتطور العمراني الحضاري. ووجد ان ظاهرة تعدد جوامع الخطبة، وكيفية انتشار هذه من الداخل الى الخارج، ثم ظهور السور الأول الخارجي، ومن بعده السور الثاني الذي بقيت آثاره الى اليوم؛ ثم تعدّد أبواب المدينة المتوسطة لتسهيل المواصلات مع الأرباض: هذه الأمور هي التي قادته الى التعرف الى تفجر عمراني كبير في العهد الحفصي.

والتاريخ لا يتمهل متى بدأ خطوته الأولى، لأنه لا ينتظر البطيء.

ويسرع التاريخ في تونس، كما يسرع في بقية أرجاء المغرب، فترى الأغالبة يعنون

برقادة، والعبيديين يهتمون بالمهدية، والصنهاجيين يخلفون هؤلاء فيحاولون توطيد ملكهم هناك، ويعنون بالبناء والعمران والسفن والجيوش على ما تم على يدي كبيرهم المعز بن باديس (١٠١٦ ـ ١٠٦٢). وفي أواسط القرن الخامس (الحادي عشر) هاجم الهلاليون افريقية، فأصيبت مدنها، وصمت شعراؤها، وخيم الصمت في أرجائها، لكنها كتب لها ان تنهض بعد العثار، فنفضت عن نفسها الغبار، وعادت الى العمل ليل نهار. فعاد المجد اليها أيام الحفصيين وتركز في مدينة تونس التي كانت قد أصبحت حتى قبل ذلك بقليل عاصمة الديار الافريقية.

في أيام ازدهار افريقية زمن الصنهاجيين (٩٧٢ ـ ١١٥٢) مر بمدينة تونس أكثر من رحالة وجغرافي، وقد ترك هؤلاء عنها الكثير مما يسرّ ويفيد. فابن حوقل من أهل القرن الرابع (العاشر) يقول عنها: «مدينة تونس وهي قديمة أزليَّة ذات مياه جارية قليلة، والانتفاع بها كثير، والعائدة الى أربابها صالحة. وهي خصبة في ذاتها متسعة بغلاتها، ويعمل بها غَضار حسن الصباغ، وخزف حسن كالعراقي المجلوب. وكان اسمها في قديم الزمان ترشيش فلما أحدث فيها المسلمون البنيان، واستحدثوا البساتين والحيطان، سميّت تونس. وهي مصاقبة لقرطاجة المشهور أمرها بالطيب وكثرة الفواكه وحسنها وجودة الثمار وصحة الهواء واتساع الغلات. ومن غلاّتها القطن ويحمل الى القيروان للانتفاع به، وكذلك القنّب والكرويا والعصفر والعسل والسمن والحبوب والزيت وكثير من الماشية مختصة بها».

وجاء في «العزيزي» وصف لتونس هو: «تونس مدينة جليلة، لها مياه ضعيفة جارية يزرع عليها، وفيها الخصب وكثرة الغلات. وهي في وطاءة من الأرض يستدير بها خندق وسور حصين، ولها ثلاثة أرباض كبيرة من جهاتها، وأرضها سبخة. وجميع بنائها بالحجر والآجر، وأبنيتها مسقفة بالأخشاب، ودور أكابرها مفروشة بالرخام».

وقال البكري عن تونس في أوائل القرن الخامس (الحادي عشر): «وجامع تونس رفيع البناء مطلّ على البحر ينظر الجالس فيه الى جميع جواريه. ويرقى الى الجامع من جهة الشرق على اثنتي عشرة درجة. وبها أسواق كثيرة ومتاجر عجيبة وفنادق وحمّامات، ودور المدينة كلها رخام بديع... ويصنع بتونس للماء من الخزف كيزان تعرف بالريحيّة، شديدة البياض في نهاية الرقة تكاد تشفّ، ليس يعلم لها نظير في جميع الأقطار. وتونس من أشرف بلاد افريقية وأطيبها ثمرة وأنفسها فاكهة. فمن ذلك اللوز الفريك يفرك بعضه بعضاً من رقة قشره، ويحت باليد وأكثره حبتان في كل لوزة مع طيب المضغة وعظم الحبة؛ والرمان الضعيف الذي لا عجم له البتة مع صدق الحلاوة وكثرة المائية؛ والأترج الجليل الطيب الذكي الرائحة البديع المنظر؛ والتين الخارمي أسود كبير رقيق القشر كثير العسل لا يكاد يوجد له بزر؛ والسفرجل المتناهي كبراً وطيباً وعطراً؛ والعنّاب الرفيع في قدر الجوزة؛ والبصل القلوري في قدر

الأترج مستطيل سابري القشر صادق الحلاوة كثير الماء. وبها من أجناس السمك ما لا يوجد في غيرها، يرى في كل شهر جنس من السمك لا يرى في الذي قبله، يملح فيبقى سنين صحيح الجرم طيب الطعم».

وممن ظهر في تونس في تلك الاثناء محرز بن خلف التونسي العالم الفقيه الشاعر. وقد مر محرز على قرطاجة فرأى خرابها وخلوها من أحبابها فقال، وقد همس:

مَـررْتُ بربْعٍ بالسَـرَابِ تَلَفَّـعَـا ... وطَوْد جَـلالٍ بالخُطوب تَصَـدَّعـا
فـقلتُ وقـد أجْـرَتْ جُـفُـوني أدْمُـعـا ... خَليلَـيَّ مُـرَّا بالمـدينةِ واسْـمعَـا
مـدينة قُـرْطاَجَنَّة ثمَّ وَدِّعَـا

رَمَـتْـهـا صُـروفُ الحـادثات بنَبْلِهـا ... ورامَتْ يدُ الأقـدارِ تَشتـيتَ شَـمْلِهـا
قِـفَـا وانْظُرا إنْ جُـزْتُمـا بَيْنَ سُبْلِهـا ... طُلولاً بهـا تَبْكي لفُـقـدانِ اهْلِهـا
كـما نَدَبَ الأطلالُ كِسْرَى وتُبَّعـا

فـإنْ لمْ تُصـيـبَـا في الرُّسوم مُـؤَانسـا ... ولم تَجِـدا بينَ القِـبَـابِ مُـجَـالسـا
ولنْ تَريا منهـا مُـجـيـبـاً مُـمـارسـا ... فـقُـولا لهـا: مَـا بالُ رَسْـمِك دَارِسـا
ومـا بالُ وَفْـدٍ قـد بَنَاكِ وَدَّعَـا

تَرَى قـبـضـةَ المـوتِ من بعـدِ بَسْطَةٍ ... وحَطَّتَـه من بَعْـدِ ارتفـاعٍ وخطَّةٍ
وقُـولا فـمـا أخـلاك من بعـد غِبْطةٍ ... وخـلأّك من بعـدِ اجـتـمـاعٍ وخُلْطةٍ
ومنْ بَعْـدِ تشـيـيـدٍ خـلاءً وبلْقَـعَـا

تونس في العصر الحفصي (٦٢٦ ـ ٩٨١ هـ/ ١٢٢٨ ـ ١٥٧٤ م)

في هذا العصر اكتملت شخصية تونس الحاضرة عمراناً وعلماً.

وإذا نحن عدنا الى الدراسة القيِّمة التي وضعها عبد العزيز الدولاتلي عن تونس الحفصية، وجدنا أنه توصل الى أمور هامة تتعلق بتطورها العمراني.

«وفعلاً فإن أطوار ظهور جوامع الخطبة بأرباض تونس تستجيب الى حركية عمرانية تتجه من الداخل الى الخارج لتعم الأرباض. فنلاحظ مثلاً أنه بعد بناء القصبة والحي السلطاني ظهر غربي المدينة جامعان للخطبة: الأول هو جامع الموحدين بالقصبة، والثاني جامع الهواء في الحي السلطاني، وذلك منذ النصف الأول من القرن السابع هجري (الثالث عشر ميلادي). بينما ظهرت ثلاثة جوامع جدد للخطبة: واحد خارج باب سويقة في مدخل الربض الشمالي، والثاني قرب باب الجزيرة في مدخل الربض الجنوبي، والثالث قرب باب البحر في الجهة الشرقية بحيث تبدو المدينة محاطة من جوانبها الأربعة بخمسة جوامع جدد للخطبة، نضيف اليها

الجامع الأعظم الذي بقي بمفرده في وسط المدينة العتيقة. وإذا علمنا أن هاته الإضافات حدثت في ظرف لا يتجاوز النصف قرن، شعرنا بسرعة الظاهرة العمرانية التي حركت المدينة فأخرجتها من أبوابها. هذا ولم يمض قرن على هاته الموجة الأولى حتى أضيفت ثلاثة جوامع خطبة تنبىء بامتداد آخر للعمران فأصبح عدد جوامع الخطبة في مدينة تونس تسعة تمَّ بفضلها تزويد الأرباض بالعدد الوافر من المعالم الدينية التي تقام فيها فريضة الجمعة.

«فنتبين إذاً من خلال ظاهرة تعدد جوامع الخطبة أن نمو الأرباض كان: أولاً سريعاً إذ إنه شمل كل الأرباض في مدة لا تتعدى مائة وخمسين سنة بينما دام حكم الحفصيين ثلاثة قرون ونصف القرن، وثانياً وقع هذا النمو على مرحلتين: مرحلة أولى تنتهي بانتهاء القرن السابع هجري (الثالث عشر ميلادي) وبداية القرن الثامن (الرابع عشر) أي بإنجاز المجموعة الأولى من جوامع الخطبة. والمرحلة الثانية تخص الموجة الثانية حين أضيفت الثلاثة جوامع الأخيرة.

«ثم تأتي الأسوار لتؤكد لنا ما افترضناه بواسطة جوامع الخطبة من ان اتساع العمران بالربض الشمالي حدث في مرحلتين تاريخيتين تناسب كل مرحلة إحداث سور جديد. والجدير بالذكر ان النظرية السائدة تعتقد ان الحي الشمالي لم تكن له أسوار الا التي آثارها باقية الى يومنا. والحقيقة أن الربض قد عرف سوراً قديماً تمَّ بناؤه سنة ٧١٧/ ١٣١٧ ثم تلاشى ليفسح المجال لسور جديد أكثر اتساعاً وشمولاً ظهر في أواسط القرن الخامس عشر.

«ومن نتائج تعمير الأرباض انفتاح المدينة الوسطى على الخارج وذلك بواسطة تعدد أبوابها التي كانت ثلاثة فقط في القرن الثاني عشر فأصبحت ستة أبواب في أواسط القرن الثالث عشر، وهذا العدد الوافر من الأبواب من شأنه أن يسهل حركة المرور المتزايدة بتزايد السكان واتساع العمران».

وهكذا «فإن بلوغ المصر أعلى مرتبة، أي مرتبة عاصمة الملك ومركز إدارته واقتصاده، تترتب عنه مظاهر عمرانية أشرنا من بينها الى ظاهرة تعمير الأرباض، ولكن يتضح لنا مظهر آخر يتمثل في تعزيز العناصر الحضرية داخل المدينة العتيقة نفسها ذلك لأن متطلبات العواصم من حيث المرافق والمؤسسات ليست كمتطلبات الأمصار الصغيرة فهي تستدعي هياكل وصنائع وتقاليد أرقى وأسمى وأكثر عدداً وعدة. فتكثر الصناعات وتتقدم العلوم حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة. هذا ما حدث بمدينة تونس بعد انتقالها الى طور الحاضرة المنتصبة على ملك افريقية. فما هي تلك الصناعات وكيف كانت تساهم في تطور الاقتصاد ونمو العمران؟ ثم ماذا نعرف عن العلم والتعليم وكل الفنون؟ لا يمكننا الاجابة على هاته الاسئلة في إطار هاته العجالة فنكتفي بالتذكير ان الحفصيين استحدثوا في تونس منشآت اقتصادية عديدة

ومهمة كالأسواق الشاسعة والمتخصصة في شتى الصنائع والتجارات مثل النسيج والجلد والخزف وأنواع الملابس والحلي والعطورات والنجارة والحدادة الى غير ذلك من الصنائع المتحضرة. أما التجارة فلقد حظيت باهتمام الدولة وبالأخص التجارة الخارجية مع البلدان الأوروبية. إذ ظهر في شرق المدينة قرب باب البحر حي أوروبي جديد تتجمع فيه فنادق التجار والقنصليات الأجنبية مثل جنوة وبيزا والبندقية وغيرها. وعلاوة على الصناعة والتجارة كان أهل تونس يتعاطون الفلاحة التي هي عنصر من عناصر الثروة وسبب من أسباب العمران.

«ومن مظاهر العمران الفنون المعمارية التي قال عنها ابن خلدون إنها من أول صنائع العمران الحضري ومن أقدمها وإنها معيار لتقدم الأمم وتمدن الأمصار. ومن حسن الحظ أن بقيت لنا آثار من ذلك العهد تعطينا فكرة واضحة عن مميزات الفن الحفصي والتأثيرات التي امتزج بها.

«ويتضح من دراسة المعالم الأثرية كجامع الموحدين بالقصبة وميضأة السلطان قرب الجامع الأعظم وزاوية سيدي قاسم الزليجي أن الفن الحفصي قد تأثر بثلاثة تيارات: أولها الفن الافريقي القيرواني وثانيها الفن المغربي الأندلسي وثالثها الفن المصري المملوكي. والحقيقة أن الفن المعماري مرآة للثقافة الحفصية التي تمتاز بتفتحها على الخارج واستيعابها لأرقى مظاهر الفكر الاسلامي، تلك الثقافة التي أنجبت ابن خلدون وابن عرفة وهما كما نعلم من أكبر رجالات الفكر العربي الاسلامي».

العلوم والمعارف في العصر الحفصي

يعد أبو زكرياء يحيى، (١٢٢٨ ـ ١٢٤٩) أبرز شخصية في دولة الحفصيين، وهو الذي ابتنى جامع القصبة وصومعته الجميلة الشكل ونقش عليها اسمه وأذّن فيها بنفسه ليلة تمامها غرّة رمضان سنة ٦٣٠ (١٢٣٣). وشاد غير ذلك من المساجد والمدارس وابتنى أيضاً سوق العطارين بتونس وأنشأ في قصره بالقصبة دار الكتب جمع فيها نحو ثلاثين ألف مجلد من أنفس المؤلفات، وقد تلاشت في آخر أيام الدولة الحفصية.

وفي العهد الحفصي انتشر التعليم بالبلاد بواسطة الكتاتيب والزوايا. وبتونس (الحاضرة) انتظم التعليم بجامع الزيتونة الذي تطور حتى صار أكبر جامعة اسلامية عرفتها بلاد المغرب بأسرها وأنبت علماء أفذاذاً. وأسس الحفصيون، نساءً ورجالاً، مدارس كثيرة، منها المدرسة الشماعية والمدرسة العنقية والمدرسة التوفيقية الملحقة بجامع الهواء. وقد جلبوا لها الاساتذة من الاندلس ومن طرابلس ومن المهدية، وأسكنوا بها الطلبة وقاموا بإطعامهم وكوّنوا لهم بها المكتبات. فقامت بأكبر قسط في تكوينهم تكويناً جامعياً وتأهيلهم الى تقلد المناصب الرفيعة.

«وانتشرت الثقافة أيضاً بواسطة المكتبات الكثيرة العامّة التي انشئت، ومن أشهرها مكتبة جامع الزيتونة التي عرفت بـ (العبدلية) ووضع بها أنفس الكتب.

«وقد ساهم بقسط وافر في النهضة العلمية مهاجرو الأندلس اذ كان من بينهم العلماء والأدباء والشعراء والكتاب. وبفضلهم ارتقى الفن.

«وبفضل ذلك كله، وبفضل تنشيط بعض الامراء للعلم وذويه وللأدب والشعراء، انتشر التعليم وأقبل الناس على طلبه. وازدهرت الثقافة، وانتعش الأدب ونشطت حركته، وارتقى الطب وحمل لواءه خريجو المدرسة الصقلية والمدرسة الاندلسية. وأصبحت تونس في هذه الميادين أم البلاد المغربية وقطبها الأكبر بلا منازع».

وبرز جامع الزيتونة كمركز للعلم والدرس والبحث بحيث قال عنه العبدري: «هذا الجامع من أحسن الجوامع وأتقنها وأكثرها إشراقاً. ودائره مسقف ووسطه فضاء قد نصبت فيه أعمدة من خشب على قدر ارتفاع الجدر وشدت اليها حبال متينة في حلق من حديد مثبتة فيها وفي السقف شداً محكماً. فإذا كان يوم الجمعة نشرت عليها شقق الكتان المطبقة الموصولة حتى تظلل جميع الفضاء. ذلك دأبهم فيها حتى ينصرم فصل الصيف».

أما العلم الذي تلقاه الناس فلم يقتصر على الشرع والدين واللغة والأدب، بل شمل غير ذلك. فقد روي ان أبا العباس أحمد بن شعيب الفاسي الجزنائي الذي بعد ان قرأ على كثير من شيوخ فاس، انتقل الى تونس فأخذ بها الطب والهيئة على الشيخ رحلة وقته في تلك الفنون يعقوب بن أحمد راس.

ويبدو ان العلم كان أمراً مألوفاً في تونس. فالعبدري يقول: «لا تنشد بها ضالة للعلم الا وجدتها ولا تلتمس بها بغية معوزة الا استفدتها... وما من فن من فنون العلم الا وجدت بتونس به قائماً ولا مورداً من موارد المعارف إلا بها حوله وارداً وحائماً».

وقد شغف العبدري بأهل تونس فقال عن لطفهم وإيناسهم ما نصه:

«وما رأيت لأهلها نظيراً شرقاً وغرباً: شيماً فاضلة وأخلاقاً حميدة. وقد كان الأخلق بمن شاهد أخلاقهم ان يصفهم ويضرب عمن لم يمنحهم الوداد وينصفهم. اذ ان ذلك من بعض واجبهم وأقل مراتبهم؛ ولكن الزمان لا يعين على توفية الحقوق ولا يعتمد الفراغ إلا أهل العقوق. وناهيك ببلد لا يستوحش فيه غريب، ولا يعدم فيه كل فاضل أريب. يبدأون من طرأ عليهم بالمداخلة ويخطبون منه لفضل طباعهم المواصلة، فهو منهم بين أهل مشفق ورفيق مرفق. وقد كان بعض خيار طلبتها وحسبائهم لازمني مدة الاقامة بها وترك لأجلي مهمات أموره وعرفني بفضلائها وكان لا ينفصل عني عامة النهار. وكثيراً ما كنت أمر بمن لا يعرفني من أهلها فأسأله عن الطريق الى ناحية منها فيقوم من حانوته ماشياً بين يدي يسأل الناس عن الطريق ويدل بي. وهذا من أغرب ما يسمع من جميل الأخلاق، وذلك فضل الله يؤتيه من

يشاء. ولولا اني دخلتها لحكمت بأن الصلاح في أفق المغرب قد محي رسمه ونسي اسمه وضاع حظه وقسمه، ولكن قضى الله بأن الأرض لا تخلو من قائم له بحجة، يرى سبيل الحق ويوضح المحجّة».

ويكفي تونس فخراً تزهو به على البلدان ان تكون مسقط رأس ابن خلدون. وقد روى المؤرخ الكبير أخبار نشأته ودراسته في التعريف بنفسه قال:

«أما نشأتي فإني ولدت بتونس في غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٢)، وربيت في حجر والدي رحمه الله الى ان أيفعت. وقرأت القرآن العظيم على الاستاذ... بن برال الأنصاري... وبعد ان استظهرت القرآن الكريم من حفظي، قرأته بالقراءات السبع المشهورة أفراداً وجمعاً في إحدى وعشرين ختمة... ودارست عليه كتباً جمة... وفي خلال ذلك تعلمت صناعة العربية على والدي وعلى أساتذة تونس... منهم الشيخ الحصايري... والزرزالي... وابن القصار... وابن بحر... وأشار عليّ هذا بحفظ الشعر فحفظت الكثير منه... وأخذت الفقه بتونس عن جماعة منهم الجياني... والقصير... وكان قدم علينا في جملة السلطان أبي الحسن... سنة ثمان وأربعين وسبعمائة جماعة من أهل العلم كان يلزمهم شهود مجلسه ويتجمل بمكانهم فيه... ولما قدم (علي بن محمد بن ترومیت) على تونس... لزمته وأخذت عنه الأصلين والمنطق وسائر الفنون الحكمية والتعليمية».

ويقول في مكان آخر: «لم أزل منذ نشأت وناهزت مكباً على تحصيل العلم، حريصاً على اقتناء الفضائل متنقلاً بين دروس العلم وحلقاته الى ان كان الطاعون الجارف، وذهب بالأعيان والصدور وجميع المشيخة وهلك أبواي رحمهما الله... الى ان شدوت بعض الشيء... استدعاني أبو محمد المستبد على الدولة بتونس يومئذ الى كتابة العلامة». ومن هنا بدأت حياة ابن خلدون العامة التي انتهت به الى مصر.

وقد نكب ابن خلدون على يد السلطان أبي عنان المريني (١٣٤٨ ـ ١٣٥٩) لما احتل تونس فبعث قصيدة الى السلطان يستعطفه جاء فيها:

على أي حال لليالي أعاتب ... وأي صروف للزّمان أغالبُ
كفى حزناً أني على القرب نازح ... وأني على دعوى شهودي غائب
وأني على حكم الحوادث نازل ... تسالمني طوراً وطوراً تحارب
سلوتهم الا ادّكار معاهد ... لها في الليالي الغابرات غرائب
وان نسيم الريح منهم يشوقني ... اليهم وتصبيني البروق اللواعب

من عبد الباسط الى الزياني

اشتهر خليل بن شاهين الظاهري، وهو من امراء المماليك في الديار المصرية، بالإدارة، وهو مؤلف كتاب «زبدة كشف الممالك». وعبد الباسط هو ابن خليل هذا. وقد

ولد عبد الباسط في ملطية من أعمال الأناضول (٨٤٤/ ١٤٤٠). ولم يرغب عبد الباسط في السير على خطى أبيه، فعزف عن الادارة، فتعيش بالتجارة والرحلة، وشغف بدرس الفقه والأدب والطب وألف كتاب «الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم».

ولأن عبد الباسط كان طلعة مهذباً، فقد كثر أصدقاؤه حيث حلّ. وقد حلّ عبد الباسط بتونس سنتي ٨٦٦ و٨٦٧/ ١٤٦٢ و١٤٦٣ (ولعلّه زارها في وقت آخر اثناء عودته من الأندلس). وكانت تونس، على ما يروي عبد الباسط، يرد عليها التجار من الأندلس ومن اوروبا، حيث كانوا يقيمون في فنادقهم الخاصة التي كانت على مقربة من الميناء؛ كما كان البلاط الحفصي، على ما كان عليه في أكثر عهوده، موئلاً للعلماء والشعراء والأدباء والأطباء والطلاب.

وصل عبد الباسط تونس وسلطانها المتوكل على الله عثمان (٨٣٩ ـ ٨٩٣/ ١٤٣٥ ـ ١٤٨٨) غائب عنها في حملة ضد صاحب تلمسان. فانتظره حتى عاد. وليس يهمنا وصف وصوله الى عاصمة ملكه، ولكننا آثرنا نقل بعض قصص فيها الكثير من الدلالة على تجارة تونس ومجتمعها ورفاهية الحس عند سكانها.

«في تونس سنة ٨٦٦ ـ وفيه في يوم الاربعاء ثاني عشرينه (ذي العقدة) دخلنا الى مدينة تونس بعد ان بقينا بالبحر ثلثاً وثلثين يوماً، فرأيت مدينة حسنة جليلة هائلة بديعة تقرب من دمشق في جفنها، ونزلت بدار بها بمكان يسمى فندق الرماد.

«وفيه في يوم الاربعاء ثامن عشرينه (ذي الحجة) ورد الى مرسى تونس وإلى ميناها اثنان من مراكب الفرنج ومعهم عدة أسرى للفدي وأفدوا. ثم اتفق لي أنني توجهت الى المرسى، ونزلت في قارب للتفرج على ذين المركبين،. فطلعت الى الأكبر منهما وبينا انا أتفرج فيه.. وإذا بشخص من الأسرى المحضرين تركي الجنس، من بلاد حاج ترخان من دشت قبجاق التتر لا يعرف شيئاً باللغة العربية بل بالتركية والفرنجية، لم يبق في المركب غيره من الأسرى. فسألته بالتركية عن اسمه، فأجابني... ثم قال لي أنا من أسرى المسلمين، فقلت له: «قد أفدي جميع أسرى المسلمين فما بالك» فقال: «كلموني خبر الفدا، فلم أعرف بلغة العرب لأترجم عما في ضميري فلم يلتفت إلي أحد وظنوا أنني كافر» فوعدته بأنني أفديه، فدعا لي. ثم لما نزلت اجتمعت بصاحبنا الخواجا التاجر المعظم المكرم سيدي أبي القاسم البنيولي الغرناطي الأندلسي نزيل تونس وعظيم التجار بها عن هذا الشخص، فقال والله اننا ظننا انه من الكفار ولم نعلم لغته.. فأعلمته بإسلامه، وانه تركي الجنس من خيار المسلمين لا يعرف غير لغة الترك والفرنج، فإنه أسر في أيديهم وله بزيادة على الخمسة وعشرين سنة، وكان أخبرني بذلك... فتلطف في قضيته. وفديته بأربعين

ديناراً من مالي وأنزلته الى البر فلازمني، ولا زال في خدمتي عدة سنين وحصل لي به غاية النفع والرفق».

«في تونس سنة ٨٦٧ ـ وفيه في يوم الأحد سابع عشرينه (ربيع الأول) جمع التاجر المعظم الخواجا المكرم الحاج أبو القاسم البنيولي الغرناطي الأندلسي نزيل تونس وكبير التجار بها جماعة من أعيان التجار من أصحابه والحجاج منهم من أهل الأندلس وغيرهم، وعمل لهم ضيافة حافلة بمكان من اجنّة تونس يقال له رأس الطابية من منتزهات ملوك تونس وأمكنة فرجهم. وكنت في ذلك اليوم ممن دعي لهذه الضيافة. فرأيت هذا الجنان في غاية الإتقان والحسن، وبه مكان كالقصر برسم السلطان. ثلث طباق عظيم إلى الغاية، أنيق البناء، فرج نزه بناء ملوكي، على صفة غريبة وهيئة عجيبة.. وبه بركة ماء عظيمة كبيرة جداً، وبه شيء يقال له المحنشة برسم جريان الماء فيه نقر في حجر كالرخام يدخل الماء اليه من جهة، ثم يجول فيه جولاناً غريباً في أوضاع محفورة نقراً في هذه البلاطة على هيئة دائرة واسعة متداخلة النقور بديعة الصفات تسر الناظر وتشرح الخاطر. وهي من النوادر يجول فيها الماء كأنه حنش ويتعاكس الجولان عدة معاكسات غريبة الهيئات. ثم هيأوا من جملة هذه الضيافة مأكولاً يقال له المجبنة من مآكيل الاندلس.. وصفته جبن طري يدعك بالأيدي حتى يصير كالعجين، ثم يعجن السميد عجناً محكماً مملوكاً جيداً حتى يصير في قوام عجين الزلابية بهذه البلاد (أي الشام) أو أغلظ قواماً منه بيسير. ثم يؤخذ منه قطعة تبسط بالكف بلطافة وشباقة ثم يجعل عليها قطعة من الجبن المدعوك، ويجمع حتى يصير حشواً لها ثم يبسط قليلاً ثم يلقى في الطاجن وهو على النار بالدهن، فيقلى ثم يرفع ويرش عليه السكر المدقوق ناعماً ومعه اليسير من الكمون. وعمل ذلك بين يدي الحاضرين، وتولى عمله بعض من الجماعة من ظرفائهم. وكان يوماً معدوداً من الأعمار سالماً من الأغيار اجتمع فيه عدة من ظرفاء أهل الاندلس وأعيانها من طلبة علم وتجار كلهم أهل ذكاء، وحصلت مذاكرات علمية أدبية تاريخية الى غير ذلك».

«وفيه ـ في يوم السبت تاسع عشرينه (جمادى الأولى) بعث إلي محمد المسعود بالله بن المتوكل على الله عثمان صاحب تونس ولي عهد أبيه يستدعيني اليه بالحضور الى بين يديه، وكنت لم اجتمع به وبلغه عني انني أنظم أو نحو ذلك. فلما حضرت عنده أنس بي ورفع من محلي ثم أخذ يتلطف بي في المؤانسة بالكلام وأنشدته هذين البيتين:

ألاَ يَا آلَ حَفْصٍ يا مُلوكاً ... ويا دُرَراً بِهِمْ نُظِمَتْ سُلُوكُ

ألاَ فُقْتُمْ ملوكَ الأرضِ طُرّاً ... فَمَا مِن بعدِكم أحدٌ مَلِيكُ

فأعجباه الى الغاية وأجاز وأثاب جزاه الله تعالى خيراً، وكتب لي ظهيراً باعفائي

عن المغارم واللوازم فيما اتجر فيه. وترددت عليه المرة بعد الأخرى واجتمعت به مرة، وعنده الشيخ العالم الفاضل يحيى الكسيلي شيخ بلد العناب».

«وفيه ـ في يوم الأحد ثاني عشرينه، كثرت استغاثة المسجونين بتونس حتى أعيوا السامعين، فسأل السلطان عثمان (١٤٣٥ ـ ١٤٨٨) صاحب تونس عن حالهم، فبلغه بأنهم يشكون الجوع، فأمر لهم بطعام يفرق فيهم، وحصل لهم بذلك نوع رفق في الجملة».

«وفيه، أعني شهر رمضان هذا في يوم الخميس ثامنه، دخلنا الى جزيرة ونزلنا من الشواني اليها، فرأيت جزيرة عجيبة في الجزائر قريبة من أحد جوانبها الى البر الكبير خصبة جداً، ذات كروم وزيتون وغنم كثير وخير وافر... وإلى قرب ميناها حصن منيع دخلت اليه ورأيته، وديارها في بساتينها وليست بمدينة مسورة، بل مفرقة الأبنية أنيسة جداً مربعة الشكل بوضع غريب، فأقمنا بساحلها ثمانية أيام فأوسق التجار منها الزيت الكثير وأنواع الاكسية ثم أقلعنا عنها قاصدين طرابلس المغرب...».

وأبو القاسم الزياني عالم ووزير ومدبر في الدولة العلوية المغربية. وكان كثير الرحلة. وقد حلَّ بتونس سنة ١٢٠٨/ ١٧٩٤. وكان هذا في العهد الحسيني. ولعلَّ من أمتع ما كتب الزياني عن رحلاته هذه القطعة عن تونس. فقد وصل اليها على مركب كان يخشى من وجود الطاعون مع ركابه. وكانت تونس قد أنشأت الكرنتينا، الأمر الذي يدل على وعي للأمور الصحية. ولكن الزياني لم يعجبه الأمر.

وهذا هو الوصف الذي خلّفه الزياني لهذه الزيارة:

«ولما بلغنا لتونس الخضرا، ومعنا جماعة من الحجاج الفقرا؛ وفتيان انجاد من الأتراك، القامعين لأهل الكفر والاشراك، ونزل صاحب المركب أبو ثور، المشؤوم الفجور، وبلغوا حلق الوادي، ناداهم المنادي، أبعدوا من البر، ففيكم الوباء ومعكم الشر، فرجعوا الى المركب حائرين، وفي تجارة أملهم خاسرين. وكنت وجهت معهم مكتوباً لمحبنا الاكرم، والمجاهد الاعظم، المتأدب بآداب الحريري، الوكيل «الحاج علي الجزيري»، فخبرنا انه غير حاضر، وقد توجه للجزائر. وبعد يومين جاءنا الإذن بالنزول الى «الكرنطينة» الشنعا، الممنوعة عرفاً وشرعاً، فنزلنا بقلعة تيكلي، وكل الى قريبه بالرسائل يدلي. فظهر لنا أن نكتب لصاحب المرسى «رجب بن عياد» واخترناه على غيره من العباد، لما نعلم بينه وبين محبنا الحاج علي من الألفة، في الحضور والغيبة. فكتبت أتشفع له بمقام المحب المذكور، وعرفته ان الخير تجارة لن تبور. فلما رأى المكتوب رجع القهقرا، وتنحى عن محله الى ورا، ولما قرىء عليه أعرض ونأى، كأنه لا يسمع ولا رأى، وأهمل القضية، ولم يرحم من شاكية، فأقمنا في حيز الاهمال، عشرين يوماً على الكمال. ثم أمر بتسريح النصارى، وأبقى المسلمين بعد اثباتهم في الدفتر على الترتيب. ومن المقدر المحتوم، والسابق المرسوم، كانت لنا جارية

انتخبناها على المراد والوفق، عزمت على الوضع فجاءها الطلق، فالجأتنا الضرورة الى اعادة الكتب لهذا الرجل المشؤوم، الظلوم، وعرفناه بالقضية، لعله يخلي سبيلنا بالكلية، أو يبعث لنا قابلة تقوم بأمر القضية، فزاد في الإعراض والإهمال، ولم يجب بنقص ولا كمال، ثم كتب الأتراك الى أمير البلاد، يطلبونه في خلاص أنفسهم دون غيرهم من العباد. ويعرضون له بخروج النصارى وابقاء المسلمين، وان ذلك من أقبح الطعن في الدين. فلما بلغه ذلك أقسم بالفلك والنجوم، انه لا علم عنده بتسريح الروم، وقال سرحوا هؤلاء الاتراك عزماً، وأخرجوهم غدوة حتماً، فتقدم اليه هذا الشقي الذميم النحيس اللئيم، وقال يا مولاي معهم بضائع التجار، يترددون في السكك والأسواق يسيرون الى المدن والآفاق، فلا بد لهم من الأربعين والصواب ان تجعل لهم سبعين (أي الرسوم). فسكت هذا الامير الفاضل، اذ ادحض حجته بالباطل، فانظر الى هذا الفعل الذي لا يفعله مجرم، ويزعم صاحبه أنه مسلم. ثم في الليلة القابلة، جاء الطلق للجارية فكنت أنا القابلة، فسهل الله أمرها عن قريب، وان الله مع كل غريب، فوضعت ولداً ذكراً، ليلة الاثنين سحراً، فسميته عبد السلام، وزال ما كنا فيه من الغم والسآم، فتوجهت الى الله في هذا الظالم المتمرد، الذي هو من الايمان متجرد، الى ان رأيت علامة الإجابة والقبول، فأنشدت في الحال أقول، على اني لست من أهل هذا الفن، خصوصاً مع كبر السن:

مَن كان يسعى لخلقِ الله في الضَّرر ... ويظهرُ الخيرَ والإحسانَ بالكذبِ
ومن يكن بفعلِ السوءِ عادتُهُ ... يعامل الناسَ كابنِ عيادِ رجبِ
ذاك الذي قد طغى واخترع البدعا ... بَشِّرْهُ بالهمِّ والإدبار والكربِ
يلقى أبا لهب في شرر لهب ... وزوجه مثله حمالةَ الحطبِ
حاشى لمثله ان يُعْزَى له كرم ... أو حسب أو وفا يُنْسَبُ للعربِ
سَنَّ «الكرنطينة» الشنعا ببدْعَتِهِ ... في بلدةٍ هي دارُ العلم والأدبِ
يحسبُها بصميمِ الجهل منجيةً ... يقي بها النفسَ من سقمٍ ومن عطب
ينسبُها لأميرِ الوقتِ مَسْخَرةً ... وذاك منه افترا حاشاه من شغَب»

«ثم أصاب الجارية الوباء وماتت بعد ثلاث، وتركت الولد ولم أجد من يرضعه فطلبت جارية مرضعة اشتريها فلم توجد، الا ان الله فتح في امرأة مات لها صبي وزوجها مغربي، فجاءني يطلب الولد فدفعته له وتوجهت معه للمرأة حتى وقفت عليها وباشرتها بمعروف واشتغلت بتجهيز ما لا بد منه للسفر في البر للجزائر، فسهل الله أمره واكتريت البهائم الى قسنطينة بخمسين محبوباً بعت فيها نسخة من صحيح سيدي مسلم في سفر، كنت اشتريتها من مصر بمائة، وما كان معي من كتبي غيرها وأخرى مثلها في سفر من صحيح البخاري».

في القرن التاسع عشر

نشطت تونس، وتونس الحاضرة بشكل خاص في القرن التاسع عشر، في عهود أحمد باي (١٨٣٧ ـ ١٨٥٥) ومحمد باي (١٨٥٥ ـ ١٨٥٩) ومحمد الصادق باي (١٨٥٩ ـ ١٨٨٣). وكان نشاطها منوع النواحي، فمن إنشاء المكتب الحربي (١٨٤٠) الى صدور عهد الأمان (١٨٥٧) إلى إنشاء الرائد التونسي (١٨٦١) وإنشاء المدرسة الصادقية (١٨٧٥)، مع الاهتمام بجامع الزيتونة اهتماماً خاصاً كان القصد منه إحياء ما كان قد تأخر من نشاطه في العصر التركي. وهناك رجال عملوا على هذه الإصلاحات وقاموا بتنظيم الأمور كان في مقدمتهم خير الدين باشا (الوزير ١٨٧٣ ـ ١٨٧٧) ومحمود قبادو الشاعر اللغوي العالم وسالم بوحاجب والطاهر بن عاشور والبيروميون وغيرهم.

على ان فرنسة لم تترك تونس تتم عملها، فاحتلت القطر (١٨٨١) وفرضت الحماية عليه (١٨٨٣). وأصبح العمل بعد ذاك يسير في طريقين: الواحد إتمام الإصلاحات الداخلية وخاصة في مجال التعليم، إذ وضعت الحكومة الفرنسية المدرسة الصادقية تحت نفوذها وفَرْنَسَتْها. فقامت الجمعية الخلدونية بإنشاء المدرسة الخلدونية لتكون خليفة لها. ونُشِرَت في تونس صحف كثيرة، لا سبيل الى تعدادها هنا. وعمل البعض على تطوير برامج التدريس في جامع الزيتونة. أما الطريق الآخر فقد كان سبيل الجهاد السياسي.

امتد العمل السياسي وتشعب وطال أمده، فقد مرت بالعالم حربان عالميتان، وفرنسة رابضة على صدر تونس. لكن الأمر انتهى باستقلال تونس سنة ١٩٥٦.

بعد الاستقلال

كانت لي بتونس معرفة تعود الى سنة ١٩٥١ وبعدها بقليل يوم كانت فرنسة لا تزال «تحمي» تونس. وزرتها لأول مرة بعد الاستقلال عام ١٩٥٩. وقد كتبت يومها:

زرت تونس من قبل وزرتها مؤخراً.

كانت زيارتي الأولى وتونس تختنق منها الأنفاس، وأهلها يتجرعون الغصص، وثراها يسيطر عليه الغير، وشؤونها يديرها الغريب. وجاءت زيارتي الأخيرة وقد انطلقت الأنفاس حرة، وزالت الغصة من النفوس، وعاد الثرى الى أهله، وامتدت أيدي أهل الوطن الى شؤونه تدبرها.

هذا الفرق كبير. ولكن ان يُحَسَّ به شيء، وان يُتَحَدَّثَ عنه شيء آخر. وأكبر من هذا وذاك ان يحياه ابناء البلاد أنفسهم. وأنت تشعر، وأنت تتحدث الى التونسي الان، أنّه يحيا هذا. إنه يعيش قصة جهاده، ويعيش تاريخ كفاحه، ويعيش استقلاله، ويشد عليه بالنواجذ، ويبذل ما في وسعه في سبيل الحفاظ عليه.

كان أول ما فعلته في تونس، بعد وصولي اليها بقليل، ان خرجت الى الشوارع

أستجلي معالمها وأستعيد ذكرياتها. ودرت بالمدينة أتزود منها، فراعني وراقني أمر هام. ان السور الذي كان يحيط بالمدينة فيفصلها عن العالم الخارجي قد زال. راعني ذلك أول الأمر لأنني أرى في آثار التاريخ شيئاً من القداسة، لكنني لم ألبث ان راقني ذلك إذ أدركت معنى إزالته ـ في اجزاء منه. ذلك ان هذه المدينة وسكانها ليس ثمة ما يفصل بينهم وبين العالم. لقد كان عالمهم ينتهي من قبل داخل بوابة المدينة، وكان عالم غيرهم يبدأ خارج هذه البوابة. أما الآن فقد أصبح لهم الحق في أن يمتدوا قلباً وعقلاً وروحاً وجسماً الى المدى الذي تطيقه أجسامهم وتقوى على تحمله نفوسهم. إنهم أصبحوا أحراراً ـ وهذا هو الذي راقني، حريتهم.

وتطلعت يمنة ويسرة. وحدقت أمامي، وتلفّتّ خلفي، فرأيت العلم التونسي يرفرف في كل مكان وفوق كل بناء حري به. وأهم من رفرفة العلم تعلق أرواح الناس به. حتى لكأنك ترى في رأس كل علم روحاً مستعدة لتدرأ عنه الخطر.

دخلت المكتبات أفتش عن الكتب، فهالني كثرة الكتب العربية التي تصل تونس من الأصقاع العربية المختلفة. ولكن أمراً آخر لفت نظري، كتب مدرسية باللغة العربية يضعها الاساتذة التونسيون للطلاب التونسيين. وإذن فقد أخذت المدرسة التونسية تستعمل اللغة الوطنية في التدريس، وأصبح للطالب التونسي الحق في أن يقرأ بلغته ويحسب بلغته. وهذه حرية جديرة بالاهتمام، حرية الصغير التي تنمو معه قوة واتساعاً وعمقاً فتكون حرية الجيل الصاعد أقوى بكثير من حرية الجيل الحالي. فحرية الجيل الحالي هي حرية اقتلاع للأوضاع التي كانت قائمة وتهديم لها، أما حرية الجيل الصاعد فهي حرية للنمو المتأصل الجذور المتين.

وتفضل عليّ مدير دارالمعلمين العليا، الأستاذ أحمد عبد السلام، بساعة قضيتها معه نتحدث عن معهده، وهو الى الآن قمة التعليم العالي في تونس، وسيظل كذلك الى ان تتوج الجامعة هامته الحاضرة، وما ذلك ببعيد. تحدث المدير بحماسة وتؤدة تلفتان النظر. قال بأنه ليس المهم فقط ان نعرف الذي قمنا به وأديناه، ولكن الأهم هو ان نعرف أين قصرنا وأين فشلنا لنتجنب ذلك في المستقبل. المدير الشاب يدرك مسؤوليته، ولكنه يدرك فوق ذلك مسؤولية الجيل الصاعد، ويحاول أن يخرق بثاقب بصره حجب الغد البعيد ليخطط لهذا الجيل الجديد ما يمكنه من تحمّل مسؤوليته بكاملها. وفي مقدمة المشاكل التعليمية بالنسبة للتعليم العالي هي مشكلة الاستاذ الذي يدرّس بالعربية. لا يمكن إنكار الواقع. ان هذا النوع من الاستاذ نادر، وإعداده يتطلب الوقت، ولذلك يجب ان نرضى بالاستاذ الذي يدرّس بالفرنسية ريثما نعدّ الاستاذ الذي نحتاج. ولكن مع ذلك فالتعريب في التعليم يسير. ثمة مواد كانت تعلم بالعربية على مستوى الثانوي، فلماذا لا تعلم بالعربية في دار المعلمين العليا؟ وإذن فالتعريب هنا يسير على أساس التعميق بدل التوسيع. وهذا هو جزء من التخطيط الحكيم.

وتحدثت مع آخرين عن الجامعة المقبلة. وجامعة تونس على وشك الظهور. فوجدت حماسة واندفاعاً، لكنهما لم يبلغا حد الضرب بالتعقل عرض الحائط. إن المشاكل والقضايا معروفة مفهومة مدروسة. فيدرسها ويحلها ابن الوطن. يستعين بالأجنبي على أنه للاستشارة والخبرة.

ودار الكتب الوطنية في تونس! إنها إحدى واجهات الاستقلال في البلد! هذه الدار التي كانت فيها مجلدات قليلة باللغة العربية يوم انشئت، أصبحت اليوم تضم نيفاً ومائة وخمسين ألفاً من المجلدات. وكم يسرك، وأنت تتبع مديرها الاستاذ عثمان الكعاك في أروقتها، أن ترى القاعات تحمل اسماء أناس بذلوا عصارة عقولهم ودمائهم في سبيل البلاد بدءاً من القرون الخوالي وامتداداً الى الحاضر.

من معالم تونس الهامة عبر تاريخها الطويل جامع الزيتونة. فقد مرت عليه قرون وقرون وهو يمد البلد وما جاوره بأهل العلم الديني والأدب والشعر. فمنه تخرج جماعة يعدون من أقطاب الفقه المالكي وعلم الكلام، وهو الذي نفح عالم الفكر والأدب بعشرات من كبار رجال الإصلاح والقضاء في القرن التاسع عشر بشكل خاص. ويكفي أن يذكر الواحد منا البيرميين وكبار الشيوخ من أمثال سالم وحاجب والطاهر بن عاشور والحداد وابن مراد، حتى يدرك الخير العميم الذي جنته تونس خاصة وجيرانها عامة من جامع الزيتونة. ونحن عندما نذكر كبار الشعراء في تونس في القرن الماضي وأوائل القرن الحاضر من أمثال مصطفى الخزندار والسنوسي، لا يسعنا الا ان نقف إجلالاً أمام العمل العظيم الذي قام به جامع الزيتونة. وقد أدرك القائمون على شؤونه منذ أواخر القرن الماضي ان هذا الجامع الجامعة بحاجة الى الكثير من الإصلاح والتغيير والتبديل لكي تتم الفائدة من وجوده.

والجهود التي بذلت خلال عقود من السنين في سبيل السير بجامع الزيتونة ليقوم بواجبه، وكانت دوماً تعرقل، قد آتت أكلها. إن جامعة الزيتونة ومن عليها وما اليها حرة اليوم تقرر مصيرها وتفصل في شؤونها. وهكذا فالمسجد الذي كان في تونس في سنوات جهادها نادياً سياسياً، يتوِّج عمله اليوم بأن يلقي مقاليده الى الجامعة الزيتونية.

وهكذا، فقد شعرت، وأنا أتنقل في تونس وأتحدث الى أصدقائي وأتطلع الى الأماكن المختلفة وأركب السيارة، أن الاستقلال والحرية أمران حقيقيان، وان مسؤولية الاستقلال والحرية يدركهما إخواني إدراكاً خاصاً. فالتونسيون ذوو نضج سياسي واجتماعي خاص بهم. وهذا النضج يمكّنهم من حمل المسؤولية وإدراك الواجب.

وما دمنا قد أشرنا الى الجامعة من قبل، فلنتحدث عنها قبل كل شيء آخر، لأن الجامعة، التي هي تاج التعليم العالي، هي التي تنهض بالبلاد في نهاية المطاف علمياً وفكرياً واجتماعياً وسياسياً واقتصادياً.

الواقع أنه لم يكن لتونس قبل سنة ١٩٥٩ تعليم عال منسَّق يمكن إقحامه في نطاق جامعة تونسية. فعملت كتابة الدولة للتربية القومية (وزارة التربية) على سد هذا الفراغ، إذ بدأت سنة ١٩٥٩ بدراسة الشروط الكفيلة بخلق الجامعة التونسية، وتمت الدراسة في أيار (مايو) من السنة نفسها. وبمقتضى هذه الدراسة وقع تنظيم التعليم العالي التونسي، ووضعت له مناهج تونسية وأقيمت دروسه ابتداء من السنة الدراسية ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠. ثم تم إحداث الجامعة التونسية قانونياً بأمر صدر في ٣١ آذار (مارس) ١٩٦٠.

وتتكون الجامعة التونسية، عملاً بما جاء في الأمر الصادر في أول آذار (مارس) سنة ١٩٦١، المتمم للأمر السابق، من الكليات التالية: كلية الآداب والعلوم الانسانية؛ كلية العلوم الرياضية والفيزيائية والكيميائية، كلية الحقوق والعلوم الاقتصادية والسياسية، كلية الطب والصيدلة؛ الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين؛ دار المعلمين العليا، مضافاً إليها مركز قومي للبحوث التربوية والتكوين البداغوجي. ويضاف الى هذا كله الحيّ الجامعي وجميع المؤسسات العلمية والتي سَتُنْشأ فيما بعد كالمعاهد ومراكز البحوث العلمية والمطبعة الحكومية والمكتبة الجامعية.

وقد قُدِّرَ عدد طلاب الجامع لسنة ١٩٨٠ بعدد يتراوح بين ١٩,٠٠٠ و٢٢,٠٠٠ طالب.

هذا الذي ذكرته عن تونس، فيه من أمجاد الماضي الكثير، وعن فترات الجهاد إشارات. لكن ما الذي تراه في تونس الحاضر إذا زرتها هذه الايام؟

لنترك الفنادق الضخمة جانباً، فهذه موجودة في كل مدينة عربية كبيرة تقريباً. ولكن اذهب معي الى داخل المدينة أولاً. لندخل من باب البحر (في غرب المدينة ـ وأذكر ان السور قد زال أكثره) ولنسر في هذا الطريق الضيق الذي خير ما فيه ان السيارات لا تدخله. هذا هو شارع الزيتونة (أو شارع الجامع الأعظم). على جانبي هذا الطريق حوانيت. وما هو الجديد في هذا، ففي كل مكان من هذا النوع حوانيت. أرجو ان تصبر قليلاً حتى نصل الى ما نريد. هذه الحوانيت تعرض فيها صناعات تونسية دقيقة من الفضة على أنواعها: من الحلي الى المزهريات الى العلب. وهي تمثل هذه المهارة التي عُرِفَتْ بها اليد التونسية الصَّنَّاعُ. هناك الحلى الذهبية. الكثير منها مستورد، لكن عندما يدرك البائع أنك تفتش عن صناعة تونسية، تخرج العلب والصناديق الصغيرة المخبأة. المهم ان تكون جيوبك مليئة بأوراق النقد.

وستصل بعد قليل الى متسع من الأرض. وستشاهد أمامك الدرجات الاثنتي عشرة التي تصعدها الى جامع الزيتونة. وهناك سترى نفسك أمام فن عربي شرقي وأندلسي غربي وتونسي محلي يمثل تجربة القرون من أيام الحفصيين الى أيام البايات.

ومع ان ثمة حوانيت لمختلف الحاجات تقوم حول الجامع، فإن أدعاها الى اهتمامي، واهتمام أمثالي، هي كتب الورّاقين ـ والوراقون هم باعة الكتب المثقفون الذين لا يناولونك الكتاب ويتقاضون الثمن على نحو ما يناولك الصيدليُ الحديثُ العلاجَ في علبة. لا.. إنهم يرحبون بك أولاً، ويلحون عليك بالجلوس وتقبل ضيافتهم. ثم يتحدثون اليك عن بلدك والكتب التي تصدر فيها، وعن تونس وما قد يوجد فيها من مخطوطات أو ما طبع من قبل على المطابع الحجرية، ثم عما يصدر من الكتب الحديثة. وهم، في الغالب، بالنوعين الأولين أحفل، وإن كان البعض يعرض كتباً حديثة للبيع. فالورّاق الذي كنت أقصد حانوته كان في الواقع عالماً في الفقه والشريعة أديباً يروي الشعر.

أنت لن تملّ من حديثه، لكنك لا بد من أن ترى منطقة أخرى. وتتجه كيفما شئت. لكنني أؤكد لك أن سوق الشاشية (والشاشية معناها الطربوش القصير غير المقشش) هذا فيه نكهة تونسية، مع خميرة أندلسية، وأناقة من يعد هذه كلها لعلماء الزيتونة الآن، وكان يعدها أيضاً لعلية القوم من قبل.

نصل القصبة وجامعها. هذه حفصية التخطيط والبناء مع إضافات من العهد الحسيني. والقصبة في المغرب العربي هي جزء من المدينة الأصلية ـ إما اجتزىء به منها، أو أضيف اليها (وهنا أضيف إليها) ـ ويتكون من قصر لسكنى السلطان وحاشيته، ولدواوينه الإدارية. ويقيم حرسه الخاص على مقربة منه في ثكنة هي أيضاً جزء من القصبة. ولكن أجمل ما في القصبة، وفي تونس خاصة، هو جامعها. فالقصبة هي المكان الذي يسكنه السلطان ويدير منه البلاد. وفي الغالب يحيط بالقصبة سورها، لكن سور المدينة يدور بالقصبة أيضاً، أو يكون متصلاً بسور القصبة أصلاً.

والأبنية الجميلة الفخمة داخل المدينة لا تقتصر على القصبة، بل تراها في البطحة. وأنا أتحدث هنا عن الأبنية القديمة نسبياً. أما أبنية الباطون (أو الخرسانة) فهي خارج المدينة.

وعندما نقول خارج المدينة، فإننا نقصد ما أقيم من أبنية مصاقبة للأسوار، والكثير منها مقر لدوائر الحكومة والوزراء، كما نقصد هذه الدارات (الفلاّت) التي تقوم في رقعة تحاذي البحر وشاطئه وتمتد عشرات الكيلومترات في جميع الاتجاهات.

أتريد مني عبارة واحدة تعبّر عما أشعر به نحو تونس؟ خذها إذن: زيارة تونس منعشة. زرها وانتعش. وإذا كان لديك الوقت وغيره مما يلزم للتنقل فزر أماكن أخرى على الساحل أو في الداخل. فإن انتعاشك سيكون أكبر!

(١٩٨٣)

الهوامش

(١) نضع هنا جدولاً بالعصور التاريخية الرئيسة التي مرت بها تونس منذ الفتح العربي الى الاستقلال، وذلك تيسيراً للعودة اليها حين تدعو الحاجة.

١ ـ دور الولاة ٢٧ ـ ١٨٤ هـ/ ٦٤٧ ـ ٨٠٠ م.
٢ ـ عصر الأغالبة ١٨٤ ـ ٢٩٧/ ٨٠٠ ـ ٩٠٩.
٣ ـ الفاطميون في تونس ٢٩٧ ـ ٣٦٢/ ٩٠٩ ـ ٩٧٣.
٤ ـ الصنهاجيون ٣٦٢ ـ ٥٤٣/ ٩٧٣ ـ ١١٤٨.
٥ ـ الزحف الهلالي ٤٤٠ ـ ٤٣/١٠٤٨ـ ١٠٥١.
٦ ـ تونس في عهد الموحدين ٥٥٥ ـ ٦٢٦/١١٥٩ ـ ١٢٢٨.
٧ ـ الدولة الحفصية ٦٢٦ ـ ٩٨١/ ١٢٢٨ ـ ١٥٧٤.
٨ ـ الاحتلال الاسباني ٩٤٢ ـ ٩٨١/ ١٥٥٣ ـ ١٥٧٤.
٩ ـ العصر العثماني الاول ١٥٧٤ ـ ١٧٠٥.
١٠ ـ الأسرة الحسينية ١٧٠٥ ـ ١٩٥٧.
١١ ـ الاحتلال والاستعمار الفرنسيان ١٨٨١ ـ ١٩٥٦.
١٢ ـ الاستقلال ١٩٥٦.

مراجع مفيدة

بالعربية

١ ـ الأصطخري ـ **الممالك والمسالك**، تحرير محمد جابر عبد العال الحيني، القاهرة ١٩٦١ .

٢ـ ابن حوقل ـ **صورة الأرض**، ليدن ـ ١٩٣٦ .

٣ ـ حيدر محمد غيبة (محرر) **رسالة ابن فضلان** ، بيروت ١٩٤٤ .

٤ ـ زامباور ـ **معجم الأنساب والأسر الحاكمة في التاريخ الإسلامي** ـ ترجمة زكي محمد حسن، بيروت , ١٩٨٠

٥ ـ زكي محمد حسن ـ **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، القاهرة ١٩٤٥ .

٦ ـ سامي الدهان (محرر) **رسالة ابن فضلان**، ط ٣ بيروت ١٩٩٣ .

٧ ـ فيليب حتي وادور جرجي وجبرائيل جبور، **تاريخ العرب** ـ بيروت ط ٧ ، ١٩٨٦ .

٨ ـ لسترانج، كي ـ **بلدان الخلافة الإسلامية**، ترجمة (مع تعليقات) بشير فرنسيس وكوركيس عواد، ط٢ ، بيروت ١٩٥٧

٩ ـ المقدسي ـ **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ليدن، ١٩٠٦.

١٠ ـ ناجي معروف، **مدارس ما قبل النظامية** ـ بغداد ١٩٧٣.

١١ ـ نقولا زيادة ـ **مشرقيات** ـ رياض الريس للكتب، بيروت ١٩٩٨.

بالانكليزية

1 - Barthold, v., *Four Studies*, (Leiden, 1963) - vol. II.

2 - Barthold, v., *Turkestan down to the Mongol Invasion*, (London, 1928).

3 - Bosworth, C.E., *The Ghaznawids*, (London, 1963).

4 - Bosworth, C.E., *Islamic Dynasties*, (Edinburgh, 1967).

5 - Burkhardt, T., *Art of Islam*, (London, 1761).

6 - Fabritsky, B. and Shmelion, I., *Khiva*, (leningrad, 1973).

7 - Frye, Richard N., *Bukhara*, (Norman, Oklahoma, 1965).

8 - Frye, Richard N., *Heritage of Persia*, (Cleveland Ohio, 1963).

9 - Frye, Richard N., *Narshakhis History of Bukhara*, translated from a shorter Arabic version, (Cambridge, Mass, 1954).

10 - Hambly, Gavin, *Central Asia*, (London, 1966).

11 - Knolboch, E., *Beyond The Oxus*, (London, 1972).

12 - Mirsky, Jeanette, (Ed.) *The Great Chinese Travellers*, (Chicago, 1964).

13 - Nasr, S. Husayn, *Islamic Sciences*, (London, 1976).

14 - Pederen, Johannes, *The Arabic Book*, (Princeton, 1984).

15 - Schacht, Joseph & Bosworth, C.E. (eds.) *The Legacy of Islam*, (Oxford, 1974).

16 - Shaban, M.A., *Islamic History 2.*, (A.D. 750 - 1055) (Combridge, 1976).

17 - Sherwin - White, Susan and Kuhrt Amelie, *From Samarqand to Sardis,* (London, 1993).

18 - *Soviet Ozbekstan*, (Tashkent, 1974).

الأهلية للنشر والتوزيع